إرفين د. يالوم

علاج شوبنهاور

ترجمة

خالد الجبيلي



منشورات الجمل

رواية

إرفين د. يالوم

علاج شوبنهاور

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

كلّ نَفَسٍ نأخذه يدرأ عنا الموت الذي يحيق بنا طوال الوقت...
وفي النهاية، لا بد أن ينتصر الموت، لأنه أصبح قدرنا منذ ولادتنا،
ويتلاعب بفريسته لفترة قصيرة جداً قبل أن يبتلعها،
لكننا نواصل حياتنا باهتمام كبير وبؤس شديد بقدر ما نستطيع،
تماماً كما ننفخ فقاعة صابون حتى تصبح أطول وأضخم ما يمكننا،
مع أننا واثقون تمام الثقة بأنها ستنفجر في نهاية المطاف.

١

كان جوليوس يعرف مواعظ الموت والحياة كما يعرفها أي شخص آخر. ويتفق مع الرواقيين الذين يقولون: «ما إن نولد حتى نبدأ نموت»، ومع الأبيقوريين الذين يقولون: «حيث أكون، لا يكون الموت، وحيث يكون الموت، لا أكون أنا. فلمَ الخوف من الموت إذاً؟» لأنه طبيب ومعالج نفساني، دمدم هذه السلوى التي تهمس في آذان المحتضرين.

مع أنه يعتقد بأن هذه الأفكار الكئيبة مفيدة لمرضاه، لم يخطر بباله قط أنها ستنطبق عليه أيضاً. إلى أن غيّرت تلك اللحظة الفظيعة حياته، قبل أربعة أسابيع، إلى الأبد.

حدث عندما ذهب لزيارة طبيبه ليجري الفحص الطبي الروتيني السنوي. عندما أنهى هيرب كاتز، طبيب جوليوس الباطني، وصديقه القديم وزميله في كليّة الطب، فحصه، طلب منه كالعادة أن يرتدي ثيابه ويعود إلى مكتبه ليحدّثه.

جلس هيرب إلى طاولة مكتبه، وأخذ يملأ المعلومات في جدول

جوليوس. «بشكل عام، إنك تبدو في حالة ممتازة بالنسبة لرجل في الخامسة والستين من عمره. البروستات متضخمة قليلاً، وكذلك البروستات خاصتي. وكيمياء الدم والكولسترول ومستوى الدهون جيدة. أدويتك وحميتك تعمل بشكل جيد. ساهم الليبيتور بالإضافة إلى الجري في تخفيض نسبة الكولسترول لديك، لذلك تستطيع أن تمنح نفسك فرصة: تناول بيضة من حين لآخر. أنا أتناول بيضتين على الفطور كلّ يوم أحد. وها هي الوصفة لدواء سينثرويد. سأزيد الجرعة قليلاً لأن غدّتك الدرقية تغلق ببطء ـ الخلايا الدرقية الجيدة تموت وتحلّ محلها مادة مُتَلَيّفة. حالة حميدة تماماً، كما تعرف. تحدث لنا كلنا. أنا نفسي أتناول دواء للغدة الدرقية.

«نعم يا جوليوس، لا يمكن لأي عضو في جسدنا أن يهرب من قدر الشيخوخة. لكن بالإضافة إلى غدّتك الدرقية، فإن غضروف ركبتك يتآكل، وبصيلات شعرك تموت، ولا تعود الأقراص القطنية العليا كما كانت من قبل. والأهم من كلّ ذلك، فقد أخذ جلدك بالتدهور بشكل واضح: بدأت خلاياك الظهارية تهترئ ـ انظر إلى جميع تلك التقرّنات التي تظهر عند الشيخوخة على خديك، تلك البقع البنية المستوية». أمسك مرآة صغيرة ووضعها أمام جوليوس ليتفحّص نفسه. «لا بد أن هناك المزيد منها منذ أن رأيتك في آخر مرة. كم من الوقت تمضي تحت الشمس؟ هل تعتمر قبعة ذات حواف واسعة كما اقترحت عليك؟ أريد أن ترى اختصاصياً في أمراض الجلد ليفحصها. بوب كينغ طبيب جيد. عيادته في البناية المجاورة. هذا رقمه. هل تعرفه؟».

أومأ جوليوس.

«يمكنه أن يزيل البقع غير الجيدة بنقطة واحدة من النتروجين السائل. لقد أزال مني بقعاً عدّة الشهر الماضي. ليست مسألة معقدة ـ تستغرق خمس أو عشر دقائق. أصبح العديد من الأطباء الباطنيين يفعلونها بأنفسهم الآن. أريده أيضاً أن يفحص بقعة في ظهرك: لا تستطيع أن

تراها. إنها أسفل الجزء الجانبي من لوح كتفك اليمنى. شكلها يبدو مختلفاً عن الأخريات ـ إنها مصبوغة وغير مستوية وحوافها ليست حادّة: قد لا تكون شيئاً، لكن من الأفضل أن يفحصها. اتفقنا يا صديقي؟».

«قد لا تكون شيئاً، لكن من الأفضل أن يفحصها». سمع جوليوس التوتر والألفة المصطنعة في نبرة صوت هيرب. لكن، دعنا لا نخطئ، فعبارة «مصبوغة بشكل مختلف وحدودها ليست حادّة»، يقولها طبيب لطبيب آخر، تدعو إلى القلق. إنها تعني إمكانية الإصابة بسرطان الجلد. الآن، عندما فكّر بها، تمكن جوليوس من تمييز تلك العبارة، تلك اللحظة الوحيدة، اللحظة التي انتهت فيها الحياة الهانئة وظهر الموت، عدوه الخفي حتى الآن، في حقيقته السيئة. لقد جاء الموت ليبقى، ولن يغادره أبداً، وما الأهوال التي تعقب ذلك إلّا إضافات متوقّعة.

كان بوب كينغ أحد مرضى جوليوس قبل سنوات عدة، وكان من مرضاه أيضاً عدد مهمّ من الأطباء المعروفين في سان فرانسيسكو. هيمن جوليوس على أوساط الطب النفسي طوال ثلاثين سنة. ولكونه أستاذاً في طبّ الأمراض النفسية في جامعة كاليفورنيا، فقد درّب وخرّج أعداداً كبيرة من الطلاب، فضلاً عن أنه كان رئيس الجمعية النفسية الأمريكية قبل خمس سنوات.

سمعته؟ الكلام غير التافه من طبيب لطبيب. معالج الملاذ الأخير، معالج حكيم مستعد لعمل أيّ شيء عليه أن يفعله لمساعدة مريضه. وكان هذا هو السبب الذي دفع، قبل عشر سنوات، بوب كينغ إلى استشارة جوليوس لمعالجته من إدمانه لفترة طويلة على الفيكودن (العقار الذي يستخدمه الطبيب المدمن لسهولة الحصول عليه). في ذلك الحين، كان كينغ يعاني من مشكلة حقيقية. فقد ازداد احتياجه إلى تعاطي الفيكودين كثيراً: فقد كان زواجه في خطر، ولم تعد عيادته تسير على ما يرام، فاضطر إلى تناول مهدئات ليتمكّن من النوم كلّ ليلة.

حاول بوب أن يبدأ علاجاً نفسياً، لكن جميع الأبواب أُوصدت

أمامه. فقد كان كلّ معالج يستشيره يصرّ على أن يشارك في برنامج النقاهة المخصص للأطباء المدمنين، لكن بوب رفض ذلك لأنه لم يرغب في أن يبوح بمشاكله الشخصية أمام أطباء مدمنين آخرين يشاركون في علاج جماعي. وأصرّ المعالجون على موقفهم هذا. لأنهم إذا عالجوا طبيباً ممارساً مدمناً خارج البرنامج الرسمي للنقاهة، فإنهم يعرّضون أنفسهم لأن يفرض عليهم المجلس الطبي إجراءات تأديبية أو خشية مقاضاتهم شخصياً (إذا أخطأ مريض، مثلاً، في الحكم على العلاج السريري).

وكملاذ أخير، قبل أن يغلق عيادته ويأخذ إجازة طويلة لكي يُعالج في مدينة أخرى لا يعرفه فيها أحد، توسل إلى جوليوس الذي قبل المجازفة وكان يثق بأن بوب كينغ سيتوقف من تلقاء نفسه عن تناول الفيكودين. وبالرغم من صعوبة العلاج، كما هو شأن المدمنين دائماً، فقد عالج جوليوس بوب طوال السنوات الثلاث التالية من دون أن يحضر برنامج النقاهة الرسمي. كان هذا أحد الأسرار التي يحتفظ بها جميع الأطباء النفسانيين ـ نجاح علاجي لا يمكن مناقشته أو نشره بأي شكل من الأشكال.

جلس جوليوس في سيارته بعد أن غادر عيادة طبيبه الداخلي. أخذ قلبه يخفق بقوة إلى حدّ أنه خيّل إليه بأن السيارة تهتز. أخذ نَفَساً عميقاً ليكبت خوفه المتزايد، ثمّ أخذ نَفَساً آخر ثم آخر. فتح هاتفه الخليوي، وبيدين مرتعشتين، اتصل ببوب كينغ ليأخذ موعداً عاجلاً لزيارته.

«لا يعجبني ذلك»، قال بوب في صباح اليوم التالي، وهو يفحص ظهر جوليوس بعدسة مكبّرة مستديرة كبيرة، «هنا، أريدك أن تنظر إليها. يمكننا أن نفعل ذلك بمرآتين».

أجلسه بوب بجانب مرآة الحائط، وأمسك مرآة يدوية كبيرة وقرّبها من الشامة. نظر جوليوس إلى طبيب أمراض الجلدية من خلال المرآة: أشقر الشعر، متورّد الوجه، يضع نظارة سميكة ترتكز على حافة أنفه

البارز الطويل ـ تذكّر عندما قال له بوب كيف أن الأطفال الآخرين كانوا يعيروّنه ويصيحون «أنفك كالخيارة». بعد عشر سنوات لم يتغيّر كثيراً. كان يبدو قلقاً، كما كان عندما كان جوليوس يعالجه، يلهث، يصل دائماً متأخراً بضع دقائق. كانت لازمة أغنية الأرنب الأبيض، «لقد تأخرت، لقد تأخرتُ عن موعد مهم»، تراوده غالباً عندما يندفع بوب إلى مكتبه. ازداد وزنه، وظل قصيراً كما كان دائماً. إنه يشبه أطباء أمراض الجلد. من منكم رأى طبيب أمراض جلدية طويل القامة؟ ثمّ ألقى جوليوس نظرة إلى عينيه ـ أوه أوه، كانتا تبدوان خائفتين ـ الحدقتان واسعتان.

«هذا هو». نظر جوليوس من المرآة عندما أشار بوب بقلم مستدق توجد على طرفه مخاية، وأضاف، «هذه الشامة المسطّحة تحت كتفك اليمنى أسفل لوح كتفك. أتراها؟».

هزّ جوليوس رأسه.

وضع مسطرة صغيرة إلى جانبها، وتابع قائلاً: «حجمها أقل بقليل من سنتيمتر. إني متأكد من أنك تتذكّر طريقة ABCD التي درستها في كلية طب الأمراض الجلدية».

فقاطعه جوليوس قائلاً: «لا أتذكّر شيئاً مما درسته في كلية طب الأمراض الجلدية. عالجني كما تعالج شخصاً لا يفقه شيئاً».

«حسناً. A .ABCD: ترمز إلى عدم التناظر ـ انظر هنا». حرّك القلم المستدق الطرف إلى أجزاء من الآفة. «إنها ليست مستديرة تماماً مثل جميع الآفات الأخرى على ظهرك ـ انظر إلى هذه وهذه»، وأشار إلى شامتين صغيرتين قريبتين.

حاول جوليوس أن يكسر توتّره بأخذ نفس عميق.

«وترمز B إلى الحواف ـ الآن، انظر هنا، أعرف أنه تصعب عليك رؤيتها»، وأشار بوب مرة أخرى إلى الآفة تحت الكتف. «انظر كيف أن الحواف حادّة في هذه المنطقة العليا، أما هنا، على الجانب الأوسط،

فهي لا تكاد تبين ويختفي لونها في الجلد المحيط. أما C فتعني التلّون. هنا، على هذا الجانب، انظر كيف أن لونها بني باهت. إذا كبّرتها، فإني أرى شيئاً أحمر، وقليلاً من السواد، بل حتى قليلاً من اللون الرمادي. وترمز D إلى قطر الآفة؛ كما أقول، ربما سبعة أثمانٍ من السنتيمتر. حجمها جيد، لكنّنا لا نستطيع أن نكون متأكّدين كم عمرها، أعني سرعة نموها. يقول هيرب كاتز إنها لم تكن هناك عندما أجرى لك فحصاً شاملاً السنة الماضية. وأخيراً، تحت التكبير، لا يوجد أدنى شكّ بأن المركز متقرّح».

أنزل المرآة وقال: «ارتدِ قميصك يا جوليوس». بعد أن أنهى مريضه ارتداء قميصه، جلس كينغ على المقعد الصغير في غرفة الفحص، وقال: «جوليوس، إنك تعرف الأدبيات المتعلقة بهذا المرض. المخاوف واضحة».

«انظر يا بوب»، أجاب جوليوس، «أعرف أن علاقتنا السابقة تجعل هذا الأمر صعباً عليك، لكن أرجوك لا تطلب مني أن أقوم بعملك. لا تظنن أنني أعرف شيئاً عن هذا. تذكّر أن حالتي العقلية بدأت تنجرف الآن نحو الرعب. أريدك أن تتحلى بالمسؤولية، وأن تكون صادقاً معي تماماً، وأن تعتني بي. تماماً كما فعلت لك. بوب، انظر إليّ! عندما تتفادى نظرتي هكذا، فإنك تثير فزعي».

«حسناً. آسف». نظر في عينيه مباشرة. «لقد أحطتني برعايتك. سأفعل الشيء نفسه لك». تنحنح ثم قال: «إن انطباعي السريري القوي يقول لي إنه سرطان الجلد».

عندما لاحظ أن جوليوس أجفل، أضاف، «بالرغم من ذلك، فإن التشخيص بحد ذاته لا يعني الشي الكثير. إن معظم ـ تذكّر أن ـ معظم سرطانات الجلد تُعالج بسهولة، بالرغم من أن بعضها لئيم. يجب أن نعرف بعض الأشياء من اختصاصي الأمراض: هل هو سرطان جلد

بالفعل؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكم عمقه؟ وهل انتشر؟ لذلك، فإن الخطوة الأولى هي أن نأخذ خزعة وعينة إلى اختصاصي الأمراض.

«بعد أن ننتهي من ذلك سأتصل بجرّاح عامّ لاستئصال الآفة. سأكون إلى جانبه طوال العملية. ثم إجراء فحص مقطع مجمّد بواسطة اختصاصي الأمراض، فإذا كان سلبياً، عندها، عظيم، نكون قد انتهينا. وإذا كان إيجابياً، فهو سرطان الجلد، سنزيل العقدة الأكثر ريبة، وإذا دعت الضرورة، سنقوم باستئصال متعدّد للعقدة. ولا توجد حاجة إلى المكوث في المستشفى ـ ستجري العملية كلها في مركز الجراحة. إني متيقن من عدم وجود حاجة إلى زرع جلدي، وعلى الأغلب، ستغيب يوماً واحداً عن العمل. لكنّك ستشعر بشيء من الانزعاج في مكان الجراحة لبضعة أيام. لا يوجد شيء يمكننا أن نقوله الآن حتى نعرف نتائج فحص العينة. كما طلبت، سأعتني بك. ثق بحكمي في هذا الأمر. لقد عالجت مئات هذه الحالات. حسناً؟ ستتصل بك ممرضتي في وقت لاحق من اليوم وستعطيك كلّ التفاصيل عن الموعد والمكان والتعليمات للتحضير لها. اتفقنا؟».

هزّ جوليوس رأسه. نهض كلاهما.

«أنا آسف»، قال بوب، «كنت أرجو أن أوفر عليك كل هذا العناء لكنّي لا أستطيع». مدّ له ملفاً ليقرأه، «أعرف أنك قد لا تريد كل هذه الأشياء، لكنّي أوزّعها دائماً على المرضى في حالتك. إن ذلك يتوقف على الشخص نفسه: إذ يشعر بعضهم بالارتياح عندما يطلعون على المعلومات، وهناك أشخاص يفضّلون ألّا يعرفوا شيئاً ويرمونها عندما يخرجون من العيادة. آمل بعد الجراحة أن أخبرك شيئاً أكثر إشراقاً».

لكن الأخبار لم تكن أكثر إشراقاً ـ بل كانت الأخبار التي أعقبت ذلك أشدّ قتامة. التقيا مرة أخرى بعد ثلاثة أيام من فحص الخزعة. «هل تريد أن تقرأ هذا؟» قال بوب، ومدّ له التقرير النهائي الذي أرسله اختصاصي الأمراض. عندما رأى جوليوس يهزّ رأسه، مسح بوب التقرير بعينيه

ثانية، وقال: «حسناً، دعنا نستعرضه معاً. يجب أن أخبرك: إنه ليس جيداً. باختصار إنه سرطان الجلد وفيه عدة... إيه... سمات بارزة: فهو عميق، أكثر من أربعة مليمترات، متقرّح، وفيه خمس عقد إيجابية».

«ما معنى ذلك؟ هيا يا بوب، لا تلفّ وتدور حول هذا. بارزة. أربعة مليمترات، متقرّحة، خمس عقد؟ كن صريحاً ومباشراً. كلّمني كما لو كنتُ رجلاً عادياً، غير متخصّص».

«إنها تعني أخباراً سيئة. إنه سرطان جلدي كبير الحجم، وقد انتشر إلى العقد. الخطر الحقيقي هنا هو إذا انتشر أكثر، لكنّنا لن نعرف ذلك إلّا بعد أن نجري مسح أشعة مقطعياً (سي تي) وقد نأخذ موعداً لإجراء ذلك غداً عند الساعة الثامنة».

بعد يومين واصلا مناقشتهما. قال بوب إن نتيجة مسح الأشعة المقطعي سلبية ـ ولا يوجد ما يشير إلى انتشاره إلى بقعة أخرى في الجسم. هذا الخبر الجيد الأول.

«لكن بالرغم من ذلك يا جوليوس، فإن هذا يعني سرطان جلد خطيراً».

«ما مدى خطورته؟» كان صوت جوليوس متصدّعاً، «عمَّ نتحدّث؟ ما هي نسبة البقاء على قيد الحياة؟».

«كما تعرف لا نستطيع معالجة هذا الأمر إلّا بالإحصائيات. إذ تختلف حالة كلّ شخص عن شخص آخر. أما بالنسبة لسرطان جلدي متقرّح، عمقه أربعة مليمترات، وفيه خمس عقد، فإن الرسوم البيانية الإحصائية تظهر أن نسبة البقاء على قيد الحياة لمدة خمس سنوات خمس وعشرون في المائة».

جلس جوليوس للحظات عدة مطرق الرأس، قلبه يخفق بقوة، الدموع تغشى عينيه، قبل أن يسأل، «تابع. إنك صريح. أريد أن أعرف ماذا سأقول لمرضاي. كيف ستكون مسيرة علاجي؟ ماذا سيحدث؟».

«من المستحيل معرفة ذلك بدقة لأنه لن يحدث لك شيء أكثر من ذلك حتى يظهر السرطان في بقعة أخرى من الجسم. عندما يظهر، خاصة إذا انتشر، عندها فقط يصبح المسار سريعاً، ربما أسابيع، أو أشهر. أما بالنسبة إلى مرضاك، فمن الصعب القول، لكننا نأمل أنه سيكون أمامك ما لا يقل عن سنة واحدة تنعم فيها بصحة جيدة».

هزّ جوليوس رأسه ببطء، مطرق الرأس.

«أين هي أسرتك يا جوليوس؟ ألم يكن من المفروض أن يأتي أحد معك؟».

«أظن أنك تعرف أن زوجتي توفيت منذ عشر سنوات. وابني يقيم في الساحل الشرقي، وابنتي تقيم في سانتا باربرة. لم أقل لهما شيئاً حتى الآن؛ لا أرى سبباً لأعكّر صفو حياتهما بشكل غير ضروري. من الأفضل أن ألعق جروحي وحدي، لكني متيقن من أن ابنتي ستأتي في الحال». «جوليوس، إني آسف كثيراً لأن أخبرك بكل هذا. لكن دعني أنهي كلامي بخبر صغير جيد. هناك أبحاث نشيطة تُجرى حالياً، أظن أن هناك اثنا عشر مختبراً تعمل بنشاط في هذا البلد وفي خارجه. ولأسباب غير معروفة، فقد ازدادت حالات الإصابة بسرطان الجلد، كادت تتضاعف خلال السنوات العشر الأخيرة. هناك أبحاث كثيرة تُجرى في هذا المجال. نأمل أن يتم إحراز تقدّم قريباً».

خلال الأسبوع التالي، عاش جوليوس فترة من الذهول. فقد ألغت إفيلين، ابنته، أستاذة الأدب الكلاسيكي، دروسها وهرعت فوراً لقضاء أيام عدّة معه. تحدّث معها مطولاً ومع ابنه ومع أخته وأخيه، ومع الأصدقاء المقربين. بدأ يستيقظ كثيراً فزعاً في الساعة الثالثة صباحاً، يصرخ، ويلهث طلباً للهواء. ألغى جلساته مع مرضاه ومجموعات العلاج الجماعي لمدة أسبوعين، وأمضى ساعات وهو يفكّر في ما سيخبرهم وكيف سينقل إليهم الخبر.

أخبرته المرآة بأنه لا يشبه رجلاً بلغ نهاية حياته. فقد حافظ الجري يومياً لمسافة ثلاثة أميال على جسده شاباً ورشيقاً من دون أن تظهر عليه أيّ كتلة دهنية صغيرة. كانت هناك بضع تجاعيد حول عينيه وفمه. ليست كثيرة ـ عندما مات والده لم تكن لديه أي تجاعيد. عيناه خضراوان. كان جوليوس فخوراً بهما على الدوام. عينان قويتان وصادقتان. عينان يمكن الوثوق بهما، عينان يمكنهما مقاومة تحديق أي شخص. عينان شابتان، عينا جوليوس وهو في السادسة عشرة من العمر. الرجل المحتضر والفتى في السادسة عشرة يحدّق أحدهما في الآخر منذ عقود.

نظر إلى شفتيه. شفتان ممتلئتان ودّيتان. شفتان، حتى الآن في فترة اليأس التي يعيشها، كانتا تفتران عن ابتسامة عريضة دافئة. شعر مجعّد أسود هائج يكسو كامل رأسه، بدأ الشيب يظهر عند سالفيه. عندما كان مراهقاً في حيّ البرونكس، كان الحلاق الذي يكره اليهود، العجوز ذو الوجه الأحمر والشعر الأبيض، الذي يقع محله الصغير في نهاية الشارع الذي يقيم فيه، بين مخزن ماير للحلوى ودكان موريس للجزارة، يلعن شعره الخشن كلما مرّر فيه مشطاً فولاذياً بصعوبة ويقصّه. لقد أصبح ماير وموريس والحلاق الآن في عداد الأموات، وها هو جوليوس الشاب البالغ السادسة عشرة من عمره على وشك أن يلبي نداء الموت.

في عصر أحد الأيام، حاول أن يستجمع شجاعته ويقرأ الأدبيات المتعلقة بسرطان الجلد في مكتبة كليّة الطب، لكن محاولاته باءت بالفشل، بل الأسوأ من ذلك، فقد زاد الأمور سوءاً. فعندما فهم جوليوس حقيقة طبيعة مرضه الفظيعة، بدأ يعتبر سرطان الجلد مخلوقاً مفترساً نهماً يغرس في أعماق لحمه أعشاباً لولبية سوداء. كم كان من المروع أنه أدرك فجأة أنه لم يعد شكلاً من أشكال الحياة الأسمى، وإنما أصبح مضيّفاً؛ طعاماً، غذاءً، لكائن حي أقوى يقسّم خلاياه ويلتهمها بسرعة مدهشة، كائن حيّ يهاجم بسرعة خاطفة ويضمّ البروتوبلازما المجاورة ويجهّز الآن بلا شك عناقيد من الخلايا حتى تجري في مجرى

الدم وتستعمر أعضاء الجسد البعيدة؛ ربما أرضيات هشّة حلوة يتغذّى عليها من كبده أو من مروج رئتيه المعشوشبة الإسفنجية.

وضع جوليوس القراءة جانباً. كان قد مضى أكثر من أسبوع، وقد آن الأوان لتجاوز فترة الذهول والاضطراب. لقد حانت ساعة مواجهة ما يحدث حقاً. اجلس يا جوليوس، قال لنفسه. اجلس وتأمّل مسألة الموت. أغمض عينيه.

هكذا إذاً، قال لنفسه، لقد ظهر الموت أخيراً على المسرح. يا لها من بداية مبتذلة ـ فقد فتح الستائر طبيب بالأمراض الجلدية، مربوع القامة، له أنف يشبه الخيارة، يمسك في يده مكبّرة، يرتدي صدرية بيضاء، خيط على جيب صدرها الأعلى اسمه بأحرف زرقاء غامقة.

وماذا عن المشهد الختامي؟ مقدّر له أن يكون، على الأرجح، مبتذلاً أيضاً. ستكون بدلته قميص نوم مخططاً بلوني فريق يانكي نيويورك، مجعّد، كُتب على ظهره *ديماجيو 5*. هل أُعدّت خشبة المسرح؟ نفس السرير الواسع الذي ينام عليه منذ ثلاثين سنة، الملابس المجعّدة الملقاة على الكرسي بجانب السرير، وعلى المنضدة بجانب سريره، وكومة الروايات التي لم يقرأها غير مدرك أن وقتها لن يأتي أبداً. خاتمة مليئة بالأنين مخيبة للأمل. يقيناً، قال جوليوس لنفسه، إن مغامرة حياته المجيدة تستحق أكثر من ذلك... أكثر... أكثر من ماذا؟

تذكّر مشهداً كان قد رآه منذ بضعة أشهر عندما كان يمضي عطلته في هاواي. فبينما كان يتجوّل في الشارع، رأى بالمصادفة منتجعاً بوذياً ورأى فتاة شابّة تسير في متاهة دائرية مشيّدة من أحجار حمم صغيرة. وعندما وصلت إلى وسط المتاهة، توقّفت ولبثت واقفة لا تأتي بحركة ودخلت في مرحلة تأمل طويلة. لم تكن ردّة فعل جوليوس الفورية إزاء هذا الطقس الديني مستحبة، بل تراوحت بين السخرية والنفور.

أما الآن، بينما أخذ يفكّر في تلك الفتاة الشابّة المستغرقة في التأمّل،

غمرته مشاعر أرق ـ فيض من الشفقة لها ولجميع إخوانه في البشرية ضحايا ذلك المنعطف الفظيع من التطور الذي يمنح الوعي الذاتي، لكنه لا يمنح الأجهزة النفسية الضرورية القدرة على مواجهة ألم الوجود العابر. وهكذا، وعلى مرّ السنين، القرون، الألفيات، دأبنا بلا هوادة على وضع ذرائع بديلة لإنكار قدراتنا المحدودة. هل يمكننا، هل يمكن لأيّ منّا، أن نتوقف عن البحث عن قوّة أعلى يمكننا أن نندمج فيها ونوجد فيها إلى الأبد، عن التعليمات المرسلة من الله، عن إشارة تدّل على تصميم راسخ أكبر، عن الطقوس والمراسم؟

لكنه بالرغم من ذلك، بعد أن رأى اسمه في قائمة الموتى، قال جوليوس لنفسه إن ممارسة قليل من الطقوس والشعائر ليست بالأمر السيئ. أبعد هذه الفكرة عن رأسه كأن شيئاً لسعه، لأنها تتناقض تماماً مع عدائه الدائم لممارسة الطقوس والشعائر. فقد كان يمقت باستمرار الأدوات التي تستخدمها الأديان لإغواء أتباعها وسلبهم عقولهم وحريتهم: الأثواب الاحتفالية، البخور، الكتب المقدّسة، الأناشيد الغريغورية المبهرة، عجلات الصلاة، سجادات الصلاة، الشالات والطاقيّات، والتيجان والصولجانات التي يحملها الأسقف، والرقائق والنبيذ المقدّس، وطقوس الصلاة على الميت، والرؤوس المتمايلة، والأجسام التي تتمايل على ترانيم أناشيد قديمة ـ كان يعتبرها جميعها أدوات أقوى وأطول لعبة خادعة في التاريخ، لعبة تمدّ الزعماء بالقوة وترضي الجموع بالرغبة في الاستسلام. مكتبة

أما الآن، بعد أن أضحى الموت يقف على عتبة بيته، لاحظ جوليوس أن حماسته قد خفتت كثيراً. قد تكون مجرد طقوس مفروضة يكرهها. قد تكون هناك كلمة طيبة جيدة لممارسة طقوس مبدعة شخصية صغيرة. كان قد تأثر كثيراً بالصحف عندما وصفت رجال الإطفاء في «المنطقة صفر» في نيويورك، بأنهم كانوا يقفون ويرفعون قبعاتهم لتكريم الموتى كلما اكتشفوا رفاتاً جديدة. لا ضير في تكريم الموتى، لا، ليس

تكريم الموتى، وإنما تكريم الحياة التي عاشها الميت. أم أنه شيء يتجاوز التكريم، يتجاوز التقديس؟ ألا تدل بادرة، طقوس رجال الإطفاء أيضاً على التواصل؟ الإقرار بعلاقتهم، توحدّهم مع كلّ ضحيّة؟

ذاق جوليوس طعم التواصل الشخصي بعد أيام قليلة من لقائه المصيري مع اختصاصي الجلدية، عندما حضر مجموعة الدعم التي ضمت زملاءه الأطباء النفسانيين. فقد صُعق زملاؤه الأطباء عندما أخبرهم جوليوس عن إصابته بسرطان الجلد. وبعد أن شجعوه على إفضاء ما يجيش في صدره، أعرب كلّ واحد منهم له عن صدمته وحزنه. لم يجد جوليوس، ولا أي شخص آخر، كلمات أخرى. في مرتين اثنتين، شرع أحدهم في الكلام لكنه لم يتكلّم، ثمّ، كما لو أن المجموعة وافقت من دون التعبير عن ذلك بأنّ لا حاجة للكلمات. وفي الدقائق العشرين الأخيرة، جلس الجميع ولاذوا بالصمت. إن فترات الصمت الطويلة في مجموعات كهذه تبدو محرجة دائماً، أما هذه المرة فقد بدا الأمر مختلفاً، يكاد يكون مريحاً. أحسّ جوليوس بالحرج ليعترف، حتى لنفسه، بأن الصمت يبدو «مقدّساً»، ثم خطر له بأن الأعضاء لم يكونوا يعبّرون عن حزنهم فحسب، وإنما كانوا يرفعون قبعاتهم أيضاً، يقفون باستعداد، يشاركونه في حياته ويكرّمونها.

قد تكون هذه طريقة لتكريم حياتهم أيضاً، قال جوليوس لنفسه. ما هي الأمور الأخرى التي لدينا؟ أيّ شيء آخر غير هذه الفترة الإعجازية المباركة من الكينونة والإدراك الذاتي؟ وإذا كان ثمة شيء يتعيّن تكريمه ومباركته، فيجب أن يكون هذا ـ هدية الوجود المطلق التي لا تقدر بثمن. العيش في يأس لأن الحياة محدودة أو لأنه لا يوجد للحياة هدف أسمى. إن الحلم بخالق كلّي الوجود وتكريس حياتنا لركوع لا ينتهي يبدو عديم الجدوى. والإسراف أيضاً: لماذا نبدد كلّ ذلك الحبّ على وهم عندما يبدو أنه لا يوجد إلّا القليل من الحبّ على وجه الأرض؟ من الأفضل أن نعتنق حلّ سبينوزا وآينشتاين: أن يخفض المرء رأسه، ويرفع قبعته أمام القوانين الرائعة ولغز الطبيعة، ويواصل العيش.

لم تكن تلك أفكاراً جديدة بالنسبة لجوليوس ـ فقد كان يعرف دائماً محدودية الوعي وتلاشيه. لكن هناك معرفة *وهناك معرفة أخرى*. إن ظهور الموت على مسرحه قرّبه جداً من المعرفة الحقيقية. ليس أنه ازداد حكمة، بل إن التخلص من الأشياء التي تلهي المرء ـ الطموح، الشهوة الجنسية، النقود، السمعة، التصفيق، الشعبية ـ تمنحه رؤية أكثر نقاء. أليس هذا الانفصال هو حقيقة بوذا؟ ربما، لكنه يفضّل طريقة الإغريق: كلّ شيء باعتدال. نفتقد الكثير مما تقدمه لنا الحياة إذا لم نخلع معاطفنا قط ونشارك في المرح. لماذا نهرع إلى منفذ الخروج قبل أن يحين موعد إغلاق الأبواب؟

بعد بضعة أيام، عندما هدأ جوليوس وخفّت نوبات الرعب التي اعترته، وبدأت أفكاره تتجّه نحو المستقبل. «سنة جيدة» قال له بوب كينغ، «لا توجد ضمانات، لكن ليس من غير المعقول ألّا يتمنّى سنة على الأقل مفعمة بالصحة الجيدة». لكن كيف يمكنه أن يمضي هذه السنة؟ هناك شيء واحد عزم عليه وهو ألّا يحوّل تلك السنة الجيدة إلى سنة سيئة بالحزن، فهي ليست أكثر من سنة.

ذات ليلة، لم يغمض له جفن. وسعياً إلى نيل قليل من الراحة، أخذ يستعرض الكتب في مكتبته. لم يجد شيئاً في مجال تخصصه يتعلق، ولو من بعيد، بوضع حياته، لم يجد شيئاً يتناول موضوع كيف يتعين على المرء أن يعيش، أو كيف يمكن أن يجد معنى خلال الأيام المتبقية من حياته. وأخيراً، وقعت عيناه على كتاب تآكلت زوايا صفحاته لنيتشه، *هكذا تكلم زرادشت*. كان جوليوس يعرف هذا الكتاب جيداً: فقد درسه بعمق منذ عقود عديدة، عندما كتب مقالاً عن تأثير نيتشه المهم، لكن غير الملحوظ، على فرويد. إن كتاب زرادشت كتاب جريء، قال جوليوس لنفسه، وهو يعلّم أكثر من أي شيء آخر، كيف يمكن احترام الحياة والاحتفال بها. نعم، قد تكون هذه هي كلمة السر. متلهّفاً لقراءة الكتاب قراءة منهجية، راح يقلّب صفحاته عشوائياً، وركزّ على بعض العبارات التي كان قد وضع تحتها خط.

«أن تحوّل كلّ ما كان 'إلى ما أردت' ـ ذلك فقط ما أدعوه خلاصاً للبشرية».

فهم جوليوس بأن كلمات نيتشه تعني أن عليه أن يختار حياته ـ عليه أن يعيشها لا أن تجعله يعيشها. بمعنى آخر، ينبغي له أن يحبّ قدره. والأهم من كل ذلك، هناك سؤال زرادشت الذي طالما تكرر وهو هل نرغب في أن نعيد الحياة التي عشناها بحذافيرها مراراً وتكراراً حتى الخلود. تجربة فكرية مهمة ـ لكنه كلما فكّر في الموضوع، ازداد قناعة بأن الرسالة التي يوجهها نيتشه إلينا هي أن نعيش حياة نريد أن تتكرر نفسها إلى الأبد.

ظل يقلّب الصفحات، ثم توقّف عند فقرتين كان قد أشر عليهما بلون وردي غامق: «أكمل حياتك» و«لتمت في الوقت المناسب».

هذا هو بيت القصيد. عش حياتك على أكمل وجه، عندها، وعندها فقط، مت. لا تترك وراءك أيّ حياة لم تعشها. كان جوليوس يشبّه غالباً كلمات نيتشه باختبار رورسكهش الذي تُقدّم فيه آراء عديدة متباينة تحدّد حالة القارئ العقلية وماذا يمكنه أن يستمّد منها. بدأ الآن يقرأ بحالة عقلية مختلفة تماماً. فقد حفّزه وجود الموت على أن يقرأ قراءة مختلفة وتنورية أكثر: صفحة تلو صفحة، بدأ يرى دليلاً على ترابط الوجود لم يقدّره سابقاً. فمهما مجّد زرادشت، بل حتى مجّد العزلة، ومهما أراد العزلة التي توّلد أفكاراً عظيمة، فقد كان يهدف إلى حبّ الآخرين والرفع من شأنهم، ومساعدة الآخرين على الكمال، ومشاطرته نضوجه. مشاطرته نضوجه، هذا هو بيت القصيد.

أعاد زرادشت إلى مكان استراحته، جلس جوليوس في الظلام وراح يحدّق في أضواء السيارات التي تعبر جسر غولدن غيت، ويفكّر في كلمات نيتشه. بعد بضع دقائق «أفاق» جوليوس: فقد أصبح يعرف تماماً ماذا عليه أن يفعل، وكيف سيمضي سنته الأخيرة. سيعيش *تماماً كما عاش السنة الماضية ـ والسنة التي سبقتها والتي قبلها*. فهو يحبّ أن يكون

معالجاً نفسانياً. يحبّ أن يتواصل مع الآخرين ويساعدهم على استعادة شيء إلى حياتهم. قد يكون عمله تسامياً لأنه فقد الصلة بزوجته؛ ربما كان بحاجة إلى التصفيق، وإقرار وامتنان الأشخاص الذين ساعدهم. وبالرغم من ذلك، حتى لو لعبت دوافع مظلمة دورها، فإنه يشعر بالامتنان لعمله. بارك الله فيه.

سار جوليوس نحو خزانة الملفات، وفتح درجاً مليئاً بالملفات ووقائع الجلسات المسجّلة على أشرطة كاسيت لمرضى كان قد عالجهم منذ زمن بعيد. حدّق في الأسماء ـ كان كلّ ملّف بمثابة نصب تذكاري لمأساة إنسانية محزنة عبّرت عن نفسها في هذه الغرفة بالذات. بينما راح يتصفح الملفات، برزت إلى ذاكرته معظم الوجوه على الفور، وبهتت وجوه أخرى، لكن بضع فقرات من الملاحظات التي كان قد دوّنها استدعت وجوههم أيضاً إلى ذاكرته، وغابت قلة قليلة منهم في طي النسيان، وضاعت وجوههم وحكاياتهم إلى الأبد.

ومثل معظم المعالجين النفسانيين، كان جوليوس يجد صعوبة في حماية نفسه من الهجمات المتواصلة التي كانت تُشنّ على العلاج النفساني من اتجاهات عدة: من شركات صيدلانية ومؤسسات ترعى أبحاثاً سطحية تهدف إلى تأكيد فعالية الأدوية والعلاجات القصيرة الأجل؛ ومن أجهزة الإعلام التي لم تتوان عن السخرية من المعالجين النفسانيين؛ ومن السلوكيين؛ ومن الخطباء المتحمسين، ومن معالجي العصر الجديد، التي كانت كلها تتنافس على كسب قلوب المرضى وعقولهم. وبالطبع، كانت هناك شكوك من الداخل، الاكتشافات العصبية الحيوية الجزيئية التي بدأت تتكرر التقارير عنها بشكل متزايد التي جعلت حتى المعالجين الأكثر خبرة يتساءلون عن جدوى ما يقومون به.

لم يكن جوليوس محصّناً ضد هذه الهجمات وغالباً ما ساورته شكوك حول فعالية علاجه لكنه سرعان ما كان يطمئن نفسه. *بالطبع* كان معالجاً قديراً. *بالطبع*، كان يقدم شيئاً ثميناً إلى معظم، لا بل إلى جميع من عالجهم.

لكن عفريت الشكّ ظل يطلّ عليه: *هل كنت حقاً، حقاً، مفيداً لمرضاك؟ لعلك تعلّمت الآن أن تختار المرضى الذين ستتحسن حالتهم من تلقاء أنفسهم.*

لا. هذا غير صحيح! ألم أكن أنا الوحيد الذي واجه تحديات كبيرة باستمرار؟

هه، لكن لديك حدودك! متى كانت آخر مرة بذلت فيها أقصى ما بوسعك ـ لقد اقتحمت الحدود الصعبة للعلاج؟ أو كم مريضاً بالفصام كانوا في حالة سيئة، أو مريضاً مصاباً بالذهان الثنائي القطب؟

بينما واصل البحث في الملفات القديمة، فوجئ جوليوس برؤية هذا القدر من المعلومات المتعلقة ببعد فترة العلاج التي بحوزته ـ من زيارات متابعة متباعدة، أو زيارات علاجية، ومن لقاءات عابرة مع المريض، أو من رسائل أرسلها مرضى جدد كانوا قد أحيلوا إليه. لكن بالرغم من ذلك، هل أحدث فرقاً كبيراً ودائماً في حياتهم؟ *ربما آلت النتائج* التي توصل إليها إلى الزوال، وربما انتكس عدد من مرضاه الذين نجح في علاجهم.

ولاحظ حالات إخفاقه أيضاً، أناس كان يقول لنفسه دائماً إنهم ليسوا مستعدين لتلقي علاجه المتقدّم. انتظر، قال لنفسه، هدّئ من روعك يا جوليوس. كيف يمكنك أن تعرف أنّها حالات فاشلة؟ حالات فشل دائمة؟ فلم ترهم قط بعد ذلك. إننا نعرف جميعاً أن هناك كثيرين لا تظهر آثار التقدم عليهم إلّا في وقت متأخر.

وقع بصره على ملفّ سميك لمريض يدعى سلايت فيليب. أتريد حالة فاشلة؟ قال لنفسه، ها هي حالة فاشلة. حالة فاشلة قديمة. فيليب سلايت. مرّت أكثر من عشرين سنة، لكن صورة فيليب سلايت لا تزال نضرة في مخيلته. شعره البني الفاتح الممشط إلى الوراء دائماً، وأنفه اللطيف الجميل، وعظم وجنتيه اللتين توحيان بأنه ينتمي إلى طبقة نبلاء،

وهاتان العينان الخضراوان اللتان كانتا تذكّرانه بمياه البحر الكاريبي. تذكّر كيف كان يكره كلّ شيء يتعلق بجلساته مع فيليب، ما عدا شيء واحد وهو متعة النظر إلى ذلك الوجه.

كان فيليب سلايت منسلخاً عن نفسه إلى حدّ أنه لم يفكّر قط في أن ينظر إلى داخله، مفضلاً أن يتزلج على سطح الحياة ويكرّس كلّ طاقته الحيوية لممارسة الجنس. وبفضل جمال وجهه، كان لديه عدد لا يحصى من المتطوعات. هزّ جوليوس رأسه وهو ينظر إلى ملفّ فيليب، ثلاث سنوات من الجلسات. كلّ ذلك الكلام والدعم والرعاية، وكلّ تلك التفسيرات ولم يسمع همسة واحدة عن إحراز أي تقدّم. يا له من أمر عجيب! لعله لم يكن المعالج الذي كان يظن أنه هو.

هيه، لا تستبق النتائج، قال لنفسه. لماذا استمرّ فيليب ثلاث سنوات في العلاج إذا لم يكن قد أحرز أي تقدم؟ لماذا استمر في إنفاق كلّ ذلك المبلغ من المال إذا لم يحصل على نتيجة؟ والله يعرف كم كان فيليب يكره أن ينفق المال. قد تكون تلك الجلسات قد أحدثت تغييراً في فيليب. ربما كان من ذلك النوع من المرضى الذين يتماثلون للشفاء في وقت متأخر، أحد أولئك المرضى الذين يحتاجون إلى وقت لهضم الغذاء الذي يقدّمه لهم المعالج. أحد أولئك الذين يخزّنون بعض الأشياء الجيدة التي يقدّمها لهم المعالج، يأخذونها معهم إلى البيت، ومثل عظمة يقضمونها عندما يختلون إلى أنفسهم. لقد عرف جوليوس عدداً من المرضى الذين يتصفون بالتنافس الشديد إلى حدّ أنهم يخفون التقدم الذي توصلوا إليه، لكنهم لا يريدون إعطاء المعالج شعوراً بالرضى (والقوّة) بأنه تمكن من مساعدتهم.

الآن بعد أن تسلل فيليب سلايت إلى عقله، لم يستطع جوليوس أن يخرجه منه. لقد تسلل إليه وتغلغل فيه. تماماً مثل الميلانوما، سرطان الجلد الذي أصابه. أصبح فشله مع فيليب رمزاً يجسّد كلّ حالات فشله في العلاج. ثمة شيء غريب في حالة فيليب سلايت. من أين استمد كلّ

تلك القوّة؟ فتح جوليوس ملفه وقرأ أول ملاحظة كتبها عنه قبل خمس وعشرين سنة.

فيليب سلايت، ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠

كيميائي، ذكر، أبيض، عازب، عمره ٢٦ سنة، يعمل في شركة دوبونت ـ يستنبط أنواعاً من مبيدات الحشرات الجديدة ـ وسيم جداً، لا يهتم كثيراً بهندامه، لكن هيئته تشي بالفخامة، رسمي، يجلس متشنجاً، قليل الحركة، لا يُعبّر عن مشاعره، جدّي، لا يمتلك روح الدعابة، لا يبدي ابتسامة أو تكشيرة، يعمل بجدية شديدة، لا يمتلك أية مهارات اجتماعية. أحاله طبيبه الداخلي، الدكتور وود.

الشكوى الرئيسية: «تقودني الدوافع الجنسية رغماً عني».

لماذا الآن؟ قصة «القشّة الأخيرة» جرت قبل أسبوع وقد وصفها كما لو كان يحفظها عن ظهر قلب.

وصلتُ بالطائرة إلى شيكاغو لحضور اجتماع مهني، نزلت من الطائرة، وتوجهت إلى أقرب هاتف ورحت أبحث في قائمة النساء في شيكاغو لديّ عن امرأة لأقيم معها علاقة جنسية في ذلك المساء. لكن الحظ لم يسعفني. كنّ جميعهن مشغولات. بالطبع كنّ مشغولات: فقد كان مساء الجمعة. كنت أعرف أنني قادم إلى شيكاغو؛ كان بإمكاني أن أتصل بهن قبل أيام عدة، بل حتى قبل أسابيع. ثمّ، بعد أن اتصلت بآخر رقم في دفتري، أغلقت الهاتف وقلت لنفسي: «الحمد لله، الآن أستطيع أن أقرأ وأنام ليلة هانئة، وهذا ما كنت أريد أن أفعله فعلاً».

يردد المريض تلك العبارة، تلك المفارقة ـ «وهذا ما كنت أريد أن أفعله فعلاً» ـ كانت تهيمن عليه طوال الأسبوع، وهي الحافز الذي جعله يطلب العلاج. «هذا ما أريد التركيز عليه في العلاج» قال، «إذا كان ذلك

ما أريده ـ أن أقرأ وأنام ليلة هانئة ـ دكتور هيرزفيلد، فقل لي لماذا لا أستطيع أن أفعل ذلك، لماذا لا أفعل ذلك؟».

ببطء عادت تفاصيل أخرى عن عمله مع فيليب سلايت إلى ذاكرته. لقد أدهشه فيليب فكرياً. فخلال لقائهما الأول كان يعمل على ورقة عن العلاج بالتحليل النفسي والإرادة، وكان سؤال فيليب؛ *لماذا لا أستطيع أن أفعل ما أريد أن أفعله فعلاً*؟ بداية ممتازة لمقالة. والأهمّ من كل ذلك، تذكّر ثبات فيليب وعدم قابليته للتغيير على نحو غريب: فبعد ثلاث سنوات لم يتأثر ولم يتغير على الإطلاق، وظل دافعه الجنسي كما كان دائماً.

مهما حدث لفيليب سلايت؟ فلم يسمع منه كلمة واحدة منذ أن توقف عن العلاج فجأة قبل اثنتين وعشرين سنة. وتساءل جوليوس مرة أخرى، من دون أن يعرف السبب، عمّا إذا كان ذلك مفيداً لفيليب. وفجأة، كان عليه أن يعرف، فقد بدت مسألة حياة وموت بالنسبة له. مدّ يده إلى الهاتف واتصل بالرقم ٤١١.

النشوة في عملية الجماع
هي الجوهر الحقيقي وصميم كلّ شيء،
إنها هدف وغاية الوجود كله.

٢

«ألو، هل هذا فيليب سلايت؟».

«نعم، فيليب سلايت يتكلم».

«أنا الدكتور هيرزفيلد. جوليوس هيرزفيلد».

«جوليوس، جوليوس هيرزفيلد؟».

«صوت من ماضيك».

«الماضي البعيد. من العصر الجليدي. جوليوس هيرزفيلد. لا يمكنني أن أصدّق أذني ـ ماذا في الأمر؟... لا يقل عن عشرين سنة. وما سبب هذه المكالمة؟».

«حسناً يا فيليب، إني أتصل من أجل فاتورتك. لا أظن أنك سددت كلّ المبلغ المتوجب عليك لجلستنا الأخيرة».

«ماذا؟ الجلسة الأخيرة؟ لكني متأكّد...».

«إني أمزح يا فيليب. آسف، بعض الأشياء لا تتغيّر أبداً ـ لا يزال الرجل العجوز مرحاً ويتعذر كبح جماح نفسه. سأكون جدّياً. هنا، سأخبرك بإيجاز سبب اتصالي بك. إني أعاني من بعض المشاكل الصحية، وأفكّر في التقاعد. وفي أثناء اتخاذ قراري هذا، اعترتني رغبة

لا تقاوم في أن ألتقي ببعض المرضى الذين عالجتهم في الماضي، من أجل متابعة حالتهم فقط، لإرضاء فضولي. سأشرح لك المزيد لاحقاً إذا أردت. أريد أن اسألك: هل تريد أن نلتقي؟ أن نتحدّث لمدة ساعة؟ أن نستعرض معاً العلاج الذي أجريته لك وتخبرني ماذا حلّ بك؟ إن الأمر مهم وتنويري بالنسبة لي. ومن يعرف؟ قد يكون بالنسبة لك أيضاً».

«هممم... ساعة. بالتأكيد. لم لا؟ لا أظن أنك ستطلب أجراً لقاء ذلك؟».

«إلا إذا كنت تريد أن تطلب أنت أجراً مني يا فيليب، فأنا الذي يطلب جزءاً من وقتك. ما رأيك أن نلتقي في آخر هذا الاسبوع؟ لنقل، بعد ظهر يوم الجمعة؟».

«يوم الجمعة؟ هذا جيد. إنه مناسب لي. سأمنحك ساعة في الساعة الواحدة بعد الظهر. لن أطلب مبلغاً لقاء خدماتي، لكن هذه المرة دعنا نلتقي في مكتبي ـ مكتبي في شارع يونيون ستريت ـ أربعة واحد ثلاثة يونيون. بالقرب من فرانكلين. ابحث عن رقم مكتبي في دليل البناية، سيكون اسمي مدرجاً باسم الدكتور سلايت. أنا الآن معالج أيضاً».

ارتجف جوليوس وهو يضع سماعة الهاتف. أدار كرسيه ومطّ رقبته ليلقي نظرة على جسر غولدن غايت. بعد هذا الاتصال شعر بالحاجة إلى رؤية شيء جميل، بالحاجة إلى أن يشعر بشيء دافئ في يديه. ملأ غليونه بتبغ السوبراني البلقاني، وأشعل عود ثقاب، وراح يمجّه.

آه يا عزيزي، قال جوليوس لنفسه، تبغ «اللاذقية» ذو الطعم الترابي، تلك الرائحة العطرة المعسّلة اللاذعة التي لا تشبه شيئاً آخر في العالم. يصعب التصديق أنّه أقلع عنه منذ سنوات عديدة. غرق في أحلام اليقظة وتذكّر اليوم الذي أقلع فيه عن التدخين. لا بد أنه كان بعد زيارته تلك إلى طبيب الأسنان، جاره، الدكتور دينبوير الذي مات منذ عشرين سنة. عشرون سنة ـ كيف يمكن أن يكون ذلك؟ لا يزال بإمكان جوليوس أن

يرى وجهه الهولندي الطويل ونظارته المؤطرة بالذهب بوضوح شديد. الدكتور العجوز دينبوير الراقد تحت التراب منذ عشرين سنة، بينما لا يزال هو، جوليوس، حياً يرزق. حتى الآن.

«تلك البثرة في أعلى باطن فمك»، قال الدكتور دينبوير وهو يهزّ رأسه قليلاً، «تدعو للقلق. يجب أن نأخذ خزعة لفحصها». ومع أن تلك الخزعة كانت سلبية، فقد جذبت انتباه جوليوس لأنه في ذلك الأسبوع بالتحديد، ذهب إلى جنازة أل، رفيقه القديم الذي كان يلعب معه التنس، المدخّن الذي مات من سرطان الرئة. ولم ينفعه في ذلك الحين أنّه كان يقرأ كتاب «*فرويد، حياً وميتاً*» للكاتب ماكس شور، طبيب فرويد ـ الذي يقدّم فيه وصفاً دقيقاً عن كيف أن السرطان بدأ يلتهم فكّ فرويد شيئاً فشيئاً لأنه كان يدخّن السيجار، وفي النهاية، التهم حياته كلها. وكان شور قد وعد بأن يساعد فرويد على أن يموت عندما يحين الأوان، وعندما أخبره فرويد أخيراً بأنّ الألم قد اشتدّ كثيراً، وأنه لم يعد من المنطقي مواصلة الحياة، أثبت شور بأنه رجل يفي بوعده، وحقنه بجرعة مورفين قاتلة. إنه طبيب حقيقي. أين يمكن أن تجد طبيباً مثل الدكتور شور في زمننا هذا؟

عشرون سنة أمضاها من دون أن يدخن تبغاً، ولم يتناول خلالها البيض أو الجبن أو الزيوت أو الدهون الحيوانية. لقد امتنع عن تناولها كلها، وحرص على تناول طعام صحّي بكل سعادة، إلى أن جاء ذلك الفحص اللعين. أما الآن، فقد أصبح كلّ شيء مسموحاً به: التدخين وتناول البوظة وأضلاع اللحم والبيض والجبن... كلّ شيء. ماذا يهمّ بعد الآن؟ ماذا كانت نتيجة التزامه بالطعام الصحي؟ فبعد سنة، سيتحلل جسد جوليوس هيرزفيلد في التراب، وستتناثر جزيئاته التي تنتظر المهام التالية الموكلة إليها. وآجلاً أم عاجلاً، بعد ملايين السنين، سيقبع النظام الشمسي كله في ركام.

عندما شعر جوليوس بأن ستارة اليأس قد بدأت تنسدل، حوّل انتباهه

بسرعة، وعاد ليركّز على مكالمته مع فيليب سلايت. هل أصبح فيليب معالجاً؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ تذكّر أن فيليب شخص غير مبال، بارد، لا يبدي اهتماماً بالآخرين، ومن تلك المكالمة، عرف أنه لا يزال كما كان. أخذ جوليوس نفساً عميقاً من غليونه وهزّ رأسه في تساؤل صامت وهو يفتح ملف فيليب وواصل قراءة الملاحظة التي دوّنها عن جلستهما الأولى.

المرض الحالي ـ دافع جنسي قوي يوجّهه منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره ـ استمناء قهري طوال فترة المراهقة حتى الآن ـ أحياناً أربع أو خمس مرات يومياً ـ مهووس بالجنس باستمرار، يستمني حتى يشعر بالسكينة. جزء كبير من حياته أمضاه مهووساً بالجنس ـ يقول: «إن الوقت الذي هدرته في ملاحقة النساء ـ كان يمكن أن أحصل خلاله على درجة الدكتوراه بلغة مندرين الصينية والفيزياء الفلكية».

العلاقات: منعزل. يعيش مع كلبه في شقّة صغيرة. لا أصدقاء ذكوراً. صفر. ولا يوجد لديه أيّ اتصالات بالأصدقاء السابقين من المدرسة الثانوية، أو الجامعة، منعزل تماماً. لم يقم قط علاقة طويلة مع امرأة ـ يتعمد تفادي العلاقات المستمرة ـ يفضّل العلاقات السريعة لليلة واحدة ـ يرى أحياناً امرأة طوال شهر ـ عادة المرأة هي التي تنهي العلاقة ـ إمّا أنها تريد المزيد منه، وإما أنها تغضب لأنه استغلها أو أنها تنزعج لأنه يرى نساء أخريات. يرغب في التجديد ـ يرغب في المطاردة الجنسية ـ لكنه لا يشبع أبداً ـ أحياناً عندما يسافر يلتقط امرأة، يمارس معها الجنس، يتخلّص منها، وبعد ساعة يغادر غرفته في الفندق للبدء بجولة ثانية. لديه سجلّ بالفتيات، لديه سجلّ بالنتائج، وفي الشهور الاثني عشر الماضية مارس الجنس مع تسعين امرأة مختلفة. يقول كلّ ذلك كأنه أمر عادي ـ من دون خجل، من دون مباهاة. يشعر بالقلق عندما يكون وحده في المساء. بالنسبة له فإن الجنس بمثابة حبوب فاليوم. عندما يمارس الجنس يشعر بالهدوء في ما تبقى من الليل ويصبح باستطاعته أن يقرأ بارتياح. لا توجد لديه نشاطات أو تخيلات مثلية.

المساء المثالي بالنسبة له؟ الخروج مبكراً، يلتقط امرأة من إحدى الحانات، يضاجعها (يفضّل قبل العشاء)، يتخلّص من المرأة بأسرع وقت ممكن، يفضّل ألّا يدعوها إلى العشاء، لكن الأمر ينتهي عادة بأن يدعوها لتناول الطعام. من المهم أن تتاح له فترة جيدة في المساء حتى يقرأ قبل النوم. لا يشاهد التلفزيون، ولا يشاهد أفلاماً، لا توجد لديه حياة اجتماعية، لا يمارس ألعاباً رياضية. تسليته الوحيدة هي القراءة والاستماع إلى موسيقى كلاسيكية. قارئ نهم للأعمال الكلاسيكية والتاريخ والفلسفة ـ لا يحبّ الروايات. يريد أن يتحدّث عن زينو وآريستارخوس، اهتماماته الحالية.

التاريخ السابق: نشأ في كونيتيكت، طفل من الطبقة المتوسطة العليا. الأب مصرفي يعمل في مجال الاستثمار، انتحر عندما كان فيليب في الثالثة عشرة. لا يعرف شيئاً عن ظروف أو أسباب انتحار أبيه؛ بعض الأفكار الغامضة فاقمها انتقاد أمّه المستمر. نسيان تام لأيام الطفولة ـ يتذكّر قليلاً عن سنواته القليلة الأولى ولا يتذكر شيئاً عن جنازة أبيه. تزوّجت أمّه مرة أخرى عندما كان في الرابعة والعشرين. منعزل في المدرسة، منغمس بشدة في الدراسة، لا يوجد لديه أصدقاء مقرّبون، ومنذ أن بدأ الدراسة في جامعة ييل عندما كان في السابعة عشرة، انقطع عن الأسرة. يتصل بأمّه بالهاتف مرة أو مرتين في السنة. لم يلتق بزوج أمّه قط.

العمل: كيميائي ناجح، يستنبط مبيدات حشرات جديدة بالاستناد إلى الهرمونات لمصلحة شركة دوبونت. يعمل بدقة ونشاط من الساعة الثامنة صباحاً حتى الخامسة مساء. لا يرغب في العمل الميداني. بدأ مؤخراً يشعر بملل من عمله. يظل على اطلاع مستمر على الأبحاث الجارية في مجال عمله، لكن ليس خارج ساعات عمله. له دخل مرتفع بالإضافة إلى خيارات أسهم قيّمة. مكتنز؛ يستمتع بتصنيف أصوله وإدارة استثماراته ويمضي كلّ ساعة وحده في دراسة بحوث سوق الأوراق المالية.

الانطباع: مصاب بالفصام، مصاب بالجنس القهري ـ ينظر إليّ ـ يرفض أن ينظر إليّ ـ ولا مرة التقت عيناه بعيني ـ لا توجد بيننا أي مشاعر شخصية ـ لا يجيد العلاقات الشخصية، يردّ على سؤالي بين الحين والآخر عن انطباعاته الأولى عني بنظرة تشي بالحيرة ـ كما لو كنت أتكلّم معه باللغة الكاتالانية أو السواحيلية. كان يبدو متوتراً ولم أكن أشعر بالراحة معه. لا يتمتع بروح مرحة. صفر. حادّ الذكاء، يتكلّم بوضوح شديد لكنه شحيح بالكلمات ـ يجعلني أعمل كثيراً. شديد القلق والحرص على تكلفة العلاج (مع أنه يستطيع أن يسددها بسهولة). طلب تخفيض المبلغ وهذا ما رفضته. كان يبدو حزيناً لأنني أتأخر دقيقتين في بدء الجلسة ولم يكن يتردّد في الاستفسار عمّا إذا كنا سنعوض هذا الوقت في نهاية الجلسة ليحصل على القيمة الكاملة. سألني مرّتين عن المدة اللازمة لكي يقدم إخطاراً مسبقاً حتى يلغي جلسة ويتفادى دفع أجرها.

أغلق جوليوس الملف، وراح يفكر: الآن، بعد خمس وعشرين سنة، أصبح فيليب معالجاً. هل يمكن أن يكون هناك شخص في العالم غير مناسب لهذا العمل أكثر منه؟ يبدو أنه لم يتغير كثيراً: لا يزال طبعه جافاً، لا يزال حريصاً على النقود (لعلي أخطأت عندما مازحته بشأن فاتورته). معالج نفساني لا يتمتع بروح مرحة؟ شديد البرودة. وهذا الطلب المتوتر للاجتماع به في مكتبه. ارتجف جوليوس مرة أخرى.

الحياة شيء بائس.
قرّرت أن أمضي حياتي
في التفكير بهذا الأمر.

٣

كان شارع يونيون ستريت مشمساً يضجّ بالحيوية. وكانت تُسمع أصوات قرقعة الصحون والشوك والسكاكين الفضية، والدندنة المنبعثة من الأحاديث الحيوية على الغداء من طاولات مطاعم بريغو وبيتيلنوت، وإكزوتيك بيتزا، وبيري المكتظة بالرواد على الرصيف. وكانت مناطيد زمردية وقرمزية اللون مربوطة بعدّادات مواقف السيارات تعلن عن تنزيلات على البضائع المعروضة على الرصيف في عطلة نهاية الأسبوع. لكن عندما كان جوليوس في طريقه إلى مكتب فيليب، لم يكد يلقي نظرة واحدة على رواد المطاعم أو الأكشاك التي أقيمت على الأرصفة والتي كُدِّست بثياب من ماركات شهيرة متبقية من موسم الصيف. ولم يتوقف عند أي واجهة من المحلات الأثيرة لديه، لا عند واجهة محل موريتا الياباني الذي يبيع قطع الأثاث العتيقة، ولا عند واجهة المحل التيبتي، ولا حتى عند واجهة محل «الكنوز الآسيوية» الذي زُيّن سقفه ببلاطات زاهية الألوان من القرن الثامن عشر تصوّر امرأة محاربة خيالية، نادراً ما يمرّ من أمامها دون أن يبدي إعجابه بها.

لم يعد الموت يشغل عقله، لأن الألغاز التي اكتنفت سلايت فيليب أبعدته عن تلك الأفكار المزعجة. ففي المقام الأول، هناك لغز الذاكرة

والسبب الذي جعله يستحضر صورة فيليب بهذه السهولة وبهذا الوضوح المخيف. أين كان يقبع وجه فيليب واسمه وقصّته طوال تلك السنين؟ يصعب عليه أن يركّز على الحقيقة بأنّ ذاكرة تجربته مع فيليب برمتها تقبع في مكان ما في قشرة دماغه من الناحية العصبية الكيميائية. من المرجح أن فيليب يقبع في شبكة الخلايا العصبية المعقّدة التي تتشابك ببعضها عندما تستثيرها الناقلات العصبية الملائمة، فتقفز وتبدأ تعمل وتعرض صورة فيليب على شاشة شبحية في قشرته البصرية. وجد أن التفكير في أنه يوجد جهاز عرض آلي مجهري في دماغه شيء مرعب.

لكن مما يثير المزيد من الحيرة هو لغز سبب اختياره استعادة فيليب. فمن بين جميع مرضاه السابقين، ما الذي جعله يختار فيليب لينبشه من مخزن الذاكرة العميق؟ هل لأن علاجه فشل فشلاً ذريعاً؟ لا بد أن هناك أشياء أكثر بكثير من ذلك. وبالرغم من وجود عدد من المرضى الآخرين الذين لم يتمكّن من مساعدتهم، فقد تلاشت معظم وجوه وأسماء المرضى الذين أخفق في علاجهم ولم يعد لها أي أثر. قد يكون ذلك لأن معظم الحالات التي أخفق في معالجتها كانت قد تركت العلاج بسرعة؛ أما فيليب فهو حالة فشل غير عادية لأنه واظب على حضور الجلسات. يا إلهي، كيف استمرّ كلّ ذلك الوقت! فخلال ثلاث سنوات من الإحباط لم يغب جلسة واحدة قط، ولم يصل متأخراً قط، ولا دقيقة واحدة ـ لأنه لم يكن يرغب في أن يبدّد وقتاً يدفع لقاءه نقوداً. وفي أحد الأيام، ومن دون سابق إنذار، أعلن ببساطة وبشكل قاطع في نهاية الساعة بأنّ هذه ستكون آخر جلسة له.

حتّى عندما أنهى فيليب جلساته، كان جوليوس لا يزال يرى أنّ شفاءه ممكن، لكنه كان يخطئ دائماً عندما يفكّر في أنه يمكن معالجة أي شخص. لماذا أخفق؟ كان فيليب جدّياً في العلاج إلى حدّ أنه كان يتعذر عليه أن يحلّ مشاكله. كان صعباً، متحدياً، ذكياً، حاضر البديهة، لكنه لم يكن شخصاً محبوباً. وقلما يقبل جوليوس مريضاً لا يحبّه، لكنّه

كان يعرف أنه لم يكن هناك شيء شخصي جعله لا يحبّ فيليب: إن أيّ شخص آخر لن يحبّه. انظر كيف أنه لم يكن لديه أصدقاء طوال حياته.

وبالرغم من أنه قد لا يحبّ فيليب، فقد كان يحبّ اللغز الفكري لدى فيليب. وكانتَ شكواه الرئيسية («لماذا لا أستطيع أن أفعل ما أريد أن أفعله فعلاً؟») مثالاً جذاباً لشلل الإرادة. ومع أن العلاج لم يكن مفيداً لفيليب، فقد سهّل بشكل رائع قدرة جوليوس على الكتابة، ووجدت أفكار عديدة من تلك الجلسات طريقها إلى مقالته الشهيرة «*المُعالج النفساني والإرادة*» وإلى كتابه «*التمنّي والإرادة والعمل*». ولمعت فكرة في رأسه بأنه قد يكون قد استغلّ فيليب. ربما الآن، بإحساسه المتصاعد بالتواصل، يمكنه أن يخلّص نفسه، وقد ينجح في ما أخفق فيه من قبل.

كانت البناية يونيون ٤٣١ بسيطة مبنية من الجصّ تقع عند ناصية الشارع. عند مدخل البناية قرأ جوليوس اسم فيليب على لوحة الدليل: «سلايت فيليب: دكتوراه، استشارات فلسفية». استشارات فلسفية؟ ما هذا بحقّ الجحيم؟ وماذا بعد، قال جوليوس متذمراً، سنرى حلاقين يعالجون اللوزتين، وبائعي خضراوات يقدمون استشارات عن البقوليات. صعد الدرج وضغط الجرس.

انبعث صوت أزيز عندما فُتح قفل الباب، ودلف جوليوس إلى غرفة انتظار صغيرة جدرانها عارية مؤثثة بأريكة صغيرة منفّرة من الفينيل الأسود. وعلى مسافة بضع أقدام، عند المدخل المفضي إلى مكتبه، وقف فيليب، ومن دون أن يقترب، أشار إلى جوليوس بأن يدخل. لم يمدّ يده لمصافحته.

قارن جوليوس بين هيئة فيليب الآن وهيئته القابعة في ذاكرته. إنها متطابقة إلى درجة كبيرة. لم يطرأ عليه تغيير كبير خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، سوى ظهور بضع تجاعيد ناعمة حول عينيه، وترهل طفيف عند رقبته. وشعره البني الفاتح لا يزال ممشّطاً باستقامة إلى الخلف، ولا تزال هاتان العينان الخضراوان حادّتين، وظلتا تتحاشيان

النظر إليه مباشرة. وتذكّر جوليوس كيف أنه نادراً ما كانت نظراتهما تلتقي طوال السنوات التي التقيا خلالها. ذكّره فيليب بأحد أولئك الأطفال المكتفين ذاتياً الذي كان يجلس في قاعة المحاضرات ولا يدوّن أي ملاحظات قط، بينما كان هو والطلاب الآخرون يدوّنون كلّ عبارة.

عندما دخل إلى مكتب فيليب، سجل جوليوس ملاحظة ذكية سريعة عن الأثاث الإسبارطي ـ طاولة مكتب بالية في حالة فوضى، كرسيان غير متماثلين يبدو أنهما غير مريحين، وجدار تزيّنه شهادة فقط. لكنّه فكّر في الجانب الأفضل من ذلك، وجلس على الكرسي الذي أشار إليه فيليب. فعل ذلك مباشرة، وانتظر تعليمات فيليب الأخرى.

«حسناً، لقد مضى زمن طويل، طويل جداً»، قال فيليب بصوت مهني رسمي ولم يبد أي إشارة تدل على التوتر أو العصبية بأنه هو من يقود هذا اللقاء وبذلك، فإنه يتبادل الأدوار مع طبيبه القديم.

«اثنتان وعشرون سنة. لقد دققت في سجلاتي للتو».

«ولماذا الآن، يا دكتور هيرزفيلد؟».

«هل يعني هذا أننا أنهينا الحديث؟» لا، لا! قال جوليوس موبّخاً نفسه. لننس الأمر! تذكّر بأن فيليب لا يتمتع بروح الدعابة.

بدا فيليب رابط الجأش. «تقنية أساسية في إجراء المقابلات يا دكتور هيرزفيلد. إنك تعرف الروتين. حدّد الإطار. لقد حدّدنا المكان، والزمان ـ إني أقدم للمريض جلسة لمدة ستّين دقيقة، بالمصادفة، ليست الساعة النفسية لمدة خمسين دقيقة ـ والأتعاب، أو عدمها. وتكمن الخطوة التالية في الانتقال إلى الغرض والأهداف. أحاول أن أكون في خدمتك يا دكتور هيرزفيلد، لتصبح هذه الجلسة فعالة ومفيدة بقدر الإمكان».

«حسناً يا فيليب. إني أقدّر لك ذلك. إن سؤالك «لماذا الآن؟» ليس سؤالاً سيئاً على الإطلاق ـ فأنا أطرحه دائماً. إنه يركّز الجلسة. يدخلنا إلى صلب الموضوع مباشرة. كما أخبرتك بالهاتف، بعض المشاكل

الصحية، مشاكل صحية جدية جعلتني أرغب في أن أنظر إلى الوراء، أقيّم الأشياء، أقيّم عملي مع المرضى الذين كنت قد عالجتهم. ربما كان عمري ـ بالخلاصة. أعتقد أنك عندما تبلغ الخامسة والستين ستفهم السبب».

«لا يبدو ذلك مقنعاً. إن سبب رغبتك في رؤيتي أو رؤية أيّ من مرضاك السابقين لا تبدو لي، ولا توجد لديّ أيّ ميول في هذا الاتجاه. إذ يدفع لي مرضاي أجراً، ومقابل ذلك، فإني أقدّم لهم استشارتي الخبيرة، وبذلك تنتهي الصفقة المبرمة بيننا. وعندما نفترق، فإنهم يشعرون بأنّهم حصلوا على قيمة جيدة، وأنا أشعر بأنّني قدّمت لهم كلّ ما بوسعي تقديمه لهم. ولا أتخيّل أنني قد أرغب في زيارتهم في المستقبل. بالرغم من ذلك، فأنا في خدمتك. من أين نبدأ؟».

من عادة جوليوس أن يصمت قليلاً في الحديث عندما يجري لقاء مع أحد. كانت تلك إحدى نقاط قوته ـ وكان الناس يثقون به لأنه رجل صريح، أما اليوم فقد أرغم نفسه على أن يتراجع. لقد أذهلته فظاظة فيليب، لكنّه لم يأت إلى هنا ليسدي نصيحة لفيليب. إن ما يريده هو أن يتعرف على النسخة الصادقة من عمله مع فيليب، وكلما قلّ حديث جوليوس عن حالته العقلية، كان أفضل. ولو كان فيليب يعرف مدى شعوره باليأس، فإن بحثه عن إيجاد معنى، رغبته الجامحة في أن يكون قد أدى دوراً فعّالاً في حياة فيليب، قد يمنحه، بدافع الإحساس بالصدقة، التأكيد الذي يريده. أو ربما، بسبب تناقضه، فقد يتصرف فيليب بالعكس تماماً.

«حسناً، دعني أبدأ بشكرك على ملاطفتي والموافقة على أن نلتقي. وهذا ما أريد أن أعرفه: أولاً، رأيك بالعمل الذي قمنا به ـ كيف ساعدك وكيف لم يساعدك ـ وثانياً ـ وهذا طلب طويل ـ أودّ أن أسمع نبذة كاملة عن حياتك منذ آخر لقاء لنا. فأنا أحبّ دائما أن أسمع نهاية القصص».

إن كان فيليب قد فوجئ بهذا الطلب، فإنه لم يبد أي إشارة تدلّ على ذلك، بل جلس صامتاً لبضع لحظات، عيناه مغمضتان، أطراف أصابع

يديه تلامس بعضها بعضاً. وبسرعة مدروسة بعناية، قال: «لم تصل القصّة إلى نهايتها بعد ـ في الواقع، حصل انعطاف ملحوظ في حياتي في السنوات القليلة الماضية جعلني أشعر بأنها قد بدأت الآن. لكنني سأحافظ على تسلسل زمني دقيق للأحداث وأبدأ علاجي. بشكل عام، يجب أن أقول إن علاجي معك فشل فشلاً ذريعاً. كان فشلاً مكلفاً من حيث الوقت والتكلفة. أظن أنني قمت بعملي كمريض على أكمل وجه. وبقدر ما تسعفني ذاكرتي، كنت متعاوناً معك إلى أبعد الحدود، وبذلت قصارى جهدي، وكنت أحضر الجلسات بانتظام، وأسددّ الفواتير المترتبة عليّ، وأتذكّر الأحلام، وكنت أطبق كل ما تطلبه مني. ألا توافق على ذلك؟».

«أوافق على أنك كنت مريضاً متعاوناً؟ هذا أمر مؤكد، بل إني أقول أكثر من ذلك. أذكر أنك كنت مريضاً متفانياً».

نظر إلى السقف ثانية، هزّ فيليب رأسه وتابع يقول: «كما أذكر، رأيتك ثلاث سنوات كاملة. وفي معظم تلك الفترة، كنا نلتقي مرّتين في الأسبوع. هذا يعني ساعات كثيرة ـ لا تقل عن مئتي ساعة. نحو عشرين ألف دولار».

كاد جوليوس أن يقفز من مقعده. فعندما يقول مريض شيئاً كهذا، فإنه كما لو أنه يجيب «قطرة في دلو». ثم يشير إلى أن القضايا موضوع العلاج تشكل معضلة خلال شطر كبير من حياة المريض يصعب عليه أن يتوقع أنها ستسفر عن نتيجة بسرعة. وغالباً ما كان يضيف ملاحظة شخصية ـ بأنّ الفترة الأولى من علاجه، تحليل في أثناء تدريبه، هي خمس جلسات في الأسبوع لمدة ثلاث سنوات ـ أي ما يزيد على سبعمائة ساعة. لكن فيليب لم يعد مريضه الآن، وهو ليس هنا ليقنع فيليب بأيّ شيء. بل إنه هنا ليستمع. عضّ شفتيه ولاذ بالصمت.

ثـم تابع فيليب. «عندما بدأت معك كنت في الدرك الأسفل من وجودي، لا بل «في الحضيض» عبارة ملائمة أكثر. فخلال عملي

ككيميائي أستنبط وسائل جديدة لمكافحة الحشرات، شعرت بالملل من هذه المهنة، مللت من حياتي. مللت من كلّ شيء، إلّا من قراءة الفلسفة وتأمّل ألغاز التاريخ العظيمة. لكن ما دعاني إلى أن آتي لاستشارتك هو سلوكي الجنسي. إنك تذكر ذلك طبعاً؟».

هزّ جوليوس رأسه.

«لم أكن أستطيع التحكم في نفسي، وكان كلّ ما أريد أن أفعله هو ممارسة الجنس. كنت مهووساً به. كنت نهماً لا أرتوي منه. إني أرتجف عندما أتذكر كيف كنت، الحياة التي عشتها. كنت أحاول إغواء أكبر عدد ممكن من النساء. وبعد الجماع، كنت أحظى بفترة استراحة قصيرة من هذا الدافع القهري، لكن ما إن تنقضي فترة قصيرة حتى كانت شهوتي تستيقظ وتتملكني بقوة مرة أخرى».

كتم جوليوس ابتسامة لاستخدام فيليب كلمة جماع؛ فقد تذكّر الآن المفارقة الغريبة لتمرّغ فيليب في شهوانيته، لكنه أصبح يتحاشى استخدام الكلمات المؤلفة من أربعة أحرف.

«في تلك الفترة القصيرة فقط ـ بعد الجماع مباشرة»، واصل فيليب قائلاً، «لم أكن أستطيع أن أعيش بحرية، بانسجام ـ إلّا عندما كنت أتواصل مع عقول الماضي العظيمة».

«أتذكّرك وأتذكّر أرسطرخس وزينو».

«نعم، هؤلاء وآخرون كثيرون منذ ذلك الحين، لكن فترات الاستراحة، والأوقات التي تخلو من الوسواس القهري، كانت كلّها قصيرة جداً. لقد تحررت الآن. أصبحت الآن أقيم في عالم أرقى طوال الوقت. لكن دعني أواصل مراجعة علاجي معك. أليس هذا طلبك الأساسي؟».

أومأ جوليوس.

«أتذكّر أنني تعلقت كثيراً بعلاجنا. أصبح شعوراً قهرياً آخر، لكن

لسوء الحظ لم يحل محل القهر الجنسي بل تعايش معه فقط. أذكر أنني كنت أنتظر بلهفة كلّ ساعة لكنها كانت تنتهي بإحباط. يصعب تذكّر معظم ما قمنا به ـ أظن أنّنا سعينا لفهم وسواسي القهري من ناحية تاريخ حياتي، ومعرفتها. حاولنا معرفة ذلك دائماً. ومع ذلك، فقد كان كلّ حلّ موضع ريبة بالنسبة لي. ولم تُناقش أي فرضية مناقشة مستفيضة، والأسوأ من ذلك، لم يستطع أحد أن يؤثر بأي شكل على وسواسي القهري.

«كان وسواساً قهرياً. كنت أعرف ذلك، وكنت أعرف أنني يجب أن أتوقف. استغرق ذلك مني وقتاً طويلاً، لكني أدركت في النهاية أنك لم تعرف كيف تساعدني وفقدت الثقة بعملنا معاً. أذكر أنك أمضيت فترات طويلة في استكشاف كنه علاقاتي ـ مع الآخرين ولاسيما معك. لم يكن ذلك يعني لي شيئاً. لم يكن كذلك يومذاك، وظلّ كذلك. ومع مرور الوقت، أصبح الاجتماع بك ممضاً، وأصبح الاستمرار في استكشاف علاقتنا مؤلماً كما لو كانت حقيقية أو دائمة أو أيّ شيء ما عدا كونها كذلك: شراء خدمة». صمت فيليب ونظر إلى جوليوس ورفع راحتي يديه إلى الأعلى كأنه يقول: «كنت تريدها صريحة ومباشرة ـ ها هي ذي».

صُعق جوليوس. صوت شخص آخر أجاب عنه: «هذا كلام صريح ومباشر، حسناً. شكراً لك يا فيليب. هيا أكمل قصّتك، ماذا حدث لك منذ ذلك الحين؟».

وضع فيليب راحتي كفيه معاً، وأسند ذقنه إلى أطراف أصابعه، وحدّق في السقف ليستجمع أفكاره، وتابع قائلاً: «حسناً، لنر. سأبدأ العمل. حققت خبرتي في استنباط عوامل هرمونية لمنع تكاثر الحشرات نتائج مهمة للشركة، وارتفع مرتبي. لكنّي بدأت أشعر بالملل من الكيمياء. وعندما بلغت الثلاثين، استحق أجل أحد صناديق الائتمان الذي أودعه والدي فانتقل إليّ. كان ذلك هدية الحرية. أصبح لديّ ما يكفيني من المال لأعيش لسنوات عدّة، وألغيت اشتراكاتي في نشرات الكيمياء،

وخرجت من القوة العاملة، وحوّلت اهتمامي إلى ما كنت أرغب في أن أفعله حقاً في الحياة، البحث عن الحكمة.

«كنت ما أزال تعيساً، قلقاً، وكان الجنس لا يزال يقودني. جرّبت معالجين آخرين، لكن لم يفلح أحد في مساعدتي أكثر مما ساعدتني أنت. اقترح أحد المعالجين الذي كان قد درس يونغ، بأنني احتاج إلى أكثر من علاج نفسي، وقال إن أفضل أمل للشفاء بالنسبة لمدمن مثلي هو التحوّل الروحي. وقادني اقتراحه هذا إلى دراسة الفلسفة الدينية، لا سيّما أفكار وممارسات الشرق الأقصى ـ الوحيدة التي تمنحك أي معنى ـ أما جميع الديانات الأخرى فلم تتمكن من سبر المسائل الفلسفية الأساسية، بل استخدمت الله كوسيلة لتفادي التحليل الفلسفي الحقيقي. حتى إنني أمضيت بضعة أسابيع في خلوات للتأمل. لم يكن ذلك غير ذي أهمية. لكنه لم يوقف الهوس لديّ، بل تملكني شعور بأن هناك شيئاً مهماً. لم أكن مستعداً بعد لذلك.

«في هذه الأثناء، باستثناء فترة العفة القسرية في تلك الخلوات، وحتى هناك تمكّنت من إيجاد بضعة أبواب أتسلل منها، وواصلت السعي وراء الجنس. وكما في السابق، مارست الجنس مع نساء كثيرات، بالعشرات، بالمئات. امرأتان في اليوم أحياناً، في أي مكان وفي أي وقت يمكنني أن أجدهن فيه ـ تماماً كما كنت أراك. الجنس مرة، وأحياناً مرّتين، مع امرأة ثم أغادر. يتلاشى بعدها الشعور بالإثارة. إنك تعرف القول القديم «لا يمكنك أن تمارس الجنس مع نفس الفتاة مرتين». رفع فيليب ذقنه من بين أطراف أصابعه والتفت إلى جوليوس.

«هذا التعليق الأخير بقصد الدعابة يا دكتور هيرزفيلد. أتذكّر أنك قلت ذات مرة إنه من الملاحظ أنني لم أقل لك دعابة طوال الساعات التي أمضيناها معاً؟».

أرغم جوليوس الذي لم يكن الآن في مزاج للمزاح شفتيه على الابتسام ابتسامة عريضة مع أنه أدرك أن ملاحظة فيليب الذكية تشير إلى

شيء كان قد قاله هو نفسه لفيليب ذات يوم. تخيّل جوليوس فيليب دمية ميكانيكية ذات مفتاح كبير بارز في أعلى رأسه. حان الوقت لتدوير المفتاح ثانية. «ثم، ماذا جرى؟».

محدّقاً في السقف، واصل فيليب كلامه: «ثمّ، في أحد الأيام توصلت إلى قرار بالغ الأهمية. فبما أنه لم يتمكن أي معالج من مساعدتي بأي شكل من الأشكال، وآسف أن أقول يا دكتور هيرزفيلد إنك واحد منهم».

«لقد بدأت أفهم هذه الفكرة بالتحديد»، قاطعه جوليوس، ثمّ أضاف بسرعة، «لا داع لأي اعتذار. إنك تجيب عن أسئلتي بصدق».

«آسف، لم أقصد أن أتكلم عن ذلك. ولكي أواصل، بما أن العلاج لم يكن هو الجواب، فقد قرّرت أن أعالج نفسي ـ فترة من القراءة، استوعبت فيها أفكار أكثر الرجال حكمة الذين عاشوا على مدى التاريخ. وهكذا بدأت أقرأ كتب الفلسفة كلّها بانتظام، بدءاً من الإغريق قبل سقراط وحتى بوبر وبولز وكوين. وبعد سنة من الدراسة لم تتحسن شهوتي القهرية، لكنّي توصّلت إلى بعض القرارات المهمة: وهي أنني أسير على المسار الصحيح وأن الفلسفة هي مقصدي ومستقري. كانت تلك خطوة رئيسية ـ أذكر أحاديثنا بأنه لن يكون لي مكان أستقر فيه في العالم».

هزّ جوليوس رأسه، وقال: «نعم، أذكر ذلك أيضاً».

«قرّرت أنني ما دمت سأمضي سنوات في قراءة الفلسفة، فمن الممكن أن أتخذها أيضاً مهنة لي. لأن نقودي لن تدوم إلى الأبد. فسجلت في برنامج لنيل الدكتوراه في الفلسفة في جامعة كولومبيا، وأبليت بلاء حسناً، وكتبت أطروحة جيدة، وبعد خمس سنوات، حصلت على درجة الدكتوراه في الفلسفة. وبدأت أعلّم، ثمّ، قبل سنتين فقط، بدأت أهتم بالفلسفة التطبيقية، أو كما أفضّل أن أسمّيها الفلسفة السريرية. وهكذا بدأت حتى الآن».

«لم تنه كلامك عن شفائك».

«حسن، في جامعة كولومبيا، في أثناء قراءاتي، أقمت علاقة مع معالج نفساني. كان المعالج المثالي، المعالج الذي قدّم لي ما عجز أي معالج آخر عن تقديمه لي».

«في نيويورك، أليس كذلك؟ ما اسمه؟ في جامعة كولومبيا؟ من أي معهد؟».

«اسمه آرثر...» صمت فيليب وراقب جوليوس وعلى شفتيه آثار ابتسامة عريضة.

«آرثر؟».

«نعم، آرثر شوبنهاور، معالجي».

«شوبنهاور؟ إنك تسخر مني يا فيليب».

«لم أكن جدياً في حياتي أكثر من الآن».

«لا أعرف الكثير عن شوبنهاور: الكليشيات المعروفة عن تشاؤمه الكئيب فقط. لم أسمع اسمه يُذكر قط في مجال العلاج النفساني. كيف تمكّن من مساعدتك؟ ماذا...؟».

«أكره أن أقطع الجلسة يا دكتور هيرزفيلد، لكن سيأتيني مريض الآن وأنا ما أزال أرفض أن أتأخر عن مواعيدي، هذا لم يتغيّر. أرجو أن تعطيني بطاقتك. سأحدّثك مزيداً عنه لاحقاً. كان المعالج الملائم لي. لا أبالغ عندما أقول إنّني مدين بحياتي لهذا العبقري، آرثر شوبنهاور».

الموهبة مثل قناص يصيب هدفاً لا يستطيع أن يصيبه الآخرون؛
والعبقري مثل قناص يصيب هدفاً لا يستطيع أن يراه الآخرون.

٤

١٧٨٧ ـ العبقري: بداية عاصفة وانطلاقة خاطئة

بداية العاصفة ـ لم يكن طول العبقري يزيد على عشرة سنتميترات عندما هبّت العواصف. ففي أيلول (سبتمبر) ١٧٨٧، عكّر البحر السلَوِيّ (السائِل الذي يُحيط بِالجنين في الرحِم) الذي يغلّفه، وبدأ يلقي به يميناً ويساراً مهدّداً ارتباطه الهشّ بأن يلقي به إلى الشاطئ الرحمي. وانبعثت روائح الغضب والخوف من مياه البحر. غلّفته المواد الكيمياوية الحامضة من الحنين واليأس. لقد ولّت الأيام الحلوّة الرائقة المهدئة إلى الأبد. وبما أنه لا يوجد أي مكان يمكنه أن يعود إليه ولا يوجد أمل بالراحة، فقد اندلعت وصلاته العصبية الصغيرة وانطلقت في كلّ اتجاه.

إن ما تتعلّمه في الصغر هو أفضل شيء تتعلّمه. لم ينس آرثر شوبنهاور الدروس التي تلقاها عندما كان صغيراً.

انطلاقة خاطئة (أو كيف كاد آرثر شوبنهاور أن يصبح رجلاً إنكليزياً)
ـ آرثر، آرتور، آرثررر. خدش هاينرش فلوريو شوبنهاور كلّ كلمة بلسانه. آرثر ـ إنه اسم جيد، اسم رائع لرئيس شركة شوبنهاور التجارية الضخمة.

كان ذلك في عام ١٧٨٧، وكانت زوجته الشابة، يوهنا حاملاً بشهرين عندما اتخذ هاينرش شوبنهاور قراره: فإذا أنجب ابناً، فسيسمّيه

آرثر. كان هاينرش رجلاً محترماً مبجلاً، ولم يكن يسمح بأن يكون هناك شيء يتقدم على الواجب. وكما نقل أسلافه إدارة شركة شوبنهاور التجارية الضخمة إليه، فإنه سينقلها بدوره إلى ابنه. كانت تلك أزمنة عصيبة محفوفة بالمخاطر، إلا أن هاينرش كان متيقناً من أنّ ابنه الذي لم يولد بعد سيدير الشركة وينقلها بنجاح إلى القرن التاسع عشر. كان آرثر الاسم المثالي لهذا المنصب. إذ يُلفظ هذا الاسم بجميع اللغات الأوروبية الرئيسية، اسم ينسلّ برشاقة ولطافة ويتجاوز جميع الحدود الوطنية. والأهم من كلّ ذلك، فهو اسم إنكليزي.

ولقرون عديدة أدار أسلاف هاينرش أعمال شركة شوبنهاور بهمة ونجاح عظيمين. وكان جدّ هاينرش قد استضاف ذات يوم كاثرين العظيمة، ملكة روسيا. ولتوفير أسباب الراحة لها، طلب كمية من البراندي وصبّها فوق أرضية الجناح الذي ستقيم فيه الضيفة المبجلة، ثمّ أشعل فيها النار لكي تصبح الغرف جافّة وعطرة. وزار فردريك، ملك بروسيا، والد هاينرش الذي أمضى ساعات يحاول إقناعه بنقل الشركة من دانزيغ إلى بروسيا، لكنه لم يفلح في ذلك. وانتقلت الآن إدارة الشركة التجارية العظيمة إلى هاينرش الذي كان على قناعة بأن أحد أفراد أسرة شوبنهاور يدعى آرثر سينقل الشركة إلى مستقبل باهر.

كانت شركة شوبنهاور التجارية، التي تتعامل في تجارة الخشب والحبوب والبن، إحدى المؤسسات الرائدة منذ فترة طويلة في دانزيغ، المدينة الهانزية الموقّرة التي سيطرت على التجارة في منطقة البلطيق منذ أمد بعيد. لكن أوقاتاً عصيبة حلّت بهذه المدينة الحرة العظيمة. ومع تهديد بروسيا من الغربَ وروسيا من الشرق، ومع ضعف بولندا التي لم تعد قادرة على الاستمرار في ضمان سيادة دانزيغ، لم يكن لدى هاينرش شوبنهاور أدنى شكّ في أن أيام دانزيغ التي امتازت بالحرية والاستقرار التجاري قد شارفت على الانتهاء. وساد الاضطراب السياسي والمالي جميع أنحاء أوروبا ـ ما عدا إنكلترا. إنكلترا هي الصخرة. إنكلترا هي

المستقبل. فوجدت شركة وأسرة شوبنهاور ملاذاً آمناً في إنكلترا، لا، بل أكثر من ملاذ آمن، لأنها ستزدهر وتكبر إذا ولد رئيسها في المستقبل رجلاً إنكليزياً ويحمل اسماً إنكليزياً. هير آرثر شوبنهاور ـ لا بل مستر آرثر شوبنهاور ـ مواطن إنكليزي يترأس الشركة: هذه هي التذكرة إلى المستقبل.

غير عابئ باعتراضات زوجته المراهقة الحامل التي توسلت كثيراً لكي تبقى في كنف أمّها ورعايتها أثناء ولادة طفلها الأول، انطلق، وزوجته تتبعه، في رحلة طويلة إلى إنكلترا. كانت يوهنا خائفة لكن عليها أن تذعن وتستلم لإرادة زوجها التي لا تلين. لكن ما إن استقرت يوهنا في لندن، حتى عادت إليها روحها الفائرة وسرعان ما أسرت فتنتها وسحرها المجتمع اللندني. وكتبت في مذكراتها عن رحلتها أن أصدقاءها الإنكليز المحبّين الجدد وفرّوا لها الطمأنينة والراحة، وأنها سرعان ما أصبحت في مركز الاهتمام.

ويبدو أن هذا القدر من الاهتمام والحبّ قد فاقم من غيرة هاينرش الصارم وتحوّلت إلى رعب حقيقي. غير قادر على التقاط أنفاسه، وأحسّ بأن التوتّر الذي بدأ يعتمل في صدره سيشطره إلى قسمين، كان عليه أن يفعل شيئاً. فغيّر خطته، وغادر لندن فجأة، وأعاد زوجته المعترضة التي كانت في شهرها السادس من الحمل إلى دانزيغ في أثناء أحد أشدّ فصول الشتاء قسوة خلال القرن. وبعد سنوات عدّة وصفت يوهنا مشاعرها عندما أُرغمت على مغادرة لندن: «لم يساعدني أحد، كان علي أن أغالب حزني وحدي. لقد جرّني الرجل ليداري قلقه، في منتصف الطريق عبر أوروبا».

هذا هو إذاً المكان العاصف لحمل العبقري: زواج من دون حبّ، أمّ محتجّة، خائفة؛ أبّ غيور قلق، ورحلتان شاقتان عبر أوروبا في شتاء عاصف.

الحياة السعيدة مستحيلة؛

وأفضل حياة يستطيع المرء

أن يعيشها هي الحياة البطولية.

٥

كان جوليوس مذهولاً عندما غادر مكتب فيليب. أمسك الدرابزين وراح يهبط الدرج مترنحاً، حتى خرج إلى نور الشمس. وقف أمام بناية فيليب وحاول أن يقرر إن كان عليه أن ينعطف يساراً أم يميناً. لقد جلبت له حرية عصر ذلك اليوم التي لم يكن مخططاً لها، التشويش والاضطراب بدلاً من أن تجلب له البهجة. كان جوليوس رجلاً منظماً على الدوام. فعندما لا يكون عنده مرضى ليراهم، كانت توجد لديه مشاريع ونشاطات مهمة أخرى ـ كتابة، تعليم، لعب التنس، أبحاث ـ تشغل اهتمامه. أما اليوم فلم يكن يبدو أن لديه شيئاً مهماً. كان يشكّ في أنه لا يوجد شيء مهم، وكان عقله يضع اعتباطياً مشاريع مهمة، لكنها سرعان ما تتلاشى وتزول آثارها على نحو ماكر. أما اليوم فقد بدأ يرى من منظار مكر حياة عاشها. لا يوجد لديه اليوم شيء مهم يفعله، فراح يسير على غير هدى في شارع يونيون ستريت.

عند نهاية الجزء الذي توجد فيه محلات عند تقاطع شارع فيلمور، دنت منه امرأة عجوز تتكئ على عكاز تصدر صوتاً صاخباً. يا إلهي، يا لهذا المشهد! قال جوليوس لنفسه. في البداية أشاح بوجهه، لكنه التفتَ إليها وأمعن النظر فيها. كانت ثيابها ـ طبقات متعددة من البلوزات يغطيها

معطف ضخم ـ لا تتلاءم مع هذا اليوم المشمس. وكان خدّاها السنجابيان يرتجّان بقوة، لا شك لإبقاء طاقم أسنانها ثابتاً في مكانه. لكن الأسوأ من كلّ ذلك، تلك الزائدة اللحمية الضخمة التي تعتلي أحد منخاريها ـ ثؤلولة وردية تكاد تكون شفافة بحجم حبة عنب، تنبت منها شعرات خشنة طويلة عدّة.

كانت *السيدة العجوز الغبية* هي الفكرة الآتية التي جالت في رأس جوليوس، لكنه ألغاها على الفور: «قد لا تكون أكبر مني سناً. في الواقع، هذا هو مستقبلي ـ الثؤلولة، العكاز، كرسي المعوّقين». وعندما اقتربت منه، سمعها تتمتم: «الآن، لأرى ماذا يوجد في تلك المحلات. ماذا سيكون فيها؟ ماذا سأجد؟».

فقال لها جوليوس بصوت عال: «لا أعرف يا سيدتي فإني أعبر هذا الطريق فقط».

«لم أكلّمك».

«لا أرى أحداً آخر غيري هنا».

«ومع ذلك فهذا لا يعني أنني أكلّمك».

«إن لم أكن أنا، فمن يكون؟» ووضع جوليوس يديه على عينيه ونظر إلى أعلى وأسفل الشارع الخاوي بطريقة التمثيل الصامت.

«ما دخلك أيها المتسكع الملعون؟»، تمتمت ودفعت عكازها أمامه ومضت.

تسمّر جوليوس في مكانه للحظة. تطلع حوله ليتأكد من أن أحداً لم ير ما حدث. يا إلهي، قال لنفسه، ماذا أفعل؟ من الجيد أنه لا يوجد عندي مرضى بعد ظهر اليوم. لا شكّ في ذلك: إن قضاء وقت مع فيليب سلايت لا يناسب مزاجي.

استدار نحو الرائحة المنعشة التي عبقت من مقهى ستاربكس، فقرّر جوليوس أن قضاء ساعة مع فيليب يتطلب منه أن يستمتع بفنجان

إسبريسو مزدوج. جلس على مقعد بالقرب من النافذة وراح يراقب المارة. لم ير رؤوساً يكسوها الشيب، سواء داخل المقهى أو خارجه. رجل في الخامسة والستين أكبر رواد المقهى سناً، لا بل إنه أكبر من جميع المتقدمين سناً، وها هو يتقدم في السن بسرعة في داخله في حين تواصل «الميلانوما» غزوها الصامت في داخل جسده.

عاملتان تضجان بالحيوية تقفان وراء الكاونتر تغازلان بعض رواد المقهى الشباب. لم تكن فتيات كهاتين ينظرن نحوه. لم تغازله أي فتاة هكذا عندما كان شاباً، ولن ينظرن إليه اليوم بعد أن تقدّم في العمر. آن الأوان ليدرك بأنّ أيامه لن تعود أبداً، وأن هاتين الفتاتين المهيأتين للزواج ذواتا الصدر العامر والوجهين اللذين يشبهان وجه «سنو وايت» لن تتفضّلا عليه ولا حتى بابتسامة خجولة ويقلن له: «هاي، لم نرك هنا منذ فترة. كيف حالك؟» لن يحدث شيء من هذا القبيل. إن الحياة تسير في خط مستقيم ولا يمكن عكس اتجاهها.

كفى. كفى رثاء الذات. كان يعرف ماذا يقول للمتذمّرين: جد طريقة تجعلك توجّه نظرتك إلى الخارج، تمدّد إلى خارج نفسك. نعم، هذه هي الطريقة الوحيدة ـ نعم، ابحث عن طريقة تحوّل فيها هذا الخراء إلى ذهب. لم لا تكتب عنها؟ ربما كيوميات شخصية. ثمّ شيء مرئي أكثر ـ من يعرف ماذا؟ ـ ربّما مقالة لمجلّة الجمعية النفسية الأمريكية عن «طبيب نفساني في مواجهة الموت». أو ربما مقالة عامة لمجلة الصنداي تايمز. يمكنه أن يفعل ذلك. أو لماذا لا يكتب كتاباً؟ شيئاً يشبه «سيرة ذاتية للموت». يا لها من فكرة معقولة! أحياناً عندما تجد عنواناً مثيراً، فإن الكتاب يكتب نفسه. طلب جوليوس فنجان قهوة إسبريسو، أخرج قلمه وبسط كيساً ورقياً التقطه من أرضية المقهى. عندما بدأ يكتب، لوى شفتيه إلى ابتسامة طفيفة لبداية متواضعة لأصول كتابه القوي.

الجمعة، ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠ ي. ا. م (يوم اكتشاف الموت) + ١٦

لا ريب في ذلك: كانت فكرة البحث عن فيليب سلايت فكرة سيئة. كانت فكرة سيئة لأني ظننت أنني أستطيع أن أحصل على شيء منه. كانت فكرة لقائه فكرة سيئة. لن أكررها أبداً. فيليب معالج نفسي؟ شيء لا يصدق ـ معالج لا يوجد لديه أي شعور بالتعاطف، ويفتقر إلى أدنى شعور بالحساسية أو الاهتمام بالآخرين. لقد سمعني أقول على الهاتف إن لديّ مشاكل صحية وإن هذه المشاكل هي جزء من رغبتي في رؤيته. لكنه، بالرغم من ذلك، لم يسألني سؤالاً شخصياً واحداً عن حالتي الصحية. حتى إنه لم يصافحني. إنه شخص بارد، غير إنساني. ظل مبتعداً عني مسافة عشرة أقدام. لقد بذلت كل جهدي لمساعدة هذا الرجل طوال ثلاث سنوات. لقد أعطيته كلّ ما كان بوسعي. أعطيته أفضل ما عندي. إنه وغد ناكر للجميل.

أوه نعم، أعرف ماذا سيقول. أستطيع أن أسمع ذلك الصوت الحاد الذي يخلو من أي روح: «لقد عقدنا، أنا وأنت، صفقة تجارية: أنا أعطيتك النقود وأنت قدمت لي خدماتك الخبيرة. كنت أسدد على الفور أجر كلّ ساعة لقاء استشارتك. لقد انتهت الصفقة. إننا متعادلان؛ أنا لست مديناً لك بشيء».

ثم يضيف، «أقل من لا شيء يا دكتور هيرزفيلد، فقد حصلت على أفضل ما في صفقتنا. لقد حصلت على أجرك بالكامل، في حين أنني لم أحصل على شيء ذي قيمة مقابل ذلك».

أسوأ ما في الأمر هو أنه على حقّ. إنه لا يدين لي بشيء. إنن

ي أنعق بأن العلاج بالتحليل النفسي هو خدمة حياة. خدمة تُقدّم بمحبّة. لا يوجد لي أي فضل عليه. لماذا أتوقّع منه أي شيء؟ وفي جميع الأحوال، مهما أردت، فلا يوجد لديه شيء يقدّمه.

«لا يوجد لديه شيء يقدّمه» - كم مرّة كررت هذه العبارة على أسماع المرضى - عن الأزواج أو الزوجات أو الآباء. ومع ذلك فإني لا أستطيع أن أترك فيليب، هذا الرجل الصارم، الفظ، غير المعطاء. هل أكتب قصيدة عن الالتزام الذي يجب أن يدين به المرضى في السنوات الأخيرة لمعالجيهم؟

ولماذا يهمّ الأمر كثيراً؟ ولماذا، من بين جميع مرضاي، أختار أن أتصل به؟ ما أزال لا أعرف. لقد وجدت مفتاحاً للغز في ملاحظات دراسات الحالة - الإحساس بأنني أتكلّم مع نفسي وأنا شاب صغير. قد يكون هناك أكثر من أثر واحد لفيليب في داخلي، عندما كانت الهرمونات تخفق في داخلي عندما كنت مراهقاً وعندما كنت في العشرينيات والثلاثينيات من عمري، كان يخيّل إليّ أنني كنت أعرف ماذا يجري لي، ظننت أنه يوجد لدي مسلك داخلي للشفاء منه. ألهذا السبب بذلت كلّ ما بوسعي؟ لماذا حصل على اهتمام وطاقة منّي أكثر من معظم مرضاي الآخرين مجتمعين؟ ففي كل عيادة معالج، يوجد دائماً مريض يستنفد قدراً غير متناسب من طاقة المعالج واهتمامه - وكان فيليب هو ذلك الشخص بالنسبة لي طوال ثلاث سنوات.

في ذلك المساء عاد جوليوس إلى البيت. عاد إلى بيت مظلم بارد. كان ابنه لاري قد أمضى الأيام الثلاثة الأخيرة معه لكنه عاد في صباح ذلك اليوم إلى بالتيمور حيث يجري أبحاثاً عصبية بيولوجية في جامعة جونس هوبكنز. أحسّ جوليوس بالارتياح لأن لاري غادره،لقد جلبت له النظرات الحزينة البادية على وجهه وجهوده المحبّة لكن الخرقاء ليريح والده الحزن أكثر مما تجلب الصفاء والراحة. وبدأ يتصل بمارتي، أحد زملائه في مجموعة دعمه، لكنه أحسّ بقنوط شديد، فأغلق الهاتف، وفتح حاسوبه ليسجل الملاحظات التي كان قد خربشها على الكيس الورقي المجعّد في مقهى ستاربكس. توجد لديك رسالة إلكترونية، «حيّاه» الحاسوب، ولمفاجأته كانت هناك رسالة من فيليب. فراح يقرأها بلهفة:

في نهاية حديثنا اليوم، سألتَ عن شوبنهاور وكيف أنه ساعدني بفلسفته. وأشرتَ أيضاً إلى أنّك قد ترغب في معرفة المزيد عنه. يخيّل إليّ أنّك قد تكون مهتمّاً بحضور المحاضرة التي سألقيها في كوستال كولدج يوم الإثنين المقبل، الساعة السابعة مساء (المكان: تويون هول، ٣٤٠ فولتن ستريت). أقوم بتدريس فصل عن الفلسفة الأوروبية، وسأقدّم يوم الإثنين لمحة عامة موجزة عن شوبنهاور (يجب أن أغطّي ألفي عام في اثني عشر أسبوعاً). قد يتاح لنا الوقت لندردش قليلاً بعد انتهاء المحاضرة. فيليب سلايت.

بدون تردد بعث جوليوس الرسالة التالية إلى فيليب: *شكراً. سأكون هناك*. فتح دفتر مواعيده على صفحة يوم الإثنين المقبل وكتب بقلم الرصاص «تويون هول، ٣٤٠ فولتن ستريت، الساعة ٧ مساء».

***

في أيام الإثنين يدير جوليوس مجموعة علاج من الرابعة والنصف حتى السادسة مساء. وفي وقت مبكر من اليوم، فكّر فيما إذا كان عليه أن يخبر المجموعة عن إصابته بالمرض. لكنه قرّر أن يؤجّل إخبار جميع مرضاه حتى يستعيد توازنه، لأن المجموعة قد تسبب له مشكلة مختلفة: فغالباً ما يركّز أعضاء المجموعة عليه شخصياً، وفرصة أن يكتشف أحد منهم أي تغيير في مزاجه ويعلّق عليه، أمر وارد تماماً.

لكن لم تكن لمخاوفه أي أساس. فقد قبل الأعضاء بسرعة العذر الذي قدّمه لهم بأنه أصيب بالإنفلونزا مما دعاه إلى إلغاء الجلستين السابقتين، وللتعويض عن الأسبوعين الأخيرين انتقل لدراسة حياة كلّ منهم. كان ستيوارت، وهو طبيب أطفال، بدين، قصير القامة، يبدو ساهماً باستمرار، كما لو كان مستعجلاً لينتقل إلى مريضه التالي. كان يبدو في عجلة من أمره ويطلب وقتاً إضافياً من المجموعة. كان ذلك أمراً غير عادي. فخلال السنة التي أمضاها ستيوارت في المجموعة قلما طلب مساعدة. كان قد انضم إلى المجموعة أصلاً بالإكراه: فقد أبلغته زوجته

برسالة إلكترونية أنه إذا لم ينضم إلى مجموعة علاج، ولم تطرأ عليه تغييرات هامة فإنها ستتركه. وأضافت أنّها أبلغته بذلك بالبريد الإلكتروني لأنه يبدي اهتماماً بقراءة الرسائل الإلكترونية أكثر مما يهتم بما يقال له مباشرة. وخلال الأسبوع الماضي، صعّدت زوجته من موقفها وتركت غرفة نومهما، وأمضى معظم فترة الجلسة في مساعدة ستيورات في استكشاف مشاعره إزاء انسحابها.

كان جوليوس يحبّ هذه المجموعة. ففي كثير من الأحيان، كانت شجاعة أعضائها تذهله، لأنهم كانوا يجدون دائماً آفاقاً جديدة، ويجازفون كثيراً. ولم تكن جلسة اليوم استثناء لذلك. فقد دعم جميع الأعضاء ستيوارت لاستعداده للكشف عن مواطن ضعفه. وفي نهاية الجلسة، شعر جوليوس بتحسن كبير. لقد انهمك تماماً في دراما هذه الجلسة ونسي محنته لمدة ساعة ونصف الساعة. لم يكن ذلك أمراً غير عادي. إن جميع أطباء العلاج الجماعي يعرفون المزايا الشافية الرائعة المتأصّلة في أجواء المجموعة النشيطة. وفي مرات عديدة كان جوليوس يدخل الجلسة مرتبكاً مضطرباً، ويغادرها وهو في حال أفضل بكثير مع أنه، بالطبع، لم يناقش بوضوح أياً من أموره الشخصية.

قلما كان يتاح له الوقت ليتناول وجبة عشاء سريعة في مطعم «وي بي سوشي» الذي لا يبعد كثيراً عن مكتبه. كان زبوناً منتظماً. عندما جلس حيّاه مارك، طاهي السوشي، بصوت مرتفع. عندما يكون لوحده، يفضّل أن يجلس دائماً إلى البار، لأنه مثل كلّ مرضاه لا يشعر بالراحة إذا جلس إلى طاولة ليتناول طعامه وحده.

طلب جوليوس وجبته المعتادة: لفّات سوشي كاليفورنيا، وسمك الإنكليس المشوي، وتشكيلة من ماكي النباتية. كان يحبّ السوشي لكنه كان يحرص على تجنب تناول السمك النيء لخشيته من الطفيليات. كل تلك المعركة لمواجه المعتدين الخارجيين ـ الآن، يا لها من نكتة. يا لها

من مفارقة أن كل ذلك سيكون، في نهاية الأمر، عملاً داخلياً. لتذهب إلى الجحيم، فقد ألقى جوليوس الحذر إلى الريح وطلب قليلاً من السوشي من الطاهي المندهش لطلبه. أكل بشهية كبيرة قبل أن ينطلق بسرعة إلى تويون هول وإلى لقائه الأول مع آرثر شوبنهاور.

إن الأسس المتينة عن وجهة نظرنا بالعالم،
ومن ثم عمقه أو ضحالته،
تتشكل في سنوات الطفولة،
ثم تتطور وجهة النظر هذه وتكتمل،
لكنها لا تتبدّل من حيث الجوهر.

٦

الأمّ والأب شوبنهاور - في البيت

أيّ نوع من الرجال كان هاينرش شوبنهاور؟ صارم، قاسٍ، مكظوم، متعنّت، متغطرس. تحكي القصّة أنه في عام ١٧٨٣، قبل ولادة آرثر بخمس سنوات، بعد أن حاصر البروسيون دانزيغ، وشحّ الطعام والعلف، اضطرت عائلة شوبنهاور إلى قبول أن يقيم جنرال العدو في منزلها الريفي. ومكافأة على ذلك، عرض الضابط البروسي أن يمنح هاينرش امتياز العلف لخيوله. وماذا كان رد هاينرش؟ «إن إسطبلي مجهّز جيداً يا سيدي، وعندما تنتهي إمدادات الطعام سأذبح خيولي».

وماذا عن أمّ آرثر، يوهنا؟ كانت امرأة رومانسية، جميلة، واسعة الخيال، مفعمة بالنشاط، مغناجاً. وبالرغم من أن دانزيغ كلّها اعتبرت زواج هاينرش ويوهنا في عام ١٧٨٧ حدثاً عظيماً، فقد تبيّن أنه زواج غير متوافق إلى حدّ مأساوي. وكانت عائلة ترويسينير، عائلة يوهنا، تتحدر من خلفية متواضعة، وكانت تنظر إلى عائلة شوبنهاور باحترام

شديد، لذلك، عندما بدأ هاينرش البالغ من العمر ثمانية وثلاثين سنة يتودد إلى يوهنا ذات السبعة عشر ربيعاً، غمرت عائلة ترويسينير البهجة، وأذعنت يوهنا لاختيار والديها.

هل اعتبرت يوهنا زواجها خطأً؟ اقرأ العبارات التي دوّنتها بعد سنوات عدّة تحذّر فيها الشابّات الأخريات اللاتي يواجهن قرار الزواج: «إن العظمة، والمكانة، واللقب، كلّها تشكل قوّة تغوي قلب فتاة شابة وتغري النساء لرابطة الزواج... إنها خطوة زائفة سيعانين منها أشدّ المعاناة طوال حياتهن».

«يعانين منها أشدّ المعاناة طوال حياتهن». كلمات قوية من أمّ آرثر. وأباحت في دفتر يومياتها بأنه كان لديها، قبل أن يتودد هاينرش، حبيب شاب، سلبه القدر منها، وأنها كانت في حالة استسلام عندما وافقت على طلب هاينرش شوبنهاور الزواج منها. هل كان لديها أي خيار؟ من المرجح، لا. إنه زواج منفعة نموذجي كما كان شائعاً في القرن الثامن عشر، رتّبته أسرتها لأسباب تعود إلى الممتلكات والمكانة الاجتماعية. هل كان هناك حبّ؟ لم تكن هناك علاقة حبّ بين هاينرش ويوهنا شوبنهاور. على الإطلاق. وكتبت في مذكراتها لاحقاً، «لم أعد أتظاهر بأنني مغرمة به أكثر مما كان يطلبه مني». ولم يكن هناك حبّ فائض للآخرين في أسرتهما، لا لآرثر شوبنهاور الصغير، ولا لأخته الأصغر أديل التي ولدت بعد تسع سنوات.

إن الحبّ بين الأبوين يولّد حبّاً للأطفال. ويسمع المرء أحياناً حكايات عن آباء استهلك حبهما الشديد لأحدهما الآخر كلّ الحبّ المتاح في الأسرة، ولا يترك سوى رماد الحبّ لأطفالهما. لكن هذا النموذج الاقتصادي لمجموع الصفر للحبّ لا يعني الشيء الكثير. ويبدو أن العكس هو الصحيح: فكلما ازداد حبّ المرء، انتقل بقوة إلى الأطفال، إلى الجميع، بطريقة مفعمة بالحبّ.

أدت طفولة آرثر المحرومة من الحبّ إلى عواقب مهمة على مستقبله.

فالأطفال المحرومون من رابطة الحبّ الأمومي لا يتمكنون من تعزيز الثقة الأساسية اللازمة لحبّ أنفسهم، والإيمان بأن الآخرين سيحبّونهم، أو بأن الحبّ موجود. وعندما يكبرون يصبحون أشخاصاً مجافين، وينعزلون وينكفئون إلى داخل أنفسهم، وغالباً ما يعيشون في علاقة معادية مع الآخرين. هذا المشهد النفسي هو الذي رسم آراء آرثر عن العالم في نهاية المطاف.

إذا نظرنا إلى الحياة بتفاصيلها الصغيرة، فكم ستبدو سخيفة.

إنها أشبه بقطرة ماء تُرى بالمجهر، قطرة واحدة تعجّ بالحيوانات وحيدة الخلية.

كم نضحك عندما تتحرّك بحيوية وتتقاتل بعضها بعض.

سواء هنا، أو خلال مسيرة الحياة الإنسانية القصيرة،

فإن تأثير هذا النشاط المحموم سيكون هزلياً.

٧

في الساعة السابعة إلا خمس دقائق نفض جوليوس الرماد من غليونه المصنوع من الحجر الأبيض ودلف إلى قاعة تويون هول. جلس في الصفّ الرابع بجانب الممر وجالت عيناه حول المدرج: عشرون صفاً من المقاعد ترتفع بحدّة من المدخل حيث توجد المنصّة التي يجلس إليها المحاضر. كانت معظم المقاعد المئتين فارغة، وكان نحو ثلاثين مقعداً مكسوراً لفت عليها أشرطة بلاستيكية صفراء. رجلان مشرّدان يفترشان أوراق الصحف التي جمعاها ممدّدان على مقاعد في الصفّ الأخير، وفي ثلاثين مقعداً تقريباً جلس طلاب في ثياب مهلهلة، متناثرين عشوائياً في أرجاء المدرج ما عدا الصفوف الثلاثة الأولى التي بقيت شاغرة.

وكما هو الحال في جلسات العلاج الجماعي، قال جوليوس لنفسه، لا يريد أحد أن يجلس بجانب رئيس المجموعة. وحتى في جلسة العلاج الجماعي الأخيرة في وقت سابق من ذلك اليوم، ظلت المقاعد على كلا

جانبيه فارغة ليجلس فيها الأعضاء الذين يتأخرون عن موعد الجلسة، وقال لنفسه مازحاً يبدو أن المقعد بجانبه هو عقوبة لهم. وفكّر جوليوس في أسلوب جلسات العلاج الجماعي المتعلقة بأماكن الجلوس، هو أن أكثر الأشخاص اتكالاً يجلسون إلى يمين رئيس الجلسة، أما الأشخاص الأكثر ثقة وشعوراً بالعظمة فيجلسون قبالته تماماً؛ أما في تجربته، فقد كان التردّد في الجلوس إلى جانبه القاعدة الوحيدة التي يمكن الأخذ بها دائماً.

كانت رثاثة مدرج تويون هول وتداعيه نموذجيين للحرم الجامعي برمته في معهد كاليفورنيا كوستال كولدج الذي كان قد بدأ كمدرسة مسائية للأعمال التجارية، ثمّ توّسع وتطوّر بسرعة حتى أصبح معهداً، ويبدو أنه بلغ الآن مرحلة شديدة من الفوضى. في طريقه إلى المحاضرة عبر الممر المتداعي، وجد جوليوس صعوبة في التمييز بين الطلاب بهيئاتهم الرثة وبين المشرّدين في الحيّ. كيف يمكن ألّا تضعف معنويات أي أستاذ يعمل في مكان كهذا؟ بدأ جوليوس يفهم لماذا يريد فيليب أن يغيّر مهنته وينتقل إلى العمل السريري.

دقّق في ساعة يده. الساعة السابعة تماماً. في هذه اللحظة بالذات دخل فيليب إلى القاعة مرتدياً بدلة رسمية: بنطلون خاكي وقميص ذو مربعات، وسترة بنية اللون عليها رقع خيطت عند المرفقين. استلّ أوراق محاضراته من حقيبة مهترئة، ومن دون أن يلقي نظرة إلى الحاضرين، بدأ يقول:

هذه دراسة عن الفلسفة الغربية ـ المحاضرة الثامنة عشرة ـ آرثر شوبنهاور. سأتناول الليلة الموضوع بطريقة مختلفة، وسأطارد فريستي بطريقة غير مباشرة. وإذا بدوت غير منهجي ومشتتاً، فإني أطلب منكم التحلي بالصبر، وأعدكم بأنني سأعود بسرعة إلى الموضوع الذي نتناوله. لنبدأ بتوجيه انتباهنا إلى أول ظهور للعظماء في التاريخ.

جالت عينا فيليب على الحاضرين ليرى إيماءة أو إشارة تدلّ على

الفهم، وعندما لم يجدها، ثنى سبّابته إلى أقرب طالب له، وأشار إلى السبورة. ثمّ تَهَجّى ثلاث كلمات وعرّفهما: غ ي ر م ن ه ج ي، و ص ب ر، و ا ل ظ ه و ر ا ل أ و ل. فكتبها الطالب مطيعاً على السبورة. همّ الطالب بأن يعود إلى مقعده لكن فيليب أشار إلى مقعد في الصفّ الأول لأن يبقى هناك.

الآن بالنسبة لأول ظهور للعظماء، ثقوا بي - إن غرضي للبدء بهذه الطريقة سيتضح مع مرور الوقت. تخيّلوا موزار عندما أدهش البلاط الملكي في فيينا عندما عزف البيان القيثاري من دون أي شائبة وهو في التاسعة من عمره؛ أو إذا لم تكونوا تعرفون موزار (هنا ارتسم أثر ابتسامة على وجهه)، فتخيّلوا شيئاً تعرفونه أكثر، البيتلز وهم في التاسعة عشرة من عمرهم يؤدون أغانيهم أمام جمهور ليفربول.

أما الظهور الأول المدهش الآخر فهو الظهور الاستثنائي ليوهان فيتشه. (هنا أشار إلى الطالب لأن يكتب ف ي ت ش ه على السبورة) هل يتذكّر أحدكم اسمه من محاضرتي السابقة التي ناقشت فيها الفلاسفة الألمان المثاليين العظماء الذين ساروا على خطى كانط في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن الثامن عشر: هيغيل وشيلينغ وفيتشه؟ ومن بين هؤلاء الثلاثة، كانت حياة فيتشه وظهوره الأول الأكثر روعة لأنه بدأ حياته راعي أوزّ فقيراً أمياً في رامينو، القرية الألمانية الصغيرة التي كانت تتفاخر بأن شهرتها الوحيدة تأتي من المواعظ الملهمة التي كان يلقيها كاهن القرية يوم كلّ أحد.

في أحد أيام الأحد، وصل رجل أرستوقراطي غني إلى القرية ليسمع الموعظة، لكنه وصل متأخراً. عندما وقف خارج الكنيسة وقد بدت على وجهه علائم الانزعاج، دنا منه قرويّ عجوز وقال له لا تيأس لأن يوهان الشاب، راعي الأوزّ، يستطيع أن يعيد على مسامعك الموعظة. ثم أحضر القرويّ يوهان الذي أعاد على مسامع الأرستقراطي الموعظة كلها كلمة كلمة. فأُعجب الأرستقراطي بعقل راعي الأوزّ الذي يتمتع بذاكرة قوية،

وتعهّد بتدريس يوهان على حسابه، وسجّله في مدرسة فورتا، المدرسة الداخلية المشهورة التي تخرج منها لاحقاً عدد من المفكّرين الألمان البارزين، من بينهم الفيلسوف، موضوع محاضرتنا المقبلة، فريديك نيتشه.

تفّوق يوهان في المدرسة، وثمّ في الجامعة. وعندما مات الثري الذي كان يرعاه، لم يعد لدى يوهان أي مورد مالي، فعمل أستاذاً خاصاً في أحد البيوت في ألمانيا حيث طُلب منه أن يعلّم شاباّ فلسفة كانط الذي لم يكن قد قرأه يوهان آنذاك. وسرعان ما افتتن بعمل كانط الإلهي...

فجأة رفع فيليب عينيه عن أوراقه ونظر إلى الحاضرين. عندما لم ير أيّ نظرة تقدير في عيون الحاضرين، هسهس للحاضرين، وأشار في الوقت نفسه إلى الطالب الذي كان يكتب على السبورة، بأن يكتب ك ا ن ط:

هيه، هل ما زلتم هنا؟ كانط، إيمانويل كانط، كانط، أتذكرون؟ لقد أمضينا ساعتين عنه في الأسبوع الماضي؟ كانط، الأعظم، بالإضافة إلى أفلاطون، من بين جميع فلاسفة العالم. اسمعوا مني: سيكون كانط في النهائيات. آه لقد بدأت أرى حركة الحياة، حركة، عين، أو عينان تنفتحان. قلم يلامس ورقة.

إذاً إلى أين وصلت؟ آه، نعم. راعي الأوز. ثمّ عرض على فيتشه العمل كمعلّم خاص في وارسو، وكان مفلساً. تجشّم عناء الطريق ليتسلّم العمل لكنه عندما وصل لم يُمنح العمل. وبما أنه كان على مسافة مائة ميل من كونيغسبيرغ، حيث يقيم كانط، فقد قرّر أن يذهب سيراً على الأقدام للقائه شخصياً. ووصل إلى كونيغسبيرغ بعد شهرين، وبجرأة، قرع باب بيت كانط لكنه لم يُسمح له بمقابلة كانط الذي كان رجلاً روتينياً لا يميل إلى استقبال زوّار لا يعرفهم. كنت في الأسبوع الماضي قد وصفت لكم برنامج حياته اليومي المنتظم بدقة ـ كان دقيقاً جداً إلى حدّ أن سكان البلدة كانوا يعيّرون ساعاتهم على موعد تريّضه اليومي.

ظنّ فيتشه أن كانط رفض استقباله لأنه لا يحمل رسائل توصية، فقرّر أن يكتب رسالة توصية بنفسه ليتمكّن من لقاء كانط. وفي انطلاقة خارقة لطاقته المبدعة، كتب أول مخطوطة له (*محاولة في نقد الوحي*)، طبّق فيها آراء كانط المتعلقة بالأخلاق والواجب في تفسير الدين. فأُعجب كانط كثيراً بالعمل إلى حدّ أنه لم يوافق على لقاء فيتشه فحسب، وإنما شجّع على نشر المخطوطة أيضاً.

بسبب حظه العاثر، بل وربما بحيلة تسويقية من الناشر، ظهر كتاب *محاولة في نقد* الوحي بدون اسم. كان الكتاب رائعاً إلى درجة أن النقّاد وجمهور القراء ظنّوا أنه عمل جديد من أعمال كانط نفسه. وفي النهاية، اضطر كانط إلى إصدار بيان عام أوضح فيه بأنه ليس مؤلف هذه المخطوطة الممتازة، إنما كتبها شابّ موهوب جداً يدعى فيتشه. وبذلك كفل مديح عمل كانط هذا مستقبل فيتشه في الفلسفة. وبعد سنة ونصف السنة، مُنح مرتبة الأستاذية في جامعة يينا.

«هذا»، ورفع فيليب عينيه من أوراقه وارتسمت على وجهه نظرة انتشاء، ثم ملأ الهواء بمظهر أخرق من الحماسة، وتابع، «إني أدعو هذا الظهور الأول». لم يرفع أيّ من الطلاب بصره إلى الأعلى، ولم يبد أيّ منهم إشارة تدلّ على الإقرار بحماسة فيليب القصيرة. لو كان فيليب قد أُحبط لعدم استجابة الحاضرين له، فإن ذلك لم يظهر عليه، وبرباطة جأش، تابع:

والآن انظروا إلى شيء أقرب إلى قلوبكم ـ الرياضيين المبتدئين. من يمكنه أن ينسى كريس إيفرت، أو تريسي أوستن، أو مايكل تشانغ الذين فازوا بمباريات التنس للمحترفين ولم يتجاوزا الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرهم؟ أو معجزة الشطرنج المراهق بوبي فيشر أو بول مورفي؟ أو فكّروا في خوزيه راؤول كابابلانكا الذي فاز ببطولة الشطرنج في كوبا وهو في الحادية عشرة من العمر.

وأخيراً، أريد أن أنتقل إلى الأدب ـ كان أول عمل أدبي باهر في

جميع الأزمنة، رجل في منتصف العشرينات من عمره اقتحم المشهد الأدبي برواية رائعة...

هنا، توقّف فيليب لخلق مزيد من الإثارة ونظر إلى الأعلى. كانت قسماته تشرق بالثقة. كان يشعر بالاطمئنان بما كان يفعله ـ كان ذلك بادياً عليه بوضوح شديد. أخذ جوليوس يراقب غير مصدق. ماذا يتوقّع فيليب أن يجد؟ هل يتوقع أن يجد الطلاب جالسين على أطراف مقاعدهم متلهفين لسماع كلامه، يرتجفون حباً بالمعرفة، يدمدمون جميعاً «من هو هذه الأعجوبة الأدبية؟».

التفت جوليوس الجالس في مقعده في الصفّ الخامس، ليجول ببصره فوق المدرج: عيون لامعة في كل مكان، طلاب غارقون في الكراسي، يخربشون، يحدّقون في الصحف يملؤون الكلمات المتقاطعة. وإلى اليسار، كان هناك طالب نائم ممدد على مقعدين، وإلى اليمين، في نهاية الصفّ الذي يجلس فيه، رأى طالبين متعانقين في قبلة طويلة. وفي الصفّ أمامه مباشرة، رأى شابين يلكز أحدهما الآخر، يحدّقان إلى الأعلى باتجاه مؤخرة القاعة. وبالرغم من فضوله، لم يلتفت جوليوس ليتتبع إلى أين تتجه نظراتهما ـ لعلهما يحدّقان في تنورة امرأة ـ ثم عاد ليركّز انتباهه على فيليب الذي واصل دندنته:

ومن كان ذلك الأعجوبة؟ اسمه توماس مان. عندما كان في عمركم، نعم، في عمركم، بدأ يكتب تحفة أدبية، رواية بديعة عنوانها *بدينبروكس*، نُشرت وهو في السادسة والعشرين من العمر. واستمر توماس مان، كما أرجو وأصلّي بأنكم تعرفون، ليصبح شخصية شامخة في عالم الأدب في القرن العشرين ومُنح جائزة نوبل للأدب. (هنا تهجّى فيليب: م ا ن و ب د ي ن ب ر و ك س، وطلب من الطالب أن يكتبها على السبورة). وقد نُشرت *بدينبروكس* في عام ١٩٠١، وهي تتبّع مسيرة حياة أسرة واحدة، أسرة ألمانية متوسطة الحال تعيش في المدينة، على مدى أربعة أجيال مع كلّ التقلبات التي ارتبطت بدورة حياتها.

الآن ما علاقة هذا بالفلسفة وبالموضوع الحقيقي لمحاضرة اليوم؟ كما وعدتُ، فقد استطردتُ قليلاً لكن أعود إلى صلب الموضوع بقوة أكبر.

سمع جوليوس صوت حفيف في المدرج وصوت وقع أقدام. جمع الطالبان المتلصصان المتناحران أغراضهما بشكل صاخب وغادرا القاعة. ثم غادر الطالبان المتعانقان في نهاية الصفّ، وحتى الطالب الذي كان يكتب على السبورة اختفى.

وتابع فيليب:

بالنسبة لي، فإن أروع الفقرات في رواية بدينبروكس ترد في آخر الرواية، عندما يصبح بطل الرواية، ربّ الأسرة، توماس بدينبروكس العجوز على حافة الموت. ويصاب المرء بالدهشة لأن يمتلك كاتب في أوائل العشرينات من عمره هذه النظرة الثاقبة وهذا القدر من الحساسية والإدراك إزاء أمور تتعلق بنهاية الحياة. (بدت ابتسامة باهتة على شفتيه عندما رفع فيليب الكتاب الذي تآكلت أطراف صفحاته) وأوصي بقراءة هذه الصفحات لكلّ من ينوي أن يموت.

سمع جوليوس صوت احتكاك عيدان ثقاب عندما أشعل طالبان سجائرهما وهما في طريقهما إلى خارج القاعة.

عندما جاء ملاك الموت ليأخذ روحه، ارتبك توماس بدينبروكس وغمره شعور باليأس. لم يمنحه أي معتقد من معتقداته أي شعور بالراحة ـ ولا آراؤه الدينية التي لم تتمكن منذ أمد بعيد من إشباع احتياجاته الغيبية، وشكوكه الدنيوية ولا ميوله إلى الداروينية المادية. لم يتمكن أي شيء في كلمات مان من منح الرجل الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة «في عين الموت الثاقبة ساعة واحدة من الراحة والهدوء».

هنا، رفع فيليب بصره إلى الأعلى، وقال: «إن ما حدث بعد ذلك ينطوي على أهمية كبيرة، وهنا أبدأ بالتركيز على الموضوع المحدد لمحاضرتنا هذه الليلة».

في غمرة يأسه، صادف أن سحب توماس بدينبروكس من رف مكتبته كتاب فلسفة رخيصاً مجلداً بشكل رديء كان قد اشتراه من كشك لبيع الكتب المستعملة قبل سنوات عدّة. وما إن بدأ بقراءته، حتى هدأ روعه على الفور.

لقد أُعجب كيف يمكن، على حد قول مان، «لعقل بارع أن يفهم هذا الشيء الساخر القاسي الذي يدعى الحياة».

أُعجب الرجل المحتضر بوضوح الرؤية الاستثنائي في كتاب الفلسفة، ومرت ساعات من دون أن يرفع عينيه عن الكتاب الذي أخذ يقرأه بنهم. ثمّ وصل إلى فصل بعنوان «عن الموت وعلاقته بخلودنا الشخصي»، وأحسّ بالخدر بهذه الكلمات، وظلّ يقرأ كما لو كان يقرأ من أجل حياته الجديدة. وعندما بلغ نهاية الكتاب، أصبح توماس بدينبروكس رجلاً آخر، رجلاً وجد الراحة والسلام اللذين كانا يراوغانه ويتملصان منه.

ما هو ذلك الشيء الذي اكتشفه الرجل الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ (*هنا اتخذ فيليب فجأة صوت عراف*) الآن اسمع جيداً، يا جوليوس هيرزفيلد، لأن هذا قد يكون مفيداً لفحص نهاية الحياة...

صُعق جوليوس لتوجيه الكلام إليه مباشرة في محاضرة عامة، فانتفض وانتصب في جلسته. تطلّع بعصبية حوله، ولدهشته رأى المدرج قد أصبح فارغاً: لقد غادر الجميع، حتى الرجلان المشرّدان.

لكن فيليب الذي لم يكترث باختفاء جمهوره، استمر بهدوء:

سأقرأ فقرة من رواية بدينبروكس (*فتح نسخة مهترئة بغلاف ورقي من الكتاب*) «مهمتك أن تقرأ الرواية، لاسيما الفصل التاسع، بدقة وبإمعان. سترى أنه يهمك كثيراً ـ أهم بكثير من محاولة استخلاص معنى من ذكريات مرضى منذ زمن بعيد».

هل كنت آمل أن أعيش في ابني؟ في شخصية أكثر ضعفاً وأكثر رعباً مني؟ أعمى، حماقة طفولية! ماذا يمكن أن يفعل ابني لي؟ أين سأكون

عندما أموت؟ آه، الأمر في غاية الوضوح. سأكون في جميع الذين سيكونون، أو سيفعلون، أو سيقولون دائماً «أنا»، لا سيّما، في جميع الذين يقولونها بالكامل، وبقوة، وببهجة!... هل كنت أكره الحياة ـ الحياة النقية القوية التي لا ترحم؟ حماقة ووهم! لم أكره إلّا نفسي لأنني لم أستطع أن أتحمّلها. إني أحبّكم جميعاً، أيها المباركون، وقريباً، قريباً، لن أكون منقطعاً عنكم بكلّ روابط نفسي الضيّقة؛ وقريباً سيصبح الذي يحبّكم فيّ حرّاً وسيكون فيكم ومعكم ـ فيكم ومعكم جميعاً.

أغلق فيليب الكتاب وعاد إلى ملاحظاته.

الآن من هو مؤلف الكتاب الذي غيّر توماس بدينبروكس؟ لا يكشف مان عن اسمه في الرواية، لكن بعد أربعين سنة كتب مقالة رائعة ذكر فيها أن آرثر شوبنهاور هو مؤلف ذلك الكتاب. ثمّ يمضي مان ليصف كيف أنه، وهو في الثالثة والعشرين من العمر، اكتشف المتعة العظيمة في قراءة شوبنهاور. فلم يؤخذ بجرس كلمات شوبنهاور الذي وصفه بأنه «شديد الوضوح وشديد الدقة، ولغته رشيقة وراقية وصائبة، مشحونة بالعواطف، وحادّة على نحو رائع ومبهج ـ لا يشبهه أحد في تاريخ الفلسفة الألمانية»، ويصف جوهر فكر شوبنهاور بأنه «يأخذ الأنفاس، مدهش، يتلاعب بين المقارنات العنيفة، بين الغريزة والعقل، بين العاطفة والخلاص». عندها عرف مان أن اكتشاف شوبنهاور تجربة لا تقدّر بثمن يحتفظ بها لنفسه واستخدمها على الفور بطريقة خلاقة وجعل الفيلسوف بطله المتألم.

لم يكن توماس مان الوحيد الذي أقرّ بأنه مدين لآرثر شوبنهاور، بل أقرّ عدد كبير من العقول العظيمة الأخرى بذلك. فقد وصف تولستوي شوبنهاور بأنه «عبقري بامتياز بين الرجال»؛ واعتبره ريتشارد فاغنر «هبة من سماء»؛ وقال نيتشه إن حياته لم تعد كما كانت بعد أن اشترى مجلداً مهترئاً لشوبنهاور في مكتبة لبيع الكتب المستعملة في ليبزيغ، وكما قال: «لقد تركت ذلك العبقري الكئيب يعمل بحيوية في عقلي». لقد غيّر

شوبنهاور الخريطة الفكرية للعالم الغربي إلى الأبد، ومن دونه كنا سنرى فرويد ونيتشه وهاردي وفتغينشتاين وبيكيت وإبسن وكونراد مختلفين كثيراً عما نعرفه عنهم وأكثر ضعفاً.

أخرج فيليب ساعة جيب. تفحصّها للحظة، ثم قال بجدية شديدة:

هنا أختتم تقديمي لشوبنهاور. إذ تمتاز فلسفته بالاتساع والعمق الشديدين بحيث لا يمكن شرحها بموجز قصير. لذلك اخترت أن أستثير فضولكم بأمل أن تقرأوا الفصل المؤلف من ستين صفحة في النصّ لديكم بدقة. وأفضّل تخصيص الدقائق العشرين الأخيرة من هذه المحاضرة لطرح الأسئلة والمناقشة. هل لدى الحاضرين أسئلة يا دكتور هيرزفيلد؟

متوتراً من نبرة فيليب، مسح جوليوس مرة أخرى القاعة الفارغة بعينيه ثم قال بهدوء: «فيليب، إني أتساءل إن كنت تدرك أن جمهورك قد غادر القاعة؟».

«أيّ جمهور؟ هم؟ هؤلاء الذين يُدعون طلاباً؟» قال فيليب وحرّك رسغه بطريقة تنمّ عن الاستخفاف وعلى أنه لم يعبأ بقدومهم وبمغادرتهم. «أنت جمهوري اليوم، يا دكتور هيرزفيلد. محاضرتي هذه موجّهة لك وحدك»، قال فيليب الذي لم يبد أنه منزعج من التحدّث إلى شخص يبعد عنه ثلاثين قدماً في قاعة مهجورة كالكهف.

«حسناً، لماذا أنا جمهورك اليوم؟».

«فكّر في الأمر يا دكتور هيرزفيلد...».

«أفضّل أن تدعوني جوليوس، فإذا كنت أناديك فيليب ولا أظن أنك تمانع في ذلك، فمن المناسب أن تدعوني جوليوس. آه، كأني رأيت ذلك من قبل ـ أتذكّر بوضوح شديد أنني قلت منذ زمن: ناديني جوليوس، أرجوك فنحن لسنا غرباء».

«أنا لا أتبع قاعدة مخاطبة مرضاي باسمهم الأول لأنني مستشارهم

المهني ولست صديقهم. لكن، كما تشاء، سأخاطبك جوليوس. سأبدأ من جديد. إنك تسأل لماذا أنت وحدك جمهوري المقصود، وجوابي هو أنني أستجيب لطلبك بالمساعدة. فكّر في الأمر يا جوليوس، لقد جئت لرؤيتي وطلبت مقابلتي وكانت هناك طلبات أخرى في ذلك الطلب».

«أوه؟».

«نعم. دعني أسهب في هذه المسألة. أولاً، كانت هناك نبرة ملحة في صوتك. وكنت ترى أهمية كبيرة لأن ألتقي بك. من الواضح أن طلبك لم يأت من مجرد فضول لتعرف كيف أصبحتُ. لا، إنك تريد شيئاً آخر. لقد ذكرت بأن صحتك في خطر، بالنسبة لرجل في الخامسة والستين من عمره فهذا يعني لا بدّ أنك تواجه موتك. لذلك، فإني أفترض أنك خائف وتبحث عن عزاء ما. إن محاضرتي اليوم هي ردّي على طلبك».

«هذا ردّ ملتوٍ يا فيليب».

«ليس أكثر التواء من طلبك يا جوليوس».

«جيد! لكن، كما أذكر، لم تكن تعبأ بذلك قط».

«وأنا مرتاح بذلك الآن. لقد طلبت المساعدة، وكان ردّي أنني عرفتك على الرجل الذي من بين جميع الرجال، يستطيع أن يكون أفضل من يساعدك».

«إذاً كنت تنوي أن تواسيني بالطريقة التي وصف فيها مان حصول بدنبروكس على الراحة من شوبنهاور؟».

«تماماً. وقد قدمت لك ذلك كفاتح شهية فقط. عيّنة عمّا سيأتي لاحقاً. هناك أشياء كثيرة، باعتباري دليلك إلى شوبنهاور، يمكنني أن أقدّمها لك، وأودّ أن أقترح عليك اقتراحاً».

«اقتراح؟ فيليب، إنك تستمر في مفاجئتي. إنك تثير فضولي».

«أنهيت دراستي في الاستشارات النفسية وجميع المتطلبات الأخرى التي تخوّلني الحصول على رخصة رسمية لتقديم الاستشارات، لكنني

بحاجة إلى مئتي ساعة أخرى من الإشراف المهني. يمكنني أن أواصل العمل كفيلسوف سريري ـ وهذا المجال لا تنظّمه الحكومة ـ لكن رخصة مستشار ستوّفر لي عدداً من المزايا والفوائد، منها القدرة على شراء تأمين للإهمال والخطأ الطبي ولتسويق نفسي بشكل عملي أكثر. وبخلاف شوبنهاور، لا يوجد لديّ مورد مالي مستقل يدعمني ولا أيّ دعم أكاديمي ـ لقد رأيت بأمّ عينك أن الحمقى الذين يحضرون زريبة الخنازير هذه التي تدعى جامعة لا يبدون أي اهتمام بالفلسفة».

«فيليب، لماذا يجب أن يصيح أحدنا في الآخر؟ لقد انتهت المحاضرة. هل بإمكانك أن تجلس ونواصل هذه المناقشة بطريقة غير رسمية أكثر».

«طبعاً». جمع فيليب أوراق محاضرته، ودسّها في حقيبته، وجلس على مقعد في الصف الأمامي. وبالرغم من أنهما اقتربا أكثر من بعضهما، كان لا يزال هناك أربعة صفوف من المقاعد تفصل أحدهما عن الآخر، وكان فيليب يضطر لأن يلوي رقبته ليرى جوليوس.

«إذاً هل أنا محقّ في الافتراض بأنك تقترح أن نتبادل ـ أنا أشرف عليك وأنت تعلّمني شوبنهاور؟» سأل جوليوس الآن بصوت منخفض.

«صحيح»، أدار فيليب رأسه لكن ليس بما يكفي لينظر في عينيه.

«وهل فكّرت جيداً في الأساليب الدقيقة لترتيبنا؟».

«لقد فكّرت فيها كثيراً. في الحقيقة يا دكتور هيرزفيلد...».

«جوليوس».

«نعم، نعم ـ جوليوس. ما كنت سأقوله هو أنّني كنت أدرس فكرة دعوتك منذ أسابيع عدّة لمحاولة ترتيب الإشراف لكنّي ظللت أؤجلها لأسباب مالية. لذلك فوجئت باتصالك المفاجئ. أما بالنسبة للأسلوب فإني أقترح أن نلتقي أسبوعياً ونقسّم الساعة التي نلتقي بها: نصف الوقت

تزوّدني بنصائحك الخبيرة عن مرضاي، وفي نصف الساعة الثاني سأكون دليلك إلى شوبنهاور».

أغمض جوليوس عينيه وراح يفكر.

انتظر فيليب دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم قال: «ما رأيك بعرضي؟ مع أنني متأكّد من أنه لن يأتي أي طالب بعد الآن، ولديّ مواعيد في المكتب بعد محاضرتي لذلك يجب أن أعود إلى مبنى الإدارة».

«حسناً يا فيليب. إنك لا تقدم لي عرضك هذا كل يوم. لذلك فإني بحاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير فيه. دعنا نلتقي في وقت لاحق من هذا الأسبوع. أنا لا أعمل بعد ظهر يوم الأربعاء. هل يمكن أن نلتقي الساعة الرابعة؟».

هزّ فيليب رأسه، وقال: «أُنهي عملي في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأربعاء. هل نلتقي في مكتبي؟».

«لا، يا فيليب. في مكتبي. إنه بيتي، في باسيفيك أفنيو، غير بعيد جداً عن مكتبي القديم، في الساعة الثانية وتسع وأربعين دقيقة. ها هي بطاقتي».

مقتطفات من دفتر يوميات جوليوس

بعد محاضرته، فاجأني اقتراح فيليب بتبادل الإشراف ـ التدريب. كم يعود المرء بسرعة إلى مجال القوة المألوفة لشخص آخر! إنها تشبه كثيراً الذكريات التي تعتمد على الحالة التي تعتريك في الأحلام التي تذكّرك بألفة مشهد طبيعي بأنك زرت مكاناً مماثلاً من قبل في أحلام أخرى. وينطبق الأمر على الماريوانا ـ بعد نَفَسين اثنين تجد نفسك فجأة في مكان مألوف وتراودك أفكار مألوفة لا تراودك إلا في حالة الماريوانا.

وينسحب الأمر كذلك على فيليب. ففي فترة قصيرة فقط في وجوده ـ وبسرعة ـ حرضت ذكرياتي العميقة عنه بالإضافة إلى فيليب الغريب

الأطوار على ظهور حالة عقلية مرة أخرى بلمح البصر. يا له من متغطرس، يا له من متكبّر وازدرائي. إنه لا يكترث بالآخرين. وبالرغم من ذلك، فهناك شيء، شيء قوي - أتساءل ما هو؟ يشدّني إليه. ذكاؤه؟ عجرفته وأمور دنيوية أخرى مقترنة بمثل هذه السذاجة الاستثنائية؟ وكيف أنه لم يتغير بعد اثنتين وعشرين سنة. لا، هذا غير صحيح! لقد تحرّر من القهر الجنسي، لم يعد مقدراً له أن يمشي وأنفه إلى الأرض إلى الأبد يتشمم رائحة الفرج. لقد أصبح يعيش في مناصب أعلى بكثير مما كان يطمح إليها دائماً. لكن قدرته على التلاعب لا تزال موجودة، وهو شديد الوضوح، لكنه لا يدرك مدى وضوحها، وكيف ينبغي لي أن أقفز وأقبل عرضه، وكيف ينبغي لي أن أمنحه مئتي ساعة من وقتي مقابل أن يعلّمني شوبنهاور، ويقدّم ذلك بصفاقة كما لو كنت أنا من اقترح ذلك، أنا من يريد ويحتاج إلى ذلك. لا أنكر أن لديّ بعض الاهتمام بشوبنهاور، لكن قضاء مئتي ساعة مع فيليب يعلّمني فيها عن شوبنهاور الآن ليس من الأولويات في قائمة تمنياتي. وإذا كان ذلك المقتطف الذي قرأه عن بدينبروكس وهو يحتضر هو المثال الأساسي الذي سيقدّمه لي شوبنهاور، ثمّ يتركني بلا مبالاة. إنّ فكرة الانضمام مرة أخرى إلى الوحدانية العالمية بدون أيّ إصرار منّي وذكرياتي ووعيي الفريد هو أبعد شيء عن راحتي. لا، إنها ليست راحة على الإطلاق.

وما الذي يجلبه فيليب لي؟ هذا سؤال آخر. تلك المزحة في ذلك اليوم عن العشرين ألف دولار التي أهدرها على علاجه معي - لعله لا يزال يبحث عن مقابل لاستثمارها.

هل أشرف على فيليب؟ هل أجعل منه معالجاً قانونياً مقبولاً؟ هنا توجد معضلة. هل أريد أن أرعاه؟ هل أريد أن أباركه وأنا لا أؤمن بأن رجلاً حقوداً (وهو حقود) يستطيع أن يساعد أحداً على النمو؟

الدين يمتلك كلّ شيء: الوحي، النبوءات،
حماية الحكومة له، أعلى درجات الكرامة والسمو...
والأكثر من ذلك، الامتياز الذي لا يقدّر بثمن
وهو أن يُترك يحفر معتقداته وتعاليمه في ثنايا العقل
في سنّ مبكرة من الطفولة حتى تكاد تصبح أفكاراً راسخة.

٨

الأيام البهيجة في سنوات الطفولة المبكرة

كتبت يوهنا في يومياتها أنها، بعد ولادة آرثر في شباط ١٧٨٨، مثل جميع الأمهات الشابات، كانت تستمتع باللعب «بدميتها الجديدة». لكن الدمى الجديدة سرعان ما تصبح دمى قديمة، وبعد أشهر عدّة بدأت يوهنا تملّ من لعبتها واستسلمت إلى السأم والعزلة في دانزيغ. شيء جديد بدأ يبزغ في يوهنا ـ إحساس غامض بأن الأمومة ليست قدرها الحقيقي، وأن مستقبلاً آخر ينتظرها. وكانت فصول الصيف التي أمضتها في بيت شوبنهاور الريفي شديدة الصعوبة. ومع أن هاينرش كان يأتي لزيارتها في نهاية كلّ أسبوع برفقة رجل دين، كانت يوهنا تمضي ما تبقى من وقتها وحيدة مع آرثر وخادماتها. ومن شدّة غيرته، منع هاينرش زوجته من زيارة الجيران أو حتى الخروج من البيت لأيّ سبب.

عندما كان آرثر في الخامسة من عمره، تعرّضت الأسرة إلى ضائقة شديدة. فقد ضمّت بروسيا دانزيغ إليها، وقبل فترة قصيرة من وصول

القوات البروسية بقيادة الجنرال الذي كان هاينرش قد أهانه قبل سنوات، هربت عائلة شوبنهاور إلى هامبورغ، حيث ولدت يوهنا في عام ١٧٩٧، وفي مدينة غريبة، طفلها الثاني، أديل، وشعرت بأن الحصار قد أطبق عليها من جميع الجهات، واعتراها شعور باليأس.

هاينرش، يوهنا، آرثر، أديل ـ الأب، الأمّ، الابن، الابنة ـ أربعتهم يعيشون معاً لكن لم يكن أحد منهم يرتبط بالآخر.

كان هاينرش يعتبر أن آرثر شرنقة مقدّر له أن يترأس شركة شوبنهاور التجارية في المستقبل. وانهمك هاينرش، الأب التقليدي لأسرة شوبنهاور، في أعمال شركته التجارية، ولم يبد اهتماماً كبيراً بابنه، وكان ينوي أن يتحمل واجباته الأبوية تجاهه عندما يتجاوز آرثر سنوات طفولته.

أما الزوجة، فماذا كانت خطة هاينرش تجاهها؟ كانت مجرد أداة تفريخ في عائلة شوبنهاور، وكانت نشيطة جداً إلى درجة خطيرة يتعين عليه احتواؤها وكبحها وحمايتها.

وماذا عن يوهنا؟ ما هي مشاعرها؟ كان تشعر بأنها حوصرت في مصيدة! وكان زوجها ومعيلها، هاينرش، خطأها القاتل، سجّانها الكئيب، سالب حيويتها المتجّهم. وماذا عن ابنها آرثر؟ ألم يكن جزءاً من المصيدة، ختم تابوتها؟ ولما كانت يوهنا امرأة موهوبة، فقد كانت تعتريها رغبة في التعبير عن نفسها وتحقيق ذاتها وكانت تتنامى بسرعة كبيرة، وكان آرثر يثبت أنه مكافأة غير مكتملة لإنكار الذات.

وماذا عن ابنتها الصغيرة؟ التي قلما كان هاينرش يبدي اهتماماً بها، أديل. لقد مُنحت دوراً بسيطاً في المسرحية العائلية، وكان مقدّراً لها أن تمضي كل حياتها ناسخةً ليوهنا شوبنهاور.

وهكذا مضى كل فرد في عائلة شوبنهاور في طريقه.

وسار الأب شوبنهاور، مثقلاً بالقلق واليأس، مترنحاً نحو موته، بعد

ستّة عشر عاماً من ولادة آرثر، صعد إلى النافذة العليا في مخزن شوبنهاور وقفز منها إلى المياه المتجمدة في قناة هامبورغ.

أما شوبنهاور الأمّ، فقد خرجت من مصيدتها الزوجية بعد قفزة هاينرش، ونفضت غبار هامبورغ عن حذائها وطارت كالريح إلى فايمار، حيث أقامت بسرعة واحداً من أكبر الصالونات الأدبية وأكثرها حيوية في ألمانيا. وهناك أصبحت الصديقة العزيزة لغوته ولبعض الأدباء البارزين الآخرين، وكتبت اثنتي عشرة رواية رومانسية من أكثر الروايات رواجاً، كثير منها يحكي عن نساء أُرغمن على زيجات لا يرغبن فيها، لكنهن رفضن أن ينجبن وواصلن توقهن للحبّ.

وماذا عن آرثر الشاب؟ لقد كبر آرثر شوبنهاور وأصبح واحداً من أكثر الرجال حكمة الذين عاشوا في هذه الحياة. وأحد أكثر الرجال كراهية ويأساً في الحياة، الرجل الذي كتب عندما بلغ الخامسة والخمسين:

هل يمكننا أن نتنبأ بذلك، فهناك أوقات يبدو فيها الأطفال كالسجناء الأبرياء الذين لم يُحكم عليهم بالموت بل بالحياة، وبالرغم من ذلك، فهم لا يدركون ماذا يعني حكمهم هذا. وعلى الرغم من ذلك، فإن كلّ شخص يرغب في أن يبلغ الشيخوخة... حالة في الحياة يمكن أن يقال «إنها سيئة اليوم، وستزداد سوءاً كلّ يوم حتى يحدث الأسوأ».

في الفضاء اللامتناهي تدور أعداد لا تحصى من الأفلاك المضيئة،
تدور حول كلّ فلك منها نحو عشرة أفلاك مضيئة أصغر،
حارّة جداً في داخلها تغلّفها قشرة صلبة باردة،
أنتجت بقعة متعفنة تعيش عليها كائنات حيّة وواعية
ـ هذا هو... الحقيقي، العالم.

٩

كان بيت جوليوس الرحب في شارع باسفيك هايتس واسعاً جداً لا يستطيع أن يشتريه الآن إلا إذا كان مليونيراً. فقد كان محظوظاً لأنه اشترى هذا البيت في سان فرانسيسكو قبل ثلاثين سنة. فقد تمكّن من شراء هذا البيت بعد أن ورثت زوجته ميريام ثلاثين ألف دولار، وبخلاف أيّ استثمار آخر استثمره جوليوس وميريام طوال حياتهما، ارتفعت قيمة البيت ارتفاعاً كبيراً. وبعد وفاة ميريام، فكّر جوليوس في أن يبيع البيت ـ فقد كان كبيراً جداً على شخص واحد ليعيش فيه ـ لكنه، بدلاً من ذلك، نقل مكتبه إلى الطابق الأول من البيت.

أربع درجات تفضي من الشارع إلى حديقة صغيرة فيها نافورة مبلطة ببلاط أزرق. وإلى اليسار، تفضي بضع درجات إلى مكتب جوليوس، وإلى اليمين، يوجد درج أطول يؤدي إلى بيته. وصل فيليب في الموعد المحدد. رحّب به جوليوس عند الباب، ورافقه إلى المكتب، وأومأ باتجاه كرسي جلدي بني غامق.

«هل تريد قليلاً من القهوة أو الشاي؟».

لكن فيليب لم يتطلّع حوله وهو يجلس، ومتجاهلاً سؤال جوليوس، قال: «إني أنتظر قرارك حول الإشراف».

«آه، مرة أخرى، إلى الموضوع مباشرة. إني أجد صعوبة في اتخاذ هذا القرار. عندي أسئلة كثيرة. يوجد شيء في طلبك ـ تناقض شديد ـ يحيّرني في الصميم».

«لا شك في أنك تريد أن تعرف السبب الذي جعلني أطلب منك أن تكون مشرفاً عليّ مع أنني لم أكن راضياً عنك كمعالج».

«تماماً. فقد ادّعيت بلغة شديدة الوضوح بأنّ علاجنا فشل فشلاً ذريعاً، وأنك أهدرت ثلاث سنوات ومبلغاً كبيراً من نقودك».

«لا يوجد تناقض حقيقي في هذا»، أجاب فيليب على الفور. «فقد يكون المعالج معالجاً ومشرفاً مؤهّلاً ومع ذلك فقد لا ينجح في معالجة مريض محدد. إذ تبين الأبحاث أنّ العلاج، مهما بلغت قدرة المعالج، لا ينجح لدى نحو ثلث المرضى. بالإضافة إلى ذلك، لا يوجد أدنى شكّ في أنني قمت بدور مهمّ في هذا الفشل ـ عنادي، صلابتي. كان خطأك الوحيد هو أنك لم تختر نوع العلاج الذي يصلح لي، ثم واصلتَ العمل به لمدة طويلة. لكنني أدرك جهدك، بل حتى اهتمامك بمساعدتي».

«هذا كلام جيد يا فيليب. كلام منطقي. لكن بالرغم من ذلك، أن تطلب من معالج لم يقدم لك شيئاً في العلاج أن يشرف عليك. لعنني الله إن كنت سأفعل ذلك ـ سأجد شخصاً آخر. لديّ شعور بأنّ هناك شيئاً آخر، شيئاً لم تقله بعد».

«لعلنا يجب أن نضع الأمور في نصابها. فالقول إنني لم أحصل على شيء منك كلام غير دقيق تماماً. لقد قلت لي عبارتين علقتا في رأسي وربما كان لهما دور فعّال في شفائي».

لوهلة، أراد جوليوس أن يسأل عن التفاصيل. هل يظن فيليب أنه

ليس مهتمّاً؟ هل يمكن أن يكون شخصاً غير واقعي؟ أخيراً، استسلم وقال: «وما هما هاتان العبارتان؟».

«حسنا، العبارة الأولى لا تبدو مهمة، لكن كان لها شيء من التأثير عليّ. كنت أحدّثك عن كيف أمضي إحدى أمسياتي النموذجية ـ كما تعرف، التقاط امرأة في مكان ما، ودعوتها إلى العشاء، نفس مشهد الإغواء في غرفة نومي ونفس الموسيقى التي توافق المزاج. أذكر أنني سألتك عن رأيك عن ذلك وهل كنت ترى هذه الأمسيات مقيتة أو لا أخلاقية».

«لا أتذكّر ماذا كان ردي».

«قلت إنك لا تجدها مقيتة ولا عديمة الأخلاق، بل مملّة فقط. لقد أرعبني الاعتقاد بأنني كنت أعيش حياة مكررة مملّة».

«هذا شيء مثير للاهتمام. إذاً هذه هي العبارة الأولى، وما هي العبارة الثانية؟».

«كنّا نتناقش في المرثيات التي تُكتب على شواهد القبور. لا أذكر السبب الذي قادنا إلى الحديث عن هذا الأمر، لكنّي أظن أنّك أثرت سؤال ما هي العبارة التي يمكن أن أختارها لنفسي...».

«ممكن جداً. إني أطرح هذا السؤال عندما أشعر بأنني أصبحت في طريق مسدود وأحتاج إلى مداخلة صادمة. و...؟».

«حسناً، لقد اقترحت أن تُحفر على شاهدة قبري هذه العبارة: *«كان يحبّ النيك»* ثم أضفت أن هذه العبارة قد تكون مرثية مناسبة لكلبي أيضاً ـ وأنني أستطيع أن أستخدم نفس الشاهدة لي ولكلبي معاً».

«كلمات قوية. هل كنتُ حقاً قاسياً إلى هذه الدرجة؟».

«سواء أكنت قاسياً أم لا، فليس هذا المهم. المهم هو التأثير الذي أحدثه واستمراره. فبعد فترة طويلة، ربما بعد عشر سنوات، طبقته».

«تدخّلات يحدث تأثيرها لاحقاً! كان لديّ الاعتقاد دائماً بأنها أهمّ

مما كان يخيّل إليّ عادة. كنت أنوي دائماً أن أجري دراسة على ذلك. لكن لغرض وجودنا هنا اليوم، أخبرني لماذا لم تقل ذلك في لقائنا الأخير، وهو أن تعترف بأنني أفدتك، بطريقة ما، حتى لو كانت إفادة ضئيلة؟».

«جوليوس، لا أرى علاقة لهذا بموضوعنا ـ أي، سواء أرغبت أم لم ترغب في أن تصبح مشرفاً عليّ كمعالج نفساني؟ وبالمقابل أن تسمح لي أن أكون مرشداً لك في موضوع شوبنهاور؟».

«إن عدم رؤيتك الصلة بينهما يجعل الأمر أكثر أهمية. فيليب، لن أحاول أن أكون دبلوماسياً معك. سأكون صريحاً ومباشراً: فأنا لستُ متيقناً بأنك مجهّز أساساً لتكون معالجاً نفسياً، لذلك تساورني بعض الشكوك في جدوى هذا الإشراف».

«تقول إني لست مجهّزاً؟ أوضح من فضلك» قال فيليب من دون أن تبدو عليه أيّ علائم بالضيق.

«حسناً، دعني أوضح الأمر بهذه الطريقة. إني أعتبر دائماً العلاج النفساني رسالة أكثر منه مهنة. أسلوب في الحياة للأشخاص الذين يبدون اهتماماً بالآخرين، وأنا لا أرى أن لديك اهتماماً كافياً بالآخرين. المعالج الجيد يريد أن يخفّف معاناة الآخرين، يريد أن يساعد الناس على النمو، لكنّي لا أرى فيك إلّا ازدراء الآخرين ـ انظر كيف طردت طلابك وأهنتهم. على المعالج أن يهتم بمرضاه ويعمل على التواصل معهم، أما أنت فلا تهتمّ كثيراً بمشاعر الآخرين. خذ نحن الاثنين على سبيل المثال. قلت لي إنك، استناداً إلى اتصالي بك، افترضت أنّني مصاب بمرض مميت. ومع ذلك، فإنك لم تنطق كلمة عزاء أو عطف واحدة».

«هل كان ذلك سيساعد ـ غمغمة بضع كلمات فارغة تشي بالتعاطف؟ لقد قدمت لك أكثر من ذلك. أكثر بكثير. لقد أعددت وألقيت محاضرة كاملة من أجلك».

«بدأت أفهم ذلك الآن. لكن الأمر كله كان غامضاً يا فيليب. جعلني ذلك أشعر بأنك توجهني ولا تهتم بي. كان من الأفضل بالنسبة لي، أفضل بكثير، لو كنت مباشراً معي، لو كنت قد بعثت برسالة من قلبك إلى قلبي. شيء غير كبير، بل ربما مجرد سؤال بسيط عن حالتي أو عن حالتي العقلية، أو، يا إلهي، كان بإمكانك أن تقول ببساطة: أنا آسف لأني سمعت أنك ستموت! كم سيكون ذلك قاسياً؟».

«لو كنت أنا المريض، فليس هذا ما أريده. إني أريد الأدوات والأفكار والرؤية التي قدّمها شوبنهاور في مواجهة الموت ـ وهذا ما قدّمته لك».

«لا تزال حتى الآن يا فيليب لا تعبأ بالتأكد من فرضيتك بأنني مصاب بمرض مميت».

«هل أنا مخطئ؟».

«هيا يا فيليب. انطق الكلمات ـ فهي لن تضر».

«قلتَ إنّك تعاني من مشاكل صحية كبيرة. هل يمكنك أن تخبرني المزيد عنها؟».

«بداية طيبة يا فيليب. تعليق غير محدد هو أفضل خيار حتى الآن». صمت جوليوس قليلاً ليستجمع أفكاره وليفكّر في القدر الذي سيكشفه لفيليب. حسناً، لقد علمت مؤخراً بأنّني مصاب بأحد أنواع سرطان الجلد الخبيث «الميلانوما» الذي يشكّل تهديداً خطيراً على حياتي، لكن أطبائي يؤكدون لي أنني سأنعم بصحة جيدة حتى السنة المقبلة».

فأجاب فيليب، «حتى إني أشعر بقوة أكثر الآن بأنّ رؤية شوبنهاور التي عرضتها في محاضرتي ستكون قيّمة بالنسبة لك. ففي أثناء علاجنا النفسي، أتذكّر أنك قلت لي إن «الحياة حالة مؤقتة ذات حلّ دائم». إنها فكرة شوبنهاورية محضة»'.

«فيليب، كانت وجهة النظر تلك مجرد دعابة».

«ألا نعرف ماذا كان معلّمك سيغموند فرويد سيقول عن الدعابة. أنا ما أزال متشبثاً بموقفي: وهو أنه توجد في حكمة شوبنهاور أشياء كثيرة ستساعدك جيداً».

«أنا لست المشرف عليك يا فيليب، لم أقرّر ذلك بعد، لكنّي سأعطيك الدرس الأوّل في العلاج بالتحليل النفسي، مجاناً. *ليست الأفكار ولا الرؤية ولا الأدوات هي التي تهمّ حقاً في العلاج*. فإذا سألت المرضى في نهاية العلاج عن رأيهم بالعلاج، فماذا سيتذكّرون؟ لن يتذكّروا الأفكار *أبداً* - بل سيتذكّرون العلاقة *دائماً*. قلما يتذكّرون فكرة مهمة كان قد قدّمها لهم المعالج، بل يتذكّرون عادة وبمودة علاقتهم الشخصية مع المعالج. وسأجازف بالتخمين بأن هذا ينطبق عليك أيضاً. لماذا تتذكّرني جيداً وتقيّم ما جرى بيننا كثيراً إلى درجة أنك تتوجّه إليّ الآن، بعد مضي كلّ هذه السنوات، لأكون مشرفاً عليك؟ هذا ليس بسبب هاتين العبارتين اللتين قلتهما لك - مهما كانتا استفزازيتين - لا، أعتقد أن سبب ذلك وجود رابطة أحسستها معي. أعتقد أنه تولدّت لديك مودّة عميقة تجاهي، ولأن علاقتنا، مهما كانت صعبة، ربما كان لها معنى. إنك تتوجّه إليّ الآن مرة أخرى بأمل شكل من أشكال العناق».

«إنك مخطئ من جميع النواحي يا دكتور هيرزفيلد...».

«نعم، نعم، مخطئ جداً إلى درجة أن مجرد ذكر كلمة عناق تعيدك بسرعة إلى الألقاب الرسمية مرة أخرى».

«مخطئ من جميع النواحي يا جوليوس. فأولاً، أريد أن أحذرك من خطأ الافتراض بأن رأيك بالواقعية هو الشيء الحقيقي - ***res naturalis*** (القانون الطبيعي) وأنّ رسالتك تتمثل في أن تفرض هذه الرؤية على الآخرين. إنك تتوق إلى إقامة علاقات وتقيّمها، وتجعل الفرضية الخاطئة بأنني يجب، لا بل كلّ شخص، أن أفعل الشيء نفسه، وإذا ادّعيت غير ذلك، فإني أكون قد كبتُ رغبتي الشديدة في العلاقة».

«*ويبدو من المحتمل*»، واصل فيليب، «أن المقاربة الفلسفية قد تكون أفضل بكثير لشخص مثلي. الحقيقة هي أننا ـ أنا وأنت ـ نختلف جوهرياً. فأنا لا أستمدّ أبداً متعة من الصحبة مع الآخرين ـ كلامهم الفارغ، طلباتهم، مساعيهم التافهة العابرة، حياتهم عديمة الجدوى ـ وهي تشكل مصدر إزعاج وعقبة في وجه تبادلي الأفكار مع حفنة من الأرواح العالمية العظيمة التي تمتلك أشياء مهمة تقولها».

«إذاً لماذا تريد أن تكون معالجاً نفسانياً؟ لماذا لا تبقى مع الأرواح العالمية العظيمة؟ لماذا تشغل نفسك بتقديم المساعدة لتلك الحيوات العديمة الجدوى؟».

«لو كنتُ، مثل شوبنهاور، قد ورثتُ مبلغاً من المال أعيل به نفسي، لما كنتُ هنا اليوم. كل ما في الأمر أنها مسألة تتعلق بالحاجة الاقتصادية. لقد استنفدت نفقات دراستي حسابي المصرفي، وأنا لا أتقاضى من مهنة التدريس إلّا مبلغاً زهيداً، والجامعة على وشك أن تشهر إفلاسها، ولا أظن أنهم سيعينونني مرة أخرى. يجب أن أرى بضعة مرضى في الأسبوع لأسدّد نفقاتي: فأنا أعيش حياة مقتصدة؛ أرجو ألّا أحصل على شيء آخر سوى الحرية لأتمكن من مواصلة ما أعتبره مهماً في حياتي: قراءتي، تفكيري، تأملي، لعب الشطرنج، سماع الموسيقى، والتريّض مع روكبي، كلبي».

«ما زلت لم تجب عن سؤالي: لماذا أتيت لرؤيتي وأنت تعرف أنني أعمل بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تريد أن تعمل بها؟ ولم تردّ على حدسي بأن ثمة شيئاً في علاقتنا الماضية لا يزال يشدّك إليّ».

«لم أجب لأن لا علاقة لذلك بالموضوع. لكن بما أنه يبدو مهماً بالنسبة لك، فإني سأواصل التفكير في تخمينك. لا تخلص من ذلك إلى أنني أتطلع إلى الاحتياجات الشخصية الأساسية. فقد قال شوبنهاور نفسه إن على الكائنات ذات القدمين ـ هذا تعبيره هو ـ أن تتجمّع بالقرب من النار لتحصل على الدفء. لكنه حذّر من أن الاقتراب كثيراً سيحرقها.

وكان يحبّ حيوانات النيّص (حيوان شائك من القوارض) التي تتكوّم حول بعضها طلباً للدفء لكنها تستخدم ريشها لتحافظ على مسافة بعضها. كان يقيّم كثيراً ابتعاده عن الآخرين، ولم يكن يعتمد على شيء خارج نفسه لتحقيق سعادته. ولم يكن وحيداً في ذلك، فقد كان هناك رجال عظماء آخرون مثل دي مونتين، يشاطرونه طريقة تفكيره هذه».

«وأخشى أيضاً الكائنات ذات القدمين»، واصل فيليب، «وأتفق معه بأنّ الإنسان السعيد هو الذي يستطيع أن يتحاشى معظم المخلوقات من بني جنسه. وكيف لا توافق على أن الكائنات ذات القدمين تخلق جحيماً هنا على وجه الأرض؟ كان شوبنهاور يعتقد بأن ***homo homini lupus*** *(الإنسان* ذئب للإنسان) وأنا على يقين بأنه كان ملهماً لسارتر في مسرحيته «لا مخرج».

«كلّ ما تقوله جيد يا فيليب. لكنّك تؤكّد على فكرتي الأساسية: بأنّك قد لا تكون مجهّزاً للعمل كمعالج نفساني. إن وجهة نظرك هذه لا تدع مجالاً للصداقات».

«كلما تقرّبت إلى شخص آخر، ينتهي بي الأمر بأن أفقد شيئاً من نفسي. لهذا السبب فإنني لم أُقم صداقات في شبابي، ولست مهتمّاً بإقامتها الآن. قد تذكر بأنني كنت طفلاً وحيداً عشت مع أمّ لا مبالية وأب حزين أنهى حياته في نهاية الأمر. ولكي أكون صريحاً معك، لم ألتق قط بشخص يمكنه أن يقدّم لي شيئاً مهماً. وهذا لا يعني أنني لم أبحث. ففي كلّ مرّة حاولت أن أصادق فيها أحداً، كنت أعاني من التجربة نفسها، مثل شوبنهاور الذي قال إنه لم يجد سوى رجال تعساء، بؤساء، محدودي الذكاء، قساة القلوب، حقيري المزاج. أشير هنا إلى الأشخاص الأحياء ـ لا إلى المفكّرين العظماء السابقين».

«أنت من طلب مقابلتي يا فيليب».

«كانت تلك علاقة مهنية، لكني أشير إلى اللقاءات الاجتماعية».

«هذه المواقف ظاهرة في سلوكك. باحتقارك وافتقارك إلى المهارات الاجتماعية بسبب هذا الاحتقار، كيف يمكنك أن تتفاعل وتتواصل مع الآخرين بطريقة علاجية؟».

«لسنا مختلفين في ذلك، فأنا أوافق على أنني بحاجة إلى العمل على المهارات الاجتماعية. بقليل من المودة والدفء، كما قال شوبنهاور، يمكنك التلاعب بالناس مثلما نحتاج إلى تسخين الشمع عندما نريد التعامل به».

نهض جوليوس واقفاً وأخذ يهزّ رأسه. صبّ لنفسه كوباً من القهوة، وبدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ثم قال: «إن استخدام موضوع الشمع ليس استعارة سيئة فقط، بل إنها أسوأ استعارة تُستخدم عن العلاج النفسي سمعتها طوال حياتي، وفي الحقيقة إنها أسوأها على الإطلاق. إنك متأكّد كالجحيم بأنك تبذل كل طاقتك، وأنك لا تدفعني لأن أُعجب بصديقك ومعالجك النفسي، آرثر شوبنهاور».

جلس جوليوس ثانية ورشف قهوته، ثم قال: «لن أكرّر عليك عرضي بالقهوة لأنّي أظن أنّك لا ترغب في شيء سوى الإجابة عن سؤالك الوحيد *الإشراف*. يبدو أنك رجل شديد التركيز يا فيليب، لذلك سأكون رحيماً معك وسأكون مباشراً معك. هذا هو ردّي حول الإشراف عليك...».

فيليب الذي كان يتحاشى النظر إليه مباشرة طوال المناقشة، نظر في عيني جوليوس مباشرة لأول مرة.

«لديك عقل ذكي يا فيليب، وتعرف أشياء كثيرة. من الممكن أن تجد وسيلة تسخّر فيها معرفتك لخدمة العلاج النفسي، وفي النهاية، تقدم إسهامات حقيقية. أرجو ذلك. *لكنك لستَ جاهزاً بعد لتصبح معالجاً*، ولستَ جاهزاً لتكون تحت الإشراف. إن مهاراتك الشخصية وحساسيتك ووعيك بحاجة إلى الكثير من العمل. لكنّي أريد أن أساعدك. لقد فشلتُ مرة، ولديّ الآن فرصة ثانية. هل تستطيع أن تعتبرني حليفاً لك يا فيليب؟».

«دعني أجيب عن هذا السؤال بعد أن أسمع اقتراحك الذي أظن أنه وشيك».

«يا إلهي! ها هو. أنا، جوليوس هيرزفيلد، أوافق على أن أكون مشرفاً على سلايت فيليب إذا، وفقط إذا، أمضى أولاً ستّة شهور كمريض في مجموعة العلاج النفسي التي أديرها».

لأول مرة، أجفل فيليب. لم يتوقّع ردّ جوليوس، وقال: «لستَ جدّياً فيما تقول».

«لم أكن جدّياً أكثر من الآن».

«أقول لك إنني بعد سنوات عديدة من الخوض في المجاري، تمكّنت أخيراً من أستجمع شتات حياتي. أقول لك إني أريد أن أكسب رزقي كمعالج نفسي، ولكي أفعل ذلك، فأنا بحاجة إلى مشرف، هذا هو الشيء الوحيد الذي أحتاج إليه بدلاً من أن تعرض عليّ ما لا أريده ولا أستطيع أن أقدّمه».

«أكرر ما قلته لك، فأنت لستَ جاهزاً لتكون تحت الإشراف. لستَ جاهزاً لأن تكون معالجاً، لكني أظن أن العلاج الجماعي قد يتمكّن من معالجة عيوبك. هذه هي شروطي. في البداية التدريب على العلاج الجماعي، وبعدها، وبعدها فقط، سأشرف عليك».

«وما هي أجور علاجك الجماعي؟».

«ليست مرتفعة. سبعون دولاراً للجلسة لمدة تسعين دقيقة. وبالمناسبة، يجب أن تسدّدها حتى إذا لم تحضر جلسة منها».

«كم عدد الأشخاص في المجموعة؟».

«أحاول أن أبقيهم نحو سبعة».

«سبعون دولاراً ضرب سبعة، هذا يعني أربعمائة وتسعون دولاراً. لمدة ساعة ونصف الساعة. إنها تجارة رابحة. وما الهدف من العلاج الجماعي ـ بالطريقة التي تفعلها؟».

«الهدف؟ عمَّ كنا نتحدّث؟ انظر يا فيليب، سأكون صريحاً تماماً معك: كيف ستكون معالجاً وأنت لا تعرف ماذا يجري ببنك وبين أشخاص آخرين؟».

«لا، لا. أعرف ذلك. لم يكن سؤالي دقيقاً. فأنا لم أتدرّب على العلاج الجماعي وإني أستفسر عن أسلوب القيام به. ماذا سأستفيد عندما أسمع الآخرين يصفون حياتهم ومشاكلهم جماعياً؟ إن مجرد فكرة وجود مجموعة من البائسين والتعساء تروّعني، مع أن هناك دائماً، كما قال شوبنهاور، متعة في معرفة أن الآخرين يعانون أكثر مما تعاني أنت».

«آه، إنك تسأل عن دورات للتبصير والتوجيه. هذا طلب مبرّر. إني أحرص على تعريف جميع المرضى الذين ينضمون إلى المجموعة بماهية العلاج الجماعي. وعلى كل معالج نفسي أن يفعل ذلك. لذلك دعني أشرح لك ما أفعله. أولاً، يتركز منهجي بقوة على العلاقات بين الأشخاص، وأفترض أن جميع الذين انضموا إلى المجموعة فعلوا ذلك لأنه توجد لديهم صعوبات تتعلق بإقامة علاقات مستمرة...».

«لكن هذا غير صحيح. فأنا لا أرغب ولا أحتاج إلى...».

«أعرف، أعرف. اصبر قليلاً فقط يا فيليب. لقد قلت إنني أفترض أنّ هذه الصعوبات الشخصية قائمة، أفترض أن الحالة هي هذه، سواء أوافقت أم لم توافق. أما بالنسبة إلى هدفي في مجموعة العلاج، فيمكنني أن أكون شديد الوضوح في هذا الأمر: *وهو مساعدة كلّ عضو في المجموعة على أن يفهم، بقدر الإمكان، كيف يمكنه أو يمكنها الارتباط بالأعضاء الآخرين في المجموعة، بمن فيهم المعالج نفسه*. أقول إنني أحافظ على التركيز على «*الآن وهنا*»، الحاضر، إنه مفهوم جوهري يجب أن تتقنه كمعالج يا فيليب. بمعنى آخر، لا يركّز العلاج الجماعي على الماضي، بل يركّز على الحاضر، *الآن* ـ فلا توجد حاجة إلى سبر ماضي كل فرد بعمق ـ بل نركّز على اللحظة الحالية في المجموعة، ونركّز على *هنا* ـ انس ما يقوله الأعضاء عن فشلهم في علاقاتهم الأخرى

ـ وأفترض أن يبدي الأعضاء نفس السلوك في داخل المجموعة الذي سبّب لهم مشاكل في حياتهم الاجتماعية. وأفترض كذلك بأنهم في النهاية سيعمّمون ما يتعلّمونه عن علاقات مجموعتهم على علاقاتهم في الخارج. هل هذا واضح؟ يمكنني أن أقترح عليك بعض المواد للقراءة».

«واضح. ما هي القواعد الأساسية للمجموعة؟».

«أولاً، السريّة ـ فلا تكلّم أحداً عن الأعضاء الآخرين في المجموعة. ثانياً ـ أن تسعى جاهداً لأن تكون صريحاً وأن تكون صادقاً في إبداء تصوّراتك وآرائك عن الأعضاء الآخرين ومشاعرك عنهم. ثالثاً ـ يجب أن يتم كلّ شيء في داخل المجموعة. وإذا حصل اتصال بين الأعضاء خارج المجموعة، فتجب إعادته إلى داخل المجموعة ومناقشته».

«وهل هذه هي الطريقة الوحيدة التي تكون فيها مستعداً للإشراف عليّ؟».

«بالتأكيد. هل تريدني أن أدرّبك؟ حسناً هذا هو شرطي الأساسي».

جلس فيليب صامتاً، عيناه مغمضتان، وجبهته تستند إلى يديه المشبوكتين. ثمّ فتح عينيه وقال: «سأوافق على اقتراحك إذا وافقت على أن تكون جلسات العلاج الجماعي هي ساعات إشراف».

«هذا كثير يا فيليب. هل يمكنك أن تتخيّل مدى المعضلة الأخلاقية التي تسبّبها لي؟».

«هل يمكنك أن تتخيّل المعضلة التي يسببها لي اقتراحك؟ أن أحوّل انتباهي إلى علاقاتي مع الآخرين عندما لا أتمنّى أبداً بأن يكون أي شخص شيئاً بالنسبة لي. بالإضافة إلى ذلك، ألا يشير ذلك ضمناً إلى أنّ تحسين مهاراتي الاجتماعية سيجعلني ناجحاً أكثر كمعالج؟».

نهض جوليوس واقفاً، أخذ كوب قهوته إلى المغسلة. هزّ رأسه، وتساءل لماذا ورطّ نفسه. ثم عاد إلى كرسيه. زفر ببطء، ثم قال: «حسناً، سأوافق على أن تكون ساعات العلاج الجماعي هي ساعات إشراف».

«هناك شيء آخر: لم نناقش مقابل هذا التبادل ـ بتوجيهي لك عن شوبنهاور».

«مهما فعلنا حول هذه المسألة، عليك أن تنتظر يا فيليب. مؤشر آخر في العلاج: تجنّب إقامة علاقات ثنائية مع المرضى، لأنها ستتدخّل في العلاج. وأنا أعني هنا كلّ أنواع العلاقات الجانبية: علاقات رومانسية، أعمال، حتى العلاقة بين المعلّم والطالب. هذا ما أفضّله كثيراً، وهذا من أجلك، الحفاظ على علاقتنا نظيفة وواضحة. لهذا أقترح أن نبدأ بالمجموعة، ثم، مستقبلاً، نبدأ علاقة الإشراف، وبعدها، ربما ـ لا أقدّم هنا وعوداً ـ دروساً في الفلسفة. مع أنني لا أشعر حالياً برغبة كبيرة في دراسة شوبنهاور».

«بالرغم من ذلك، هل نستطيع أن نحدّد أجراً لاستشارتي الفلسفية في المستقبل معك؟».

«هذا غير مؤكد، ومن المبكر التحدّث عن هذا الأمر يا فيليب».

«ما أزال أرغب في تحديد الأجر».

«إنك لا تزال تدهشني يا فيليب. هذا أكثر الأشياء اللعينة التي تثير قلقك».

«على الرغم من ذلك، فما هو الأجر المناسب؟».

«إن سياستي هي أن أتقاضى من الشخص الذي أشرف عليه نفس الأجر الذي أتقاضاه لقاء العلاج الفردي ـ مع تخفيض للطلاب المبتدئين».

«اتفقنا»، قال فيليب، وهو يهزّ رأسه.

«انتظر يا فيليب، أريد أن أتأكّد من أنك سمعتني أقول إنّ فكرة تعليمي عن شوبنهاور ليست مهمة جداً بالنسبة لي. فعندما برز هذا الموضوع بيننا في البداية، كان كلّ ما فعلته هو أنني أبديت اهتماماً طفيفاً

حول كيف قدّم لك شوبنهاور مساعدة كبيرة، وجريت بالكرة وافترضت أنّنا أبرمنا عقداً».

«آمل أن أتمكن من زيادة اهتمامك بأعماله. يقول أشياء كثيرة ذات قيمة عظيمة في مجال عملنا. طرائق عديدة سبق فيها فرويد الذي استعار عمله كلّه لكنه لم يعترف بذلك».

«سأُبقي عقلي منفتحاً، لكنّي أعيد وأكرر بأن الكثير من الأشياء التي قلتها عن شوبنهاور لا تثير رغبتي في معرفة المزيد عن أعماله».

«حتى الأشياء التي ذكرتها في محاضرتي عن آرائه عن الموت؟».

«خاصة تلك الأفكار. إن الفكرة القائلة بأن الكيان الجوهري للمرء سيتّحد ثانية في نهاية الأمر بقوة مع حياة كونية أثيرية غامضة لا توفر لي أي قدر من الراحة. إذا لم يكن هناك استمرار في الوعي، فما هو العزاء المحتمل الذي يمكنني أن أستمدّه من ذلك؟ وبنفس الطريقة، فإني لا أجد راحة كبيرة من معرفة أنّ جزيئاتي الجسدية ستتبدّد في الفضاء وأن حمضي النووي (DNA) سيصبح جزءاً من شكل حياة أخرى».

«أريد أن نقرأ معاً مقالاته عن الموت وعن فناء الكائن. إذا فعلنا ذلك، فأنا متأكّد...».

«ليس الآن يا فيليب. في هذه اللحظة لا يوجد لديّ اهتمام كبير بالموت بقدر اهتمامي بالعيش ما تبقى من حياتي سعيداً بقدر ما أستطيع؟».

«الموت موجود باستمرار، إنه أفق كلّ هذه المخاوف. قالها سقراط بوضوح شديد «لكي يتعلم المرء أن يعيش بهناء، عليه أن يتعلّم أولاً أن يموت بشكل جيد»، أو كما قال سينيكا: لا يستمتع أي شخص بطعم الحياة الحقيقي إلا إذا كان راغباً ومستعداً لمغادرتها».

«نعم، نعم، أعرف هذه المواعظ، وربما تكون صحيحة من الناحية

النظرية. ولا أمانع بمزاوجة حكمة الفلسفة بعلاج التحليل النفسي. إني أؤيد كلّ ذلك. وأعرف أن شوبنهاور خدمك جيداً في أشكال شتى. لكن ليس بكلّ الطرق: هناك احتمال بأنك تحتاج إلى عمل علاجي. ولهذا السبب يجب أن تنضم إلى المجموعة. إني أتطلّع إلى رؤيتك هنا لحضور أول جلسة يوم الإثنين المقبل الساعة الرابعة والنصف».

فقط لأن نشاط الجهاز التناسلي يقبع في حالة هجوع،
ويكون نشاط الدماغ على أشدّه،
فإن الطفولة زمن البراءة والسعادة،
هي جنّة الحياة، عدن المفقودة،
التي نتطلع إليها بشوق في السنوات المتبقية من حياتنا.

١٠

أسعد السنوات في حياة آرثر

عندما بلغ آرثر التاسعة من العمر، قرّر والده أن الوقت قد حان ليوجّه تعليم ابنه. كانت الخطوة الأولى التي اتخذها هي أنه أرسله إلى لو هافر، حيث أقام في بيت أحد شركائه، غريغوريس دي بليسمير، لمدة سنتين تعلّم آرثر خلالها اللغة الفرنسية، والفضائل الاجتماعية، وعلى حد تعبير هاينرش، «ليقرأ كتب العالم».

هل طُرد من البيت، وفُصل عن أمه وأبيه وهو في التاسعة من عمره؟ كم طفلاً يعتبرون أن منفى كهذا يشكل حدثاً كارثياً في حياتهم؟ لكن بالرغم من ذلك، وفي فترة لاحقة من حياته، وصف آرثر هاتين السنتين «بأنهما أسعد فترة في طفولته».

لكن شيئاً مهماً حدث في لو هافر: ربما المرة الوحيدة في حياته، أحسّ آرثر بأنه أُنشئ تنشئة جيدة وتمتّع بالحياة. وبعد ذلك بسنوات عدّة، كان لا يزال يتذكّر ببهجة أسرة دي بليسمير التي وجد فيها شيئاً أشبه

بالحبّ الأبوي. وكان يمتدحها كثيراً في الرسائل التي كان يرسلها إلى والديه إلى حدّ أن أمّه اضطرت لتذكّره بفضائل أبيه وسخائه، «تذكّر كيف أن والدك سمح لك بشراء آلة الناي العاجية بمبلغ لوي ذهبي».

وجرى حدث مهم آخر أثناء إقامته في لو هافر. فقد عثر آرثر على صديق ـ واحداً من الأصدقاء القلائل جداً في حياته كلها، أنثيم، ابن أسرة دي بليسمير، الذي كان في عمر آرثر. وأصبح الصبيان صديقين حميمين في لو هافر وتبادلا بضع رسائل بعد عودة آرثر إلى هامبورغ.

وبعد سنوات، عندما أصبحا شابين في العشرين من عمرهما، التقيا مرة أخرى، وخرجا معاً مرّات عدّة بحثاً عن مغامرات غرامية. ثمّ تباعد درباهما واهتماماتهما. فقد أصبح أنثيم رجل أعمال واختفى من حياة آرثر لمدة ثلاثين سنة عندما تبادلا رسائل لفترة قصيرة طلب فيها آرثر من صديقه استشارة مالية. وعندما ردّ أنثيم على رسالته وطلب مبلغاً من المال لقاء استشارته، أنهى آرثر المراسلات فيما بينهما على الفور. ومنذ ذلك الحين، بدأ يرتاب بجميع الناس ولم يعد يثق بأحد. ووضع رسالة أنثيم جانباً بعد أن كتب على ظهر المغلّف حكمة ساخرة لغراسيان (فيلسوف إسباني يكنّ له والده احتراماً شديداً): «تدخل في أمور شخص آخر حتى تخرج منه بنفسك».

وجرى لقاء آخر بين آرثر وأنثيم بعد عشر سنوات، كان لقاء جافاً لم يجد أحدهما الكثير ليقوله للآخر. ووصف آرثر صديقه القديم بأنه «رجل عجوز لا يطاق»، وكتب في مذكراته أن «شعور صديقين يلتقيان بعد جيل من الغياب سيكون محبطاً جداً مدى الحياة».

وكان لحادثة أخرى تأثير في إقامة آرثر في لو هافر: تعرّف فيها على الموت. فقد مات أحد رفاق طفولته في هامبورغ يدعى غوتفريد يانيش عندما كان آرثر يعيش في لو هافر. ومع أن آرثر بدا متحفّظاً وقال إنه لم يفكّر في غوتفريد مرة أخرى، كان من الواضح أنه لم ينس قط رفيقه في اللعب المتوفي، ولا صدمة تعرّفه على الموت لأول مرة، لأنه وصف

بعد ثلاثين سنة حلماً في مذكراته: «وجدتُ نفسي في بلد لا أعرفه، وكان يقف في الحقل عدد من الرجال من بينهم رجل بالغ، طويل القامة، نحيف، لا أعرف كيف تعرفت عليه بأنه غوتفريد يانيش، ورحّب بي».

لم يجد آرثر صعوبة كبيرة في تفسير الحلم. ففي ذلك الحين كان يعيش في برلين في خضم انتشار وباء الكوليرا. لم تكن صورة اللقاء مع غوتفريد في الحلم تعني إلا شيئاً واحداً فقط: وهو الإيذان بموت وشيك. فقرّر آرثر أن يهرب من الموت وغادر برلين على الفور. واختار الانتقال إلى فرانكفورت، حيث عاش السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته، لأنه كان يعتقد أنها حصينة من الكوليرا.

إنّ أعظم حكمة هي أن تجعل متعة الوقت الحاضر
أسمى هدف في الحياة لأنها الحقيقة الوحيدة،
وكلّ ما عداها مجرد تلاعب فكري.
ويمكننا أن ندعوها أيضاً أعظم حماقتنا
لأن الشيء الذي يوجد للحظة فقط ثم يتلاشى كحلم
لا يستحق أن يُبذل من أجله جهد حقيقي.

١١

أول جلسة يحضرها فيليب

وصل فيليب قبل موعد جلسة العلاج الجماعي بخمس عشرة دقيقة، مرتدياً نفس الثياب التي كان يرتديها في الاجتماعين السابقين مع جوليوس: القميص المجعّد ذو المربعات الذي حال لونه، والبنطلون الكاكي، والسترة القطنية السميكة. مندهشاً من إهمال فيليب المتواصل في ارتداء ثيابه، وأثاث مكتبه، وطلابه، أو ما على ما يبدو، أي شخص يتواصل معه، تساءل جوليوس مرة أخرى لماذا قرر دعوة فيليب لحضور الجلسة. هل كانت دعوته تلك قراراً صائباً مهنياً، أم أنها ثقة شديدة بالنفس، *تشوزباه*: *تشوزباه* ترفع رأسها القبيح مرة أخرى. وقاحة، فجاجة، وثقة شديدة بالنفس؟ *تشوزباه*: أفضل تعريف لها تلك القصّة المشهورة عن الفتى الذي قتل والديه ثم طلب من المحكمة الرحمة لأنه أصبح يتيماً. وغالباً ما كانت *تشوزباه* تتسلل إلى عقل جوليوس عندما

يتفكر في منهجه في الحياة. ربما كان مشبّعاً *بالتشوزباه* منذ البداية، لكنّ أول ما صادفها بوعي كان في خريف سنته الخامسة عشرة، عندما انتقلت أسرته من حيّ البرونكس إلى واشنطن العاصمة. فقد نقل والده الذي أصيب بنكسة مالية الأسرة إلى بيت صغير في شارع فاراغوت، شمال غرب واشنطن. ولم يكن يُسمح لأحد أن يسأل عن طبيعة الصعوبات المالية التي تعرّض لها والده، لكن جوليوس كان متيقناً من أن لها علاقة بأكواداكت، حصان السباق الذي كان يمتلكه بالشراكة مع فيك فيسلو، رفيقه في لعب البوكر. وكان فيك شخصاً مراوغاً يضع منديلاً وردياً في جيب سترته الرياضية الصفراء، وكان يتحاشى الدخول إلى بيتهم عندما تكون أمّه في البيت.

استلم والده إدارة محل بيع المشروبات الكحولية الذي يملكه ابن عمه الذي توفي وهو لا يتجاوز الخامسة والأربعين من العمر لإصابته بالشريان التاجي، ذلك العدو الرهيب الذي قتل أو أعاق وشوّه جيلاً كاملاً من اليهود الأشكنازيين الذكور وهم لم يتجاوزا الخمسين من العمر الذين تربّوا على تناول القشطة ولحم صدر البقر المليء بالدهون. لكن والده كره عمله الجديد الذي كان جيداً بالنسبة للأسرة لا لأنه يدّر دخلاً جيداً، وإنما لأن ساعات العمل الطويلة كانت تبعد الأب عن لوريل وبيمليكو، مضماريْ السباق المحليّين.

في أول يوم ذهب فيه جوليوس إلى المدرسة في ثانوية روزفلت هاي في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥، اتخذ قراراً مهماً: وهو أن يعيد الاعتبار لنفسه. فهو غير معروف في واشنطن. روح حرة غير مثقلة بالماضي. ولم يكن هناك شيء يمكنه أن يفتخر به خلال السنوات الثلاث الماضية التي أمضاها في مدرسة بي. إس ١١٢٦، وفي مدرسته الإعدادية في حيّ البرونكس. فقد كان القمار يجذبه أكثر مما تجذبه نشاطات المدرسة الأخرى بكثير. فقد كان يمضي بعد ظهر كلّ يوم في صالة البولينغ يشارك في ألعاب التحدي ويراهن على نفسه أو على شريكه، مارتي غيلير،

اللاعب العظيم الذي كان يلعب بيده اليسرى. وكان يجري أيضاً مراهنات صغيرة، حيث كان يعرض عشر احتمالات مقابل احتمال واحد على أي شخص يختار واحداً من ثلاثة لاعبي البيسبول ليحصل على ستّ ضربات في أيّ يوم معين. ومهما اختارت الحمامات ـ مانتل، وكالين، وآرون، وفيرنون، أو ستان (الرجل) موسيال ـ فقد كانوا نادراً ما يربحون، في أحسن الأحوال، مرة من بين عشرين إلى ثلاثين رهاناً. وكان جوليوس يرافق الرعاع الذين يوافقونه في الميول والأفكار، وكوّن لنفسه هالة مقاتل شوارع شرس ليُرهب الذين يتهرّبون من سداد مبلغ الرهان، وكان يلوذ بالصمت في الصف ويظل هادئاً، ولم يكن يحضر دروس فترة بعد الظهر لكي يشاهد مانتل وهو يجوب ميدان الوسط في ملعب اليانكي.

لكن كلّ ذلك تغيّر في اليوم الذي دُعي فيه هو ووالداه إلى مكتب المدير الذي أبرز له سجل حسابات مراهناته الذي كان قد أضاعه منذ يومين وكان يبحث عنه بشكل مسعور. وبالرغم من العقوبة التي فُرضت عليه ـ عدم الخروج في المساء من البيت خلال الشهرين المتبقيين من السنة الدراسية؛ وعدم ارتياد صالة البولينغ، وعدم الذهاب إلى ملعب اليانكي، وأن لا يمارس أي ألعاب رياضية بعد انتهاء دوام المدرسة. وحُرم كذلك من مصروف الجيب، لكن جوليوس كان يدرك أن والده لم يكن متحمساً لهذا الأمر: بل كان مُعجباً بتفاصيل لعبة جوليوس: ثلاثة لاعبين، وست ضربات. ثم نال جوليوس إعجاب المدير. فبعد أن سقط من المكانة التي كان يتمتع بها، كانت هذه الصحوة بمثابة دعوة لليقظة فحاول أن يستجمع شتات نفسه. لكنّ الوقت كان قصيراً جداً، متأخراً جداً، لذلك كان أفضل ما يستطيع أن يفعله هو أن يرفع علاماته المدرسية إلى درجة وسط. ولم يكن بإمكانه إقامة صداقات جديدة ـ فقد التصقت به شخصيته السابقة (*الدور المغلق*)، ولم يتمكن أحد من التواصل مع الصبي الجديد الذي قرر جوليوس أن يكونه.

وبسبب هذه الحادثة، ومنذ ذلك اليوم، تولدت لدى جوليوس

حسّاسية شديدة لظاهرة «*الدور المغلق*»: فكم مرة رأى أشخاصاً في العلاج الجماعي يطرأ عليهم تغيير جذري، بينما يظل أشخاص آخرون كما كانوا في السابق. ويحدث ذلك أيضاً داخل العائلات. فلا يزال العديد من مرضاه الذين تحسّنت حالتهم كثيراً يواجهون أوقاتاً عصيبة عندما يقومون بزيارة ذويهم: لأنه يتوجب عليهم أن يكونوا حريصين في سلوكهم كي لا تنتكس حالتهم ويعودوا إلى دورهم القديم في الأسرة، وأن يبذلوا جهداً كبيراً لإقناع ذويهم وأشقائهم بأنهم قد تغيّروا فعلاً.

بدأت تجربة جوليوس الكبيرة في التغيير مع انتقال أسرته. ففي أول يوم في مدرسته في واشنطن العاصمة، ذلك اليوم الصيفي الهندي المعتدل من أيام أيلول (سبتمبر) كان جوليوس يسحق بقدميه أوراق الجمّيز المتساقطة في طريقه إلى مدخل ثانوية روزفلت هاي، باحثاً عن وسيلة يغيّر فيها نفسه. وعندما رأى اللافتات المعلقة خارج صالة المدرسة تعلن أسماء المرشّحين لرئاسة الصفّ، خطرت لجوليوس فكرة، وحتى قبل أن يعرف أن تقع غرفة الفتيان، رشحّ اسمه لانتخابات رئيس الصفّ.

كانت فرصة الفوز في الانتخاب ضئيلة، ضئيلة جداً، فرصة أضعف بكثير من فرص الرهان على فوز فريق واشنطن سيناتورز غير الكفء بقيادة كلارك غريفيث ووصوله إلى المرتبة الأخيرة. ولم يكن جوليوس يعرف شيئاً عن ثانوية روزفلت ولم يكن قد التقى بعد بأي طالب في الصفّ. هل سيرشح جوليوس السابق القادم من حيّ البرونكس نفسه إلى انتخابات رئاسة الصفّ؟ لا، لا يمكن ذلك، ولا بعد ألف سنة. لكن لهذا السبب، لهذا السبب بالذات، أقدم جوليوس على هذه الخطوة الجديدة: ما الأسوأ الذي يمكن أن يحدث؟ بل سينتشر اسمه هناك، وسيقرّ الجميع بأن جوليوس هيرزفيلد قائد قوي، صبي يمكن الاعتماد عليه. والأهم من كلّ ذلك، فهو شاب مفعم بالنشاط والحركة.

بالطبع، سيرفضه معارضوه وسيعتبرونه نكتة سيئة، بعوضة، شخصاً نكرة لا يعرف شيئاً. متوقّعاً هذا الانتقاد، جهّز جوليوس نفسه وأعدّ نفسه

للتحدث عن أن الطالب الجديد يستطيع رؤية العيوب التي لا يراها الذين يعيشون بجانب الفساد. فهو يمتلك موهبة التكلّم بطلاقة التي شحذتها ساعات طويلة في صالة البولينغ في تملّق ومداهنة المغفلين للمشاركة في الألعاب. لم يكن لدى جوليوس الجديد ما يخسره وتوجّه بلا خوف وبجرأة إلى الطلاب المتجمعين ليقول لهم: «مرحباً، أنا جوليوس، الفتى الجديد في المدرسة، وأرجو أن تدعموني في انتخاب رئيس الصفّ. وصحيح أنني لا أعرف شيئاً عن سياسة المدرسة، لكن، كما تعرفون، فإن نظرة جديدة قد تكون أفضل في بعض الأحيان. فضلاً عن أنني مستقل تماماً ـ ولا أنتمي إلى أيّ عصبة أو فريق لأني لا أعرف أحداً».

وكما تبيّن، لم يجدد جوليوس نفسه فحسب، بل كاد أن يقترب أيضاً من الفوز في الانتخابات. فمع فريق كرة قدم خسر ثماني عشرة مباراة وفريق كرة سلة سيئ الحظ أيضاً، كان طلاب ثانوية روزفلت يعتريهم الإحباط. وكان المرشّحان الآخران ضعيفين: كانت كاثرين شومان، الفتاة الذكية ابنة الكاهن المتجهم ضئيل الجسم الذي يقيم الصلاة قبل اجتماع الطلاب الصباحي، فتاة متزمتة لا تحظى بالشعبية؛ وكان لدى ريتشارد هيشمان، الظهير المساعد في فريق كرة القدم، الوسيم، ذو الشعر الأحمر، القروي المتخلّف، أعداء كثيرون. تصدّر جوليوس قائمة أصوات المحتجين. ولدهشته الكبيرة، التفّ حوله فوراً جميع الطلاب اليهود تقريباً الذين يشكلون نحو ٣٠ في المائة من إجمالي عدد الطلاب، والذين لم يكن لديهم نشاط سياسي بارز في المدرسة حتى ذلك الحين. فأحبّوه، حبّ مايسن دكسن ييد الخجول، المتردد، لليهودي الجريء، المشاغب، القادم من نيويورك.

كان ذلك الانتخاب نقطة التحوّل المهمة في حياة جوليوس. وحصل على تأييد كبير لجرأته، فأعاد تشكيل هويته بالكامل بالاستناد إلى ثقة شديدة بالنفس. وتنافست عليه أخويات المدارس الثانوية اليهودية الثلاث

التي اعتبرت أنه يمتلك الجرأة والكأس المقدّسة المراوغة لشاب مراهق، «الشخصية». وسرعان ما تحلّق حوله الفتيان عند الغداء في الكافتيريا، وشوهد غالباً وهو يسير بعد المدرسة يداً بيد مع ميريام كاي الجميلة، محرّرة صحيفة المدرسة، الطالبة شديدة الذكاء التي كانت تنافس كاثرين شومان على مرتبة الطالب المتفوّق، وسرعان ما أصبحا، هو وميريام، صديقين متلازمين لا يفترقان. وعرّفته على الفنّ وجعلته يتذوق الحساسية الجمالية، لكنه لم يتمكن من أن يجعلها تحبّ لعبة البولنغ أو البيسبول.

نعم، أخذته ثقته الشديدة بنفسه (*الشيبوتز*) إلى طريق طويل. هذّبها، وتفاخر بها كثيراً، وفي الحياة التالية، كان يبتسم عندما يسمعهم يقولون عنه إنه المعالج النفسي الأصيل، الفريد الذي يمتلك الشجاعة لمعالجة الحالات التي هزمت معالجين آخرين. لكن للثقة الشديدة بالنفس جانبها المظلم أيضاً ـ هوس العظمة. فقد أخطأ جوليوس أكثر من مرة عندما حاول أن يفعل أكثر مما يمكن فعله، عندما كان يطلب من المرضى أن يغيّروا أنفسهم بشكل يفوق طاقتهم، بأن يدفعهم إلى سلوك طريق طويل، وفي النهاية، لا يكون هذا النهج في العلاج مجدياً.

إذاً هل هو إحساس بالشفقة أم مجرد إصرار سريري الذي قاد جوليوس إلى التفكير في أن باستطاعته إعادة فيليب إلى طريق الصلاح؟ أم هي الثقة العمياء بالنفس؟ لا يعرف. عندما رافق فيليب إلى غرفة العلاج الجماعي، ألقى جوليوس نظرة طويلة على مريضه المتردّد. بشعره البني الفاتح الممشّط بشكل مستوٍ إلى الخلف من دون أن يفرقه إلى أحد الجانبين. كان جلده مشدوداً فوق عظام وجنتيه، عيناه متوجستين، خطواته ثقيلة. كان فيليب يبدو كأنه مساق إلى إعدامه.

اعترت جوليوس موجة من التعاطف، وبصوته الأكثر نعومة وتشجيعاً، قال له: «كما تعرف يا فيليب، فإن مجموعات العلاج الجماعي معقّدة كثيراً، لكنها تمتلك سمة متوقّعة مطلقة».

إذا كان جوليوس قد توقّع السؤال الفضولي الطبيعي عن «السمة

المتوقّعة المطلقة»، فلم يبد أي إشارة تدل على خيبة أمل من صمت فيليب. وبدلاً من ذلك، ظلّ يتكلّم كما لو أن فيليب قد أبدى فضولاً ملائماً، «وتلك السمة هي أن الجلسة الأولى لمجموعة العلاج الجماعي تكون دائماً أقل إزعاجاً وأكثر مشاركة مما يتوقّع العضو الجديد».

«لست متضايقاً من أي شيء يا جوليوس».

«حسناً إذاً، تذكر ما قلته. إذا صادفت شيئاً من هذا القبيل».

توقّف فيليب عند مدخل باب المكتب الذي اجتمعا فيه منذ بضعة أيام، لكن جوليوس لامس مرفقه وقاده إلى الباب المجاور الذي فُتح على غرفة تحفّها من جوانبها الثلاث رفوف كتب تمتد من السقف إلى الأرض. وعلى الجدار الرابع توجد ثلاث نوافذ مؤطرة بألواح خشبية تطلّ على حديقة يابانية تزيّنها أشجار صنوبر قزمة عدّة، وصخرتان صغيرتان، وبركة ماء ضيّقة طولها ثماني أقدام تعوم فيها أسماك شبوط ذهبية اللون. وأثاث الغرفة بسيط وعملي وهو عبارة عن منضدة صغيرة بجانب الباب، وسبعة كراسي خيزران مريحة رتّبت في شكل دائرة، وكرسيين آخرين مركونين في الزاوية.

«ها هنا نحن. هذه هي مكتبتي وغرفة اجتماع العلاج الجماعي. وريثما يصل الأعضاء الآخرون، دعني أشرح لك ما يجري هنا. ففي أيام الإثنين، أفتح الباب الأمامي قبل نحو عشر دقائق من موعد الجلسة، ويدخل الأعضاء من تلقاء أنفسهم. وعندما أدخل في الرابعة والنصف، نبدأ على الفور، وننتهي في الساعة السادسة. وللتخفيف من عبء المحاسبة وإعداد الفواتير، يسدّد كلّ شخص في نهاية كلّ جلسة ـ اترك شيكاً على المنضدة بجانب الباب. هل عندك أسئلة أخرى؟».

هزّ فيليب رأسه بأن لا، وتطلّع حول الغرفة، ثم أخذ نفساً عميقاً. اتجّه مباشرة نحو رفوف الكتب، وقرّب أنفه كثيراً من الكتب المجلّدة بالجلد، واستنشقها ثانية، مبدياً سعادة كبيرة. ظل واقفاً وراح يطالع عناوين الكتب بدقة.

في الدقائق القليلة التالية، وصل خمسة أعضاء من المجموعة. نظر كلّ منهم إلى ظهر فيليب، قبل أن يجلسوا. وبالرغم من الجلبة التي أحدثوها عندما دخلوا، لم يلتفت فيليب أو يتوقّف عما كان يفعله من تفحّص مكتبة جوليوس.

خلال السنوات الخمس والثلاثين من عمله في العلاج الجماعي، رأى جوليوس عدداً كبيراً من الأشخاص يدخلون إلى جلسات العلاج الجماعي. كان النمط متوقّعاً: إذ يدخل العضو الجديد بتثاقل وبشيء من الرهبة، ويتصرّف باحترام تجاه الأعضاء الآخرين الذين يرحبّون بالقادم الجديد ويعرّفونه على أنفسهم. وفي بعض الأحيان، قد يظن أفراد مجموعة مشكلّة حديثاً، خطأً، بأنّ الفائدة تتناسب بشكل مباشر مع حجم الاهتمام الذي يتلقاه كل عضو من المعالج، وقد يشعرون بالاستياء من القادمين الجدد، أما المجموعات القديمة، فإن أعضاءها يرحّبون بهم: ويقدّرون أن إضافة شخص جديد تضيف إلى نجاح العلاج ولا ينتقص منه.

ويشارك القادمون الجدد أحياناً في المناقشة، لكنهم يظلون عادة صامتين معظم فترة الجلسة الأولى، في محاولة منهم لفهم القواعد وينتظرون حتى يدعوهم أحد للإدلاء بدلوهم. لكن قدوم عضو جديد لا مبالٍ، لا يدير ظهره متجاهلاً أعضاء المجموعة الآخرين؟ لم ير جوليوس شيئاً كهذا من قبل، ولا حتى في مجموعات المرضى الذهانيين في جناح الطب النفسي.

بالتأكيد، قال جوليوس لنفسه، لا بد أنه ارتكب خطأً فاحشاً بدعوة فيليب لحضور جلسات المجموعة. إن إبلاغ المجموعة بإصابته بالسرطان أكثر من كافٍ في برنامجه لهذا اليوم. وشعر بعبء ثقيل على كاهله من قلقه حول فيليب.

ما الذي يجري مع فيليب؟ هل من الممكن أنّه يشعر بالرهبة أو بالخجل؟ لا يرجح ذلك. لا، ربما انزعج لأنني ألححت عليه للانضمام

إلى المجموعة، وبطريقته العدوانية السلبية، فهو ينتقم مني ومن المجموعة. يا إلهي، قال جوليوس لنفسه، عليّ أن أعلّقه على حبل الغسيل حتى يجفّ. لا تفعل أي شيء. دعه يغرق أو يسبح. سيكون من الممتع أن يجلس باسترخاء ويستمتع بهجوم المجموعة الذي لا بد أنه قادم.

لا يتذكّر جوليوس النكات عادة، لكنه تذكّر الآن نكته كان قد سمعها منذ سنوات. في صباح أحد الأيام، قال ابن لأمّه: «لا أريد أن أذهب إلى المدرسة اليوم».

«لم لا؟» سألته أمّه.

«لسببين: فأنا أكره الطلاب، وهم يكرهونني».

فأجابت الأمّ، «يجب أن تذهب إلى المدرسة لسببين: أولاً لأنك في الخامسة والأربعين من العمر، وثانياً، لأنك المدير».

نعم، إنه رجل بالغ. إنه معالج المجموعة. ومهمته أن يضم أعضاء جدداً، وحمايتهم من الآخرين ومن أنفسهم. ومع أنه لم يكن يفتتح أي جلسة بنفسه، فقد كان يفضّل أن يشجع الأعضاء على إدارة المجموعة، أما اليوم فلم يكن لديه خيار آخر.

«الرابعة والنصف. موعد بدء الجلسة. فيليب، لماذا لا تجلس». التفت فيليب ليواجهه لكنه لم يتحرك نحو أي كرسي. هل هو أصمّ؟ قال جوليوس لنفسه. أبله اجتماعي؟ لم يجلس فيليب على أحد الكراسي الفارغة إلا بعد أن أومأ جوليوس بمقلة عينه إلى أحد الكراسي الشاغرة.

ثم قال موجهاً كلامه إلى فيليب: «ها هي مجموعتنا. أحد الأعضاء لن يكون معنا الليلة، بام التي سافرت في رحلة لمدة شهرين»، ثمّ، توجّه إلى المجموعة، وقال: «ذكرت لكم منذ بضعة جلسات بأنّني قد أقدّم لكم عضواً جديداً. لقد التقيت بفيليب الأسبوع الماضي وها هو يبدأ

معنا اليوم». بالطبع إنه يبدأ اليوم، قال جوليوس لنفسه. تعليق غبي. هكذا. لن أمسك بيدك وأساعدك. اغرق أو اسبح.

في تلك اللحظة بالذات، اندفع ستيوارت، القادم من عيادة الأطفال في المستشفى الذي كان لا يزال يرتدي معطف العيادة الأبيض، إلى الغرفة وارتمى على أحد الكراسي، وتمتم اعتذاراً لأنه تأخّر. ثم التفت الأعضاء الآخرون نحو فيليب، وقدّم أربعة منهم أنفسهم له ورحّبوا به: «أنا ريبيكا، توني، بوني، ستيوارت. مرحباً، أهلاً بك. من دواعي سرورنا أن نراك هنا. إننا سعيدون بانضمامك إلينا. نحتاج إلى دم جديد ـ نقصد مشاركة جديدة».

أما العضو المتبقي، وهو رجل جذّاب أصبح أصلع قبل الأوان، وأحاطت برأسه حافة من الشعر البني الفاتح، ضخم الجسم يشبه جسم مساعد حكم في مباراة كرة قدم، فقد قال بصوت منخفض إلى درجة مدهشة: «مرحباً، أنا جيل. وآمل يا فيليب ألّا تظن بأنني أتجاهلك، لكنّي بالتأكيد، وبشكل ملّح أحتاج إلى وقت من المجموعة اليوم. فلم أكن بحاجة إلى المجموعة كما أحتاج إليها اليوم».

لم يصدر أي ردّ من فيليب.

«موافق يا فيليب؟» كرّر جيل.

مجفلاً، فتح فيليب عينيه على وسعيهما وهزّ رأسه.

التفت جيل نحو الوجوه المألوفة في المجموعة وقال: «لقد حدثت أشياء كثيرة، وبلغت ذروتها هذا الصباح بعد أن أنهت زوجتي جلستها مع معالجها النفسي. كنت قد قلتُ لكم في الأسابيع القليلة الماضية كيف أن المعالج أعطى روز كتاباً عن التحرش الجنسي بالأطفال جعلها تقتنع بأنها تعرّضت للتحرش الجنسي عندما كانت طفلة. أصبحت لديها فكرة ثابتة ـ ماذا تطلقون عليها... فكرة ثابتة؟» التفت جيل نحو جوليوس.

«فكرة راسخة»، تدّخل فيليب قائلاً.

«صحيح. شكراً»، قال جيل الذي ألقى نظرة سريعة على فيليب وأضاف، همساً، «يا إلهي، هذا ردّ سريع جداً»، ثم عاد إلى قصته، «كان لدى روز فكرة راسخة بأنّ والدها كان قد تحرّش بها جنسياً وهي صغيرة. تشبثت بهذه الفكرة ولم تعد تفارقها. هل تتذكّر أيّ حادث جنسي تعرضت له؟ لا. شهود؟ لا. لكن معالجها يرى أنها إذا كانت تشعر بالاكتئاب وتخشى ممارسة الجنس، وتصاب بأشياء مثل انتكاسات في الانتباه ونوبات عاطفية شديدة خارجة عن سيطرتها، لاسيّما الغضب من الرجال، فلا بدّ أنها تعرّضت لانتهاك جنسي. هذه هي الفكرة الرئيسية التي يطرحها ذلك الكتاب اللعين، ومعالجها يقسم به. لذلك، طوال شهور، كما أخبرتكم حتى الغثيان، لم نكن نتحدّث عن أشياء أخرى إلا قليلاً. أصبح علاج زوجتي محور حياتنا. لم يعد هناك وقت لأي شيء آخر. لم يعد هناك موضوع آخر نتحدّث عنه. ماتت حياتنا الجنسية. لا شيء. انسوا الأمر. منذ أسبوعين طلبت منّي أن أتصل بأبيها ـ فهي ترفض أن تكلّمه مباشرة ـ ودعوته لأن يحضر جلسة علاجها. وأرادتني أن أكون موجوداً أيضاً ـ لأحميها، على حد تعبيرها».

«فاتصلت به، ووافق على الفور. استقلّ البارحة حافلة من بورتلاند وجاء إلى جلسة العلاج هذا الصباح وهو يحمل حقيبة مهترئة لأنه سيعود إلى محطة الحافلات مباشرة بعد انتهاء الجلسة. كانت الجلسة كارثة. فوضى مطلقة. فقد هاجمته روز ولم تتوقف عن ذلك. بلا حدود، بلا هوادة، من دون أن تذكر كلمة شكر واحدة لأن والدها العجوز قطع عدّة مئات الأميال من أجلها ـ ليحضر جلسة علاجها لمدة تسعين دقيقة. اتهمته بكلّ شيء، حتى إنها ادّعت بأنه كان يدعو جيرانه ورفاقه في لعب البوكر وزملاءه في فوج الإطفاء ـ كان يعمل إطفائياً آنذاك ـ لممارسة الجنس معها عندما كانت طفلة».

«وماذا فعل الأب؟» سألت ريبيكا، وهي امرأة نحيفة، طويلة القامة، جميلة للغاية، في الأربعين من عمرها. كانت محنية إلى الأمام، تسمع باهتمام شديد ما يقوله جيل.

«تصرّف كرجل محترم. إنه رجل عجوز لطيف، في نحو السبعين من العمر، لطيف، طيب. كانت تلك أول مرة أراه فيها. كان رجلاً رائعاً ـ يا إلهي، كم تمنيت أن يكون عندي أب مثله. جلس هناك، واستمع، ثم قال لروز إنها إذا كانت تحمل كل هذا الغضب، فمن الأفضل أن تفرغه. وأنكر كلّ تهمها المجنونة، وقال إنه يعتقد ـ وأظن أن هذا كلام منطقي ـ بأنّ غضبها قد يكون لأنه هجر الأسرة عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، وقال إن غضبها خصّبته ـ هذه كلمته، فهو مزارع ـ أمّها التي دأبت على تسميم أفكارها ضدّه منذ طفولتها. وقال لها إنه كان عليه أن يغادر البيت لأنه أصيب بالاكتئاب من العيش مع أمّها، وإنه كان سيكون ميتاً الآن لو ظل يعيش معها. ودعوني أقول لكم، فأنا أعرف أمّ روز حق المعرفة، ومعه كل الحقّ».

«وفي نهاية الجلسة، طلب أن توصله إلى محطّة الحافلات، وقبل أن أتمكّن من الردّ قالت روز إنها لا تشعر بالأمان بالركوب معه في نفس السيارة. فقال حسناً، ومضى وهو يجرّ حقيبته.

«وبعد عشر دقائق، كنت أنا وروز في السيارة متجهين نحو شارع ماركت ستريت، فرأيته؛ رجل عجوز محنيّ الظهر، أبيض الشعر، يجرّ حقيبته. كان المطر قد بدأ يهطل، فقلت لنفسي، هذا هو الخراء. فقدت أعصابي وقلت لروز: «لقد جاء إلى هنا من أجلك ـ ليحضر جلسة علاجك ـ لقد قطع كلّ تلك المسافة من بورتلاند، وها هي تمطر الآن، اللعنة سأوصله إلى محطة الحافلات: توقفت بجانب الرصيف وعرضت عليه أن أوصله. كانت نظرات روز مثل خناجر موجهة إليّ، وقالت: «إذا صعد إلى السيارة، فإني سأنزل». فقلت لها: تفضلي! وأشرت إلى مقهى ستاربكس في الطرف المقابل وقلت لها أن تنتظرني هناك وسأعود بعد بضع دقائق. نزلت من السيارة وابتعدت. حدث ذلك منذ نحو خمس ساعات. لم تذهب إلى مقهى ستاربكس، وإنما ذهبت إلى حديقة غولدن غايت بارك وتجولت فيها. أفكّر في ألّا أعود إلى البيت أبداً».

ثم استرخى جيل في كرسيه، منهكاً.

أبدى توني وريبيكا وبوني وستيوارت موافقتهم: «عظيم يا جيل». «آن الأوان يا جيل». «رائع، لقد فعلت ذلك حقاً». «يا له من تصرف جيد». وقال توني: «لا أستطيع أن أخبرك كم أنا سعيد لأنك انفصلت عن تلك الكلبة». «إذا احتجت إلى سرير»، قالت بوني، وهي تمرر يديها بعصبية في شعرها البني الأجعد، وعدّلت نظارتها ذات الإطار الأصفر، «عندي غرفة إضافية. لا تقلق؛ فأنت في أمان»، ثم أضافت ضاحكة، «أنا أكبر منك سناً وابنتي في البيت».

تدخّل جوليوس الذي لم يكن مسروراً للضغط الذي مارسته المجموعة (فقد رأى الكثير من المشاركين يغادرون جلسات العلاج لأنهم يشعرون بالخجل لأنهم خيّبوا ظنّ المجموعة)، وقال: «لقد تلقيتَ ردود أفعال قوية يا جيل. ما هو شعورك الآن؟».

«عظيم. ينتابني شعور عظيم... لا أريد أن أخيّب أمل الجميع. لقد حدث ذلك بسرعة كبيرة ـ لقد حدث كلّ ذلك في الصباح... إني أرتعش... ولا أعرف ماذا سأفعل».

فقال جوليوس: «تقصد أنك لا تريد أن تستبدل أوامر زوجتك بأوامر المجموعة».

«نعم. أظن ذلك. نعم، أفهم ما تقصد. صحيح. لكن الأمر محيّر. أريد حقاً، أحتاج إلى هذا التشجيع بالفعل... إني ممتن لذلك... إني بحاجة إلى توجيه ـ قد تكون هذه نقطة تحوّل في حياتي. لقد سمعت من الجميع ما عداك يا جوليوس. وبالطبع أريد أن أسمع رأي العضو الجديد. فيليب، أليس كذلك؟».

هزّ فيليب رأسه.

«فيليب، أعرف أنك لا تعرف عن حالتي كثيراً، لكنّك تعرف»، التفت جيل إلى جوليوس، «ماذا عن ذلك؟ ماذا برأيك يجب أن أفعل؟».

أجفل جوليوس لا إرادياً وتمنّى أن أحداً لم يلحظ ذلك. وشأن معظم المعالجين، فقد كان يكره ذلك السؤال ـ «ملعون إذا فعلت، ملعون إذا لم تفعل». إنه يراها قادمة.

«جيل، لن يعجبك ردّي. لكن ها هو. لا أستطيع أن أخبرك ماذا يجب أن تفعل: هذا شأنك، قرارك أنت، وليس قراري. إن أحد أسباب وجودك هنا في هذه المجموعة هو أن تتعلّم كيف تثق بحكمك. وسبب آخر هو أن كلّ شيء أعرفه عن روز وعن زواجك عرفته منك. ولا يمكنك إلّا أن تعطيني معلومات متحيّزة. ما يمكنني أن أفعله هو أن أساعدك في التركيز على كيف يمكنك أن تساهم في حلّ مأزق حياتك. لا نستطيع أن نفهم أو نغيّر روز. إنك تستطيع تغيير ـ مشاعرك، سلوكك ـ هذا ما يهم هنا لأن هذا ما يمكنك أن تغيّره».

خيّم الصمت على المجموعة. كان جوليوس محقّاً؛ فلم يعجب جيل هذا الجواب، ولم يعجب الأعضاء الآخرين.

ريبيكا، التي أفلتت مشبكي شعرها وراحت تنفض شعرها الأسود الطويل قبل أن تعيدهما، كسرت الصمت والتفتت إلى فيليب وقالت: «أنت جديد هنا ولا تعرف خلفية القصة التي نعرفها نحن. لكن أحياناً من فم المواليد الجدد...».

جلس فيليب صامتاً. لم يكن من الواضح إن كان قد سمع ريبيكا.

«نعم، لقد سمعتَ هذا يا فيليب؟» قال توني بنبرة لطيفة لم يعتد الآخرون سماعها منه. كان توني رجلاً داكن البشرة على خديه آثار ندوب عميقة من حبّ الشباب، وله جسم رياضي جميل يبرز أفضل ميزاته في قميصه الأسود الذي كُتب عليه *عمالقة سان فرانسيسكو* وبنطلون جينز ضيّق.

«لديّ ملاحظة ونصيحة»، قال فيليب، شابكاً يديه، مائلاً رأسه إلى الخلف، وعيناه مثبّتتان في السقف، «كتب نيتشه ذات يوم أن الفرق

الرئيسي بين الإنسان والبقرة هو أن البقرة تعرف كيف توجد، كيف تعيش من دون قلق ـ أي الخوف ـ سعيدة في الحاضر، متحرّرة من أثقال الماضي ولا تدرك أهوال المستقبل. أما نحن البشر منكودي الحظ، فإن الماضي يسكننا والمستقبل الذي يمكننا أن نسير نحوه بخطى وئيدة في الحاضر. هل تعرف لماذا نحنّ كثيراً إلى الأيام الذهبية في طفولتنا؟ يقول لنا نيتشه لأن أيام الطفولة تلك هي الأيام السعيدة، الأيام الخالية من الهموم، الأيام قبل أن تثقلنا الذكريات المؤلمة، وحطام الماضي. اسمح لي أن أبدي ملاحظة هامشية: إني أشير إلى مقالة نيتشه، لكن هذه الفكرة ليست فكرته الأصلية ـ في هذه، وكما في أفكار أخرى كثيرة، سرقها من أفكار وأعمال شوبنهاور».

توقّف. صمت مطبق خيّم على المجموعة. تحرّك جوليوس في كرسيه، وقال لنفسه، خراء، لا بد أنني فقدت صوابي عندما أحضرتُ هذا الشخص إلى هنا. هذه ألعن وأغرب طريقة أرى فيها مريضاً يأتي إلى مجموعة.

كسرت بوني الصمت. موجّهة نظراتها إليه مباشرة، قالت: «هذا رائع يا فيليب. أعرف أنني أحنّ باستمرار إلى طفولتي، لكنّي لم أفهمها بهذه الطريقة، بأن الطفولة فترة حرية وذهبية لأنه لا يوجد ماض يثقل عليك. شكراً، سأتذكّر ذلك».

«وأنا أيضاً. كلام مثير للاهتمام»، قال جيل، «لكنك قلت إن عندك نصيحة لي؟».

«نعم، ها هي نصيحتي». تكلّم فيليب بهدوء، بلطف، لم يزل لم يجر أي اتصال بعينيه مع الآخرين، «إن زوجتك من ذلك النوع الذي لا يستطيع أن يعيش في الحاضر لأنها مثقلة كثيراً بهموم الماضي. إنها سفينة تغرق. إنها تهبط إلى الأسفل. ونصيحتي لك هي أن تقفز من السفينة وتبدأ بالسباحة. إنها ستصحو بقوة عندما تغوص إلى الأسفل، لذلك فإني أحثك على أن تسبح وتبتعد عنها بأسرع ما يمكنك وبأقصى ما تستطيع».

ساد صمت. بدا الذهول على وجوه المجموعة.

«مهلاً، لن يدينك أحد»، قال جيل، «إذا قلت ما تعرفه. لقد سألتُ سؤالاً. وقدمتَ أنت جواباً. أقدّر لك ذلك. كثيراً. إننا نرحب بك في المجموعة. هل لديك تعليقات أخرى ـ أريد أن أسمعها».

«حسناً»، قال فيليب وهو لا يزال ينظر إلى الأعلى، «في هذه الحالة دعني أضيف فكرة أخرى. لقد وصف كيركيغارد بعض الأشخاص بأنهم يعيشون في حالة قنوط مزدوج: أي أنهم مصابون بالقنوط، لكنهم يخدعون أنفسهم إلى حدّ أنهم لا يعرفون أنهم مصابون بالقنوط. أظن أنك قد تكون مصاباً بحالة قنوط مزدوج. وهذا ما أقصده: إن معظم معاناتي هي بدافع الرغبات، ثم، عندما أشبع إحدى الرغبات، فإني أستمتع بلحظة إشباع سرعان ما تتحوّل إلى ملل، ثم تظهر رغبة أخرى فجأة. ويرى شوبنهاور أن هذه هي الحالة البشرية السائدة ـ الرغبة، الإشباع المؤقت، الملل، ثم رغبة أخرى.

«والآن لنعد إلى حالتك ـ أتساءل هل سبرت هذه الدورة من الرغبات اللانهائية في داخلك. لعلك كنت منهمكاً كثيراً بتلبية أمنيات زوجتك فلم تتمكن من التعرف على رغباتك أنت؟ أليس لهذا السبب كان الآخرون هنا يصفّقون لك اليوم؟ أليس لأنك رفضت أخيراً أن تُعرّف برغباتها؟ بعبارة أخرى، أتساءل هل تأخّرت في الاشتغال على نفسك أم أنك ابتعدت عنها لانشغالك برغبات زوجتك».

أنصت جيل، فاغراً فمه، نظرته مثبتة على فيليب، ثم قال: «هذا كلام عميق. أعرف أن هناك شيئاً عميقاً ومهماً في ما تقوله ـ في فكرة القنوط المزدوج هذه ـ لكني لم أفهم شيئاً مما قلته».

تركزت كلّ العيون الآن على فيليب الذي ظلت عيناه مثبتتين على السقف. «فيليب»، قالت ريبيكا التي انتهت الآن من تثبيت مشبكي

شعرها، «ألم تكن تقول إن عمل جيل الشخصي لن يبدأ حقاً إلا بعد أن يحرّر نفسه من زوجته؟».

«أو»، قال توني، «إن انشغاله بها منعه من معرفة مدى تحطّمه حقاً؟ اللعنة، أعرف أن هذا ينطبق عليّ والطريقة التي أرتبط بها بعملي ـ فقد كنت أفكّر في الأسبوع الماضي بأنني كنت مشغولاً جداً بالتفكير في أنني أشعر بالخجل لأنني أعمل نجاراً ـ لأنني عامل، لأن دخلي منخفض، لأنه يُنظر إليّ بأنني في مرتبة أدنى ـ فلا أتمكن أبداً من التفكير في الخراء الحقيقي الذي يجب أن أتعامل معه».

كان جوليوس يراقب كل ذلك بدهشة مثل الآخرين، متعطشاً لسماع كلّ كلمة يقولها فيليب. أحسّ بدوافع تنافسية تعتريه لكنه كبتها مذكّراً نفسه بأن أهداف المجموعة قد تحققت. هدئ من روعك يا جوليوس، قال لنفسه، *فالمجموعة بحاجة إليك. فهم لن يغادروك ويذهبوا إلى فيليب. إن ما يجري هنا شيء عظيم؛ فقد بدأوا يستوعبون العضو الجديد، وأن كلّ واحد منهم أيضاً يضع برنامجاً للعمل في المستقبل.*

كان قد خطّط ليتحدّث عن مرضه في المجموعة اليوم. بمعنى ما، فهو مرغم على عمل ذلك الآن لأنه أخبر فيليب بأنه مصاب بسرطان الجلد، ولتفادي الانطباع بأن لديه علاقة خاصة به، عليه أن يشارك المجموعة كلها بذلك. لكنّه لم يتمكن من ذلك، أولاً، بسبب حالة جيل الطارئة، وثانياً، بسبب افتتان المجموعة كلّها بفيليب. نظر إلى ساعة يده. بقي عشر دقائق. ليس وقتاً كافياً ليخبرهم بذلك. صمم جوليوس على أن يبدأ الجلسة المقبلة بهذا الخبر السيء. ظل صامتاً وترك الساعة تتجاوز الوقت.

خلّف الملوك تيجانهم وصولجاناتهم هنا، وترك الأبطال أسلحتهم.
أما الأرواح العظيمة من بينهم جميعاً الذين تدفّقت روعتهم إلى الخارج،
الذين لم يحصلوا عليها من أشياء خارجية، فإنهم يأخذون عظمتهم معهم.

آرثر شوبنهاور في السادسة عشرة، في دير ويست منستر.

١٢

١٧٩٩ ـ آرثر يتعلّم الاختيار والأهوال الدنيوية الأخرى

عندما عاد آرثر وهو في التاسعة من العمر من لو هافر، سجّله والده في مدرسة لتعليم الذين يرغبون في العمل بالتجارة. وتعلّم آرثر ما يجب أن يتعلمه التجار الناجحون: الحساب بمختلف العملات، وكتابة الرسائل التجارية بكلّ اللغات الأوروبية الرئيسية، ودراسة طرق النقل، والمراكز التجارية، وغلال التربة، ومواضيع جذابة أخرى، لكنها لم تجذب آرثر، ولم يبد أي اهتمام بهذه المعارف، ولم يقم أي صداقات وثيقة في المدرسة، ويوماً بعد يوم، بدأ يزداد خشية من المخطط الذي كان يرسمها له والده لمستقبله؛ التدّرب على يد أحد كبار التجار المحليين لمدة سبع سنوات.

ماذا كان آرثر يريد؟ لم يكن يرغب في أن يعيش حياة تاجر ـ بل كان يمقت هذه الفكرة بالتحديد، وكان يرغب في أن يعيش حياة باحث.

وكان كثير من زملائه أيضاً يكرهون فكرة قضاء فترة طويلة في التدريب، لكن احتجاجات آرثر كانت أعمق بكثير. وعلى الرغم من تحذيرات والديه القوية ـ فقد وصلته رسالة من أمّه تطلب فيها منه «أن ينحّي جانباً جميع كلّ أولئك المؤلفين لفترة من الزمن.... لقد بلغتَ الآن الخامسة عشرة وقرأت ودرست أفضل المؤلفين الألمان والفرنسيين، وبعض المؤلفين الإنكليز أيضاً» ـ فقد كان يمضي جلّ وقت فراغه في دراسة الأدب والفلسفة.

وكان والد آرثر، هاينرش، يتعذّب من اهتمامات ابنه. فقد أبلغه مدير المدرسة بأن ابنه مغرم بالفلسفة، والأجدر به أن يعيش حياة باحث، فمن الأفضل أن يحوّله إلى الجمنازيوم ليتهّيأ لدخول الجامعة. قد يكون هاينرش قد أحسّ، في سريرته، بصواب نصيحة مدير المدرسة، لأن التهام ابنه كلّ أعمال الفلسفة والتاريخ والأدب في مكتبة شوبنهاور الواسعة بشراهة وفهمه لها، كان جلياً.

ماذا كان على هاينرش أن يفعل؟ فقد كان وريثه مهدّداً بالضياع، بالإضافة إلى مستقبل الشركة كلّها والتزامه البنوي أمام أسلافه للحفاظ على نسل شوبنهاور. كما ارتجف هاينرش من فكرة أن يعيش أحد أبناء عائلة شوبنهاور على الدخل المحدود الذي يكسبه الباحث.

أولاً، فكّر هاينرش في أن يُوقِفَ لابنه مبلغاً سنوياً دائماً من خلال كنيسته، لكن التكاليف حالت دون ذلك، لأن الأعمال التجارية كانت سيئة آنذاك، وكانت لدى هاينرش كذلك التزامات لضمان المستقبل المالي لزوجته وابنته.

وشيئاً فشيئاً، بدأ يتشكل في رأسه حلّ، حلّ شيطاني نوعاً ما. فقد كان يقاوم منذ فترة توسلات يوهنا للقيام برحلة طويلة في أوروبا. كانت تلك الأوقات عصيبة، ولم يكن المناخ السياسي الدولي مستقراً وكانت سلامة المدن الهانزية مهدّدة، وكان عليه أن يركز اهتمامه على عمله باستمرار. لكن بسبب شعوره بالإرهاق وتوقه للتخلص من ثقل

مسؤوليات أعماله التجارية، بدأت مقاومته لطلب يوهنا تخبو. وشيئاً فشيئاً بدأت تخطر بباله خطة ملهمة تؤدي هدفين: إدخال البهجة إلى قلب زوجته، وحلّ معضلة مستقبل آرثر.

وتمثّل قراره في أن يخيّر ابنه الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة، وقال له: «يجب أن تختار. إمّا أن تذهب مع والديك في جولة كبيرة لمدة سنة في أنحاء أوروبا، وإما أن تتخذ مهنة باحث. وإمّا أن تعدني عندما نعود من الرحلة بأن تبدأ التدرّب على الأعمال التجارية، وإما أن تتخلّى عن هذه الرحلة، وتبقى في هامبورغ وتذهب مباشرة لدراسة منهج تعليمي كلاسيكي يؤهلك للحياة الأكاديمية».

تصوّر شاباً لا يتجاوز الخامسة عشرة من العمر في مواجهة قرار من شأنه أن يغير حياته. لعل هاينرش المتحذلق دائماً قد أعطاه درساً وجودياً. لعله كان يعلّم ابنه بأنه لكلّ نعم لاب دّ أن تكون هناك لا. (في الواقع، كتب آرثر بعد سنوات: «إن الذي سيكون كلّ شيء، لا يمكن أن يكون شيئاً»).

أم أن هاينرش كان يوحي لابنه فكرة أن يتخلّى عن قراره، بمعنى أنه، إذا لم يتمكن آرثر من التخلّي عن متعة الرحلة، فكيف يتوقّع أن يتخلّى عن المتع الدنيوية ويعيش حياة باحث معدم؟

قد نكون متسامحين كثيراً مع هاينرش. من المرجح أن عرضه هذا كان مخادعاً، لأنه كان يعرف أن آرثر لن، ولا يستطيع أن يرفض عرض الرحلة. فلا يستطيع شاب في الخامسة عشرة من العمر أن يفعل ذلك في عام ١٨٠٣. ففي ذلك الوقت، كانت رحلة كهذه لا تقدّر بثمن، ولا يمكن أن تحدث إلّا مرة واحدة في العمر، ولا تتاح إلّا للأثرياء وأصحاب الامتيازات القلائل. فقبل زمن التصوير الفوتوغرافي، لم تكن الأماكن الأجنبية تُعرف إلّا من خلال الرسومات واللوحات الزيتية ويوميات الرحلات المنشورة (وهو نوع، بالمصادفة، استغلّته يوهنا شوبنهاور لاحقاً ببراعة).

هل شعر آرثر بأنه كان يبيع روحه؟ هل عذّبه قراره؟ حول هذه الأمور، لا يقول لنا التاريخ شيئاً. لا نعرف إلّا أنه في عام ١٨٠٣، عندما كان في الخامسة عشرة، انطلق مع أبيه وأمّه وخادمة في رحلة لمدة خمسة عشر شهراً في جميع أرجاء أوروبا الغربية وبريطانيا العظمى. أما أديل، أخته التي كانت في ربيعها السادس، فقد أُودعت عند أحد الأقرباء في هامبورغ.

سجّل آرثر العديد من الانطباعات في يوميات رحلاته، كما طلب والداه، بلغة البلد الذي يزروه. كانت كفاءته اللغوية هائلة. فقد كان آرثر ذو الخامسة عشرة ربيعاً يتقن اللغة الألمانية والفرنسية والإنكليزية ويجيد الإيطالية والإسبانية. وفي النهاية، أتقن اثنتي عشرة لغة حديثة وقديمة، وكان من عادته، كما ذكر زوّار مكتبته التذكارية، أن يدوّن ملاحظاته على الهوامش بلغة كلّ نصّ.

وكانت يوميات رحلات آرثر تُظهر بدقة شديدة الاهتمامات والخصائص التي بدأت تتجمع لتركيب شخصية مواظبة. وكانت كتابة نصّ هامشي قوي في يومياته هي ما يجذبه من أهوال الإنسانية. وفي تفصيل رائع، يصف آرثر هذه المشاهد المدهشة من قبيل المتسولين المتضورين جوعاً في ويستفاليا، والحشود التي تجري مذعورة هرباً من الحرب الوشيكة (كانت الحملات النابليونية قد بدأت تظهر)، واللصوص، والنشّالين، وجماعات السكارى في لندن، وعصابات النهب في بويتيرس، والمقصلة العامة المعروضة في باريس، والستة آلاف مجداف المعروضة كأنها في حديقة حيوانات، في تولون التي قُدّر لها أن تُربط بسلاسل معاً مدى الحياة في هياكل بحرية ضخمة على اليابسة بعد أن هرمت ولم تعد صالحة للإبحار. ووصف القلعة في مارسيليا التي ضمت ذات يوم الرجل في *القناع الحديدي*، ومتحف الطاعون، حيث كانت الرسائل الواردة من المناطق التي فرض عليها حجر صحي في المدينة تُغمر في أحواض من الخلّ الساخن قبل إرسالها. وفي ليون،

أشار إلى رؤية أناس يمشون بلا مبالاة في ذات البقعة التي قتل فيها آباؤهم وإخوتهم في أثناء الثورة الفرنسية.

وفي مدرسة داخلية في ويمبليدون كان اللورد نلسون طالباً فيها ذات يوم في إنكلترا، أتقن آرثر اللغة الإنكليزية وحضر الأحكام بإعدام العامة والضرب بالسوط على متن السفن، وزار المستشفيات ومستشفيات الأمراض العقلية، وسار وحيداً في أحياء لندن الفقيرة الصاخبة المزدحمة.

عاش بوذا في شبابه في قصر أبيه حيث كان مصير البشرية محجوباً عنه. وعندما خرج لأول مرة من قصر أبيه رأى أهوال الحياة الأساسية الثلاثة: شخص مريض، وعجوز هرم، وجثمان ميت. إن اكتشافه للطبيعة المأساوية والفظيعة للوجود قادت بوذا إلى التخلّي عن العالم والبحث عن خلاص من المعاناة العالمية.

أما آرثر شوبنهاور أيضاً، فقد أثرت الآراء والأفكار المبكّرة للمعاناة كثيراً على حياته وعمله. إن تشابه تجربته مع تجربة بوذا بدت واضحة له، وعندما كتب عن رحلته بعد سنوات، قال: «عندما كنت في السابعة عشرة، من دون أيّ تعليم، أدركت تعاسة الحياة، مثل بوذا في شبابه، عندما رأى المرض والألم والشيخوخة والموت».

لم يخض آرثر تجربة دينية. لم تكن لديه أي عقيدة، لكنه عندما كان شاباً، تملكّته رغبة في الإيمان، أمنية للهرب من هول وجود شامل غير ملحوظ. لو كان يؤمن بالله، لأصبح إيمانه على المحك في رحلته المليئة بأهوال الحضارة الأوروبية. وعندما كان مراهقاً، في الثامنة عشرة من عمره، كتب «أيُفترض أن يكون الذي خلق هذا العالم إله؟ لا، من الأفضل بكثير، أن يكون الشيطان هو الذي خلقه».

عندما ينظر معظم البشر إلى الوراء في نهاية حياتهم،
سيتبيّن لهم أنهم عاشوا كلّ حياتهم بشكل مؤقت.
وسيُدهشون عندما يرون أن الشيء الذي تركوه
ينسلّ منهم دون أن يقدّروه ويستمتعوا به، هو حياتهم.
لذلك يرقص الإنسان، المخدوع بالأمل، بين ذراعي الموت.

١٣

مشكلة الهرّة الصغيرة هي أنها
ستصبح قطّة في النهاية.
ومشكلة الهرّة الصغيرة أنها
ستصبح قطّة في النهاية.

أخذ يهزّ رأسه ليبعد هذين الشطرين المزعجين من تفكيره، انتصب جوليوس في جلسته في السرير وفتح عينيه. كانت الساعة السادسة صباحاً، بعد أسبوع، موعد الجلسة التالية، وهذان الشطران الغريبان من قصيدة *أوغدن ناش* يجولان في رأسه مثل موسيقى تصويرية لليلة مؤرقة أخرى.

مع أن الجميع يوافقون على أن الحياة خسارة لعينة بعد أخرى، فإن عدداً قليلاً من الناس يعرفون أن إحدى أكثر الخسائر إزعاجاً التي تنتظرنا في العقود المقبلة هي نوم ليلة هانئة. كان جوليوس يعرف هذا الدرس

جيداً. فقد كانت ليلته النموذجية تتألف من إغفاءة أشبه بمنديل ورقي رقيق لا يكاد يدخل في عالم النوم أبداً، نوم بطيء خفيف، نوم تتخلله فترات كثيرة من الاستيقاظ إلى حد أنه بات يخاف أن يأوي إلى الفراش. ومثل أكثر المصابين بالأرق، فقد كان يصحو في الصباح معتقداً أنه نام ساعات أقل بكثير من عدد الساعات التي نامها فعلاً، أو أنّه ظل مستيقظاً طوال الليل. وفي معظم الأحيان، كان يُطمئن نفسه بأنّه نام بعد أن استعرض بعناية أفكاره الليلية وأدرك أنه لن يجترّ، عندما يكون مستيقظاً، طويلاً، الأشياء اللا عقلانية الغريبة هذه.

لكن في هذا الصباح بالذات، كان مشوّشاً إلى درجة كبيرة حول عدد الساعات التي نامها فعلاً. لا بد أن شطريْ الهرة ـ القطّة قد انبثقا من عالم الحلم، لكن أفكاره الليلية الأخرى سقطت في أرض محايدة، لا يوجد فيها وضوح وجلاء الوعي الهش ولا النزوة الملتوية لأفكار الحلم.

جلس جوليوس في السرير، وراح يراجع الشطرين بعينين مغمضتين، مطبّقاً التعليمات التي يقدّمها عادة للمرضى لتسهيل استدعاء التخيّلات الليلية، الصور في مقتبل النوم، والأحلام. القصيدة موجهة للذين يحبّون الهرر الصغيرة، لكن ليس قبل أن تبلغ مرحلة القطط. لكن ما علاقة ذلك به؟ فهو يحبّ الهرر والقطط معاً، كان يحبّ القطّتين العجوزين في مخزن والده، وكان يحبّ قططهما الصغيرة، وقطط قططهما، ولم يفهم لماذا التصق هذا الشطران في رأسه بهذه الطريقة المرهقة.

بعد تفكير، قال إن هذين الشطرين هما رسالة تذكير صارمة كيف أنه اعتنق طوال حياته الأسطورة الخطأ: أي أن كلّ ما يتعلق بجوليوس هيرزفيلد ـ ثروته، مركزه، مجده ـ في تصاعد، وأن الحياة ستصبح أفضل وأفضل دائماً. بالطبع، أدرك الآن أنّ العكس هو الصحيح ـ أن الشطرين صحيحان ـ أن العصر الذهبي جاء أولاً، أن براءته، البدايات مثل هرة اللعب، لعبة الاستغماية، ألعاب الأسر والعَلَم، وبناء الحصون من علب المشروبات الكحولية الفارغة في محل والده، عندما كان

متحرراً من الشعور بالذنب، من المكر والمعرفة، أو الواجب، كانت أفضل فترة في الحياة، لكن مع مرور الأيام والسنوات، انطفأت كثافة لهيبه، وازداد الوجود قتامة وحلكة. وبقي الأسوأ حتى النهاية. تذكّر كلمات فيليب عن الطفولة في الجلسة الأخيرة. لا ريب في ذلك: كان نيتشه وشوبنهاور محقّين في هذا لجزء.

هزّ جوليوس رأسه بحزن. صحيح أنه لم يستمتع باللحظة قط، لم يدرك الحاضر قط، لم يقل لنفسه قط: «لقد انتهى، هذه المرة، هذا اليوم ـ هذا ما أريده! هذه هي أيام زمان الجيدة، الآن. دعني أبقى في هذه اللحظة؛ دعني أضرب جذوري في هذا المكان إلى الأبد؟ لا، كان يعتقد دائماً بأن لحم الحياة الأكثر لذة لم يأت بعد، وكان يتوق دائماً إلى المستقبل ـ الوقت عندمـا يصبـح أكبر سناً، أكثر ذكاء، أكبر مقاماً، وأكثر ثراء. ثم جاء الاضطراب، زمن التحوّل العظيم إلى الوراء، وعدم جعل المستقبل مثالياً بشكل مفاجئ وكارثي، وبداية الحنين الممض والموجع لما كان عليه.

متى حدث ذلك التراجع؟ متى حلّ الحنين محل وعد الغد الذهبي؟ ليس في الجامعة حيث كان جوليوس يعتبر كلّ شيء مقدمة (وعقبة) لتلك الجائزة الكبيرة: قبوله في كليّة الطبّ. ليس في كليّة الطبّ عندما كان في سنواته الأولى يتوق لأن يخرج من قاعات الدرس إلى أجنحة المستشفى كطبيب يرتدي سترة بيضاء والسماعة تتدلى من جيبه أو مرمية عرضاً حول رقبته مثل شال من الفولاذ والمطاط. ليس في سنتيه الثالثة والرابعة في كلية الطبّ عندما أخذ مكانه أخيراً في أجنحة المستشفى ثم بدأ يتطلع إلى سلطة أكبر ـ لأن يكون شخصاً مهماً، ويتخذ قرارات طبية مهمة، وينقذ حياة الناس، ويرتدي بدلة الجراحين الزرقاء ويميل فوق مريض مستلق على عربة يدفعونها في الممر إلى غرفة العمليات لإجراء جراحة طارئة. ولا حتّى عندما أصبح رئيس الأطباء المقيمين في قسم الأمراض النفسية، وألقى نظرة سريعة وراء ستارة الشامانية، وصُعق لمحدودية المهنة التي اختارها.

لا شك في أن عدم رغبة جوليوس المزمنة والمستمرة في فهم الحاضر هو الذي دمّر زواجه. فمع أنه أحبّ ميريام منذ اللحظة التي وقعت عيناه عليها عندما كان في الصفّ العاشر، سرعان ما اعتبرها عقبة تحول دون أن يتقرّب من النساء الكثيرات اللاتي كان يشعر بأن من حقّه الاستمتاع بهن. ولم يقرّ قط بأنّ البحث عن رفيقة له قد انتهى أو أنّ حريته في اتباع شهواته قد خفتت بأي شكل من الأشكال. وعندما بدأت فترة تخصصه في المستشفى، وجد أن البيت الذي يضم أماكن نوم الأطباء المتدربين يقع مباشرة إلى جانب مهجع مدرسة التمريض الذي يعجّ بالممرضات الشابات اليانعات اللواتي يعشقن الأطباء. كان مخزن حلوى حقيقياً، وقد ملأ نفسه بطيف واسع من النكهات.

لا بد أن التحول حدث مباشرة بعد موت ميريام. ففي السنوات العشر منذ أن سلبها منه حادث اصطدام السيارة، ازداد حبّه لها أكثر مما كان يحبّها عندما كانت على قيد الحياة. كان جوليوس يتنهد أحياناً بيأس عندما يفكّر في أن رضاءه الشهواني مع ميريام، اللحظات الشاعرية المتصاعدة الحقيقية في الحياة، كانت تأتي وتذهب من دون أن يتمكّن من الإمساك بها تماماً. وحتى الآن، بعد عقد من الزمن، لم يستطع ترديد اسمها بسرعة، بل كان عليه أن يتوقّف قليلاً بعد كلّ حرف. وكان يعرف أيضاً أنه لا توجد امرأة أخرى تهمّه حقاً. فقد بددّت نساء عدّة وحدته بصورة مؤقتة، لكن لم يكن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً بالنسبة له ولهن، إلى أن يدركن أنهن لا يمكن أن يحللن محل ميريام. وفي الآونة الأخيرة، خففت من حدة وحدته دائرة كبيرة من الأصدقاء الذكور، بعضهم من فريق دعمه النفسي، بالإضافة إلى ابنه وابنته. وفي السنوات القليلة الماضية، بدأ يمضي عطله مع ولديه وأحفاده الخمسة.

لكن لم تكن كلّ هذه الأفكار والذكريات سوى أشرطة ليلية ومواضيع قصيرة، وتركّز نشاطه العقلي في الليل على التدّرب على ما سيقوله لأعضاء العلاج الجماعي في عصر ذلك اليوم.

كان قد تحدّث عن إصابته بالسرطان مع عدد من أصدقائه والمرضى الذين يعالجهم فردياً، ومن الغريب أنه كان مهموماً على نحو مؤلم كيف يمكنه أن يُبلغ المجموعة بذلك. خيّل إلى جوليوس أن سبب ذلك لأنه يحبّ هذه المجموعة كثيراً. وطوال خمس وعشرين سنة كان يتطلّع بلهفة إلى كلّ جلسة. فقد كانت المجموعة بالنسبة إليه أكثر من كونها مجموعة من الأشخاص، لدى كلّ واحد منهم حياته الخاصة، وله شخصيته التي تميّزه. وبالرغم من أنه لن يبقى أحد من الأعضاء الأصليين (بالطبع إلّا هو) في المجموعة، فقد كانت تتسم بذات الاستقرار والمواظبة، ثقافة جوهرية (باللغة الاصطلاحية التخصصية، مجموعة فريدة من الأعراف «قواعد» غير مكتوبة) يبدو أنها لا تموت. ولم يكن باستطاعة أي عضو أن يتلو قواعد المجموعة، لكن بإمكان الجميع الاتفاق على إن كان السلوك ملائماً أم غير ملائم.

كانت المجموعة تتطلب طاقة أكبر بكثير من أيّ شيء آخر يقوم به خلال الأسبوع وكان جوليوس يبذل جهداً كبيراً لإبقائه عائماً. سفينة رحمة جليلة، أوصلت عدداً كبيراً من المعذّبين إلى موانئ أكثر سعادة، وأكثر أماناً. كم عددهم؟ حسناً، بما أن متوسط مدة العلاج يتراوح بين سنتين وثلاث سنوات، فقد خمّن جوليوس أن عددهم لا يقل عن مائة مسافر. وبين الحين والآخر، كانت ذكريات بعض الأعضاء المغادرين تخطر بباله، مقتطفات من أحاديث متبادلة، صورة بصرية عابرة لوجه أو حادثة ما. أحسّ بالحزن عندما خطر له أن ومضات الذاكرة هذه هي كلّ ما تبقى من الأوقات الغنية النابضة بالحياة، أحداث تنبض بالكثير من الحياة والمعنى والحزن.

قبل سنوات عدّة، جرّب جوليوس أن يصوّر المجموعة بالفيديو ويعيد مشاهدة بعض الأحاديث الإشكالية في الجلسة التالية. لكن لم تعد هذه الأشرطة في صيغتها القديمة تصلح لأجهزة الفيديو الحديثة. يفكّر أحياناً في إخراجها من المخزن في القبو في بيته وتحويلها إلى صيغة

ملائمة، وإعادة المرضى الذين ذهبوا إلى الحياة ثانية. لكنّه لم يفعل ذلك قط، لم يكن قادراً على أن يكشف نفسه أمام اختبار الطبيعة المخادعة للحياة، وكيف أنها مخزّنة في شريط لماع وكيف أن اللحظة الحالية وكلّ لحظة مقبلة ستبهت بسرعة وتتحوّل إلى عدم من الموجات الكهرومغناطيسية.

تحتاج المجموعات في العلاج الجماعي إلى وقت حتى تستقر وتتوطد الثقة بين أعضائها. وفي أحيان كثيرة، ينشأ عن مجموعة جديدة أعضاء لا يتمكنون، لأسباب تتعلق بالدوافع أو بالمقدرة، من المشاركة في عمل المجموعة (أي التفاعل مع أعضاء آخرين وتحليل ذلك التفاعل). عندها قد تمرّ أسابيع من الصراع المضطرب لأن الأعضاء يتنافسون على موقع القوّة، والمركزية، والتأثير، لكن في نهاية الأمر، بعد أن تتوطد الثقة بينهم، تزداد أجواء التعافي قوّة. وفي إحدى المرات، شبّه زميله سكوت العلاج الجماعي بجسر يقام في أثناء المعركة. يجب وقوع إصابات عديدة (أي الأعضاء الذين يغادرون المجموعة) خلال المرحلة التكوينية المبكّرة، لكن ما إن يقام الجسر، حتى ينتقل الكثير منهم ـ الأعضاء الأصليون الذين يبقون وجميع الذين ينضمون لاحقاً إلى المجموعة ـ إلى موقع أفضل.

كان جوليوس قد كتب مقالات مهنية عن السبل المختلفة التي يساعد فيها العلاج الجماعي المرضى، لكنّه كان يجد صعوبة دائماً في إيجاد اللغة الملائمة لوصف المكوّن الجوهري الحقيقي وهو: بيئة المجموعة المعالجة. وقد شبّهها في إحدى مقالاته بعلاجات التقرحات الجلدية الحادّة التي يُغطس فيها المريض في حمّامات مهدئة من الشوفان المجروش.

إن إحدى المزايا الجانبية الرئيسية لقيادة العلاج الجماعي ـ حقيقة لم ترد في الأدبيات المهنية ـ هي أن العلاج الجماعي الفعّال غالباً ما يعالج المعالج نفسه فضلاً عن المرضى. ومع أن جوليوس كان يشعر بارتياح

شخصي بعد انتهاء كلّ جلسة، لم يكن متيقناً قط من الآلية الدقيقة. هل لأنه ينسى نفسه لمدة تسعين دقيقة، أم أنها نتيجة ما ينطوي عليه العلاج من إيثار، أو لأنه يستمتع بتجربته الخاصة، مفتخراً بقدراته، مستمتعاً بالتقدير العالي من الآخرين؟ كلّ ما ذكر أعلاه؟ توقف جوليوس عن محاولة أن يكون دقيقاً، وخلال السنوات القليلة الماضية، بدأ يقبل التفسير الشعبي بأن يغطس في مياه المجموعة الشافية.

كان يبدو له أن إبلاغ المشاركين في العلاج الجماعي عن إصابته بسرطان الجلد أمر في غاية الأهمية. فهو يرى أن إبلاغ أفراد عائلته وأصدقائه وجميع الذي يقبعون وراء الكواليس بإصابته بالمرض شيء، وإبلاغ جمهوره الأساسي، تلك المجموعة المنتقاة التي هو فيها المعالج، الطبيب، الكاهن، والشامان، شيء آخر. خطوة لا يمكن أن يعدل عنها، اعتراف بأنه أصبح متقاعداً، اعتراف صريح بأن حياته لم تعد تتجه صعوداً نحو مستقبل أكبر، أكثر بريقاً.

تذكّر جوليوس إحدى المشاركات في مجموعة العلاج التي لم تحضر الجلسة، بام التي سافرت وستعود بعد شهر. وأسف لأنها لن تحضر اليوم عندما سيُبلغ الآخرين عن مرضه، لأنها مشاركة أساسية في المجموعة، ويضفي حضورها دائماً الراحة والشفاء للآخرين ـ وله أيضاً. وحزن لأنه لم يتمكن من مساعدتها في تخفيف حدّة غضبها من زوجها وعشيقها السابق وتفكيرها الوسواسي فيهما، فقررت بام، بدافع اليأس، أن تسعى إلى الحصول على مساعدة في أحد المعتكفات البوذية في الهند (أشرم).

بهذه المشاعر التي تعتمل في صدره، دخل جوليوس غرفة العلاج الجماعي عند الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم. كان جميع الأعضاء قد أخذوا أماكنهم وكانوا منهمكين في قراءة أوراق أخفوها عندما دخل جوليوس.

غريب، قال لنفسه. هل تأخر؟ ألقى نظرة سريعة على ساعة يده. لا،

إنها الرابعة والنصف تماماً. تناسى ذلك وبدأ يلقي الكلمات التي كان قد أعدّها.

«دعونا نبدأ الآن. كما تعرفون، فإني لم أعتد على بدء الجلسة بنفسي، لكن اليوم استثناء لأنني أريد أن أفصح لكم عن شيء، شيء يصعب عليّ قوله. وهذا ما أريد أن أقوله».

«منذ نحو شهر، أصبتُ بمرض خطير، سأكون صريحاً معكم، لا بل أكثر من خطير ـ أحد أشكال سرطان الجلد الخطيرة، ميلانوما خبيث. كنت أظن أنني أنعم بصحة جيدة. لقد ظهر ذلك المرض عندما أجريت الفحص الطبي الروتيني مؤخراً...».

توقّف جوليوس. كان ثمة شيء غريب. لم تكن تعابير وجوههم ولغتهم غير المنطوقة ملائمة. ولم تكن طريقة جلوسهم معتادة. فقد كان ينبغي لهم أن يلتفتوا نحوه، أن يركّزوا نظراتهم عليه. لكن أحداً لم يواجهه مواجهة كاملة، ولم تلتق نظرات أحدهم بعينيه، بل أشاحت جميع العيون عنه. لم تركّز عليه، ماعدا ريبيكا التي كانت تقرأ الورقة خلسة في حضنها.

«ماذا يجري هنا؟» سأل جوليوس، «أشعر بأنه لا يوجد تواصل بيننا اليوم. يبدو أنكم جميعاً منشغلين بشيء آخر اليوم. وريبيكا، ما الذي تقرأينه؟».

طوت ريبيكا الورقة على الفور، ودسّتها في محفظتها، متحاشية نظرات جوليوس. جلس الجميع بهدوء حتى كسر توني الصمت.

«حسناً، يجب أن أتكلّم. لا أستطيع أن أتكلم بالنيابة عن ريبيكا، بل سأتكلّم عن نفسي. مشكلتي هي أنك عندما كنت تتكلّم، كنتُ أعرفُ ما ستخبرنا به عنك...الصحة. لذلك كان من الصعب عليّ أن أنظر إليك وأدّعي بأنني أسمع شيئاً جديداً، ولم أستطع مقاطعتك لأقول لك إني أعرف ما ستخبرنا به».

«كيف؟ ماذا تقصد أنك تعرف ما سأخبره لكم؟ ماذا يجري هنا اليوم بحق الجحيم؟».

فقال جيل: «جوليوس، أنا آسف، دعني أوضّح لك الأمر. أقصد، بشكل ما، فاللوم يقع عليّ. فبعد الجلسة الأخيرة، كنت ما أزال مشغول البال ولم أكن أعرف هل أذهب إلى البيت أو أين سأنام في تلك الليلة، فضغطت على الجميع بأن يأتوا إلى المقهى لنواصل اجتماعنا».

«نعم؟ وماذا أيضاً؟» قال جوليوس مشجعاً، محرّكاً يده في دائرة صغيرة كما لو كان يقود أوركسترا.

«حسناً، أخبرنا فيليب القصة. كما تعرف ـ أخبرنا عن صحتك وعن الميلوما الخبيثة...».

«ميلانوما» قاطعه فيليب بصوت منخفض.

نظر جيل إلى الورقة التي في يده، وقال: «صحيح. ميلانوما. شكراً يا فيليب. لا تتوقف عن تصحيح أخطائي، فأنا دائماً أخلط بين الأسماء».

«إن الميلوما المتعدّدة هي سرطان العظم»، قال فيليب، «أما الميلانوما فهي سرطان الجلد، تذكّر ميلانين، الصباغ، تلوّن الجلد».

«إذاً هذه الصفحات...» قاطعه جوليوس مؤشراً بيديه داعياً جيل أو فيليب لتوضيح الأمر.

«لقد حمّل فيليب معلومات عن حالتك الصحية من الإنترنت وأعدّ لنا خلاصة ووزّعها علينا عندما دخلنا الغرفة منذ بضع دقائق»، قال جيل ومدّ نسخته نحو جوليوس الذي رأى العنوان «ورم ميلانوما الخبيث».

مترنحاً، جلس جوليوس في كرسيه، وبدأ يقول: «أنا... آه... لا أعرف كيف أقولها... أشعر بأنه لم يعد لديّ ما أقوله، أشعر بأنه كان لديّ خبر مهم أردت أن أنقله لكم لكن أحداً سبقني إلى نقله، نقل قصّة حياتي ـ أو قصّة موتي». ثم التفت جوليوس إلى فيليب وخاطبه مباشرة، «هل فكّرت بمشاعري إزاء ذلك؟».

ظل فيليب هادئاً، ولم يرد على جوليوس ولم ينظر إليه.

«هذا ليس منصفاً تماماً يا جوليوس»، قالت ريبيكا التي فكّت مشبك شعرها، وحلّت شعرها الأسود الطويل، ثم عادت وعقصته في لفة فوق رأسها، «إنه ليس مخطئاً هنا. فأولاً، لم يكن فيليب يريد أن يذهب إلى المقهى بعد الجلسة، وقال إنه لا يلتقي بأشخاص آخرين، وقال إن عليه أن يحضّر الدروس التي سيلقيها. لقد جررناه إلى هناك».

وقال جيل: «صحيح وتحدّثنا معظم الوقت عني وعن زوجتي وأين يجب أن أنام في تلك الليلة. ثمّ، بالطبع، سألنا جميعاً فيليب عن سبب حضوره جلسات العلاج، وهذا أمر طبيعي جداً ـ إذ يُطرح هذا السؤال على كلّ عضو جديد ـ وحدّثنا عن اتصالك به وقال إنه كان بسبب مرضك. لقد هزّنا هذا الخبر كثيراً، ولم ندعه يمرّ دون أن نضغط عليه ليخبرنا بما يعرف. في تلك اللحظة، لا أرى كيف كان بإمكانه أن يكتم عنا هذا الخبر».

«حتى إن فيليب سأل»، أضافت ريبيكا، «هل كوشر أن تلتقي المجموعة بدونك».

«كوشر؟ هل قال فيليب ذلك؟» سأل جوليوس.

فقالت ريبيكا: «لا، أنا التي استخدمتُ كلمة كوشر، وليس هو. لكن هذا ما قصده، وقلت له إننا نلتقي غالباً في المقهى، وإنك لا تعترض على ذلك لكنك تصرّ على أن نبلغ أي شخص لم يكن حاضراً في الجلسة التالية كي لا تكون بيننا أسرار».

كان من الجيد أن أعطت ريبيكا وجيل وقتاً كافياً لجوليوس ليهدأ. راحت أفكار سلبية تتلاطم في رأسه: *ذلك الأير الجاحد، هذا اللقيط الرخيص. أنا أحاول أن أفعل له شيئاً، وهذا ما أناله منه ـ لا يمرّ عمل جيّد بدون عقاب. ويمكنني أن أتخيّل أنه لم يقل للمجموعة إلّا النزر اليسير عن نفسه وعن سبب قدومه لحضور جلسات العلاج في المقام*

الأول...أراهن بمبلغ كبير أنه تناسى إخبار المجموعة بأنه ضاجع نحو الف امرأة من دون أن يشعر بذرة اهتمام أو شفقة تجاه أيّ منهن.

لكنّه احتفظ بكلّ هذه الأفكار لنفسه، وشيئاً فشيئاً طهّر عقله من الحقد بعد أن فكّر في الأحداث التي أعقبت الجلسة الأخيرة. وأدرك أنه لا بدّ أن أعضاء المجموعة سيضغطون على فيليب لحضور لقائهم لاحتساء القهوة بعد الجلسة، ولا بدّ أنهم سيستطيعون إقناع فيليب بمرافقتهم ـ في واقع الحال، فقد أخطأ عندما لم يخبر فيليب بهذه اللقاءات الدورية بعد جلسات العلاج. وبالطبع، لا بدّ أنهم سيسألون فيليب عن سبب مجيئه لحضور جلسات العلاج ـ كان جيل محقاً ـ فلم يتوقف أعضاء المجموعة عن طرح هذا السؤال على كلّ عضو جديد، وبالطبع اضطر فيليب لأن يحكي قصّة تاريخهما غير العادية، والعقد الذي أبرماه لاحقاً بشأن العلاج ـ هل كان لديه خيار آخر؟ أما توزيع المعلومات الطبية المزعجة المتعلقة به حول إصابته بسرطان الجلد الخبيث ـ فلا شكّ في أنها فكرة فيليب، فهو يتبع هذا الأسلوب لكي يحبّه أعضاء المجموعة.

أحسّ جوليوس بجسده يرتعش. أرغم نفسه على رسم ابتسامة، لكنه تمالك نفسه وتابع كلامه، «حسناً، سأفعل ما بوسعي للتحدّث عن هذا. ريبيكا، دعيني ألقي نظرة فاحصة على هذه الصفحة». تفحّص جوليوس الورقة بسرعة، وقال: «تبدو هذه الحقائق الطبية دقيقة لذلك لن أكرّرها، لكنّي سأحدّثكم عن تجربتي. لقد بدأ ذلك عندما اكتشف طبيبي شامة غير عادية في ظهري، وبعد فحص خزعة تأكد من أنها سرطان جلد خبيث. بالطبع، لهذا السبب ألغيت الجلسات ـ وأمضيت أسبوعين صعبين للغاية، قاسيين تماماً، حتى استوعبت الأمر»، ارتعش صوت جوليوس، ثم أضاف، «وكما ترون، فهو لا يزال قاسياً». سكت قليلاً، أخذ نَفَساً عميقاً، ثم تابع، «لا يستطيع أطبائي التنبؤ بمستقبلي، لكن المهم هنا هو أن لديهم شعوراً قوياً بأنه توجد لديّ على الأقل سنة أنعم فيها بصحة

جيدة. لذلك سيستمر عمل هذه المجموعة كالمعتاد خلال الاثني عشر شهراً المقبلة. لا، انتظروا، دعوني أقولها بهذه الطريقة: إذا سمحت لي صحتي، فإني ألتزم بلقائكم لسنة أخرى، عندها سنتوقف. إني آسف لصراحتي حول هذا الأمر، لكن هذا هو الواقع».

«جوليوس، هل يهدد حياتك بالفعل؟» سألته بوني، «فالمعلومات التي قدّمها لنا فيليب هي من الإنترنت... وكلّ هذه الإحصائيات تستند إلى مراحل الميلانوما».

«سؤال مباشر والجواب المباشر هو نعم ـ وبالتأكيد فهو يهدد حياتي. وفرص أن ينال مني هذا الشيء في المستقبل قوية. أعرف أن هذا ليس سؤالاً يسهل طرحه، لكنّي أقدّر صراحتك يا بوني لأنني مثل معظم الناس المصابين بمرض عضال، أكره كلّ من يدور حول الموضوع. إن ذلك سيعزلني ويخيفني. يجب أن أتعوّد على واقعي الجديد. أنا لا أحبّ ذلك، لكن الحياة، كشخص سعيد يتمتع بالصحة، حسناً، من المؤكد أن هذه الحياة ستنتهي».

«إني أفكّر في ما قاله فيليب لجيل الأسبوع الماضي. إني أتساءل ـ هل هناك شيء ذو قيمة بالنسبة لك يا جوليوس؟ سألت ربيكا، «لست متأكّدة إن كان هناك في المقهى أم هنا في المجموعة، لكن الأمر يتعلق بتعريف نفسك أو حياتك بحسب ارتباطاتك. هل أقول هذا بصورة صحيحة يا فيليب؟»».

«عندما كلّمت جيل الأسبوع الماضي»، قال فيليب، متحدّثاً بنبرة متأنية متحاشياً أي اتصال مباشر بالنظر، «أشرت إلى أنه كلما ازدادت ارتباطات المرء، ازدادت الحياة عبثاً، ويعاني المرء معاناة أكثر عندما ينفصل عن هذه الارتباطات. يقول شوبنهاور وبوذا إن على المرء أن يتحرر من الارتباطات...».

«لا أظنّ أن هذا يفيدني»، قاطعه جوليوس، «ولست متأكّداً أيضاً ممّا إذا كان يجب أن تسير هذه الجلسة في هذا الاتجاه». لاحظ نظرة متبادلة

سريعة مشحونة بالمعاني بين ريبيكا وجيل، لكنه تابع كلامه، «فأنا أعالج الأمر بطريقة معاكسة تماماً: فالارتباطات، بل والكثير منها، مكوّنات أساسية لا غنى عنها للعيش حياة كاملة، وإن تفادي هذه الارتباطات بسبب معاناة متوقّعة هي وصفة أكيدة لأن يعيش المرء حياة غير كاملة. لم أقصد أن أقاطعك يا ريبيكا، لكني أظن أننا يجب أن نعود لنتعرف على تعليقاتكم، ردّ فعل كلّ واحد منكم، على الخبر الذي أعلنته. لا بدّ أن معرفة أنني مصاب بالسرطان قد أثارت مشاعر قوية لديكم. وأنا أعرف معظمكم منذ فترة طويلة». صمت جوليوس ونظر حوله إلى مرضاه.

توني الذي غاص في كرسيه، تحرّك قليلاً متململاً، ثم قال: «اعترتني رعشة عندما قلت سابقاً بأن ما يجب أن يكون مهماً بالنسبة لنا هو إلى متى يمكنك أن تستمر في قيادة هذه المجموعة ـ لقد تغلغل هذا التعليق في داخل جلدي، كما أُتهم دائماً بأن جلدي سميك. الآن، لا أنكر بأن ذلك يشكل خطراً عليّ، لكن، جوليوس، فأنا في غاية الانزعاج مما يعنيه هذا بالنسبة لك... أقصد، لنواجه الأمر، لقد كنت مهماً، أعني، مهماً كثيراً بالنسبة لي، فقد ساعدتني على التغلّب على بعض الأشياء السيئة... أقصد، هل هناك شيء يمكننا أن نفعله من أجلك؟ لا بدّ أن ذلك سيكون فظيعاً عليك».

«وعليّ أيضاً»، قال جيل، وانضم الآخرون جميعاً (ما عدا فيليب) في الإعراب عن موافقتهم.

«سأجيبك يا توني، لكني أريد أن أعبّر أولاً عن مدى تأثري كيف أنه كان من المستحيل، قبل سنتين، أن تكون صريحاً هكذا، وأن تعبّر عن نفسك باستفاضة. وللإجابة عن سؤالك، فقد كان ذلك فظيعاً. إن مشاعري تأتي في موجات. كانت مشاعري في أسوأ حالاتها في الأسبوعين الأولين عندما ألغيت جلسات المجموعة. وتحدّثت كثيراً مع أصدقائي، شبكة دعمي كلّها. أما الآن، في هذه اللحظة، فأنا في حال أفضل. إنك تتعوّد على كلّ شيء، حتى على الإصابة بالمرض العضال.

في الليلة الماضية، ظلت العبارة «*الحياة خسارة ملعونة بعد أخرى*» تخطر ببالي».

صمت جوليوس. لم ينبس أحد بكلمة. حدّق الجميع في الأرض. ثم أضاف جوليوس، «أريد أن أعالج الأمر بانفتاح وأرغب في مناقشة كلّ شيء... لن أخجل من الحديث عن أيّ شيء... لكن إذا لم يكن عندكم سؤال محدد، فقد قلتُ الآن كل ما كنت أرجو أن أقوله، ولا أشعر بالحاجة إلى أن نخصص الجلسة كلّها للتحدّث عني اليوم. أريد أن أقول إني أمتلك طاقة للعمل معكم هنا بطريقتي المعتادة. في الحقيقة من المهم أن نستمرّ كما كنا نفعل دائماً».

بعد فترة صمت قصيرة، قالت بوني: «سأكون صادقة يا جوليوس، هناك شيء يمكنني أن أفعله، لكني لا أعرف... إذ تبدو مشاكلي تافهة بالمقارنة مع ما تمرّ به».

رفع جيل عينيه إلى الأعلى، وأضاف، «وأنا أيضاً. فإن مشكلتي ـ سواء أتعلّمت كيف أتكلّم مع زوجتي أم لا، أو أن أبقى معها أم أغادر السفينة الغارقة ـ فكلّ ذلك يبدو تافهاً بالمقارنة مع ما تتعرض له».

اعتبر فيليب ذلك إشارة ليقول شيئاً: «كان سبينوزا مغرماً باستخدام عبارة لاتينية، «*sub specie aeternitatis*»، أي «من منظور الخلود»: فقد ألمح إلى أن الأحداث اليومية المزعجة تصبح أقل إزعاجاً إذا نظر المرء إليها من منظور الخلود. أعتقد أن هذا المفهوم قد يكون أداة لم تحظ بتقدير جيد في العلاج النفسي. ومن الممكن»، وهنا التفت فيليب نحو جوليوس وخاطبه مباشرة، «أن يقدّم شكلاً من أشكال العزاء حتى لنوع الهجوم الخطير الذي تواجهه».

«أستطيع أن أرى أنّك تحاول أن تقدم لي شيئاً يا فيليب، وأنا أقدّر لك ذلك. لكن الآن بالذات، فإن فكرة إلقاء نظرة كونية على الحياة هي النكهة الخاطئة للدواء. دعني أقول لك السبب. ففي الليلة الماضية لم أنم

جيداً وحزنت لأنني لم أقدّر ما كان لديّ عند لحظة حدوثها. عندما كنت شاباً، كنت أعتبر دائماً الحاضر مقدمة لشيء أفضل سيحدث. ثم مضت السنوات، ووجدت نفسي فجأة أفعل العكس؛ كنت أسبح في بحر الحنين. والشيء الذي لم أفعله بما يكفي هو أن أستغل كلّ لحظة، وهذه هي مشكلة حلّك بالانفصال عن الحياة. أظن أنها تواجه الحياة من الجانب الخاطئ للتلسكوب».

فقال جيل: «يجب أن أتدّخل هنا يا جوليوس بإبداء ملاحظة: لا أظن أن هناك فرصة كبيرة لقبول أيّ شيء يقوله فيليب».

«ملاحظة سأوجّه انتباهي لها دائماً يا جيل. لكن هذا رأي. أين هي الملاحظة؟».

«حسناً، الملاحظة هي أنك لا تحترم شيئاً يقدّمه».

«أعرف ما سيقوله جوليوس عن ذلك يا جيل»، قالت ريبيكا، «إنها ليست ملاحظة. إنه تخمين عن مشاعره. إن ما ألاحظه» ـ والتفتت إلى جوليوس ـ «أن هذه هي أول مرة يخاطب فيها، أنت وفيليب، أحدكما الآخر، حتى بشكل شبه مباشر، وأنك قاطعت فيليب مرات عدّة اليوم، وهو شيء لم أرك تفعله مع أي شخص آخر قط».

«أصبتِ يا ريبيكا»، أجاب جوليوس، «صحيح... ملاحظة مباشرة ودقيقة».

«جوليوس»، قال توني، «إني لا أفهم ما يحدث تماماً. أنت وفيليب ـ ماذا يجري؟ ـ لا أفهم. هل صحيح ما قاله بأنك اتصلت به فجأة؟».

جلس جوليوس مطرقاً برأسه لبضع دقائق، ثم قال: «نعم، أستطيع رؤية كيف أن الأمر لا بد أن يكون مربكاً بالنسبة لكم جميعاً. حسناً. سأقول لكم بصراحة. أو بصراحة وبشكل مباشر بقدر ما تسعفني ذاكرتي. فبعد تشخيص مرضي، دخلت في مرحلة يأس حقيقية. أحسست أنه حُكم عليّ بالإعدام، وأصبت بالذهول. ومن بين الأفكار المظلمة

الأخرى، بدأت أتساءل هل فعلت شيئاً في حياتي له معنى حقيقي. ولم يفارقني هذا السؤال طوال يوم أو يومين، وبما أن حياتي متشابكة كثيراً بعملي، بدأت أفكّر في المرضى الذين رأيتهم في الماضي. هل تمكنت حقاً، وبشكل دائم، من التأثير على حياة أي شخص؟ شعرت بأنه لم يكن عندي وقت أضيّعه، فقرّرت فوراً الاتصال ببعض مرضاي السابقين. وكان فيليب أول شخص أتصل به، وحتى الآن فهو الوحيد الذي اتصلت به».

«ولماذا اخترت فيليب؟» سأل توني.

«هذا هو سؤال الأربعة وستون ألف دولار ـ أو ربما هذا قديم ـ هل هي أربع وستّون مليون دولار في أيامنا هذه؟ الجواب باختصار، لست متأكّداً. تساءلت أنا نفسي عن ذلك كثيراً. لم تكن خطوة ذكية منّي، لأنني لو أردت أن أحصل على تأكيدات جديرة بي، فهناك الكثير من المرشّحين الأفضل. لقد بذلت كل ما بوسعي لمدة ثلاث سنوات كاملة، لكني لم أتمكّن من مساعدة فيليب. لعلي كنت آمل بأن يبلغني بأن بعض التأثيرات قد حصلت له في فترة متأخرة من العلاج، بعض المرضى يقولون شيئاً كهذا. لكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة له. قد أكون مازوشياً؛ أردت أن أورط نفسي. قد أكون قد اخترت أكبر فشل لي لأمنح نفسي فرصة ثانية. أعترف بذلك، بصراحة لا أعرف ما هي دوافعي في ذلك. وفي أثناء مناقشتنا، أخبرني فيليب بأنه غيّر مهنته وسألني إن كنت أرغب في أن أكون مشرفاً عليه. فيليب»، التفت جوليوس لمواجهة فيليب، «أظن أنك قلت لهم ذلك؟».

«زودتهم بالتفاصيل الضرورية».

«هل يمكنك أن تكون أكثر وضوحاً؟».

نظر فيليب بعيداً، وبدا الانزعاج واضحاً على وجوه بقية أعضاء

المجموعة، وبعد صمت طويل، قال جوليوس، «إني أعتذر من التهكم يا فيليب، لكن هل يمكنك أن ترى أين تركني جوابك؟».

«كما قلت، زودت الآخرين بالتفاصيل الضرورية»، قال فيليب.

استدارت بوني نحو جوليوس وقالت: «سأكون صريحة. يبدو أن هذا شيء غير جيد وعليّ أن أنقذك. لا أظن أنه يجب إزعاجك اليوم، إنك بحاجة إلى الرعاية. أرجوك، ماذا نستطيع أن نفعل من أجلك اليوم؟».

«شكراً يا بوني، أنت على حقّ، فأنا لا أشعر بأني على ما يرام اليوم، سؤالك جيد، لكني لستُ متأكّداً إن كنت أستطيع الإجابة عنه. سأبوح لكم جميعاً بسرّ كبير: أشعر أحياناً بأنني لست على ما يرام قبل أن أدخل إلى هذه الغرفة بسبب بعض المشاكل الشخصية، لكني عندما أغادرها أشعر بأنني أصبحت في حال أفضل بكثير لأني أشعر بأنني جزء من هذه المجموعة الرائعة. قد يكون هذا هو الجواب عن سؤالك. إن أفضل شيء بالنسبة لي ببساطة هو أن نمضي وقتنا في التحدّث عن المجموعة ولا تتركوا حالتي تحول دون ذلك».

بعد فترة صمت قصيرة قال توني: «مهمة قاسية مع ما جرى اليوم».

«صحيح»، قال جيل، «من السخافة أن نتحدّث عن أي شيء آخر».

«إني أفتقد بام في هذه الأوقات»، قالت بوني، «فهي تعرف دائماً ماذا يجب عمله، مهما كان الوضع صعباً».

«يا للمصادفة. لقد تذكرتها أنا أيضاً»، قال جوليوس.

فقالت ريبيكا: «لا بد أنه توارد خواطر، فقد خطرت بام في بالي منذ لحظة أيضاً. كان ذلك عندما تحدّث جوليوس عن حالات النجاح وحالات الفشل»، ثم التفتت إلى جوليوس وأضافت، «أعرف أنها كانت طفلتك المفضّلة في أسرتنا هنا ـ وهذا ليس سؤالاً ـ إن ذلك واضح تماماً. إني أتساءل هل تشعر بأنك أخفقت معها، كما تعرف، لأنها أخذت شهرين إجازة لتبحث عن علاج آخر لأننا لم نتمكن من

مساعدتها. لا يمكن أن يكون هذا شيئاً عظيماً بالنسبة لشعورك بالاعتداد بنفسك».

أومأ جوليوس نحو فيليب وقال: «ربما أنت من يجب أن تقول لهم».

«كانت بام قوة حقيقية هنا»، قالت ريبيكا لفيليب الذي لم تلتق عيناه بعينيها، ومضت تقول: «لقد انهار زواجها وانهارت علاقتها مع حبيبها. فقررت أن تترك زوجها لكن عشيقها قرّر ألّا يترك زوجته. فانزعجت من الرجلين كليهما وأصبحت مهووسة بهما ليل نهار. حاولنا كثيراً إيجاد وسيلة لمساعدتها. لكنها سافرت إلى الهند بحثاً عن مساعدة يقدمها (غورو) معلّم مشهور في معتكف بوذي للتأمل (أشرم)».

لم يجب فيليب.

استدارت ريبيكا لتواجه جوليوس وقالت: «إذاً ما رأيك بذهابها؟».

«كما تعرفين، حتى نحو خمس عشرة سنة كنت متشدداً جداً، بل الأكثر من ذلك كان من الممكن أن أتخذ موقفاً صلباً إزاء ذلك، وكنت سأصرّ على أن بحثها عن شكل آخر من التنوير ما هو إلّا مقاومة لتغيير ما كانت غيّرته. أما الآن فأنا أشعر بأنني بحاجة إلى كلّ مساعدة يمكنني الحصول عليها. ووجدت أن المشاركة في نمط آخر من أنماط النمو، حتى الأمور السطحية، يمكن أن تفتح في أحيان كثيرة آفاقاً جديدة في عملنا العلاجي. وآمل بالتأكيد أن ينسحب هذا على بام».

«قد لا يكون خياراً سطحياً، وإنما خيار ممتاز بالنسبة لها»، قال فيليب، «كان شوبنهاور إيجابياً بشأن التأمل الشرقي وتأكيده على أنه يطهّر العقل، والرؤية من خلال الوهم، وأسلوبه في تخفيف المعاناة من خلال تعلّم فنّ التخلّي عن الارتباطات. في الواقع، كان أول من أدخل الفكر الشرقي إلى الفلسفة الغربية».

لم يكن تعليق فيليب موجّهاً إلى أحد معين، ولم يجب أحد. أحسّ

جوليوس بالغضب لترديد اسم شوبنهاور كثيراً، لكنه كظم غيظه عندما لاحظ أن عدداً من الأعضاء يهزون رؤوسهم تقديراً لملاحظات فيليب.

بعد فترة صمت قصيرة، علّق ستيوارت قائلاً: «ألا يجب أن نعود إلى حيث كنّا قبل دقائق عدّة عندما قال جوليوس من الأفضل أن يظل عملنا ضمن المجموعة؟».

«موافقة»، قالت بوني، «لكن من أين نبدأ؟ ماذا لو تابعنا قصتك أنت وزوجتك يا ستيوارت؟ كان آخر ما سمعناه هو أنها أرسلت لك رسالة بالإيميل تقول فيها إنها تفكّر في الطلاق».

«لقد سوّينا الأمر وعدنا كما كنا. لا تزال تحافظ على مسافة بيني وبينها، لكن على الأقل لم تزدد الأمور سوءاً. لنرى من بقي في المجموعة». ونظر ستيوارت حول الغرفة، ثم أضاف، «يمكنني أن أفكّر في شيئين. جيل، ماذا عنك أنت وروز ـ ماذا كان يحدث هناك؟ وبوني، قلتِ قبل قليل إن لديك شيئاً تعملين عليه، لكنه بدا تافهاً جداً».

«أريد أن تتجازوني اليوم»، قال جيل، مطرقاً برأسه، «لقد أخذتُ وقتاً طويلاً الأسبوع الماضي. لكن خلاصة القول هي الهزيمة والاستسلام. أشعر بالخجل لأني عدت إلى البيت والوضع على حاله. لقد ضاعت كل تلك النصائح الجيدة التي قدّمها فيليب وأنتم أيضاً. ماذا عنكِ يا بوني؟».

«مشكلتي تبدو تافهة اليوم».

«تذكّروا كلامي عن قانون بويل»، قال جوليوس، «إن قدراً صغيراً من القلق سيتوسّع ليملأ تجويف قلقنا كله. إن قلقكم يبدو سيئاً كما هو لدى الآخرين الذي ينبع من مصادر مفجعة واضحة». نظر إلى ساعة يده، «لقد تجاوزنا الوقت قليلاً، لكن هل تريدون أن نفتح الموضوع؟ لندرجه في جدول الأعمال؟».

«أتقصد حتى لا أجبن في الأسبوع المقبل؟» سألت بوني، «حسناً،

إنها ليست فكرة سيئة. إن ما سأثيره يتعلق بكوني قبيحة وسمينة وخرقاء، ولكون ريبيكا، وبام أيضاً، جميلتين و... أنيقتين. لكن، ريبيكا، إنك تنكئين الكثير من المشاعر القديمة المؤلمة بالنسبة لي؛ مشاعر كانت تنتابني باستمرار لأنني خرقاء، قبيحة». توقّفت بوني ونظرت إلى جوليوس، «ها قد خرجت».

«سيكون ذلك على جدول أعمالنا في الأسبوع المقبل»، قال جوليوس، ونهض واقفاً معلناً انتهاء الجلسة.

الشخص الذي يتمتع بقدرات عقلية عالية ونادرة
ويرغم على أداء عمل مفيد فقط
أشبه بمزهرية ثمينة مزدانة بأجمل الرسوم
لكنها تُستخدم كقِدر مطبخ.

١٤

١٨٠٧ ـ كيف كان آرثر شوبنهاور على وشك أن يصبح تاجراً

انتهت جولة عائلة شوبنهاور الطويلة في عام ١٨٠٤، وأوفى آرثر الذي لم يتجاوز السادسة عشرة، بتردد وبقلب مثقل، بوعده لأبيه بأن يبدأ التدريب على الأعمال التجارية لمدة سبع سنوات على يد سيناتور جينيش، أحد كبار التجار في هامبورغ. وعاش آرثر حياة مزدوجة. فقد كان يؤدي جميع مهامه اليومية أثناء التدريب، وفي الوقت نفسه كان يمضي سرّاً كلّ لحظة تتاح له في دراسة أفكار كبار المفكرين في التاريخ. لكنه كان يشعر بالذنب تجاه والده فكانت هذه اللحظات المسروقة تملؤه بالندم.

وبعد تسعة أشهر، وقع الحدث الجلل الذي غيّر حياة آرثر إلى الأبد. فعلى الرغم من أن هاينرش شوبنهاور كان في الخامسة والستين، فقد تدهورت صحته بسرعة: وأصبح أصفر الوجه، مرهقاً، مكتئباً، ومضطرباً، وفي أحيان كثيرة لم يعد قادراً على التعرف على أصدقائه

القدامى. وفي ٢٠ نيسان (أبريل) ١٨٠٥، تمكّن، بالرغم من مرضه وضعف جسده، من التوجه إلى مستودع الحبوب الذي يملكه في هامبورغ، وصعد ببطء إلى الطابق العلوي، وألقى بنفسه من النافذة إلى قناة هامبورغ. وبعد بضع ساعات، عُثر على جسده طافياً على سطح المياه المتجمّدة.

تخلّف كلّ حادثة انتحار لدى الأحياء شعوراً بالصدمة والذنب والغضب. وقد اعترت آرثر كلّ هذه المشاعر. تخيّل المشاعر المعقدة التي لا بد أن تعتري آرثر. فقد أسفر حبّه لأبيه عن مشاعر عميقة بالحزن والفقدان. وأثار سخطه من والده ـ تحدّث لاحقاً عن معاناته من معاملة أبيه القاسية ـ مشاعر بالندم لدى آرثر. ولا بدّ أن الإمكانية الرائعة للتحرر من أبيه ولّدت لديه شعوراً قوياً بالذنب، فقد أدرك آرثر أن والده كان سيسدّ طريقه طوال حياته ليحول دون أن يصبح فيلسوفاً. في هذا الأمر، يتذكّر المرء مفكرين آخرين من كبار الفلاسفة الأخلاقيين من ذوي التفكير الحرّ وهما نيتشه وسارتر اللذان فقدا والديهما في وقت مبكر من حياتهما. هل كان بإمكان نيتشه أن يصبح ضد المسيح لو لم يمت والده الذي كان كاهناً لوثرياً عندما كان نيتشه طفلاً؟ وعبّر سارتر في سيرته الذاتية عن ارتياحه لأنه لم يكن يشعر بثقل إرضاء والده ونيل موافقته. وهناك آخرون، مثل كيركيغارد وكافكا، لم يكونوا محظوظين جداً، فأمضوا حياتهم كلّها تحت وطأة حكمة آبائهم.

ومع أن أعمال آرثر شوبنهاور تضم طيفاً واسعاً من الأفكار والمواضيع والمقالات التاريخية والعلمية والمفاهيم والمشاعر، فلا توجد إلّا فقرتان شخصيتان لطيفتان تتعلقان بهاينرش شوبنهاور. وفي إحدى هاتين الفقرتين، يعبّر آرثر عن الفخر باعتراف والده الصادق بأنه يعمل في التجارة لجمع المال ويقارن صراحة والده بازدواجية العديد من زملائه الفلاسفة (لا سيّما هيغل وفيتشه) الذين كانوا يسعون إلى جمع الثروة وتحقيق السلطة والشهرة بينما يدّعون طوال الوقت بأنّهم يعملون من أجل الإنسانية.

وعندما بلغ الستين من العمر، عزم آرثر على تكريس أعماله الكاملة لذكرى والده، فصاغ وأعاد صياغة إهدائه الذي لم ينشر قط في نهاية الأمر. فقد كتب في إحدى النسخ: «روح نبيلة، رائعة، أدين له بكلّ ما أنا عليه الآن وما حققته... وأيّ شخص يجد في عملي أيّ نوع من البهجة والعزاء والتوجيه، فليسمع اسمك ويعرف أنه لو لم يكن هاينرش شوبنهاور الرجل الذي كان، لهلك آرثر شوبنهاور مئة مرة».

لا يزال ولاء آرثر القوي تجاه والده يثير الحيرة على الرغم من عدم وجود أيّ بوادر تشير إلى المودّة من جانب هاينرش تجاه ابنه. فقد كانت الرسائل التي كتبها إلى آرثر مفعمة بالانتقادات، مثل أن «الرقص وركوب الخيل لا يُكسبان التاجر مالاً والذي يجب أن تُقرأ رسائله، لذلك عليه أن يجيد الكتابة. وأجد أحياناً أن الحروف الكبيرة التي تكتبها بيدك لا تزال مسوخاً حقيقية»، أو مثل: «لا تحنِ ظهرك لكي لا يبدو شنيعاً... فإذا رأى أحد في غرفة الطعام أحداً محني الظهر فإنه يظنّ أنه خيّاط أو إسكافي متنكر». وفي آخر رسالة بعثها هاينرش إلى ابنه طلب فيها منه: «في ما يتعلق بالمشي والوقوف منتصب القامة، فإني أنصحك بأن تطلب من أي شخص معك أن يوجّه إليك لكمة عندما تسهو عن هذا الأمر العظيم. هذا ما يفعله أبناء الأمراء الذين لا يأبهون بالألم لفترة قصيرة، لكي لا يبدو أنهم حمقى طوال حياتهم».

كان آرثر ابن أبيه، فلم يكن يشبهه جسدياً فقط، وإنما في مزاجه أيضاً. فعندما كان في السابعة عشرة، كتبت له أمّه: «أعرف جيداً كم أن إحساسك بسعادة الشباب قليل، وكم أن مزاجك في التفكير السوداوي الكئيب كبير الذي ورثته من والدك».

وورث آرثر أيضاً إحساس والده العميق بالنزاهة الذي لعب دوراً حاسماً في المعضلة التي واجهته بعد موت أبيه: هل يتعين عليه أن يظل يتدرّب بالرغم من كراهيته لعالم التجارة؟ وفي النهاية، قرّر أن يفعل ما كان سيفعله والده؛ وهو أن يفي بوعده.

لقد كتب عن قراره هذا: «ظللت أعمل كمتدرب لدى رب عملي التاجر، لأن شدّة حزني حطّمت طاقة روحي، ولأن ضميري كان سيعذبني لو أنني ألغيت قرار أبي بهذه السرعة بعد موته».

إن كان آرثر قد شعر بأنه مشلول ومقيّد بالواجب بعد انتحار والده، فلم تكن لدى أمّه مثل هذه المشاعر. وبسرعة شديدة، غيّرت حياتها برمتها. وفي رسالة أرسلتها إلى آرثر ذي السبعة عشرة عاماً، كتبت: «إن شخصيتك تختلف تماماً عن شخصيتي؛ فأنت متردّد بطبعك، وأنا سريعة جداً، حازمة جدا». وبعد بضعة أشهر من الحياة كأرملة، باعت بيت شوبنهاور، وصفّت أعمال العائلة الموقّرة، وغادرت هامبورغ. وقالت لآرثر متفاخرة: «سأختار دائماً الخيار الأكثر إثارة. انظر إلى اختياري لمكان الإقامة، فبدلاً من أن أنتقل إلى مسقط رأسي، عائدة إلى أصدقائي وأقربائي، كما كانت أي امرأة ستفعل لو كانت في مكاني، فقد اخترت فايمار التي لا أكاد أعرفها جيداً».

لماذا فايمار؟ فقد كانت يوهنا طموحة وكانت تتوق لأن تقترب كثيراً من مركز الثقافة الألمانية. كانت شديدة الثقة بقدراتها الاجتماعية، وكانت تعرف أن باستطاعتها جعل الأشياء الجيدة تحدث، وفي الحقيقة، وخلال بضعة أشهر، خلقت لنفسها حياة جديدة استثنائية، فقد أنشأت أكثر الصالونات الأدبية نشاطاً وحيوية في فايمار، ووطدت صداقتها مع غوته والعديد من الكتّاب البارزين والفنانين الآخرين. وبعد فترة وجيزة بدأت تعمل، أولاً ككاتبة ناجحة في مجلات السفر والرحلات ودوّنت رحلة عائلة شوبنهاور وسفرها إلى جنوب فرنسا. وبإلحاح من غوته، اتجّهت إلى كتابة القصة وكتبت سلسلة من الروايات الرومانسية. كانت إحدى أولى النساء المتحرّرات حقاً، وكانت أول امرأة في ألمانيا تكسب رزقها ككاتبة. وفي العقد التالي، أصبحت يوهنا شوبنهاور روائية مشهورة، مثل دانيل ستيل في ألمانيا القرن التاسع عشر، ولعقود مقبلة، أصبح آرثر شوبنهاور يُعرف بابن يوهنا شوبنهاور». وفي أواخر عشرينات القرن التاسع عشر، صدرت أعمال يوهنا الكاملة في طبعة من عشرين مجلداً.

ومع أن التاريخ (الذي يستند كثيراً إلى انتقادات آرثر اللاذعة لأمّه) قدّم يوهنا بصورة عامة بأنها امرأة نرجسية لا مبالية، ولا ريب أنها كانت كذلك، وهي فقط، التي حرّرت آرثر من عبوديّته ووضعته على طريق الفلسفة. وكانت أداة إنقاذه رسالة مصيرية كتبتها لآرثر في نيسان (أبريل) ١٨٠٧، بعد انتحار والده بسنتين.

عزيزي آرثر،

لقد تدفّقت النبرة الجدّية والهادئة في رسالتك المؤرخة ٢٨ آذار (مارس) من عقلك إلى عقلي وأيقظتني وكشفت لي بأنك على وشك أن تفقد طريقك إلى مهنتك الحقيقية! لذلك يجب أن أبذل كلّ ما بوسعي حتى أنقذك، وأفعل كلّ ما يمكنني. أعرف ماذا يعني أن يعيش المرء حياة تكرهها روحه؛ وإذا كان بالإمكان، فإني سأنقذك، ابني العزيز، من هذه التعاسة. عزيزي، عزيزي آرثر، لماذا كان لصوتي تأثير ضئيل عليك، إن ما تريده الآن، كان آنذاك أشدّ أمنياتي؛ فكم بذلتُ من جهد حتى تتحقق، بالرغم من كلّ ما قيل ضدي... فإذا لم تكن ترغب في الانضمام إلى فئة مناهضي الثقافة المبجلة، فأنا، يا عزيزي آرثر، لا أريد حقاً أن أضع أيّ عقبة في طريقك. فعليك أنت فقط أن تبحث عن طريقك وتختاره. ثمّ، عليّ أن أنصح وأساعد، حيثما وكيفما أمكنني ذلك. أولاً، حاول أن تتصالح مع نفسك... تذكّر أنّ عليك أن تختار الدراسات التي توفر لك دخلاً جيداً، لا لأنها الوسيلة الوحيدة التي تمكّنك من العيش، لأنك لن تكون غنياً أبداً إذا قررت أن تعيش من ميراثك فقط. وإذا قررت ما هو خيارك فأخبرني به، لكن يجب أن تتخذ هذا القرار وحدك... وإذا شعرت بأنك تمتلك القوّة والشجاعة لعمل ذلك، فإني سأقدّم لك كلّ ما أمكنني من مساعدة عن طيب خاطر. لكن لا تتخيّل أن حياة رجل متعلّم ستكون حياة بهيجة جداً. إني أرى ذلك الآن من حولي يا عزيزي آرثر. إنها حياة متعبة وشاقة مليئة بالعمل ـ البهجة في العمل فقط هي التي تضفي عليها سحرها. فالمرء لا يصبح غنياً من ممارستها، ككاتب،

ويكسب المرء بصعوبة شديدة ما يحتاج إليه لكي يعيش... ولكي تصنع حياتك ككاتب، يجب أن يكون بمقدورك أن تنتج شيئاً رائعاً... والآن، أكثر من أي وقت مضى، هناك حاجة إلى رؤوس مبدعة. آرثر، فكّر في الأمر جيداً، ثم اختر، لكن عليك أن تبقى قوياً. لا تدع دأبك يفتر، عندها ستحقق هدفك بأمان. اختر ما تريد... لكن والدموع تترقرق في عيني، فإن أتوسل إليك، لا تخدع نفسك. عامل نفسك بجدية وبصدق. إن سعادة حياتك مهدّدة بالضياع، بالإضافة إلى سعادة أيامي الماضية؛ لأنك أنت وأديل فقط يمكنكما أن تعوّضا عن شبابي الضائع. لم أتحمّل عندما عرفت أنك حزين، خاصة إذا كان عليّ أن ألوم نفسي لأنني تركت هذه المصيبة الكبيرة تحدث لك بسبب مرونتي الشديدة. كما ترى عزيزي آرثر، فأنا أحبّك كثيراً، وأريد أن أساعدك في كلّ شيء. كافئني بثقتك بي، واتخذ قرارك بحسب نصيحتي لتحقيق اختيارك. ولا تجرح مشاعري بعنادك وتمردك! فأنت تعرف أنني لست عنيدة. وأعرف كيف أتساهل وأصفح بالحجج، ولن أطلب منك أبداً شيئاً لا أستطيع أن أدعمه بالحجج.

الوداع، عزيزي آرثر، البريد مستعجل وأصابعي تؤلمني. خذ في الاعتبار كلّ ما أرسله وأكتبه لك، ولا تتأخر بالرد عليّ.

أمّك

ي. شوبنهاور

في شيخوخته كتب آرثر: «عندما أنهيت قراءة هذه الرسالة فاضت الدموع في عيني». وفي ردّه لها قرر أن يتحرر من فترة التدرب، وردّت يوهنا، «إن اتخاذك قرارك بهذه السرعة، على غير عادتك، كان سيقلقني لو كنت شخصاً آخر. يجب أن أخاف من التسرع والطيش، أما بالنسبة لك فإنه يطمئنني، وأعتبره قوّة رغباتك العميقة التي تدفعك».

لم تُضع يوهنا وقتاً، فقد أبلغت التاجر الذي يتدرب عنده آرثر وصاحب البيت الذي يسكن فيه، بأن آرثر سيغادر هامبورغ، ونظّمت انتقاله ورتّبت له أن يحضر جمنازيوم في غوثا، على بعد خمسين كيلومتراً من بيت أمّه في فايمار.

وهكذا تحطمت قيود آرثر.

من الجدير بالذكر رؤية كيف أن الإنسان،
بالإضافة إلى حياته في الواقع الملموس،
يعيش دائماً حياة ثانية في المجرد...
(حيث) في دنيا الحوار الحديث الهادئ،
فإن ما كان يستحوذ عليه بالكامل وما يحرّكه بقوة،
يبدو له بارداً، عديم اللون، وبعيداً:
إنه مجرّد مشاهد ومراقب.

١٥

بام في الهند

عندما بدأ قطار بومباي ـ إيغاتبوري يسير ببطء ليتوقّف في قرية صغيرة، سمعت بام صوت رنين صنج احتفالي، فنظرت من نافذة القطار المغبشة. كان صبي بعينين سوداوين في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر يشير إلى نافذتها، ويركض إلى جانب القطار رافعاً قطعة قماش ودلو ماء بلاستيكياً أصفر. منذ أن وصلت بام إلى الهند منذ أسبوعين، اعتادت بام على أن تهزّ رأسها بأن «لا». لا للمرشدين السياحيين لمشاهدة معالم المدينة، لا لماسحي الأحذية، لا لبائعي عصير اليوسفي الطازج، لا لبائعي قماش الساري وأحذية التنس نايكي، ولا لصرافي العملة. ولا للمتسولين، ولا للدعوات الجنسية الكثيرة التي كانت تُعرض عليها أحياناً صراحة، وأحياناً خفية بالغمز أو برفع الحاجبين ولعق

الشفتين وتحريك اللسان. وأخيراً، قالت لنفسها، ها هنا واحد يعرض عليّ شيئاً أحتاج إليه فعلاً. فأومأت «نعم» بقوة، نعم لماسح النوافذ الصغير الذي أجاب بابتسامة عريضة برزت فيها أسنانه. مسروراً بقبول بام، بدأ يغسل لوح الزجاج بطريقة مسرحية.

دفعت له بام مبلغاً سخياً، ثم ابتعد متمهلاً وراح يحدّق فيها. أسندت بام ظهرها إلى مقعدها وراحت تراقب مشهد موكب من القرويّين يسيرون في شارع ملتو مترب وراء كاهن يرتدي سروالاً فضفاضاً قرمزي اللون ويلف حول عنقه شالاً أصفر. كانوا يتجهون إلى وسط ساحة البلدة حاملين تمثالاً كبيراً من الورق المعجّن للإله غانيشا، جسم قصير مكتنز يشبه بوذا له رأس فيل. وكان الجميع ـ الكاهن والرجال المتشحون بأردية بيضاء ناصعة، والنساء المتشحات بأثواب زعفرانية وأرجوانية اللون ـ يحملون تماثيل صغيرة للإله غانيشا. وراحت فتيات صغيرات ينثرن حفنات من الزهور، وحمل صبيان مراهقان عواميد عليها مشاعل معدنية تنبعث منها سحب من البخور. وفي وسط رنين الصنج وقرع الطبول، كان الجميع ينشدون: «غانا ـ باثي بابا مورايا، بورتشيا غارشي لوكاريا».

«المعذرة، هل يمكنك أن تفسّر لي ماذا ينشدون؟» استدارت بام نحو الرجل ذي البشرة النحاسية الجالس قبالتها وهو يرشف الشاي، المسافر الوحيد الذي يشاطرها المقصورة. كان رجلاً وسيماً لطيفاً يرتدي قميصاً وسروالاً قطنيين أبيضين فضفاضين. عندما سمع صوت بام، ابتلع رشفة الشاي بقوة فأخذ يسعل. أسعده سؤالها لأنه كان يحاول، عبثاً، منذ أن انطلق القطار في بومباي، أن يفتح حديثاً مع المرأة الأنيقة الجالسة أمامه. بعد أن سعل بقوة، أجاب بشيء من الصرير، «اعذريني يا سيدتي. إن أعضاء الجسد لا تكون تحت طوع المرء دائماً. إن ما يقوله الناس هنا، وما يقولونه في أرجاء الهند كلها اليوم: المحبوب غاناباتي، إله مورايا، عد باكراً السنة المقبلة».

«غاناباتي؟».

«نعم، إنه أمر مشوش حقاً، أعرف ذلك. لعلك تعرفينه باسمه الأكثر شيوعاً، غانيشا. يطلقون عليه أسماء عديدة أخرى أيضاً، منها على سبيل المثال: فيغنيسفارا وفينايايكا وغاجانانا».

«وهذا الموكب؟».

«بداية مهرجان غانيشا الذي يستمر عشرة أيام. إذا حالفك الحظ وذهبت إلى بومباي في الأسبوع المقبل في نهاية المهرجان فإنك سترين جميع سكان المدينة يتجهون إلى المحيط ويغطسون تماثيل غانيشا التي يحملونها في أمواج المحيط».

«وما هذا؟ قمر؟ أم شمس؟» قالت بام وأشارت إلى أربعة أطفال يحملون كرة كبيرة من الورق المعجّن الأصفر.

أصدر فيجاي صوتاً يشبه الخرير. فقد رحبّ بأسئلتها وأمل أن تكون محطة القطار بعيدة حتى يسترسلا في الحديث. فلا يمكن رؤية مثل هذه المرأة المثيرة للشهوة إلّا في الأفلام الأمريكية، ولم يتح له الحظّ أن يتكلّم مع امرأة مثلها من قبل. لقد أثار بهاء هذه المرأة وجمالها الشاحب مخيلته. لا بد أنها خرجت من بين منحوتات كاما سوترا الإيروتيكية القديمة. وتساءل إلى أين يمكن أن يؤدي هذا اللقاء؟ هل يمكن أن يغيّر هذا اللقاء حياته الذي طالما حلم به؟ فهو رجل حرّ، وأصبح غنياً من مصنع الألبسة الذي يملكه، بحسب المعايير الهندية. فقد ماتت خطيبته المراهقة بالسلّ منذ سنتين، وإلى أن يختار له والداه عروساً جديدة، فهو غير مرتبط الآن.

«آه، إن ما يرفعه الأطفال هو قمر. فهم يحملونه تكريماً لأسطورة قديمة. أولاً، يجب أن تعرفي أن الإله غانيشا مشهور بشهيته الشديدة. انظري إلى بطنه الكبيرة. في إحدى المرات، دُعي إلى وليمة وحشا نفسه بمعجّنات من حلوى تدعى «لادووس». هل تناولت اللادووس من قبل؟».

هزّت بام رأسها، وخافت أن يُخرج واحدة منها من حقيبته. فقد أصيبت إحدى صديقاتها بالتهاب الكبد عندما تناولت كوباً من الشاي في مقهى في الهند، فالتزمت بنصيحة طبيبها بألّا تتناول طعاماً إلّا في فندق أربع نجوم. وعندما لا تكون في الفندق، فهي لا تتناول إلّا الطعام الذي يمكن تقشيره، لا سيّما برتقال اليوسفي والبيض المسلوق جيداً والفستق.

«لقد صنعت أمّي لادووس لذيذة من اللوز وجوز الهند» تابع فيجاي، «إنها كرات من الطحين تقلى مع عصير الهيل الحلو، قد يبدو هذا شيئاً عادياً، لكن يجب أن تصدقيني عندما أقول إنها ألذّ بكثير من مكوناتها. لكن بالعودة إلى الحديث عن الإله غانيشا الذي تناول كمية كبيرة منها فلم يعد يستطيع الوقوف على قدميه، وفقد توازنه، ثم سقط على الأرض، وانفجرت معدته واندلقت حلوى اللادووس التي تناولها من بطنه».

«لقد حدث كلّ ذلك في الليل ولم يكن هناك إلّا شاهد واحد فقط وهو القمر الذي وجد هذا الأمر عظيماً. فغضب غانيشا ولعن القمر وطرده من الكون. لكن العالم كلّه حزن على غياب القمر، ودعا عدد من الآلهة إلى عقد اجتماع مع الإله شيفا، والد غانيشا، لإقناعه بالعدول عن قراره. واعتذر القمر الذي أبدى ندمه لسوء سلوكه أيضاً. وأخيراً، عدّل غانيشا لعنته وأعلن أن على القمر أن يختفي يوماً واحداً في الشهر، وأن يظهر جزء منه خلال ما تبقى من الشهر، وأن يسمح له بالظهور بكامل مجده وأبهته في يوم واحد فقط».

صمت فيجاي قليلاً ثم أضاف، «أصبحت تعرفين الآن لماذا للقمر دور مهم في مهرجانات الإله غانيشا».

«شكراً على تفسيرك هذا».

«اسمي فيجاي، فيجاي باندي».

«واسمي بام، بام سوانفيل. يا لها من قصّة ممتعة؛ ويا له من إله

طريف خيالي، رأس الفيل ذاك وجسد بوذا. ويبدو أن القرويّين يؤمنون بأساطيرهم بجدّية كبيرة... كما لو كانت حقيقية فعلاً...».

«إن دراسة رمزية الإله غانيشا أمر مثير للاهتمام»، قاطعها فيجاي بلطف وأخرج من جيب قميصه قلادة عنق كبيرة حُفرت عليها صورة غانيشا، «أرجو أن تلاحظي أنّ لكلّ سمة في غانيشا معنى جدّياً، تعليم من تعاليم الحياة. انظري إلى رأس الفيل الكبير، فهو يطلب منّا أن نفكّر في أشياء كبيرة؛ وماذا عن الأذنين الكبيرتين؟ أن نسمع أكثر؛ أما العينان الصغيرتان فهما تطلبان منا أن نركّز، والفم الصغير يعني أن علينا أن نتكلّم أقلّ. ولا أنسى أحد تعاليم غانيشا - حتى في هذه اللحظة التي أكلّمك فيها، فإني أتذكّر نصيحته، وأنبّه نفسي بألّا أتكلّم كثيراً. يجب أن تساعديني وتقولين لي إن كنت أقول لك أكثر مما تريدين أن تعرفيه».

«لا، لا أبداً. أنا مهتمّة كثيراً بتعليقاتك حول ما يرمز إليه».

«هناك رموز عديدة أخرى. دققي النظر هنا، نحن الهنود أناس في غاية الجدّية». ومدّ يده إلى حقيبته الجلدية وأخرج عدسة تكبير صغيرة.

بعد أن أخرج المكبرة، مالت بام لتدقق النظر في قلادة فيجاي. تنشقت رائحة القرفة والهيل من ثوبه القطني المكوي حديثاً. كيف يمكن أن تنبعث منه هذه الرائحة الحلوة والطازجة في مقصورة القطار الصغيرة المغبّرة؟ «لديه ناب واحد فقط»، لاحظت بام.

«معناه: احتفظ بالجيد، وارم السيئ».

«وما هذا الذي يحمله؟ فأس؟».

«لقطع كلّ الروابط والصلات».

«هذا يشبه العقيدة البوذية».

«نعم، تذكّري أن بوذا خرج من الأمّ المحيط شيفا».

«ويحمل غانيشا شيئاً باليد الأخرى. يصعب رؤيته. خيط؟».

«حبل لشدّ المرء وجعله أقرب إلى أعلى هدف له».

ارتجّ القطار فجأة وبدأ يسير.

«عادت عربتنا إلى الحركة مرة أخرى»، قال فيجاي، «لاحظي عربة غانيشا، هنا تحت قدمه». اقتربت بام أكثر لتنظر من خلال العدسة وتتنشّق رائحة فيجاي خلسة.

«أوه، نعم، الفأر. رأيته في جميع تماثيل وصور غانيشا. لم أفهم لماذا فأر».

«هذا أكثر السمات إثارة للاهتمام من بينها كلها. فالفأر يمثّل الشهوة. يمكنك أن تمتطيه إذا أبقيته تحت السيطرة فقط، وإلا فإنه سيُحدث الخراب والفوضى».

صمتت بام. بينما كان القطار يسير بسرعة متجاوزاً أشجاراً هزيلة، ومعابد بين حين وآخر، وجواميس الماء في برك موحلة، ومزارع استُنزفت تربتها الحمراء نتيجة زراعتها منذ آلاف السنين. نظرت إلى فيجاي وشعرت بالامتنان. كيف أنه أخرج القلادة بلطف، ووفر عليها الحرج من التكلّم باستخفاف عن دينه. منذ متى لم تحظ بشرف لقاء رجل كهذا؟ لكن لا، ذكّرت نفسها، لا تقللي من أهمية الرجال الآخرين الأعزاء. تذكّرت مجموعة العلاج. هناك توني الذي كان مستعداً لمساعدتها في أيّ شيء؛ وستيوارت أيضاً الذي قد يكون كريماً؛ وجوليوس، الذي يبدو أن لا نهاية لحبّه. لكن رهافة فيجاي لم تكن مألوفة. كانت مدهشة وغريبة.

وماذا عن فيجاي؟ فقد غرق أيضاً في حلم يقظة، يستعرض حديثه مع بام. مبتهجاً بشكل غير معتاد، أخذ قلبه يخفق بقوة، لكنه أراد أن يهدئ نفسه. فتح حقيبته الجلدية، وأخرج منها علبة سجائر مجعّدة قديمة، لا ليدخّن ـ لأن العلبة فارغة ـ فضلاً عن أنه سمع أن للأمريكيين عادات غريبة في التدخين. كان يريد فقط أن يتمعّن في العلبة ذات اللونين الأزرق والأبيض التي تحمل صورة جانبية لرجل يعتمر قبعة، وكُتب عليها بأحرف سوداء ماركة السجائر «**المشهد العابر**».

كان أحد أوائل معلميه الدينيين قد وجّه انتباهه إلى *المشهد العابر*، نوع السجائر التي كان والده يدخّنها، وطلب منه أن يبدأ التدرّب على التأمل بالتفكير في أن الحياة كلّها عبارة عن مشهد عابر، نهر يجرف كل شيء، كلّ التجارب في الحياة، كلّ الرغبات، وألّا يدعها تتجاوز انتباهه. تأملّ فيجاي صورة نهر متدفق وأنصت إلى كلمات عقله التي بلا صوت: *أنيتيا*، *أنيتيا* ـ عدم الدوام. كلّ شيء غير دائم، ذكّر نفسه. فمن المؤكد أن الحياة كلّها وتجاربها تنزلق وتنسلّ بشكل لا جدال فيه، بينما يمرّ المشهد الطبيعي المرئي من نافذة القطار. أغمض عينيه، تنفّس بعمق، وأراح رأسه على مقعده؛ تباطأ نبضه وهو يدخل ميناء الاتزان المرحبّ به.

بام التي كانت تراقب فيجاي خلسة التقطت العلبة التي سقطت على الأرض، وقرأت الملصق عليها، وقالت: «*المشهد العابر* ـ هذا اسم سجائر غير عادي».

فتح فيجاي عينيه ببطء وقال، «كما قلت لك، نحن الهنود جدّيون للغاية. حتى إن علب سجائرنا تبعث برسائل حول كيفية التصرّف في الحياة. الحياة مشهد عابر، إني أتأمّل هذه العبارة كلما أحسست باضطراب في داخلي».

«هل هذا ما كنتَ تفعله منذ دقيقة؟ ما كان عليّ أن أزعجك».

ابتسم فيجاي وهزّ رأسه بلطف، ثم قال: «قال لي معلّمي ذات مرة بأنه لا يمكن لأحد أن يزعج شخصاً آخر. إن المرء نفسه فقط هو الذي يستطيع أن يخلّ توازنه ورصانته». تردّد فيجاي عندما أدرك أن الشهوة بدأت تتملكه: فقد رغب في أن يجذب انتباه رفيقته في المقصورة فحوّل تأمله إلى مجرّد فضول، كلّ ذلك من أجل ابتسامة من هذه المرأة الجميلة التي هي طيف، جزء من المشهد العابر، والتي سرعان ما ستخرج من حياته وتذوب في لا كينونة الماضي. ومع أنه كان يعرف أيضاً أنّ كلماته التالية ستجعله يحيد عن طريقه، واصل فيجاي بطيش.

«هناك شيء أودّ أن أقوله لك: سأتذكّر لقاءنا وحديثنا لمدة طويلة. بعد قليل سأغادر هذا القطار إلى «أشرم» حيث يجب أن أصمت طوال الأيام العشرة المقبلة، وأنا ممتن كثيراً لهذه المناقشة واللحظات التي تبادلناها. وأتذكّر الآن أفلام السجون الأميركية التي يُسمح فيها للرجل المدان بأن يطلب أيّ شيء يتمنّى أن يتناوله في وجبة طعامه الأخيرة. هل لي أن أقول إنني حققت أمنياتي لأنني مُنحت آخر محادثة لي».

هزت بام رأسها. نادراً ما ترتبك ولا تعرف ماذا ستقول. لم تعرف كيف تردّ على لطف فيجاي ومودته. «عشرة أيام في أشرم؟ هل تقصد إغاتبوري؟ فأنا ذاهبة إلى معتكف».

«إذاً فنحن ذاهبان إلى نفس المكان وإلى نفس الهدف ـ لنتعلّم طريقة تأمل فيباسانا على يد المعلّم المبجل غوينكا. إنه قريب جداً أيضاً ـ في المحطّة الآتية».

«هل قلت عشرة أيام من الصمت؟».

«نعم، إن غوينكا يطلب دائماً ممارسة الصمت النبيل ـ ما عدا المناقشات الضرورية مع العاملين هناك، أما التلاميذ، فيجب ألّا يتفوهوا بأي كلمة. هل جرّبتِ التأمل قبل الآن؟».

هزّت بام رأسها بأن لا، ثم قالت: «أنا أستاذة جامعية. أدرّس الأدب الإنكليزي. في السنة الماضية، خاضت إحدى طالباتي تجربة شفائية في إغاتبوري. ونشطت هذه الطالبة في تنظيم جلسات فيباسانا في الولايات المتحدة، وهي تساعد حالياً على تنظيم رحلة يقوم بها غوينكا إلى الولايات المتحدة».

«إن طالبتك تأمل في أن تقدّم لمعلّمتها هدية، وتأمل أيضاً أن تمرّي أنت أيضاً بمرحلة تحوّل؟».

«شيء من هذا القبيل. لم تكن هي التي شعرت بأنني بحاجة إلى

تغيير بعض الأشياء في نفسي، بل قالت إنها استفادت كثيراً وأرادت أن أعيش أنا وآخرون التجربة نفسها».

«طبعاً. لم أطرح سؤالي بشكل صحيح. فلم أقصد أنك تحتاجين إلى تحوّل. كنت مهتماً بحماسة طالبتك، لكن هل هيّأتك جيداً لحضور هذا المعتكف؟».

«لم تفعل ذلك بشكل مباشر. فقد وجدت هذا المعتكف بمحض المصادفة ونصحتني بأن أذهب إليه أيضاً بعقلية منفتحة تماماً. إنك تهزّ رأسك. أرى أنك غير موافق».

آه، تذكّري أن الهنود يهزّون رؤوسهم من جهة إلى أخرى عندما يوافقون، وإلى الأعلى والأسفل عندما لا يوافقون ـ بعكس الطريقة الأمريكية».

«يا إلهي. أظنّ أنني أحسست بذلك لا شعورياً لأنني لم أتواصل مع الناس هنا بشكل جيد. لا بدّ أنني كنت أربك الذين كنت أكلّمهم».

«لا، لا، إن عدداً كبيراً من الهنود الذين يتواصلون مع أشخاص غربيين يعرفون ذلك. أما بالنسبة إلى النصيحة التي أسدتها لك طالبتك، فإني لست متأكداً من أنني أوافق على ألّا تكوني غير مستعدة تماماً. دعيني أقول إن هذا المعتكف ليس للمبتدئين. إذ يبدأ الصمت النبيل، التأمل، منذ الساعة الرابعة صباحاً، مع قليل من النوم، ووجبة طعام واحدة في اليوم. نظام غذائي صعب. يجب أن تكوني قوية. لقد بدأت سرعة القطار تتباطأ. لقد وصلنا إلى إغاتبوري».

نهض فيجاي واقفاً، جمع أغراضه، وأنزل حقيبة بام المركونة على الرفّ العلوي. توقّف القطار تماماً. استعدّ فيجاي ليغادر، وقال: «لقد بدأت التجربة».

كلمات فيجاي منحتها شيئاً من الارتياح، وبدأ قلق ينتاب بام التي

قالت: «هل هذا يعني أننا لن نتمكن من أن يكلّم أحدنا الآخر في أثناء المعتكف؟».

«لا يوجد أي نوع من التواصل، لا مكتوباً، ولا لغة إشارات».

«والبريد الإلكتروني؟».

لم يبتسم فيجاي وقال: «الصمت النبيل هو الطريق الصحيح للاستفادة من فيباسانا». بدا مختلفاً. أحسّت بام بأنه بدأ يبتعد.

«على الأقل»، قالت لنفسها، «إن معرفة أنك هناك ستوّفر لي قدراً من الراحة. أقل خوفاً من تخيّل أننا سنكون وحدنا معاً».

«وحدنا معاً. عبارة سعيدة»، ردّ فيجاي من دون أن ينظر إليها.

«ربما»، قالت بام، «قد نلتقي ثانية في هذا القطار بعد المعتكف».

«يجب ألّا نفكّر في ذلك. سيعلّمنا غوينكا أن الحاضر فقط هو الذي يجب أن نعيشه. لا وجود ليوم البارحة ولا ليوم غد. إن ذكريات الماضي والتوق إلى المستقبل لا تجلب إلّا الإزعاج والقلق. إن الطريق إلى السكينة تكمن في مراقبة الحاضر وتركه يعوم بلا إزعاج في نهر وعينا». ومن دون أن ينظر إلى الوراء، علّق فيجاي حقيبته على كتفه، وفتح باب المقصورة، ومضى.

الفطنة الذكورية المسربلة بقوة الدافع الجنسي فقط
هي التي تستطيع أن تُطلق على الجنس الرهيف،
الضيّق الكتفين، العريض الردفين، القصير الرجلين،
اسم الجنس اللطيف.

آرثر شوبنهاور عن النساء

جدالاتك الفارغة، وتباكيك على العالم الغبي والتعاسة الإنسانية،
تمنحني ليالي مؤرقة وأحلاماً مزعجة...
لا توجد لحظة مزعجة واحدة لا أدين بها إليك.

رسالة إلى آرثر شوبنهاور من أمّه

١٦

المرأة الرئيسية في حياة شوبنهاور

كانت أهم امرأة في حياة آرثر هي أمّه، يوهنا التي كانت علاقته بها علاقة معذّبة ومليئة بالتناقضات وانتهت بكارثة. لقد حفلت رسالة يوهنا إلى آرثر التي تدعوه فيها إلى ترك فترة تدريبه بمشاعر أمومية رائعة؛ قلقها، حبّها، آمالها لمستقبله. وبالرغم من كلّ ذلك، فقد اشترطت شرطاً: وهو أن يبقى بعيداً على مسافة مناسبة منها. لذلك نصحته في

رسالتها بأن يغادر هامبورغ ويذهب إلى غوثا بدلاً من أن يأتي إلى بيتها في فايمار التي تبعد خمسين كيلومتراً.

وسرعان ما تبخّر وهج المشاعر الدافئة بينهما بعد أن تحرر آرثر من العبودية بسبب إقامته لفترة قصيرة في المدرسة الإعدادية في غوثا. ولم تمض ستّة أشهر حتى طُرد آرثر الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة من المدرسة لأنه كتب قصيدة ذكية لكنها ساخرة جداً عن أحد المعلّمين فيها وتوسل إلى أمّه بأن تسمح له بأن يعيش معها ويواصل دراسته في فايمار.

لم تكن يوهنا مسرورة، في الواقع، من إمكانية أن يعيش آرثر معها، فاشتعلت غضباً. وزارها زيارات قصيرة بضع مرات خلال الأشهر الستة التي قضاها في غوثا، وكانت كلّ زيارة مصدر استياء شديد بالنسبة لها. وكانت رسائلها إليه بعد طرده من المدرسة من بين أكثر الرسائل الصادمة التي تكتبها أمّ إلى ابنها.

...أنا أعرف طباعك... فأنت مزعج ولا تطاق والعيش معك صعب جداً. إن ذكاءك سوّد كلّ خصالك الحميدة فأصبحت عديم الفائدة للعالم... إذ تجد عيوباً في كل شيء ما عدا في نفسك... فتجعل الناس من حولك يشعرون بالمرارة، لا أحد يريد أن يتحسّن أو أن يتنوّر بهذه الطريقة القسرية، لاسيّما من شخص تافه كما هو أنت. ولا يحتمل أحد أن ينتقده شخص فيه جوانب ضعف كثيرة في شخصيته، خاصة أسلوبك في التقليل من قدر الآخرين، ويعلن في نبرات تنبوئية، بأن هذا كذا وكذا، حتى من دون الشك في إمكانية أن يكون مخطئاً.

لو كنتَ أقل مما أنت عليه الآن، لأصبحت سخيفاً فقط، لكنك لو بقيت كما أنت، فستصبح أشدّ إزعاجاً... كان من الممكن أن تعيش، مثل آلاف الطلاب الآخرين، وتدرس في غوثا... لكنك لم تشأ أن تفعل ذلك، فطُردت... إن هذه المجلّة الأدبية الحيّة كما تودّ أن تكون هي شيء حقود مملّ لأنه لا يمكن للمرء أن يتجاوز الصفحات أو يرمي هذا الشيء القذر كله وراء الموقد، كما يمكن أن يفعل مع مجلة مطبوعة.

ومع مرور الزمن، استسلمت يوهنا للواقع بأنه ليس بإمكانها رفض قبول آرثر في فايمار عندما بدأ يستعد لدخول الجامعة، لكنّها كتبت له مرة أخرى، أنه في حال لم يفهم قصدها، فقد عبّرت عن مخاوفها في تعابير أشدّ فظاظة وحدّة.

أظن أن من الحكمة أن أخبرك بصراحة شديدة بما أرغب فيه وبما أشعر به حول بعض الأمور كي يفهم أحدنا الآخر منذ البداية. فأنا مغرمة بك كثيراً، وأنا متيقنة من أنه ليس لديك شك في ذلك. فقد برهنتُ لك ذلك وسأظل أبرهنه ما دمت حيّة. ومن أجل سعادتي يجب أن أعرف أنك سعيد، لكن لا لأن أكون شاهدة على ذلك. لقد دأبت على القول إن العيش معك صعب للغاية... وكلما عرفتك أكثر، ازداد شعوري بذلك قوة.

لن أخفي هذا عنك: ما دمت أنت كما أنت، فإني أفضّل أن أقدّم أيّ تضحية على أن أوافق على أن أكون بقربك... إن ما يصدّني لا يقبع في قلبك، وإنما في خارجك، لا في داخل كيانك. إنه يقبع في أفكارك، في طريقة حكمك على الأشياء، عاداتك؛ باختصار، لا يوجد هناك شيء يتعلّق بالعالم الخارجي يمكننا أن نتفق عليه.

انظر، عزيزي آرثر، ففي كلّ مرة كنت تزورني فيها لبضعة أيام فقط، كانت تجري بيننا مشاحنات عنيفة حول أشياء تافهة، وعندما تذهب، كنت أتنفّس بحرية، لأن وجودك، تذمرك من الأشياء التي لا يمكن تجنبها، وجهك المقطّب، مزاجك السيئ، الآراء والأفكار الغريبة التي تقولها...ك لّ ذلك يصيبني بالاكتئاب ويزعجني كثيراً لأنني لا أستطيع أن أساعدك.

كانت حيوية يوهنا شفّافة. فبفضل الله نجت من الزواج الذي خشيت أنه سيسجنها طوال حياتها. منتشية بالحرية التي بدأت تعيشها، ترسخت لديها الفكرة بألّا تكون مسؤولة تجاه أي شخص مرة أخرى. فعاشت حياتها الخاصة، تلتقي بمن تشاء، وتستمتع بعلاقات رومانسية (لم تتزوج ثانية قط)، وتستكشف مواهبها الكبيرة.

فلم تحتمل فكرة أن تتخلّى عن حريتها من أجل آرثر. فلم يكن آرثر شخصاً يصعب التعامل معه ومهيمناً بطبيعته فحسب، وإنما كان أيضاً ابن سجّانها السابق: التجسيد الحيّ لكثير من صفات هاينرش البغيضة.

وهناك مسألة النقود التي برزت للمرة الأولى عندما اتهم آرثر، وهو في التاسعة عشرة من عمره، أمّه بالتبذير في الإنفاق، ما سيعرّض الميراث الذي سيحصل عليه عندما يبلغ الحادية والعشرين للخطر. فردت عليه يوهنا بغضب وبإصرار بأن الكلّ يعرفون أنها كانت تقدّم سندويتشات الخبز والزبدة فقط في صالوناتها، ثم وبّخت آرثر لإنفاقه نقوداً كثيرة بسبب ارتياده مطاعم غالية الثمن وأخذ دورس لتعلّم ركوب الخيل. وفي النهاية، تفاقمت هذه الخلافات حول النقود وبلغت مستويات لا تطاق.

تجلّت مشاعر يوهنا حول آرثر وحول الأمومة في رواياتها: إذ تفقد البطلة النموذجية في روايات يوهنا شوبنهاور حبّها الحقيقي بشكل مأساوي، ثم تستسلم لزواج معقول اقتصادياً، لا يوجد فيه حبّ، ويكون أحياناً زواجاً مهيناً، وفي ردّ فعل يشوبه التحدي وتأكيد الذات، فقد كانت ترفض إنجاب أطفال.

لم يبادل آرثر مشاعره مع أحد، وفي فترة لاحقة أتلفت أمّه جميع رسائله. لكن لا تزال بعض الاتجاهات تبدو شديدة الوضوح. فقد كانت الصلة بين آرثر وأمّه حادّة، وقد لازمه ألم إنهائها طوال حياته. ولم تكن يوهنا أمّاً عادية، وإنما كانت مرحة، صريحة، جميلة، حرّة التفكير، مستنيرة، قارئة جيدة. ومن المؤكد أنها ناقشت آرثر انغماسه في الأدب المعاصر والقديم. وبالفعل، فقد يكون سبب اتخاذ آرثر، وهو في الخامسة عشرة، قرار الذهاب في الرحلة الكبيرة بدلاً من التحضير لدخول الجامعة، رغبته في البقاء في كنفها.

لم تتغير وتيرة العلاقة بين الأمّ وابنها إلا بعد موت والده. ولا بدّ أن آمال آرثر بأن يحلّ محل أبيه في قلب أمّه قد تحطمت عندما اتخذت

قرارها السريع بأن تتركه في هامبورغ وتنتقل إلى فايمار. فإذا كانت آماله قد أُنعشت عندما حرّرته أمّه من وعده لوالده المتوفي، فقد تحطّمت ثانية عندما أرسلته إلى غوثا، بالرغم من المصادر التعليمية الهائلة المتوفرة في فايمار. ربما، كما اقترحت أمّه، تعمّد آرثر أن يُطرد من غوثا. فإذا كانت تصرفاته تستند إلى رغباته لينضم ثانية إلى أمّه، فلا بدّ أن عدم ترحيبها به في بيتها الجديد وبوجود رجال آخرين في حياتها قد ثبط من عزيمته.

كان أصل الشعور بالذنب الذي تملّك آرثر نتيجة انتحار والده يكمن في فرحته بالتحرر وخشيته من أنه ربما ساهم في الإسراع بموته لأنه لم يبد أي اهتمام بعالم التجارة. وسرعان ما تحوّل شعوره بالذنب إلى دفاع عنيف عن اسم والده ذائع الصيت، وإلى انتقاد سلوك أمّه تجاه أبيه بشكل لاذع.

وقد كتب بعد سنوات:

أعرف النساء. إنهن يعتبرن الزواج مجرد مؤسسة لتأمين حاجاتهن. فعندما اشتدّ المرض على أبي، تخلّى عنه الجميع ما عدا خادمة مخلصة محبّة للخير كانت تحيطه بالرعاية الضرورية. وكانت أمّي تقيم الحفلات بينما هو مستلقٍ وحيداً. كانت أمّي تمضي وقتاً ممتعاً، بينما هو يعاني من آلامه. هذا هو حبّ النساء.

عندما وصل آرثر إلى فايمار للدراسة على يد مدرس خصوصي للدخول إلى الجامعة، لم تسمح له أمّه أن يعيش معها، فأقام في سكن منفصل وجدته له. وكانت رسالتها بانتظاره تحدّد له فيها، بوضوح قاس، قواعد علاقتهما وحدودها.

تذكّر الآن الأسس التي أرغب في أن أكون فيها معك: أنت في بيتك، في مسكنك، وأنت في بيتي ضيف... لا تتدخّل في أيّ من الترتيبات المنزلية. ستأتي كلّ يوم في الساعة الواحدة وتبقى حتى الثالثة، ثمّ لن أراك مرة أخرى طوال اليوم، إلّا في أيام صالوني الذي يمكنك أن تحضره إذا

أردت، وتستطيع أيضاً أن تأكل في بيتي في تينك الأمسيتين، شريطة أن تحجم عن المجادلات المرهقة التي تثير غضبي... وخلال ساعات الظهيرة يمكنك أن تخبرني بكلّ ما أريد أن أعرفه عنك، وخلال ما تبقى من الوقت يجب أن تعتني بنفسك. لا يمكنني أن أوفر لك التسلية والمتعة على حساب تسليتي ومتعتي. كفى. الآن، أصبحت تعرف أمنياتي ورغباتي وأرجو ألّا تكافئني على عنايتي الأمومية لك وحبي لك بمخاصمتي.

قبل آرثر هذه الشروط خلال إقامته التي دامت سنتين في فايمار وبقي مراقباً فقط في أمسيات أمّه الاجتماعية، ولم يشارك ولا مرة في الأحاديث مع غوته الشامخ. وبسبب إجادته اللغتين اليونانية واللاتينية والأعمال الكلاسيكية والفلسفة قُبل في الجامعة في غوتينغين وهو في الحادية والعشرين من العمر. وفي الوقت نفسه، حصل على ميراثه البالغ عشرين ألف ريتخشالير، وهو مبلغ يكفي لتوفير دخل كاف لكنه بسيط طوال حياته. وكما تنبأ والده، كان بحاجة كبيرة إلى هذا الميراث ـ لأن آرثر لم يكسب فنكاً واحداً من عمله كدارس وفيلسوف.

مع مرور الوقت، بدأ آرثر ينظر إلى والده كملاك وإلى أمّه كشيطان. وآمن بأنّ غيرة أبيه وشكوكه حول إخلاص أمّه تستند إلى أسس صحيحة، وخشي أنها لن تحترم ذكرى والده. وباسم والده، طلبت أن تعيش حياة هادئة ومعزولة. وهاجم آرثر بعنف جميع الذين يتقرّبون من أمّه، وكان ينظر إليهم نظرة احتقار «مخلوقات مصنوعة بالجملة»، ليست جديرة بأن تحلّ محل أبيه.

درس آرثر في جامعتي غوتينغين وبرلين ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ينا. وعاش فترة وجيزة في برلين لكنه سرعان ما هرب منها بسبب الحرب الوشيكة ضد نابليون وعاد إلى فايمار ليعيش مع أمّه. وسرعان ما اندلعت المشاكل المنزلية: فلم يوبّخ أمّه لأنها تبذّد النقود التي خصصها لرعاية جدته فحسب، بل اتهمها أيضاً بأنها تقيم علاقة غير لائقة مع صديقها موللر غيرستينبيرغك. واتخذ آرثر موقفاً معادياً شديداً

تجاه غيرستينبيرغك، فاضطرت يوهنا لرؤية صديقها عندما لا يكون آرثر في البيت فقط.

خلال هذه الفترة دارت أحاديث متكرّرة عندما قدّم لأمّه نسخة من أطروحة الدكتوراه التي أعدّها، وهي أطروحة رائعة عن مبادئ العلاقة بين السبب والمسبب عنوانها «*حول الجذر التربيعي لمبدأ العلة الكافية*».

ما إن ألقت يوهنا أول نظرة على صفحة العنوان حتى تساءلت: «جذر رباعي؟ لا شكّ في أن هذا شيء يصلح لصيدلي؟».

آرثر: «ستظل تُقرأ عندما لا يكاد يمكن العثور على نسخة من كتاباتك».

يوهنا: «نعم، لا شك في أن طباعة كتاباتك كلّها ستبقى في المكتبات».

لم يكن آرثر يتساهل في مسألة عناوينه، وكان يرفض أيّ اعتبارات تسويقية. فقد كان من الأفضل أن يكون العنوان «نظرية تفسير»، وليس «حول الجذر التربيعي لمبدأ العلة الكافية». لكن بالرغم من ذلك، وبعد مئتي سنة، لا يزال يُطبع. ولم يكن بالإمكان أن تبلغ أطروحات كثيرة أخرى هذا التميّز.

واستمرت الجدالات الشرسة حول النقود وحول علاقات يوهنا مع الرجال حتى عيل صبر يوهنا، وقالت إنها لن تقطع صداقتها مع غيرستينبيرغك أو مع أي شخص آخر من أجل آرثر. وطلبت منه أن يغادر البيت، ودعت غيرستينبيرك لأن ينتقل إلى بيتها وأن يمكث في الغرفة التي تركها آرثر، وكتبت إلى آرثر هذه الرسالة المصيرية.

إنّ الباب الذي صفقته بقوة وبصخب شديد البارحة بعد تصرفك غير اللائق تجاه أمّك، قد أُغلق الآن إلى الأبد بيني وبينك. سأذهب إلى الريف ولن أعود حتى أعرف أنك غادرت البيت... إنك لا تعرف ما هو قلب الأمّ، فكلّما أحبّ برقة أكثر ازداد شعوره بالألم بعد كلّ ضربة من

يد كانت محبوبة... أنت من ابتعد عني: عدم ثقتك، انتقادك لحياتي، ولاختياري لأصدقائي، سلوكك الطائش نحوي، احتقارك للأنثى، عدم رغبتك في المساهمة في إرضائي وإسعادي، جشعك، كلّ هذه وأشياء كثيرة أخرى تجعلك تبدو شريراً ومسيئاً لي... لو كنتُ قد متُّ وكان عليك أن تتعامل مع أبيك، فهل كنت ستجرؤ على أن تعامله مثل مدير مدرسة؟ أو تحاول أن تتحكم بحياته، بصداقاته؟ هل أنا أقلّ قدراً منه؟ هل فعل لك أكثر مما فعلته لك؟ هل كان يحبّك أكثر مما أحبّك؟... لقد انتهى واجبي نحوك. امض في طريقك، فلم تعد لي علاقة بك بعد الآن... اترك عنوانك هنا، لكن لا تكتب لي، ومنذ هذه اللحظة، لن أقرأ ولن أجيب عن أيّ رسالة ترسلها لي.... فهذه هي النهاية... لقد جرحت مشاعري كثيراً. عش وكن سعيداً بقدر ما تستطيع.

وهكذا كانت النهاية. وعاشت يوهنا خمسة وعشرين عاماً، لكن الأمّ والابن لم يلتقيا قط ثانية.

عندما بلغ الشيخوخة، كتب شوبنهاور عن ذكرياته عن والديه:

معظم الرجال يسمحون لأنفسهم بأن يغريهم وجه جميل... وتحث الطبيعة النساء على عرض كلّ ألقهن وجمالهن في وقت واحد... ولإثارة 'الأحاسيس...' لكن الطبيعة تخفي العديد من الشرور التي تحدثها [نساء] من قبيل الإنفاق اللامتناهي، رعاية الأطفال، التعنت، العناد؛ وعندما تصبح عجوزاً وقبيحة بعد بضع سنوات، الخداع، خداع الزوج، النزوات، نوبات الهستيريا، الجحيم، والشيطان. لذلك فإني أعتبر الزواج ديناً يُتعاقد عليه في الشباب ويُسدّد ثمنه في الشيخوخة...

المعاناة الشديدة تجعل المعاناة الأدنى غير محسوسة،
وفي المقابل، فإن غياب المعاناة الشديدة،
يجعل أدنى مضايقة أو إزعاج يعذّبنا.

١٧

في بداية الجلسة التالية، تركّزت العيون كلّها على بوني التي تحدّثت بصوت ناعم، متردد: «لم تكن فكرة جيّدة أن أُدرج في برنامج اليوم لأنني ظللت طوال الأسبوع أفكّر في ما سأقوله، وتدرّبت مرات عديدة على العبارات التي يجب أن أقولها، مع أنني أعرف بأنّ الكلام المعلّب ليس الطريقة المتبّعة هنا. إذ يقول جوليوس إننا يجب أن نكون تلقائيين إذا أردنا أن ننجح في ما نريد إيصاله. صحيح؟» قالت بوني ونظرت إلى جوليوس.

أومأ جوليوس وقال: «بوني، حاولي أن تضعي جانباً هذا الكلام المعلّب. حاولي ذلك: أغمضي عينيك وتخيّلي ما كتبته في الورقة. تخيّلي أنك تضعينها أمامك، ثم مزّقي نصفها، ثم النصف الآخر. ارمها الآن في سلة المهملات. اتفقنا؟».

هزت بوني رأسها، مغمضة العينين.

«والآن بكلمات جديدة، حدّثينا عن البساطة والجمال. حدّثينا عنك وعن ريبيكا وعن بام».

بوني التي كانت لا تزال تهزّ رأسها عينيها ببطء، افتتحت الجلسة وقالت: «أنا واثقة من أنكم تتذكّرونني. فقد كنت تلك الفتاة البدينة

الصغيرة في صفكم في المدرسة الابتدائية. الفتاة مكتنزة الجسم، ذات الشعر المجعّد غير الممشط. الفتاة المثيرة للشفقة في صالة الرياضة، التي لم تكن تُدعى إلى حفلات عيد الحبّ. كثيرة البكاء، لا يوجد لديها أصدقاء، تعود دائماً إلى البيت وحدها، ولم تُدع إلى حفلة راقصة قط، شديدة الخوف إلى حدّ أنها كانت تخاف أن ترفع يدها في الصفّ مع أنها كانت شديدة الذكاء وكانت تعرف كلّ الأجوبة الصحيحة. وها هي ريبيكا، حسناً، كانت إيزومر...».

«ماذا؟» سألها توني الجالس باسترخاء في كرسيه بشكل أفقي تقريباً.

«إيزومر تعني متماثل»، ردّت بوني.

وأردف فيليب، «إيزومر تشير إلى مركّبين كيمياويين لهما مكونات متشابهة بنفس المقادير لكنهما يختلفان في عناصرهما بسبب أسلوب ترتيب الذرّات».

فقالت بوني: «شكراً يا فيليب. قد أكون قد استخدمت كلمة غير معتادة. لكن توني، أريد أن أقول إنني أحترم الطريقة التي تتمسّك فيها بقرارك لتشير في كلّ مرّة إلى أنك لم تفهم الأمر. في تلك الجلسة منذ شهرين عندما تكلّمت بصراحة عن تعليمك وعملك فقد شجعتني على أن أقول شيئاً عن نفسي. حسناً، الآن لنعد إلى أيام دراستي. كانت ريبيكا عكسي تماماً في كلّ شيء ـ سمّها ما شئت. كنت أتوق لأن تكون ريبيكا صديقة لي ـ كنت مستعدة لأن أُقتل لكي أكون ريبيكا. هذا ما كان يعتمل في داخلي. وفي الأسبوعين الأخيرين اجتاحتني ذكريات عن طفولتي المرعبة».

فقال جوليوس: «كانت تلك الفتاة الصغيرة البدينة في المدرسة منذ زمن طويل»، «فما الذي أعادها الآن؟».

«هذا هو الجزء الصعب. لا أريد أن تزعل ريبيكا مني».

«من الأفضل أن تحدّثيها مباشرة، يا بوني»، قاطعها جوليوس.

«حسناً»، قالت بوني، والتفتت لتواجه ريبيكا، «أريد أن أقول لك شيئاً، لكن لا أريد أن تغضبي مني».

«كلي آذان صاغية»، قالت ريبيكا، وركّزت كل انتباهها على بوني.

«عندما أرى كيف تتعاملين مع الرجال هنا في المجموعة ـ كيف تثيرين اهتمامهم، كيف تغويهم ـ أشعر بأنني عاجزة تماماً. فتظهر كلّ تلك المشاعر السيئة القديمة: بدينة، تافهة، غير محبوبة، منبوذة».

فقاطعها فيليب، «قال نيتشه ذات مرة شيئاً بمعنى أننا عندما نصحو محبطين في منتصف الليل، فإن الأعداء الذين كنا قد هزمناهم منذ أمد بعيد قد عادوا لمطاردتنا».

ارتسمت على وجه بوني ابتسامة كبيرة واستدارت نحو فيليب، وقالت: «هذه هدية يا فيليب، هدية جميلة جداً. لا أعرف السبب، لكن فكرة الأعداء الذين كنا قد هزمناهم يعودون ثانية تجعلني أشعر بالتحسّن. إن مجرد تسمية شيء يجعله أكثر...».

«انتظري دقيقة يا بوني»، قاطعتها ريبيكا، «أريد أن أعود إلى مسألة إغوائي الرجال هنا ـ أرجو أن توضّحي».

اتسعت حدقتا بوني. تفادت نظرات ريبيكا، وقالت: «لا يتعلق الأمر بك. إنك لا تفعلين ذلك ـ الأمر كلّه يتعلق بي، إنه استجابتي لسلوك الأنثى الطبيعي تماماً».

«أيّ سلوك؟ عن أي شيء تتحدّثين؟».

أخذت بوني نَفَسَاً عميقاً وقالت: «إنك تتجملين. هكذا يبدو لي. ففي الجلسة الأخيرة لا أعرف كم مرة فككتِ مشبك شعرك، وفردتِ شعرك، وخللته بأصابعك، لكن هناك أشياء أخرى لا أستطيع أن أتذكّرها الآن. لا بد أن ذلك يعود إلى انضمام فيليب إلى المجموعة».

«عمَّ تتحدّثين؟» سألتها ريبيكا.

«اقتباساً من الحكيم القديم، القديس جوليوس، فإن السؤال لا يكون سؤالاً إن كنت تعرف الجواب»، قاطع توني.

«لماذا لا تدع بوني تتكلّم عن نفسها يا توني؟» قالت ريبيكا. عيناها جامدتان.

لم ينزعج توني، وقال: «الأمر واضح. ما إن انضم فيليب إلى المجموعة حتى تغيّرت ـ تغيّرت إلى ذكر... آه... ما هي الكلمة الصحيحة؟ تحاولين أن تجذبينه إليك. هل قلت هذه العبارة بشكل صحيح يا بوني؟».

هزت بوني رأسها.

مدّت ريبيكا يدها إلى محفظتها وأخرجت منها منديلاً ورقياً جففت به عينيها، لكنها حرصت على ألّا تلمس مجمّل الرموش، وقالت: «هذه حقاً إهانة منيوكة».

«هذا ما لا أريد أن أصل إليه»، قالت بوني متوسلة، «هذا الكلام ليس عنكِ يا ريبيكا ـ إني أقول ذلك باستمرار ـ إنك لا ترتكبين أي خطأ».

«هذه الأمور لا تنطلي عليّ ـ أن تطلقي اتهاماً *En passant* عن سلوكي ثم تقولين إنه ليس عنيّ فإن ذلك لا يقللّ من وقاحته».

«*En passant*؟» سأل توني.

«إنها تعني»، قاطعهما فيليب، «عرضاً، إشارة عابرة» ـ وهي تعبير يستخدم في الشطرنج عندما يأخذ البيدق مربعين في حركته الافتتاحية ويجتاز بيدقاً في الطرف الآخر».

«فيليب، إنك تتباهى بنفسك كثيراً، ألا تدرك ذلك؟» قال توني.

فقال فيليب الذي لم يتأثر من مواجهة توني له: «أنت سألت سؤالاً، وأنا أجبت عنه، إلا إذا لم يكن سؤالك سؤالاً».

«آخ، لقد أمسكتني هنا»، ونظر توني إلى أعضاء المجموعة

الآخرين، وقال: «لا بد أنني أصبحت أكثر غباء. أشعر بأنني لست على ما يرام. هل أتخيّل ذلك، أم أن كلمات كبيرة تُلقى هنا؟ لعل وجود فيليب يؤثر في الآخرين أيضاً، لا في ريبيكا فقط».

فتدّخل جوليوس مستخدماً الأسلوب الأكثر شيوعاً والأكثر فاعلية في العلاج الجماعي؛ فقد حوّل التركيز من المحتوى إلى الأسلوب، أي بعيداً عن الكلمات التي تقال عن طبيعة العلاقة بين الأطراف المتفاعلة. «أشياء كثيرة تجري هنا اليوم. ربما نستطيع أن نخطو خطوة إلى الوراء لدقيقة ونطير لنفهم ماذا يحدث. دعوني أولاً أطرح هذا السؤال عليكم جميعاً: ماذا برأيكم يجري في العلاقة بين بوني وريبيكا؟».

«إنه سؤال صعب»، قال ستيوارت الذي كان السبّاق دائماً في الردّ على أسئلة جوليوس وقال بنبرته الطبية: «لا أعرف حقاً إن كان لدى بوني موضوع واحد أو أكثر».

«ماذا تقصد؟» سألت بوني.

«أقصد ما هو برنامجك؟ هل ترغبين في التحدّث عن المسائل المتعلقة بالرجال وتنافسك مع النساء؟ أم ترغبين في توجيه صفعة قوية لريبيكا؟».

فقال جيل: «أرى ذلك من وجهتي النظر كلتيهما. يمكنني أن أرى كيف أن ذلك يحرّك ذكريات بوني القديمة السيئة. وأستطيع أن أرى أيضاً السبب الذي جعل ريبيكا تنزعج ـ أقصد ربما لا تعرف أنها تثبّت شعرها ـ وشخصياً، فأنا لا أعتبرها مسألة مهمة».

«أنت لبق يا جيل»، قال ستيوارت، «كالعادة فإنك تحاول أن تسترضي جميع الأطراف، خاصة السيدات. لكنّك تعرف أنك إذا تعمقت في فهم وجهة نظر الأنثى، فلن تتكلّم بصوتك أنت. هذا ما قاله فيليب لك الأسبوع الماضي».

فقالت ريبيكا: «إني أرفض هذه التعليقات الجنسية يا ستيوارت.

بصراحة، لا بد أن الطبيب يعرف أكثر. إن التكلم عن وجهة نظر الأنثى هذه سخيف».

رفعت بوني يديها ورسمت شكل حرف T وقالت «عليّ أن أطلب وقتاً مستقطعاً. لا يمكنني أن أستمّر ذلك. هذا أمر مهم، لكنّه سريالي. لا يمكنني مواصلة ذلك. كيف يمكننا مواصلة عملنا كالمعتاد عندما ذكر جوليوس الأسبوع الماضي بأنه سيموت؟ هذا خطئي: لم يكن عليّ أن أفتح هذا الموضوع اليوم عنيّ وعن ريبيكا ـ إنه أمر تافه للغاية. كلّ شيء تافه بالمقارنة مع مشكلته».

ساد صمت. أطرق الجميع بعيونهم. كسرت بوني الصمت.

«أريد أن أتراجع. الطريقة التي كان عليّ أن أبدأ بها هذه الجلسة أصف حلماً، كابوساً، حلمت به بعد الجلسة الأخيرة. أظن أنه يعنيك أنت يا جوليوس».

«هيا»، حثّها جوليوس.

«كان الوقت ليلاً. كنت في محطة قطارات معتمة...».

فقاطعها جوليوس وقال: «حاولي أن تستخدمي الزمن الحاضر يا بوني».

«ينبغي أن أعرف الآن. حسناً ـ في الليل. أنا في محطة قطارات معتمة. أحاول أن أصعد إلى القطار الذي بدأ يتحرّك للتو. أسير بسرعة لألحق به. أرى عربة الطعام تمرّ مليئة بأناس يرتدون ثياباً أنيقة يأكلون ويحتسون النبيذ. لست متأكّدة إلى أين سأصعد. يبدأ القطار الآن يتحرّك بسرعة أكبر، وتبدأ العربات الأخيرة تصبح أكثر رثاثة، ونوافذها مغطاة بألواح. أما العربة الأخيرة، المطعم، فكانت عبارة عن هيكل متداعٍ بالكامل، وأراها تبتعد عني وأسمع صافرة القطار عالية جداً فتوقظني في الرابعة صباحاً تقريباً. كان قلبي يخفق بقوة. كان العرق يتصبب مني، ولم يغمض لي جفن ليلة البارحة».

«ألا تزالين ترين ذلك القطار؟» سأل جوليوس.

«بأوضح ما يمكن. إنه يتحرك مبتعداً على السكة. الحلم لا يزال مخيفاً. غريباً».

«أتعرفين ماذا أظنّ؟» قال توني، «أظنّ أن القطار هو أعضاء المجموعة وأن مرض جوليوس سيجعلها تتفكّك».

«صحيح»، قال ستيوارت، «القطار هو المجموعة ـ تأخذك إلى مكان ما، وتغذيك طول الطريق ـ الأشخاص في عربة الطعام».

«نعم، لكن لماذا لم تتمكني من الصعود؟ هل ركضت؟» سألت ريبيكا.

«لم أركض. كان يبدو أنني كنت أعرف أنني لن أستطيع الصعود».

«غريب. كأنك كنت تريدين الصعود إليه، لكنك، في الوقت نفسه، لم تكوني ترغبين في الصعود» قالت ريبيكا.

«أنا متيقنة من أنني كنت أحاول جاهدة أن أصعد إليه؟».

«ربما كنت تخشين أن تصعدي؟» سأل جيل.

«هل أخبرتكم بأنني كنت عاشقاً؟» قال جوليوس.

خيّم صمت على أعضاء المجموعة. صمت مطبق. جال جوليوس بخبث في الوجوه المرتبكة القلقة.

«نعم، عاشق لهذه المجموعة، خاصة عندما تعمل كما تعمل اليوم. شيء رائع، الطريقة التي تفسّرون فيها هذا الحلم. أنتم رائعون. دعوني أضيف تخميني ـ أتساءل يا بوني إن لم يكن ذلك القطار رمزاً لي أيضاً. ذلك القطار الذي يعبق بالخوف والظلام. وكما قال ستيوارت، فإنه يقدّم غذاء. إني أحاول أن أفعل ذلك. لكنّك خائفة منه ـ كما يجب أن تكوني خائفة منّي أو مما سيحدث لي. وتلك العربة الأخيرة، الهيكل العظمي الذي يشبه عربة مطعم في القطار: أليس هذا رمزاً، بصيرة نافذة، عن تدهور حالتي؟».

تلعثمت بوني. أخرجت مناديل ورقية من العلبة المركونة في وسط الغرفة، وجففت عينيها، ثم قالت: «لا..... آه.... لا أعرف كيف أجيب - يبدو الأمر كله سريالياً... جوليوس، لقد ألقيتَ بي أرضاً، إنك تصعقني بالطريقة التي تتحدّث فيها عن الموت بأنه أمر واقع».

«كلنا سنموت يا بوني. الفرق هو أنني أعرف أحوالي أكثر منكم»، قال جوليوس.

«هذا ما أقصده يا جوليوس. أحبّ دائماً ذرابة لسانك، أما الآن، في هذه الحالة، فهو يتفادى الأشياء نوعاً ما. أتذكّر ذات يوم - كان ذلك عندما كان توني يمضي حكماً بالسجن في نهاية أسبوع ولم نتحدّث عن ذلك - قلت إذا تم تجاهل أمر مهم في المجموعة، فلن يكون هناك شيء آخر هاماً يمكن التحدث عنه أيضاً».

«هناك شيئان»، قالت ريبيكا، «الأول، بوني، كنّا نتحدّث عن شيء مهم الآن - عدّة أشياء مهمة، والثاني، يا إلهي، ماذا تريدين أن يفعل يا جوليوس؟ إنه يتحدّث عنه».

«في الواقع»، قال توني، «حتى إنه انزعج لأننا سمعنا الخبر من فيليب ولم نسمعه منه شخصياً».

فقال ستيوارت: «إذاً بوني، ماذا تريدين منه؟ إنه يعالج الأمر. قال إن لديه شبكة دعم لمساعدته على التعامل معه».

أنهى جوليوس الحديث - لقد ابتعد بما يكفي، وقال: «كما تعرفون، فإني أقدّر لكم كلّ هذا الدعم الذي تقدمونه، لكن عندما يكون الدعم قوياً هكذا فإني أبدأ بالقلق. هل تعرفون متى قرر لو جيهريغ أن يتقاعد؟ لقد حدث ذلك في إحدى المباريات عندما بدأ جميع أفراد الفريق يمتدحونه ويثنون عليه عندما ركل الكرة ركلة عادية جداً. لعلكم تعتبرونني هشّاً إلى حدّ أنني لا أستطيع أن أتكلّم عن نفسي».

«إذاً، إلى أين سنمضي بهذا الأمر؟» قال ستيوارت.

«أولاً، دعيني أقول لك يا بوني إنّك تبدين شجاعة كبيرة عندما تتدخلين وتسمّين الشيء الذي يصعب الاقتراب منه. والأكثر من ذلك، فأنت محقّة تماماً: كنت أشجّع البعض... لا، الكثير من النكران هنا».

«سألقي كلمة مختصرة أوضح فيها لكم كلّ شيء. لقد مرّت عليّ بعض الليالي المؤرقة، وأتيح لي وقت كثير للتفكير في كلّ شيء، بما في ذلك ما يجب أن أفعله مع مرضاي ومع هذه المجموعة. لم أمارس ذلك من قبل. لا يمارس أحد النهايات. فهي تحدث مرة واحدة فقط. ولم تكتب الكتب الدراسية عن هذه الحالة ـ لذلك فكلّ شيء مجرد ارتجال».

«يواجهني القرار بماذا سأفعل خلال الفترة المتبقية. انظروا ما هي خياراتي؟ أن أنهي عملي مع كلّ مرضاي وكذلك هذه المجموعة؟ لستُ مستعداً للقيام بذلك ـ فأمامي سنة على الأقل أنعم فيها بصحة جيدة، وعملي يعني لي الشيء الكثير. وأنا أستفيد منه كثيراً. إذا أنهيت كلّ عملي فهذا يعني أنني أعامل نفسي كمنبوذ. لقد رأيت عدداً كبيراً من المرضى المصابين بمرض عضال وقالوا لي إن العزلة التي ترافق مرضهم هي أسوأ جزء في حياتهم على الإطلاق».

«والعزلة هي عزلة ثنائية: الأولى، أن الشخص المريض جداً يعزل نفسه لأنه لا يريد أن يجرّ الآخرين إلى بؤسه ـ ويمكنني أن أقول لكم كحقيقة إن إحدى مخاوفي تكمن هنا ـ والثانية، أن الآخرين يتحاشونه إمّا لأنهم لا يعرفون كيف يكلّمونه أو لأنهم لا يريدون أن تكون لهم أيّ صلة بالموت».

«لذلك فإن الانسحاب منكم ليس خياراً جيداً بالنسبة لي، والأكثر من ذلك، لا أعتقد أنه خيار جيد بالنسبة لكم أيضاً. لقد رأيت الكثير من المصابين بمرض عضال الذين تغييروا. أصبحوا أكثر عقلانية وأكثر نضجاً، وكانت لديهم أشياء عظيمة يعلّمونها للآخرين. أظن أن ذلك بدأ يحدث لي، وأنا متيقن بأنه ستكون لديّ أشياء كثيرة أقدمها لكم في

الأشهر القليلة المقبلة. لكن إذا كان علينا أن نواصل عملنا معاً، فقد يتعين عليكم مواجهة الكثير من القلق. فلن يكون عليكم أن تواجهوا موتي المقبل فحسب، بل قد تواجهون موتكم. نهاية الكلمة. ربما كان عليكم جميعاً التفكير في إمعان بما قلته وتقرير ماذا تريدون أن تفعلوا».

«أنا لست بحاجة إلى التفكير»، قالت بوني، «فأنا أحبّ هذه المجموعة وكلّ شخص فيها، وأريد أن أبقى هنا طالما أمكنني ذلك».

بعد أن ردّد الأعضاء تأكيد بوني، قال جوليوس: «إني أقدّر هذا التصويت بالثقة. لكن مجموعة العلاج الجماعي رقم ١٠١ تؤكّد قوة ضغط المجموعة الكبيرة. يصعب الحصول على إجماع المجموعة علناً. يحتاج الأمر إلى عزيمة تفوق طاقة البشر لكي يتخذ أيّ واحد منكم قراره اليوم: آسف يا جوليوس، لكن هذا كثير بالنسبة لي ومن الأفضل أن أجد معالجاً يتمتع بالصحة، شخص معافى يستطيع الاعتناء بي».

«إذاً لا توجد لدينا التزامات اليوم. لنظل منفتحين ونستمرّ في تقييم عملنا ونرى كيف يشعر كلّ واحد منكم بعد بضعة أسابيع. هناك خطر كبير واحد أعربت عنه بوني اليوم وهو أن مناقشة مشاكلك تصبح غير مهمة كثيراً. لذلك، يجب أن نكتشف أفضل طريقة لأجعلكم تواظبون على العمل لحلّ مشاكلكم».

«أظن أنك تفعل ذلك»، قال ستيوارت، «من خلال إبقائنا على اطلاع».

«شكراً، هذا يساعد. لنعد الآن إليكم».

صمت طويل.

«لذلك، لعلي لم أحرّركم. دعوني أحاول شيئاً. هل تستطيع يا ستيوارت، أو أحد غيرك، أن تعرض برنامجنا، ماذا لدينا على الطاولة ـ ما هي المسائل المعروضة اليوم؟».

كان ستيوارت المدوّن الغير رسمي لما يجري في المجموعة لأنه

يتمتع بذاكرة حفظية مذهلة، لذلك كان جوليوس يطلب منه دائماً أن يسرد ما حدث في جلسات المجموعة الماضية أو الحالية. وكان يحاول ألّا يستغل كثيراً ستيوارت الذي انضم إلى المجموعة ليتعلّم أساليب التعامل مع الآخرين، لا لأن يكون مجرد جهاز تسجيل لما يجري في الجلسات. كان ستيوارت طبيباً ممتازاً مع الأطفال المرضى، لكن ما إن يغادر مجاله كطبيب أطفال حتى يشعر بالضياع اجتماعياً. وحتى عندما يأتي لحضور الجلسات كان يدسّ في جيب قميصه بعض أدوات المهنة: خافض اللسان، مصباح في شكل قلم، مصاصات أطفال رضع، عيّنات من الأدوية. وأحرز ستيوارت الذي شكّل في السنة الماضية قوة مستقرّة في المجموعة، تقدّماً كبيراً في «مشروع أنسنة» على حد تعبيره، إلّا أن حساسيته في التعامل مع الآخرين لم تتطور إلى درجة أن سرده لما يحدث في المجموعة يخلو من أي خبث.

أسند ظهره إلى كرسيه، وأغمض عينيه قبل أن يردّ: «حسناً، لنر ـ لقد بدأنا ببوني وبرغبتها في التحدّث عن طفولتها». كانت بوني تنتقد ستيوارت باستمرار، ونظر إليها ليحصل على موافقتها قبل أن يواصل كلامه.

«لا، ليس بالضبط تماماً يا ستيوارت. حقائق صحيحة، نبرة خاطئة. تجعلها تبدو وقحة. كما لو كنت أريد فقط أن أحكي قصّة لأنها مسلية. هناك ذكريات مؤلمة كثيرة من طفولتي بدأت تبرز الآن وتهيمن على أفكاري. هل فهمت الفرق؟».

«لستُ متأكّداً إن كنت قد فهمت. فأنا لم أقل إنك كنت تفعلين ذلك بدافع التسلية. هذا بالذات ما تتذمر منه زوجتي. لكن لأتابع: بعد ذلك حدثت أمور مع ريبيكا التي أحسّت بالإهانة وغضبت من بوني لأنها أشارت إلى أنها تتأنق وتتجمّل كثيراً لإثارة إعجاب فيليب». تجاهل ستيوارت صفع ريبيكا بيدها على جبينها وتمتمتها، «اللعنة»، وتابع، «ثمّ هناك شعور توني بأننا نستخدم مفردات معقدة أكثر لنثير إعجاب فيليب.

ثمّ علّق توني بأن فيليب يحب التباهي بما يعرفه من معلومات. وردّ فيليب الحادّ لتوني. ثمّ تعليقي لجيل بأنه يتجنّب إغضاب النساء كثيراً إلى درجة أنه يفقد إحساسه بنفسه».

«وماذا أيضاً»، مسح ستيوارت الغرفة بعينيه، «حسناً، وهناك فيليب ـ لا ما قاله بل ما لم يقله. إننا لا نتكلّم كثيراً عن فيليب، كما لو أن الحديث عنه محرّم. لنفكّر في الأمر، حتى إننا لا نتحدّث عن أننا لا نتحدّث عنه. وبالطبع جوليوس. لكنّنا تحدّثنا عن ذلك. باستثناء أن بوني كانت قلقة ومتحفظة للغاية، كما هي غالباً تجاه جوليوس. في الواقع، فقد بدأ الجزء المتعلق بجوليوس في الجلسة بالحلم الذي رأته بوني».

«رائع يا ستيوارت، «قالت ريبيكا. «وكامل تماماً لكنك حذفت شيئاً واحداً فقط».

«وهو؟».

«أنت نفسك. في الحقيقة فأنت كاميرا المجموعة، تصوّر ولا تغوص في العمق».

غالباً ما واجهت المجموعة ستيوارت لأسلوبه المتجرد في المشاركة. ومنذ أشهر عدّة وصف كابوساً رأى فيه أن ابنته غاصت في رمال متحركة ولم يستطع إنقاذها لأنه أضاع وقتاً كثيراً في إخراج كاميرته من حقيبته ليلتقط صوراً للمكان. كان ذلك عندما اعتبرته ريبيكا «كاميرا المجموعة».

«صحيح يا ريبيكا. سأبعد كاميرتي الآن وأقول إنني أتفق تماماً مع بوني: إنك امرأة جميلة. لكن هذا ليس خبراً جديداً بالنسبة لك ـ إنك تعرفين ذلك. وتعرفين أنني أرى ذلك. وبالطبع، فإنك تتجملين من أجل فيليب ـ تعقدين شعرك وتفردينه وتمسّدينه. هذا واضح. أما ما هو شعوري إزاء ذلك؟ لقد انتابني شعور بالغيرة. لا، بل انتابتني غيرة شديدة ـ لأنك لم تفعلي ذلك لي. فلم تتجمّل إحداهن من أجلي قط».

فردّت ريبيكا، «هذا الأمر يجعلني أشعر كأنني في السجن. إني أكره

أن يحاول الرجال التحكم بي هكذا، كأن كلّ حركة أقوم بها توضع تحت المجهر». كانت ريبيكا تتوقف عند كلّ كلمة، مظهرة حدّة وهشاشة تخبئهما منذ وقت طويل.

تذكّر جوليوس الانطباعات الأولى عن ريبيكا. فمنذ عشر سنوات، قبل انضمامها إلى المجموعة بفترة طويلة، كان يعالجها وحدها لمدّة سنة. كانت امرأة رقيقة، لها جسم الممثلة البريطانية أودري هيبورن الرشيق، ووجه جميل بعينين واسعتين رائعتين. ومن يستطيع أن ينسى أول تعليق لها في العلاج؟ «منذ أن بلغت الثلاثين من العمر بدأت ألاحظ أنني عندما أدخل إلى مطعم، لم يتوقف أحد عن تناول الطعام لينظر إليّ. أشعر بأنني محطمة».

مصدران من المعلومات وجّها جوليوس في عمله معها، عندما كان يعالجها وحدها أو في المجموعة. الأول: هناك إلحاح فرويد بأنه ينبغي للمعالج أن يتقرّب بطريقة إنسانية من المرأة الجميلة وألّا يحجم عن ذلك أو يعاقبها لمجرد أنها جميلة. والثاني: مقالة كان قد قرأها عندما كان طالباً بعنوان «المرأة الجميلة الفارغة» التي أشارت إلى أن المرأة الجميلة تُكرَّم وتكافأ غالباً من أجل مظهرها فقط مما يجعلها تهمل تطوير الأجزاء الأخرى في نفسها. وأن ثقتها ومشاعرها بالنجاح سطحية، وعندما يزول جمالها تدرك أنها لا تستطيع أن تقدّم الكثير: فهي لم تطوّر فنّ أن تكون شخصاً مثيراً للاهتمام ولا أن تبدي اهتماماً بالآخرين.

«أبدي ملاحظات، ومع ذلك فإني كاميرا»، قال ستيوارت، «وعندما أعرب عما أشعر به تقولون إنني رجل مهيمن. هل الحديث عن المشاعر ممنوع».

«لا أفهم ذلك يا ريبيكا»، قال توني: «لماذا كل هذه الجلبة؟ لماذا أنت غاضبة؟ إن ستيوارت يردد ما قلته أنت بنفسك. كم مرّة قلت إنك تعرفين كيف تتوددين وتغازلين، وإن ذلك يأتيك بشكل طبيعي؟ أتذكَر قولك بأنك أمضيت وقتاً سهلاً في الجامعة وفي شركة المحاماة التي تعملين فيها لأنك تتلاعبين بالرجال بحركاتك الجنسية».

«إنك تجعلني أبدو مثل عاهرة»، قالت ريبيكا واستدارت فجأة نحو فيليب، «ألا يجعلك هذا تظن أنني عاهرة؟».

بسرعة أجاب فيليب الذي لم يحوّل انتباهه من التحديق في بقعته المفضّلة في مكان ما في السقف، «قال شوبنهاور إن النساء اللاتي يتمتعن بجاذبية كبيرة، مثل رجل بالغ الذكاء، كُتب عليهن أن يعشن حياة من العزلة التامة. وأشار إلى أن الآخرين يعميهم الحسد ويكرهون الشخص المتفوّق. ولذلك، لا يكون لهؤلاء الأشخاص أصدقاء مقرّبون من نفس جنسهم».

«هذا غير صحيح بالضرورة»، قالت بوني، «فأنا أفكّر في بام، زميلتنا الغائبة، الجميلة أيضاً، ولديها صديقات كثيرات».

«نعم يا فيليب»، قال توني: «إنك تقول إنه لكي يكون المرء شعبياً فيجب أن يكون غبياً أو دميماً؟».

«تماماً»، قال فيليب، «ولن ينفق الشخص الحكيم حياته ليكتسب شعبية. إنه أمل مخادع. إن الشعبية لا تحدّد ما هو الشيء الصحيح أو الجيد، بل على العكس تماماً، فإنها تلغي الفروق مع الآخرين. الأفضل بكثير أن يبحث المرء في داخله عن قيمه وأهدافه».

«وماذا عن أهدافك وقيمك أنت؟» سأل توني.

إذا كان فيليب قد لاحظ الفظاظة في سؤال توني، فإنه لم يكترث به وأجاب بصراحة، «مثل شوبنهاور، أريد أن أوصي بأقل قدر ممكن وأن أعرف أكبر قدر ممكن».

هز توني رأسه، لا يعرف كيف يردّ.

تدخلت ريبيكا قائلة: «فيليب، إن ما كنت تقوله أنتَ أو شوبنهاور عن الأصدقاء صحيح تماماً بالنسبة لي ـ الحقيقة هي أنه توجد لديّ بضع صديقات مقرّبات. لكن ماذا عن شخصين لهما اهتمامات وقدرات متشابهة؟ ألا تظن أنّ الصداقة في هذه الحالة ممكنة؟».

قبل أن يتمكّن فيليب من الإجابة، تدّخل جوليوس وقال: «إن وقتنا يمضي بسرعة اليوم. أريد أن أعرف ما هي مشاعركم جميعاً حول الخمس عشرة دقيقة الماضية. كيف كان عملنا اليوم؟».

«لسنا مركّزين على الهدف. لقد ضعنا»، قال جيل، «ثمة شيء ليس على ما يرام يجري هنا».

«لقد شبعت»، قالت ريبيكا.

«تدور أشياء كثيرة في رؤوسنا»، قال توني.

«أوافق»، قال ستيوارت.

«حسناً، أنا لست على ما يرام»، قالت بوني، «فأنا على وشك أن أنفجر، أو أن أصرخ، أو...». نهضت بوني فجأة، لملمت محفظتها وسترتها، وخرجت من الغرفة. بعد لحظة، قفز جيل وجرى خارج الغرفة ليعيدها. في صمت محرج، جلست المجموعة تنصت إلى الخطوات المنسحبة. بعد قليل، عاد جيل، وما إن جلس حتى قال: «إنها على ما يرام، قالت إنها آسفة لكن كان عليها أن تخرج لتخفف من حدة الضغط الذي شعرت به. ستأتي في الأسبوع المقبل».

«ماذا يجري؟» قالت ريبيكا، وفتحت محفظتها لتخرج نظارتها الشمسية ومفاتيح سيارتها، «إني أكره أن يفعل أحد ذلك. هذا مقرف حقاً».

«هل لديك فكرة عمّا يجري؟» سأل جوليوس.

«أظن أنه توتر ما قبل الحيض» قالت ريبيكا.

رأى توني فيليب مقطّباً، مبدياً شيئاً من التشويش، وقال: «متلازمة ما قبل الحيض». عندما هزّ فيليب رأسه، أحكم توني قبضته ورفع إبهاميه، وقال: «هيه هيه، لقد علّمتك شيئاً».

«يجب أن نتوقّف الآن»، قال جوليوس، «لكن لديّ تخميناً بما كان يجري مع بوني. عودوا إلى الخلاصة التي قدّمها ستيوارت. تذكّروا كيف

بدأت بوني الجلسة ـ تحدّثت عن الفتاة الصغيرة المكتنزة في المدرسة وعن عدم شعبيتها وعدم قدرتها على التنافس مع الفتيات الأخريات، لا سيّما الفتيات الجذّابات؟ إني أتساءل ألا تتذكّر المجموعة ذلك اليوم؟ لقد افتتحتْ الجلسة، وبسرعة تركتها المجموعة من أجل ريبيكا. بعبارة أخرى، قد تكون المسألة التي أرادت أن تتحدّث عنها قد صُوّرت هنا بألوان حيّة وأدينا جميعاً دوراً في هذا الموكب».

لم يعد هناك شيء يثير فزعه أو يثيره.
فقد انقطعت آلاف خيوط الإرادة التي تربطنا بالعالم وتشدّنا إليه
(المليئة بالقلق والرغبة والغضب والخوف)
ذهاباً وإياباً في ألم لا يتوقف.
يبتسم ويلتفت بهدوء وينظر إلى أوهام هذا العالم
الماثل أمامه الآن بلا مبالاة مثل لاعبي الشطرنج في نهاية اللعبة.

١٨

بام في الهند (٢)

كان ذلك بعد بضعة أيام في الساعة الثالثة صباحاً. ظلّت بام صاحية، تحدّق في الظلام. وبفضل تدخّل طالبتها في الجامعة، مارجوري التي رتّبت لها امتيازات خاصّة، حصلت على غرفة صغيرة لها مرحاض خاصّ قبالة مهجع النساء المشترك. لكن الكوة لم تكن عازلة للصوت، فكانت بام تسمع أصوات أنفاس ١٥٠ طالباً آخر من تلاميذ فيباسانا. طنين الهواء أعادها إلى غرفة نومها العلوية في بيت والديها في بالتيمور عندما كانت تظل صاحية وهي تنصت إلى رياح آذار التي كانت تهزّ النافذة.

تستطيع بام تحمّل كلّ المشاق الأخرى في أشرم، الاستيقاظ في الرابعة صباحاً، ووجبة الطعام النباتية القليلة الوحيدة في اليوم، وساعات التأمل اللانهائية، والصمت، ومظاهر التقشف، لكن الأرق بدأ يضعف

جسدها. وبدأت آلية النوم تراوغها. كيف كانت تفعلها في السابق؟ لا، إنه سؤال خاطئ، قالت لنفسها ـ سؤال يعقّد المشكلة لأن النوم هو واحد من تلك الأشياء التي لا يمكن أن تكون إرادية، بل يجب أن يأتي من تلقاء نفسه. وفجأة، طافت في رأسها ذكرى قديمة لفريدي الخنزير. فريدي، التحرّي البارع في سلسلة كتب الأطفال الذي لم يخطر لها منذ خمس وعشرين سنة، والذي طلب المساعدة من دويبة لها مئة رجل لم تعد تستطيع أن تمشي لأن أرجلها المئة لم تعد تسير بشكل متناسق. وفي النهاية، تمكن فريدي من حلّ المشكلة عندما طلب من الدويبة ذات المئة رجل أن تمشي دون أن تنظر إلى أرجلها ـ أو حتى أن تفكّر فيها. فالحلّ يكمن في إيقاف الوعي وترك حكمة الجسد تعمل. وينطبق ذلك على النوم.

حاولت بام أن تنام بتطبيق الأساليب التي تعلّمتها في الحلقة الدراسية لتجعل ذهنها صافياً وتبعد عنه كلّ الأفكار. بدأ غوينكا، المعلّم البدين، ذو البشرة البرونزية، المتحذلق، والمتغطرس، بالقول إنه سيعلّمهم طريقة فيباسانا لكنه سيعلّم الطالب أولاً كيف يجعل عقله هادئاً. (تحمّلت بام استخدام ضمير المذكر في كل شيء. فلم تصل موجات المساواة بين الجنسين بعد إلى شواطئ الهند).

في الأيام الثلاثة الأولى، تحدّث غوينكا عن تعاليم أنابانا ـ ساتي ـ التحكّم في التنفّس. كانت الأيام طويلة. بالإضافة إلى محاضرة يومية وفترة قصيرة لطرح الأسئلة والإجابة عنها، كان النشاط الوحيد من الساعة الرابعة صباحاً حتى التاسعة والنصف مساء هو الجلوس والتأمل. وبغية التمكن من التحكم بالتنفّس، حثّ غوينكا التلاميذ على دراسة الشهيق والزفير.

قال غوينكا: «أنصتوا. أنصتوا إلى صوت نَفَسِكم. اشعروا بمدّته ودرجة حرارته. لاحظوا الفرق بين برودة الشهيق ودفء الزفير. كونوا مثل حارس يراقب البوابة. ثبّتوا انتباهكم على فتحتي أنفكم، على البقعة التشريحية الدقيقة التي يدخل منها الهواء ويخرج».

«ثم أضاف، وسرعان ما سيزداد التنفس رقة حتى يبدو أنه سيختفي كليّاً، لكن، كلما ركّزتم بعمق أكثر، سيكون بمقدرتكم معرفة شكله المرهف والحسّاس. وإذا نفذّتم كلّ تعليماتي بحذافيرها»، قال، مشيراً إلى السماء، «وإن كنتم طلاباً متفانين، فإن ممارسة أنابانا ـ ساتي ستعمل على تهدئة عقولكم. عندها ستتحررون من كلّ شيء يحول دون قدرتكم على التركيز على اللحظة الراهنة: القلق والغضب والشكّ والشهوة الحسّية والخمول. ستفيقون وتجدون أنفسكم في حالة من اليقظة والطمأنينة والبهجة».

تهدئة العقل هي بالفعل الكأس المقدّس بالنسبة لبام ـ السبب الذي جعلها تأتي إلى إغاتبوري. فخلال الأسابيع الماضية، كان عقلها بمثابة ساحة حرب بذلت قصارى ما بوسعها لأن توقف الذكريات والتخيّلات التطفلية الاستحواذية التي تراودها عن زوجها إيرل وحبيبها جون. كان إيرل الطبيب النسائي الذي كان يعالجها طوال سبع سنوات عندما حملت وقررت أن تجهض. ولم تخبر والدها الذي كان يتحرّش بها جنسياً بقرارها هذا. ولم ترغب في أن تتورط مع إيرل في علاقة أعمق. كان إيرل رجلاً عاطفياً، لطيفاً على نحو غير عادي. وأجرى لها عملية الإجهاض بمهارة، ثمّ تابع حالتها بعد العملية، واتصل بها مرّتين بالهاتف للاستفسار عنها. وتذكر أنها قالت لنفسها إن كلّ القصص عن موت الرعاية الطبية الإنسانية المتفانية ما هي إلّا حكايات مبالغ فيها. وبعد بضعة أيام، اتصل بها للمرة الثالثة ودعاها إلى الغداء، وانتقل إيرل آنذاك بمهارة من طبيب إلى طالب الزواج منها؛ وفي اتصالهما الرابع، وافقت بحماسة لأن ترافقه لحضور مؤتمر طبي في نيو أورلينز.

تطورت العلاقة بينهما بسرعة مدهشة. فلم يعرفها أي رجل كما عرفها هو، ولم يجعلها أي رجل تشعر بالراحة، ويعرف عنها كلّ كبيرة وصغيرة، ويمنحها متعة جنسية كما فعل هو. ومع أنه كان يتمتع بصفات عديدة رائعة: فقد كان كفؤاً، وسيماً، واثقاً من نفسه ـ فقد أضفت عليه

(أدركت ذلك الآن) صورة بطولية أكثر مما يستحقها بكثير. مبهورة باختياره لها حيث وضعها في أعلى مصاف النساء اللاتي يملأن عيادته ويتشوقن إلى لمسته الشافية، أحبّته ووافقت على الزواج منه بعد بضعة أسابيع.

في البداية، كانت الحياة الزوجية شاعرية. لكن في منتصف السنة الثانية، تبيّن لها حقيقة كونها متزوّجة من رجل يكبرها بسبعة وعشرين عاماً: فقد أصبح يحتاج إلى فترة طويلة من الراحة، وبدأ جسده يظهر دلائل وعلامات سنواته الخمس والستين، وظهر شعره الأبيض متحدياً صبغة الشعر «غريسيان» التي يستعملها. وأنهى الجرح الذي أصيب به إيرل في رسغه عندما كانا يلعبان التنس يوم الأحد لعبهما؛ ووضع تمزق غضروف في ركبته حداً لممارسته التزحلق على الثلج، وعندما عرض بيته في تاهو للبيع دون استشارتها. وحثّتها شيلا، صديقتها المخلصة ورفيقتها في الغرفة في الجامعة التي كانت قد نصحتها بألّا تتزوّج رجلاً يكبرها سناً، على أن تحافظ على شخصيتها وهويتها بدلاً من أن تشيخ بسرعة. وسرعان ما بدأت بام تشعر بأن تقدّم إيرل في العمر يلتهم شبابها، وأصبح يعود كلّ ليلة إلى البيت وهو لا يكاد يمتلك طاقة كافية لاحتساء ثلاث كؤوس من المارتيني ومشاهدة التلفزيون.

والأسوأ من كلّ ذلك أنه لم يكن يقرأ. كيف كان يحدّثها عن الأدب في السابق بطلاقة وبثقة شديدتين. كم زادها حبّه لروايات *ميدل مارش* و*دانيال دروندا* حباً له. وكم أصيبت بالصدمة عندما أدركت بعد فترة وجيزة أنها أخطأت في أنها اختارت الشكل مقابل الجوهر: فلم تكن الملاحظات الأدبية التي كان يرددها إيرل يحفظها عن ظهر قلب فحسب، وإنما كانت ذخيرته من الكتب محدودة وراكدة أيضاً. كانت تلك أقسى ضربة تتلقاها: فكيف يمكنها أن تحبّ رجلاً لا يقرأ؟ هي، التي يسكن أعزّ أصدقاؤها في صفحات جورج إليوت وولف ومردوخ وغاسكيل وبيات؟

وهنا جاء جون، الأستاذ المساعد ذو الشعر الأحمر في القسم الذي

تعمل فيه في جامعة بيركيلي الذي يحمل كتباً على الدوام. له عنق جميل وطويل، تبرز منه تفاحة آدم. وبالرغم من أنه يُتوقع أن أساتذة اللغة الإنكليزية واسعو الاطلاع، فقد كانت تعرف عدداً منهم نادراً ما كانوا يقرأون خارج مجال القرن الذي تخصصوا فيه، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الرواية المعاصرة. أما جون فقد كان يقرأ كلّ ما تقع عليه يده. وكانت قد أيدّت تعيينه منذ ثلاث سنوات بالاستناد إلى كتابيه الرائعين، *الشطرنج: علم جمال الوحشية في القصة المعاصرة*، و*البطلة الخنثوية في الأدب البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر*.

ونبتت صداقتهما كما تنبت جميع القصص الرومانسية الأكاديمية المألوفة: اجتماعات لجان الأقسام والكلية، وتناول طعام الغداء في نادي الجامعة، والقراءات التي تجرى كلّ شهر في قاعة نوريس التي يقدمها الشاعر أو الروائي المقيم. وتجذّرت وتبرعمت في مغامرات أكاديمية مشتركة، مثل الفريق الذي يدّرس عظماء القرن التاسع عشر في منهاج الحضارة الغربية أو في المحاضرات التي يلقيها أستاذ زائر في فصول كل منهما. ثم حدث ارتباط دائم في حرب خنادق المشاحنات التي تجري عادة في مجلس الجامعة، وقصص الرواتب والمكاتب، والمعارك المتوحشة التي تسببها لجنة الترقيات. ولم تمض فترة طويلة حتى وثق أحدهما بذوق الآخر إلى حدّ أنهما أصبحا نادراً ما يطلبان من الآخرين توصيات حول الروايات والشعر، وامتلأ أثير بريدهما الإلكتروني المتبادل بينهما بالمقتطفات الأدبية الفلسفية الدسمة. وكانا يتحاشيان الاقتباسات المنمقة أو الخرقاء، ولم يكن أحدهما يقبل أقل من الرقي والجمال الرفيع فضلاً عن الحكمة من مختلف العصور. وكانا كلاهما يكره فيتزجيرالد وهمنغواي، ويحب ديكنسون وإيمرسون. ومع ارتفاع أكداس الكتب، ازدادت علاقتهما انسجاماً وتناغماً. وكانت نفس الأفكار العميقة ونفس الكتّاب تؤثر فيهما. كانا يمارسان تلك الطقوس معاً. باختصار، كان أستاذا اللغة الإنكليزية عاشقين.

«*اترك زواجك وأنا أترك زواجي*». من قالها أولاً؟ لا يتذكّر أيّ منهما، لكن في لحظة ما في أثناء سنتهما الثانية في فريق التعليم وصلا إلى هذا الالتزام العشقي المحفوف بالمخاطر. كانت بام مستعدّة، لكن كان من الطبيعي أن يطلب جون الذي توجد لديه ابنتان لم تبلغا سن المراهقة بعد، مزيداً من الوقت. كانت بام امرأة صبورة. وكان حبيبها، جون، الحمد لله، رجلاً طيباً وكان بحاجة إلى وقت ليحلّ هذه القضايا الأخلاقية المتعلقة بمعنى الالتزام بالزواج. وصارع أيضاً مشكلة الشعور بالذنب إذا هجر ابنتيه، وكيف يستطيع المرء أن يهجر زوجة ذنبها الوحيد الرتابة، زوجة تحوّلت نتيجة الواجب من عاشقة متقدّة العاطفة إلى أمّ رتيبة. ودأب جون على التأكيد لبام بأنه سيفعل ذلك، وأنه تمكن من تحديد المشكلة واستكشافها، وأن كلّ ما يحتاج إليه الآن هو مزيد من الوقت ليتمكن من استجماع قواه واختيار اللحظة المؤاتية ليتخذ الإجراء المناسب.

لكن الشهور مرت، ولم تأت اللحظة المؤاتية قط. وساور بام الشك بأن جون، شأن العديد من الأزواج المستائين الضجرين الذين يحاولون تفادي الشعور بالذنب والعبء الناجم عن التصرفات اللا أخلاقية التي لا يمكن إصلاحها، يحاول أن يناور زوجته لكي يتمكن من اتخاذ قراره. وبدأ يبتعد عن زوجته وفقد أي اهتمام جنسي بها، وبدأ ينتقدها بصمت، وبين الحين والآخر، بصوت مرتفع. الحجة القديمة «لا أستطيع أن أتركها وأرجو أن تتركني هي». لكن ذلك لم يحدث ـ فهذه الزوجة لن تعضّ.

وأخيراً، تصرّفت بام من جانب واحد. وقد دفعها إلى ذلك مكالمتان هاتفيتان بدأتا بعبارة «عزيزتي، أظن أنك تريدين أن تعرفي...». مريضتان من مريضات إيرل زعمتا أنهما تسديان لها معروفاً حذّرتاها من سلوكه الجنسي الشره. وعندما وصلت مذكرة استدعاء بعد أن أقامت مريضة أخرى دعوى ضد إيرل بسبب سلوكه غير المهني، شكرت بام حظها الجيد لأنها لم تنجب منه طفلاً، وتمسّكت بنجوم حظها، ورفعت سماعة الهاتف، واتصلت بمحامي طلاق.

هل يمكن أن يرغم تصرفها هذا جون على أن يتخذ إجراء حاسماً؟ وحتى لو تركت زوجها ولم يكن جون موجوداً في حياتها، أقنعت بام نفسها، في حالة إنكار مدهشة، بأنّها تركت إيرل من أجل حبيبها وظلت تردد هذه الرواية على جون. لكن جون راح يماطلها ويقول لها إنه ليس مهيأً للإقدام على أي خطوة. وفي أحد الأيام اتخذ قراراً حاسماً. حدث ذلك في شهر حزيران، في آخر يوم في الجامعة، بعد نشوة حفلة عشق في عشهما الذي يلتقيان فيه عادة: حشية زرقاء مطوية تحت طاولة مكتبه فوق أرضية الخشب الصلبة في مكتبه. (فلا توجد أرائك في المكاتب المخصصة لأساتذة اللغة الإنكليزية. فبعد انهيال اتهامات كثيرة على رئاسة القسم عن محاولات بعض الأساتذة التحرش بطالباتهم، منعت إدارة الجامعة وجود أرائك في المكاتب) فبعد أن رفع سحاب بنطلونه، حدّق فيها جون بحزن وقال: «بام، أنا أحبّك، ولأنني أحبّك، فقد قرّرت أن أحزم أمري. أعرف أن هذا غير منصف لك، لكن يجب أن أرفع شيئاً من الضغط عن كاهلك، خاصة، وعن كاهلي أيضاً. قرّرت ألّا يرى أحدنا الآخر بعد الآن».

أصيبت بام بالذهول. لم تكد تسمع كلماته. ولأيام عديدة بدت رسالته لها أشبه بقرص دواء كبير جداً في معدتها يصعب هضمه، وثقيل جداً لا يمكن تقيؤه. وبين ساعة وأخرى، كانت تتأرجح بين كراهيتها له وبين حبّها واشتهائها له وأمنيتها بأن تراه ميتاً. وبدأ يراود عقلها مشهد سيناريو بعد آخر. جون وأسرته يُقتلون في حادث سيارة. وتموت زوجة جون في حادث تحطّم طائرة، ويظهر لها جون، أحياناً مع ابنتيه، وأحياناً وحده عند عتبة بيتها. وأحياناً تتهاوى بين ذراعيه، وأحياناً يبكيان برقة معاً، وتتظاهر أحياناً بوجود رجل في شقتها وتصفق الباب في وجهه.

خلال السنتين اللتين حضرت بام خلالهما جلسات علاج فردية وجماعية، استفادت منها كثيراً، أما في هذه الأزمة، فلم ينجح العلاج في تحقيق أي تقدّم: فلم تكن مباراة بالنسبة لقوّة تفكيرها الاستحواذي

البغيض. وبذل جوليوس كل ما بوسعه، لم يكلّ ولم يملّ، واستخرج من صندوق عدّته أدوات لا حصر لها، فقد طلب منها أولاً أن تراقب نفسها وتسجّل كم تمضي من الوقت في التفكير في هذا الأمر. من مئتي إلى ثلاثمائة دقيقة في اليوم. شيء مرعب. وبدا ذلك خارج إرادتها تماماً. للوسواس قوّة شيطانية. حاول جوليوس مساعدتها لاستعادة السيطرة على عقلها بحثّها على أن تقلل من تفكيرها وتخيّلها بالتدريج. وعندما فشل في ذلك، اتبع أسلوباً معاكساً تماماً وطلب منها أن تختار ساعة محددة صباح كلّ يوم تخصصها بالكامل لإعادة شريط تخيّلها للأشياء التي تحبّها في جون. ومع أنها نفذّت تعليمات جوليوس بحذافيرها، فقد رفض هذا الوسواس العنيد احتواءها وتسرب إلى أفكارها كما من قبل. ثم اقترح عليها اتباع أساليب عدّة لوقف التفكير. ولأيام عديدة، كانت بام تصيح في عقلها «لا» أو تربط أربطة مطاطية حول رسغها.

وحاول جوليوس أيضاً أن يوقف مفعول هذا الهوس بتعرية معناه الأساسي'« الهوس شرود، إنه يحول دون التفكير في شيء آخر»، قال مصرّاً. «ماذا يخفي؟» إن لم يكن لديك هوس، فبماذا كنتِ ستفكرين؟ لكن هذا الهوس لم يبارحها.

شارك أعضاء المجموعة في محنتها. وحكوا عن مشاكلهم الوسواسية، واقترحوا أن تتصل بهم بالهاتف كلما رغبت في ذلك، وشجعوها على أن تشغل حياتها، وأن تتصل بأصدقائها، وأن تقوم بنشاط اجتماعي يومياً، وأن تبحث عن رجل، وإن أمكن، أن تضاجع رجلاً. ابتسمت عندما طلب منها توني أن تعلن عن هذه الوظيفة. لكن كلّ ذلك لم يجد نفعاً. وإزاء قوّة الهوس الضارية هذه، كانت فعالية أسلحة العلاج هذه أشبه باستخدام مسدس *براونينغ* لقتل كركدن يهاجمك.

ثمّ جاء ذلك اللقاء العابر مع مارجوري، الطالبة الحالمة التي أصبحت مساعدة للكاهن فيباسانا، التي جاءت لاستشارتها حول إجراء تغيير في موضوع أطروحتها. فلم تعد تهتم كثيراً بتأثير مفاهيم أفلاطون

عن الحبّ في أعمال الكاتبة جونا بارنز، بل بدأت تُعجب بشخصية لاري، بطل رواية سومرست موم «*حافة الشفرة*»، واقترحت عليها موضوع «أصول الفكر الديني الشرقي عند موم وهيس». وفي أثناء حديثهما أُعجبت بام بعبارة ذكرتها مارجوري (وموم) «تهدئة العقل»، التي بدت مغرية جداً، مغوية جداً. وكلّما أمعنت التفكير فيها، أدركت أن *تهدئة العقل* هو كلّ ما تحتاج إليه. وبما أن الجلسات الفردية والجماعية لم توّفر لها ذلك، فقد قرّرت أن تأخذ بنصيحة مارجوري، فحجزت على الطائرة إلى الهند وإلى كوينكا بالتحديد، مركز تهدئة العقل.

بدأ النظام المتبع في المعتكف يمنحها قدراً من هدوء العقل، وبدأ تركيز عقلها على جون يخفت، لكن بام بدأت تشعر الآن بأن الأرق أصبح أسوأ من الهوس. فقد كان النوم يجافيها وتتناهى إليها أصوات الليل: نبضات من التنفّس الإيقاعي في الخلفية، وأصوات الشخير، والتنهدات والزفرات. وفي كلّ خمس عشرة دقيقة تقريباً، كان ينطلق صوت صفارة سيارة الشرطة العالي خارج نافذتها فيجعلها تجفل.

لكن لماذا لم تتمكّن من النوم بعمق؟ لا بد أن لذلك علاقة بالساعات الاثنتي عشرة التي كانت تمضيها في التأمل يومياً. ماذا يمكن أن يكون السبب غير هذا؟ مع أنه كان يبدو أن المائة وخمسين طالباً الآخرين يستلقون بارتياح وباسترخاء بين ذراعي مورفيوس. كم كانت تتمنى أن تطرح على فيجاي هذه الأسئلة. وفي إحدى المرات، عندما كانت تبحث عنه خلسة في قاعة التأمل، لكزها مانيل، المساعد الذي كان يذرع الممرات ذهاباً وإياباً حاملاً بيده قضيب خيزران، وعلّق قائلاً: «انظري إلى داخلك، ولا تنظري إلى أي مكان آخر». وعندما لمحت فيجاي في الجزء الخلفي من القسم المخصص للرجال، كان يبدو منتشياً في جلسته في وضعية اللوتس، ساكناً مثل بوذا. لا بدّ أنه لاحظها في قاعة التأمل. فمن بين الثلاثمائة شخص، كانت هي الوحيدة التي تجلس على كرسي بالطريقة الغربية. ومع أن الكرسي كان يزعجها ويسبب لها

ألماً في ظهرها من الجلوس لعدة أيام، فلم يكن لديها خيار سوى أن تطلب كرسياً من مانيل، مساعد غوينكا.

لم يكن مانيل، الشاب الهندي طويل القامة النحيف الذي يبذل جهداً كبيراً لكي يبدو هادئاً، سعيداً لطلبها. ومن دون أن يبعد عينيه المحدقتين عن الأفق، ردّ، «ظهرك؟ ماذا فعلت في حيواتك السابقة حتى يحدث لك ذلك؟».

يا لها من خيبة أمل! فقد ناقض ردّ مانيل ادعاءات غوينكا القوية بأن طريقته لا تتبع أيّ تقليد ديني محدد. وشيئاً فشيئاً بدأت تقدّر الهوّة المتسعة بين إيمان البوذية المثالي بعدم أهمية الإيمان بوجود الله أو عدم وجوده والاعتقادات الخرافية التي يؤمن بها سواد الناس. حتى تعليم المساعدين لم يتمكن من التغلّب على رغبتهم الشديدة في ممارسة السحر والطلاسم والسلطة.

ذات يوم رأت فيجاي خلال فترة الغداء عند الساعة الحادية عشرة، وناورت حتى تمكنت من الجلوس إلى مقعد إلى جانبه. سمعته يأخذ نَفَساً عميقاً، كما لو كان يتنشق رائحتها، لكنّه لم ينظر إليها ولم يكلّمها. في الواقع، لم يكن أحد يكلّم أحداً. كانت قاعدة الصمت النبيل السائدة.

في صباح اليوم الثالث، أثارت حادثة غريبة هذا السكون. فخلال التأمل ضرط أحدهم بصوت مسموع فقهقه طالبان، ثم انتقلت القهقهة بالعدوى، وسرعان ما شارك عدد من التلاميذ في جوقة من الضحك المرح. انزعج غوينكا من ذلك، وخرج على الفور من قاعة التأمل يجرّ وراءه زوجته. وسرعان ما أخبر أحد المساعدين الطلاب بتجّهم بأن معلّمهم يشعر بالخزي ويرفض متابعة الجلسة حتى يغادر جميع الطلاب المسيئين أشرم. فنهض عدد من الطلاب وغادروا القاعة، فاضطربت ممارسة التأمل في الساعات القليلة القادمة عندما ظهرت وجوه الأشخاص المطرودين عند النوافذ وراحوا يصيحون وينعقون كالبوم.

بعد ذلك لم يأت أحد على ذكر هذه الحادثة قط، لكن بام ساورتها

الشكوك في أن حملة تطهير جرت في أواخر الليل لأن عدد الجالسين في وضعية بوذا قلّ كثيراً في صباح اليوم التالي.

لم يكن يُسمح بتبادل الكلمات إلّا خلال ساعة الظهر عندما يصبح بإمكان الطلاب أن يطرحوا أسئلة معيّنة على مساعدي المعلّم، وفي ظهيرة اليوم الرابع، سألت بام مانيل عن الأرق الذي يصيبها.

«يجب ألّا تقلقي»، أجاب، محدقاً في البعيد، «فالجسم يأخذ ما يحتاجه من النوم».

«حسناً إذاً»، حاولت بام مرة أخرى، «هل يمكنك أن تخبرني لماذا تظل صافرات سيارات الشرطة تلعلع خارج نافذتي طوال الليل؟».

«انسي هذه الأسئلة. ركّزي فقط على أنابانا ـ ساتي. انتبهي لتنفسك فقط. عندما تطبّقين ذلك جيداً، فلن تعود هذه الأشياء التافهة تؤرقك».

تملك بام إحساس بالملل الشديد من جلسات تأمل النَفَس وبدأت تتساءل عمّا إذا كان بإمكانها أن تنهي الأيام العشرة. وما عدا الجلوس، كان النشاط الوحيد المتاح لها هو الاستماع إلى أحاديث غوينكا الليلية المثيرة للضجر. وكان غوينكا الذي يرتدي رداء أبيض ناصعاً مثل جميع العاملين معه، يبذل كلّ ما بوسعه ليكون بليغاً لكنه غالباً ما كان يفشل لأن نبرة الاستبدادية كانت تظهر بوضوح في حديثه. وكانت محاضراته تشمل فقرات طويلة متكررة تمتدح الكثير من مزايا فيباسانا التي إذا نفذت بشكل صحيح فإنها تفضي إلى النقاء العقلي، الطريق إلى التنوير، وإلى حياة من الهدوء والتوازن، والتخلص من الأمراض الجسدية الناجمة عن العلل النفسانية، والتخلص من الأسباب الثلاثة للحزن: الشهوة والكراهية والجهل. إن ممارسة فيباسانا بانتظام أشبه بالعمل في حديقة العقل حيث يقوم المرء خلالها باقتلاع الأعشاب الضارة الملوّثة للفكر. ليس هذا فقط، قال غوينكا، فإن ممارسة فيباسانا متنقلة، وتنتج تفوّقاً تنافسياً في الحياة: ففي حين يمضي الآخرون فترة الانتظار عند مواقف الحافلات،

فإن الممارس يستطيع أن يقتلع بضع أعشاب ضارة من العقل الملوث بالشوائب.

كانت النشرات التي تُوزّع حول دروس فيباسانا مثقلة بالقواعد التي تبدو في الظاهر مفهومة ومعقولة. لكنها تضم قواعد وتعليمات كثيرة: لا تسرق، لا تقتل أيّ مخلوق حيّ، لا تكذب، لا تمارس الجنس، لا تتعاطى المسكرات، لا تنغمس في المتع الحسّية، لا تكتب أو تسجل ملاحظات أو تستخدم أقلام حبر أو أقلام رصاص، لا تقرأ، لا تسمع موسيقى أو المذياع، لا تستخدم الهاتف، لا تنم على فراش مريح مترف، لا تستخدم زينة جسدية مهما كان نوعها، لا ترتدِ ثياباً غير محتشمة، لا تتناول طعاماً بعد منتصف النهار (ما عدا الطلاب الجدد الذين يُقدّم لهم الشاي والفواكه عند الساعة الخامسة مساء). وأخيراً، لا يسمح للطلاب بمناقشة توجيهات أو تعليمات المعلّم ويتعين عليهم الموافقة على الالتزام التام بالانضباط والتأمّل كما يُطلب منهم. بهذا الموقف المطيع والمذعن فقط، قال غوينكا، يستطيع الطلاب أن يصلوا إلى مرحلة التنوير.

بشكل عام افترضت بام أنه يقول الحقيقة. ففي جميع الأحوال، فهو رجل كرّس حياته لتعليم تعاليم فيباسانا. وبالطبع فهو مؤمن بقوة تأثيره. ومن لا يتأثر؟ أفلا تئنّ الهند دائماً تحت عبء الطقوس الدينية والتقسيم الطبقي الاجتماعي المتشدد؟ بالإضافة إلى ذلك، فقد أحبّت بام صوت غوينكا الشجي. ففي كلّ ليلة كانت تُطرب لترانيمه الجميلة العميقة بلغة بالي القديمة من الأناشيد البوذية المقدّسة. وكانت تُطرب أيضاً بطريقة مماثلة للموسيقى التعبدّية المسيحية المبكّرة، لا سيّما الأناشيد الطقوسية البيزنطية والترانيم التي تنشدها جوقة التراتيل في المعابد اليهودية، وفي إحدى المرات، عندما كانت في ريف تركيا، أُطربت كثيراً عندما سمعت صوت المؤذّن الذي يدعو الناس إلى الصلاة خمس مرات في اليوم.

ومع أن بام كانت طالبة متفانية، فقد كان يصعب عليها أن تراقب

تنفّسها لخمس عشرة دقيقة متواصلة من دون أن تنجرف إلى أحد أحلام يقظتها عن جون. لكن رويداً رويداً، بدأ شيء من التغيير يطرأ عليها. فقد اجتمعت كلّ السيناريوهات المتباينة السابقة والتأمت في مشهد واحد: من أحد مصادر الأخبار ـ من التلفزيون أو المذياع ـ عرفت أن أسرة جون قُتلت في حادث تحطّم طائرة. تراءى لها هذا المشهد مرات عديدة. ومع أنها سئمت منه، فقد ظلّ يجول في رأسها.

ومع تزايد إحساسها بالضجر والقلق، بدأ اهتمامها بالمشاريع البيتية الصغيرة يزداد: فعندما سجّلت لأول مرة في المكتب (لدهشتها علمت أنه لا يتعين عليها تسديد رسوم خلال الأيام العشرة من المعتكف)، لاحظت وجود أكياس صغيرة من المنظّفات في دكان المعتكف. وفي اليوم الثالث، اشترت كيساً وأمضت وقتاً طويلاً في غسل ثيابها وإعادة غسلها، ونشرها على حبل الغسيل خلف المسكن (كان أول حبل غسيل تراه منذ طفولتها)، وكانت تأتي بين ساعة وأخرى لترى إن كانت قد جفت أم لا. أيّها يجفّ أسرع، حمالات الصدر أم السراويل الداخلية؟ كم ساعة تستغرق الثياب حتى تجف في الليل بالمقارنة مع عدد الساعات في النهار؟ أو ما الفرق بين تجفيفها في الظلّ وتجفيفها في الشمس؟ وما الفرق بين الثياب المعصورة باليد إزاء تلك غير المعصورة؟

في اليوم الرابع وقع الحدث العظيم: فقد بدأ غوينكا تعليم فيباسانا. الطريقة بسيطة ومباشرة. إذ طلب من الطلاب أن يمارسوا التأمّل وأن يركّزوا على فروة رؤوسهم إلى أن ينتابهم إحساس ما ـ حكّة، وخز خفيف، حرقة، وربما نسمة صغيرة تهب على جلد فروة الرأس. وعندما يعتري الطالب هذا الإحساس يجب عليه ألّا يلاحظ شيئاً آخر، بل عليه أن يركّز على الحكّة. كيف تبدو؟ إلى أين تنتقل؟ ما الفترة التي تستغرقها؟ وعندما تتلاشى (كما يحدث دائماً)، على المتأمل أن ينتقل إلى الجزء التالي من الجسم، الوجه، ويبحث عن المحفزّات مثل دغدغة منخر أو حكّة جفن. وبعد مراقبة هذه المحفزّات، تنمو، تنحسر، ثم

تتلاشى، وينتقل الطالب بعدها إلى الرقبة والكتفين حتى يشمل كلّ أعضاء الجسم إلى أن يصل إلى باطن القدمين، ثم يعود إلى فروة الرأس، وتُكرّر العملية مرات عديدة.

فسّرت أحاديث غوينكا المسائية السبب المنطقي لهذه العملية. فالمفهوم الرئيسي هو *إنيتيا* ـ المؤقتية. فإذا قدّر المرء تماماً مؤقتية كلّ محفّز جسدي، فلا تبقى أمامه سوى خطوة قصيرة لاستخلاص مبدأ *إنيتيا* حول أحداث الحياة والأشياء المريرة. كلّ شيء سيمضي، وسيصل المرء إلى حالة من الرصانة والهدوء إذا تمكن من البقاء في دور المراقب واكتفى بمراقبة المشهد العابر.

بعد يومين من دراسة فيباسانا، بدأت بام تدرك أن العملية أصبحت أقل صعوبة بعد أن اكتسبت مهارة وسرعة في التركيز على أحاسيسها الجسدية. وفي اليوم السابع، ولدهشتها، انسلّت العملية كلها إلى مرحلة أخرى، وبدأت عملية «الكنس»، تماماً كما أخبرها غوينكا. كان كما لو أنّ أحداً قد صبّ دورق عسل فوق رأسها وبدأ يسيل ببطء وبشكل لذيذ إلى أسفل قدميها. أحسّت برعشة خفيفة تكاد تكون همهمة جنسية، يغلّفها مثل أزيز النحل الطنّان، بينما العسل يتدفّق إلى الأسفل. انقضت الساعات. وسرعان ما تخلّت عن كرسيها وبدأت تشارك الثلاثمائة طالب الآخرين في الجلوس في وضعية اللوتس عند قدمي غوينكا.

انقضى اليومان التاليان في عملية «الكنس» كما في الأيام السابقة بسرعة. وفي الليلة التاسعة استلقت ولم يغمض لها جفن، كان نومها متقطعاً كما من قبل لكنها لم تعبأ كثيراً بذلك بعد أن تعلّمت من إحدى المساعدات (بعد أن تركت مانيل)، وهي امرأة بورمية، بأن الأرق في جلسات فيباسانا شائع يعتري الجميع، لأن حالات التأمّل لفترات طويلة تجعل يبدو النوم أقل ضرورة. وأوضحت لها المساعدة أيضاً لغز صافرة سيارة الشرطة. ففي جنوب الهند، يطلق الحراس في الليل صافراتهم بشكل متواصل عندما يجوبون المنطقة التي يقومون بحراستها، وهو

إجراء وقائي لتحذير اللصوص، تماماً كما يفعل الضوء الأحمر الصغير الموجود على لوحات العدادات في السيارات لتحذير لصوص السيارات بوجود جرس إنذار آلي.

في معظم الأحيان، يتجلّى وجود الأفكار المتكررة عندما تتلاشى، وأدركت بام بأنّها لم تفكّر في جون طوال يومين كاملين. فقد تلاشى جون من تفكيرها، وحلّ محلّ هذه الحلقة اللانهائية من التخيّلات طنين الكنس الذي يكسوه العسل. كم يبدو غريباً أنها أصبحت تدرك الآن أنها تحمل صانع سرورها معها حيثما ذهبت لتفرز مادة الإندومورفين الذي يبعث على الشعور بالارتياح. الآن فهمت لماذا يعلق الناس، ولماذا يلجؤون إلى المعتكف ويمضون فيه فترات طويلة، أحيانا شهوراً، وأحياناً سنوات.

الآن بعد أن نظّفت عقلها أخيراً، لماذا لم تشعر بالبهجة؟ بالعكس، فقد هبط ظلّ على نجاحها. شيء يتعلق بمتعتها لأنها كنست أفكارها المظلمة. وفيما كانت تتأمّل ذلك اللغز، نامت نوماً خفيفاً عند المغيب، وأيقظتها بعد قليل صورة حلم غريب: نجم ذو ساقين صغيرتين وله قبعة وعكاز، يرقص بالنقر بالقدمين على مسرح عقلها. نجم راقص! كانت تعرف تماماً ماذا تعني صورة الحلم هذه. فمن بين جميع الحكم والأمثال والأقوال المأثورة الأدبية التي كانت تتبادلها مع جون والتي كانا يحبانها كثيراً، كانت إحدى العبارات الأثيرة لديها عبارة نيتشه من كتابه *زرادشت*: «يجب أن توجد فوضى في النفس لكي يولد نجم راقص».

بالطبع، فهمت الآن مصدر ازدواجيتها حول فيباسانا. فقد كان غوينكا صادقاً في كلمته. وأوفى بما وعد به: الرصانة، الطمأنينة، أو كما يعبّر عنها غالباً، التوازن. لكن بأي ثمن؟ لو تناول شكسبير موضوع فيباسانا، فهل كان سيولد لير أو هملت؟ هل كانت ستُكتب هذه الروائع الأدبية في الثقافة الغربية؟ وخطر ببالها هذين البيتين من إحدى قصائد شابمان:

لا يمكن للقلم أن يكتب شيئاً أبدياً
إذا لم تكن تغمره مباهج الليل

تغمره مباهج الليل ـ هذه هي مهمّة الكاتب العظيم ـ أن ينغمس في مباهج ومسرات الليل، أن يسخّر قوّة الظلام من أجل الإبداع الفني. وإلّا فكيف استطاع مؤلفو الظلام السامي ـ كافكا، دوستويفسكي، فرجينيا وولف، هاردي، كامو، بلاث، ألن بو ـ أن يضيئوا المأساة التي تتغلغل في الحالة الإنسانية؟ لا بأن يتخلّص المرء من حياته، ولا بالجلوس باسترخاء ومراقبة المشهد الذي يمر أمامك.

وبالرغم من أن غوينكا قال إن تعليمه لا يخص طائفة بعينها، إلا أن بوذيته كانت بادية عليه بوضوح شديد. ففي أحاديثه الليلية، لم يتمكن غوينكا من كبح جماح نفسه للتأكيد أن طريقة فيباسانا هي نفس طريقة بوذا في التأمل، التي يقوم غوينكا بإعادة تقديمها إلى العالم. لم تعترض على ذلك. مع أنها لم تكن تعرف أشياء كثيرة عن البوذية، فقد قرأت نصّاً بسيطاً في الطائرة المتجهة إلى الهند وأُعجبت كثيراً بحقائق بوذا النبيلة الأربع:

١ ـ الحياة معاناة.

٢ ـ سبب المعاناة الارتباط (بالأفكار، بالأشياء، بالأفراد، بالحياة ذاتها).

٣ ـ يوجد دواء للمعاناة: الكفّ عن الرغبة، عن الارتباط، عن الذات.

٤ ـ يوجد طريق محدد للوجود الخالي من المعاناة: الطريق المؤلف من ثماني خطوات إلى التنوير.

الآن، بدأت تعيد النظر فيها. عندما تطلّعت حولها، إلى الكهنة الذين هم في حالة هدوء ونشوة، وإلى الزاهدين القابعين في كهوفهم على

سفوح الجبال راضين بحياة كرّسوها لتطهير نفوسهم وفق تعاليم فيباسانا، تساءلت عمّا إذا كانت هذه الحقائق الأربع صحيحة. هل وضعها بوذا بشكل صحيح؟ ألم يكن ثمن العلاج أسوأ من المرض؟ لكنها عند فجر اليوم التالي، نكصت إلى مرحلة أكبر من الشكّ عندما رأت مجموعة صغيرة من النساء من الطائفة اليانيّة متجهة إلى الحمّام. فقد أخذ معتنقو الديانة اليانية مسألة عدم قتل أي كائن حي إلى حدّ مبالغ فيه إلى درجة سخيفة: فقد كنّ يسرن في الطريق ببطء شديد كما يمشي السرطان البحري لأنه كان عليهن أن يبعدن الأحجار أولاً عن طريقهن بتأنٍ ولطف شديدين كي لا يطأن أي حشرة ـ وفي الواقع، لم يكن بمقدورهن أن يتنفّسن بسهولة من خلال أقنعة الشاش التي يضعنها على أنوفهن لكي لا يتنشقن رائحة أيّ حياة حيوانية مهما كانت صغيرة.

أينما نظرت، كنت ترى نكراناً للذات، تضحية، تقييداً، استسلاماً. ماذا جرى للحياة؟ للبهجة، للنمو، للعاطفة، للتمتع باللحظة الراهنة؟

هل الحياة كئيبة إلى حدّ التضحّية بها لبلوغ الرصانة والاتزان؟ قد تكون الحقائق النبيلة الأربع محصورة بثقافة محددة. لعل هذه الحقائق كانت تصلح قبل ٢٥٠٠ سنة في أرض يسودها الفقر والازدحام والمجاعة والمرض والظلم الطبقي وانعدام أيّ أمل في مستقبل أفضل. لكن هل هي حقائق تصلح الآن؟ ألم يكن ماركس محقاً؟ أليست موجهة إلى جميع الأديان التي تقوم على أساس الانعتاق أو على وجود حياة أفضل في الآخرة للفقراء والمستعبدين والذين يعانون؟

لكن بام قالت لنفسها (بعد بضعة أيام من الصمت النبيل تكلّمت مع نفسها كثيراً)، أليست جاحدة؟ ألا يجب أن تعطي كل ذي حقّ حقه. ألم تنجح طريقة فيباسانا في علاجها ـ ألم تهدّئ عقلها وتخلّصها من أفكارها الوسواسية؟ ألم تنجح بينما فشلت كلّ الجهود التي بذلتها هي وجوليوس وأعضاء المجموعة؟ قد يكون الجواب نعم، وقد يكون لا. قد لا تكون هذه المقارنة منصفة. فلم يزد عدد الجلسات التي رأت فيها جوليوس

على ثماني جلسات ـ اثنتا عشرة ساعة ـ أما فيباسانا فقد اقتضت مئات الساعات ـ عشرة أيام كاملة ما عدا الوقت والجهد لتقطع نصف الطريق حول العالم. ماذا يمكن أن يحدث لو كان جوليوس والمجموعة قد ركزوا عليها طوال تلك الساعات؟

تدخّلت سخرية بام المتزايدة في التأمل. توقّفت عملية الكنس. إلى أين ذهب ذلك الشعور بالرضاء السلس اللذيذ؟ وفي كلّ يوم جديد كانت ممارستها في التأمل تتقهقر. ولم تتجاوز مرحلة تأمل فيباسانا لديها أبعد من فروة رأسها. تلك الحكّة الصغيرة جداً التي عبرت بسرعة في الماضي، استمرت واشتدت ـ تحوّلت الحكّة إلى وخز دبابيس، ثمّ إلى حرقة متواصلة جعلتها لا تركّز على التأمّل.

حتى مفعول العمل المبكّر في *أنابانا ـ ساتي* تلاشى. وانهار خندق الهدوء الذي أقامته بواسطة التأمل بالتنفس، وعادت أمواج الأفكار الجامحة المتعلقة بزوجها وبجون، أو المتعلقة بالانتقام وحوادث سقوط الطائرة. حسناً، دعيها تأتي. لقد رأت إيرل على حقيقته، طفل عجوز، بشفتيه الكبيرتين المزمومتين اللتين تندفعان فوراً نحو أيّ حلمة يمكن أن تلتقمانها. أما جون؛ جون المسكين، الجبان، الضعيف، فلا يزال لا يريد أن يدرك بأنه لا يمكن أن تكون هناك نعم من دون لا. وفيجاي أيضاً الذي اختار أن يضحي بالحياة، وبجمالها، وبالمغامرة والصداقة على مذبح الإله العظيم، الرصانة والاتزان. استخدمي الكلمة المناسبة للمجموعة كلّها، قالت بام لنفسها. جبناء. جبناء أخلاقيون. لا أحد منهم يستحقها. أبعديهم عن تفكيرك. الآن جاءتها صورة قويّة: جميع الرجال، جون، إيرل، فيجاي، يقفون في حوض مرحاض عملاق، أيديهم مرفوعة يتوسلون، صيحاتهم لطلب المساعدة لا تكاد تُسمع في هدير الماء المتدفّق من المرحاض! هذه هي الصورة الجديرة بأن تتأمّلها.

أجابت الزهرة: أيها الأحمق! أتظن أنني أزهر لكي أُرى؟
إني أُزهر من أجلي أنا، لأن ذلك يُدخل البهجة والسعادة إلى نفسي،
لا من أجل الآخرين. إن بهجتي تقبع في وجودي وفي تفتّح براعمي.

١٩

افتتحت بوني الجلسة التالية بعبارة اعتذار: «أعبّر عن أسفي لكم جميعاً لخروجي الأسبوع الماضي من الغرفة. كان عليّ ألّا أفعل ذلك لكن.... لا أعرف... كان ذلك خارج إرادتي».

«الشيطان جعلك تفعلين ذلك»، قال توني بابتسامة متكلّفة.

«هذا مضحك يا توني. حسناً، أنا أعرف ماذا تريد. *لقد فعلتها لأنني* كنت منزعجة. هل هذا أفضل؟».

ابتسم توني ورفع لها إبهامه إشارة الموافقة.

بالصوت اللطيف الذي يستخدمه دائماً عندما يخاطب أي امرأة في المجموعة، قال جيل لبوني: «في الأسبوع الماضي، بعد أن غادرتِ قال جوليوس ربما انزعجتِ لأننا تجاهلناك ـ لأن المجموعة أعادت ما وصفته بأنه يحدث لك في طفولتك».

«كلام دقيق. ما عدا أنني لم أنزعج. الإساءة تعبير أفضل».

«أعرف أنك انزعجت»، قالت ريبيكا، «وأجدتِ إزعاجي».

تجهّم وجه بوني عندما التفتت إلى ريبيكا وقالت: «في الأسبوع الماضي قلتِ إن فيليب فسّر السبب بأنه لا توجد لديك صديقات. لكنّي

لست مقتنعة بذلك. إن عدم وجود صديقات لديك أو على الأقل لماذا لم نصبح، أنا وأنت، صديقتين مقربتين، ليس بسبب جمالك، وإنما السبب الحقيقي هو أنه ليس لديك أساساً اهتمام بالنساء، أو على الأقل لا يوجد لديك اهتمام بي. وحينما تقولين شيئاً لي في أثناء الجلسات، فإنك تقولينه دائماً لكي تعود المناقشة وتدور عنك».

«سأعطيك فكرة عن الطريقة التي تعالجين بها، أو في الغالب، لا تعالجين ـ الغضب، ثمّ أُتهم بأنني أتمحور حول ذاتي». صمتت ريبيكا ثم أضافت، «أتريدين ذلك أم لا؟ أليس هذا هو سبب اجتماعنا هنا؟».

«ما أريده هو أن تعربي عن رأيك بي أو بالأشخاص الآخرين. كلّ شيء يدور حولك دائماً يا ريبيكا ـ أو حولك وحولي ـ ولأنك جذّابة جداً فإن الحديث يعود إليك باستمرار ويبتعد عني. لا أقوى على منافستك. لكن هذا ليس خطأك فقط، بل لأن الآخرين يساهمون في ذلك، وأريد أن أسألكم سؤالاً».

التفتت بوني وجالت بعينيها بسرعة حول الجميع، فرداً فرداً، وقالت: «لم أحظ باهتمامكم قط ـ لماذا؟».

أطرق الرجال في الغرفة برؤوسهم. لكن بوني لم تنتظر رداً، بل واصلت: «وهناك شيء آخر يا ريبيكا، إن ما أقوله لك عن الصديقات ليس خبراً جديداً بالنسبة لك. فأنا أتذكّر جيداً أن لديك أنتِ وبام أفكاراً متشابهة حول هذا الأمر».

التفتت بوني إلى جوليوس وقالت: «بمناسبة الحديث عن بام، كنتُ أنوي أن أسألك، ما هي أخبارها؟ متى ستعود؟ اشتقتُ إليها».

قال جوليوس «إنك سريعة جداً يا بوني. أنت خير من ينتقل بسرعة من موضوع إلى آخر! لكني سأسمح لك بذلك هذه المرة وسأجيب عن سؤالك عن بام، خاصة لأنني كنت سأعلن لكم أنها أرسلت لي رسالة

بالإيميل من بومباي. لقد أنهت فترة التأمل وستعود قريباً إلى أمريكا. ينبغي أن تكون هنا في جلستنا المقبلة».

ثم التفت جوليوس إلى فيليب وقال: «لا بد أنك تتذكّر أنّني ذكرتُ لك بام، عضوتنا الغائبة؟».

فأجاب فيليب بإيماءة خفيفة.

«وأنت يا فيليب، سيّد الإيماءات السريعة»، قال توني، «من المدهش كيف تبقى في وسط كلّ هذا من دون أن تنظر إلى أحد منّا ولا تتكلم إلّا قليلاً. تنظر إلى ما يجري حولك. بوني وريبيكا تتشاجران من أجلك. ما هو شعورك حول كلّ ما جرى؟ ما هو شعورك عن أعضاء المجموعة؟».

عندما لم يجب فيليب على الفور، بدا الانزعاج على وجه توني. فنظر حوله وقال: «خراء، ما هذا؟ أشعر أنني أكسر قاعدة هنا، كأنني أضرط في الكنيسة. إني أسأله نفس الأسئلة التي يسألها كلّ شخص».

خرج فيليب عن صمته القصير وقال: «حسناً. إني أحتاج إلى وقت لكي أستجمع أفكاري. سأقول لكم ما كنت أفكّر به. لدى بوني وريبيكا مشاكل متشابهة. فلا تستطيع بوني أن تتحمل أنها غير محبوبة، أما ريبيكا فلا تستطيع أن تتحمل أنها لم تعد محبوبة. كلتاهما رهينة لنزوة ما يفكّر به الآخرون. بعبارة أخرى، تكمن السعادة لكلتيهما في أيدي ورؤوس الآخرين. والحلّ واحد لكلّ منهما: *كلما اكتفى المرء بنفسه، قلّ ما يريده من الآخرين*».

في الصمت الذي أعقب ذلك، لم يكد أحد يستطيع سماع أصوات المضغ المخّي في حين كانت المجموعة تحاول هضم كلمات فيليب.

«يبدو أن أحداً لن يرد على فيليب»، قال جوليوس، «لذلك أريد أن أذكر هنا خطأً ارتكبته منذ دقيقتين. بوني، لم يكن ينبغي لي أن أوافقك على كلامك حول بام. لا أريد أن نعيد ما حدث في الأسبوع الماضي عندما لم نتحدث عن احتياجاتك. قبل بضع دقائق كنتِ تتحدّثين عن

السبب الذي جعل المجموعة تتجاهلك في أحيان كثيرة، وظننت أنّك اتخذت خطوة شجاعة عندما سألت كلّ واحد منا لماذا لم تحظي باهتمامهم. لكن انظري ماذا حدث بعد ذلك: ففي النَفَس التالي مباشرة، انتقلت إلى السؤال متى ستعود بام، وبسرعة، بعد دقيقتين، أصبح سؤالك مجرد تاريخ».

«لاحظتُ ذلك أنا أيضاً»، قال ستيوارت، «إذاً يا بوني أنتِ من تجعليننا نتجاهلك».

فهزت بوني رأسها وقالت: «هذا ردّ جيد. جيد جداً. لعلي أفعل ذلك كثيراً. سأفكّر في الأمر».

وتابع جوليوس: «أقدّر الشكر يا بوني، لكنّي أشعر بأنك تفعلين نفس الشيء الآن. ألا تقولين، في الواقع، يكفي التركيز عليّ. يجب أن أحمل جرساً يا بوني وأقرعه كلّما ابتعدتِ عن الحديث عن نفسك».

«ماذا عليّ أن أفعل إذاً؟» سألت بوني.

فاقترح جوليوس، «قولي لنا السبب لأنه لا يوجد لديك الحقّ في طلب ردّ منّا».

«أظن أنني لا أشعر بأنني مهمة بما يكفي».

«لكن هل يُسمح للآخرين هنا بأن يقدموا طلباً كهذا؟».

«نعم».

«هذا يعني أن الأشخاص الآخرين الموجودين هنا هم أهمّ منك؟».

هزت بوني رأسها.

«إذاً بوني، حاولي هذا»، تابع جوليوس، «انظري إلى كلّ واحد هنا وأجيبي عن هذا السؤال: *من في هذه المجموعة أهمّ منك؟ ولماذا؟*»، سمع جوليوس نفسه يموء. إنه يخوض في مياه مألوفة. فللمرة الأولى منذ فترة، بالتأكيد منذ مجيء فيليب إلى المجموعة، كان يعرف ماذا يفعل تماماً. كان يفعل ما يجب أن يفعله أي معالج جيد: فقد ترجم مشكلة

مريضته الأساسية إلى *هنا والآن*، حيث يمكن سبر أغوارها من المصدر الأصلي. إن التركيز على *هنا والآن* مثمر دائماً أكثر من العمل على أن يقوم المريض نفسه بإعادة تركيب حدث من الماضي أو من تيار من خارج الحياة.

أدارت بوني رأسها لتلقي نظرة سريعة على كلّ عضو في المجموعة، وقالت: «الجميع هنا هم أهمّ مني ـ أهمّ بكثير». كان وجهها أحمر، وتنفّسها سريعاً. وبقدر ما كانت تتطلب اهتماماً من الآخرين، كان من الواضح أنها لا تريد الآن شيئاً أكثر من أن تصبح غير مرئية.

«كوني أكثر تحديداً يا بوني»، حثّها جوليوس، «من هو أكثر أهمية. ولماذا؟».

نظرت بوني حولها وقالت: «الجميع هنا. أنت يا جوليوس، انظر كيف ساعدتَ الجميع. ريبيكا فائقة الجمال، ومحامية ناجحة، ولديها أطفال رائعون. وجيل مدير مالي في أحد المستشفيات الكبيرة، فضلاً عن كونه قوي البنية. أما ستيوارت، فهو طبيب نشيط، يساعد الأطفال، ويساعد الآباء، والنجاح مكتوب على جبينه. أما توني...»، هنا توقّفت بوني قليلاً.

«مااااذا؟ سيكون هذا أمراً مثيراً للاهتمام». استقام توني الذي كان يرتدي كالمعتاد بنطلون جينز أزرق، وفانيلة سوداء، وحذاء رياضياً عليه بقع طلاء، في جلسته.

«قبل كل شيء يا توني، أنت كما هو أنت، لا ادعاءات، لا ألعاب، صادق بنقاء. ولا تتحدث بافتخار عن مهنتك، لكنّي أعرف أنك لست نجاراً عادياً، وإنما فنان في عملك، وأرى أمامي سيارة البي إم دبليو المكشوفة التي تقودها تنطلق بسرعة. وأنت قوي البنية أيضاً، تعجبني عندما ترتدي فانيلة ضيّقة». نظرت بوني حولها إلى دائرة المجموعة، ثم أضافت، «ومَن أيضاً؟ فيليب، أنت تتمتع بذكاء خارق. إنك تعرف كلّ

شيء، أستاذ جامعي، ستصبح معالجاً نفسياً، كلماتك تخلب لب الجميع. وبام؟ بام رائعة، أستاذة جامعية، تتمتع بروح حرة. تلفت الانتباه بقوة؛ سافرت إلى كل مكان، وهي تعرف الجميع، وتقرأ كلّ شيء، وتواجه الجميع».

«هل لدى أحد تعليق على تفسير بوني لماذا تعتبر نفسها أقل شأناً منكم جميعاً؟» جالت عينا جوليوس حول أعضاء المجموعة.

«لا يبدو جوابها معقولاً بالنسبة لي»، قال جيل.

«هل يمكنك أن تقول لها ذلك؟» قال جوليوس.

«آسف، إن ما أقصده ـ لا أريد الإساءة ـ لكن بوني، يبدو أن ردّك انكفائي...».

«انكفائي؟» رفعت بوني وجهها مرتبكة.

«حسناً، إن ما يتعلق بهذه المجموعة هو أننا كلّنا بشر نحاول التواصل مع أحدنا الآخر بطريقة إنسانية، وأن نترك وظائفنا وشهاداتنا ونقودنا وسياراتنا البي إم دبليو المكشوفة عند الباب».

«صحيح»، قال جوليوس.

«صحيح»، ردد توني ثم أضاف، «أنا أتفق مع جيل، وللعلم فقط، فقد اشتريتُ هذه السيارة مستعملة وقد أرهقتني بالديون لسنوات ثلاث».

وتابع جيل قائلاً: «بوني، في جولتك تلك، فإن ما فعلته هو أنك لم تركّزي إلّا على الأشياء الخارجية، المهنة، المال، الأطفال الناجيون. ولا علاقة لكل هذا بالسبب الذي يجعلك تشعرين بأنك أقلّ الأشخاص أهمية في هذه الغرفة. فأنا أعتبرك مهمة جداً. إنك شخص أساسي بيننا. وتتواصلين معنا جميعاً. إنك ودودة، معطاءة، حتى إنك عرضتِ عليّ غرفة لأنام فيها منذ أسبوعين عندما لم أرغب في العودة إلى بيتي. وتجعلين المجموعة مركّزة باستمرار، وتعملين بهمّة وحيوية».

فقالت بوني: «أنا امرأة مملّة. أمضيت حياتي وأنا أخجل من والديّ المدمنين على الكحول، وكنت أضطر دائماً إلى الكذب حول أسرتي. كانت دعوتي لك يا جيل حدثاً كبيراً بالنسبة لي، لم أستطع قط أن أدعو أحداً إلى البيت لأنني كنت أخاف كثيراً أن يظهر أبي وهو سكران. والأكثر من ذلك، كان طليقي يسكر، وابنتي مدمنة على الهيروين...».

فقال جوليوس: «ما زلت تتهربين من النقطة الأساسية يا بوني. إنك تتحدثين عن ماضيك، عن ابنتك، عن طليقك، عن أسرتك، أما أنتِ، أين أنتِ؟».

«أنا هذه الأشياء، مجموعة من كلّ هذه الأشياء. أي شيء آخر يمكن أن أكون؟ أمينة مكتبة بدينة تبعث على الملل، وكلّ ما أفعله هو أنني أقوم بفهرسة الكتب وتبويبها... أنا... لا أعرف ماذا تقصد. أنا مشوشة، لا أعرف أين أنا أو من أنا»، وأجهشت بوني بالبكاء، فسحبت منديلاً ورقياً، تمخطّت فيه بصوت مسموع، وأغمضت عينيها، ثم رفعت كلتا يديها ورسمت دوائر في الهواء، وبين شهقاتها، دمدمت، «يكفي هذا، فلم أعد أحتمل أكثر من ذلك اليوم».

غيّر جوليوس الموضوع وانتقل إلى مرحلة أخرى، وخاطب الجميع وقال: «لنلق نظرة على ما حدث في الدقائق القليلة الماضية. من لديه بعض المشاعر أو الملاحظات؟»، بعد أن نجح في نقل المجموعة إلى *هنا والآن*، تقدّم إلى الخطوة التالية. فهو يرى أن العمل في العلاج يتكون من مرحلتين: الأولى، ردة الفعل التي غالباً ما تكون عاطفية، والثانية، فهم ردة الفعل هذه. هكذا ينبغي أن يسير العلاج؛ سلسلة متناوبة من استثارة العواطف ثم فهمها. لذلك حاول الآن أن ينقل المجموعة إلى المرحلة الثانية بالقول «لنرجع قليلاً ونلق نظرة محايدة على ما حدث فقط».

همّ ستيوارت ليصف سلسلة الأحداث عندما قاطعته ريبيكا وقالت: «أظن أن الشيء المهم أن بوني عرضت الأسباب التي تجعلها تشعر بأنها

غير مهمة، ثم افترضت بأنّنا كلنا سنوافق. عندها اضطربت وبكت وقالت إن هذا يكفي؛ لاحظت أنها فعلت ذلك قبل الآن».

ثم قال توني: «نعم، أوافق. بوني، إنك تنفعلين عندما تصبحين مركز الاهتمام. هل تشعرين بالحرج عندما تصبحين في دائرة الضوء؟».

فقالت بوني وهي لا تزال تنشج: «كان عليّ أن أقدّر أكثر، لكن انظروا إلى ما أحدثته من فوضى. وانظروا كيف أن الآخرين استخدموا الوقت على نحو أفضل».

«ذات يوم»، قال جوليوس، «كنت أتحدّث مع زميل لي عن إحدى مريضاته، وقال إن لها عادة أن تتلقف الرماح التي تُلقى عليها ثم تطعن نفسها بها. لعلي أتحدّث بصورة عامة هنا يا بوني، لكن خطر لي ذلك عندما رأيت كيف تتلقفين الأشياء وتعاقبين نفسك بها».

«أعرف أنكم متضايقون مني. أظن أنني ما أزال لا أعرف كيف أستفيد من المجموعة».

«حسناً، تعرفين ما سأقوله يا بوني. تماماً مَن يشعر بالضيق هنا؟ انظري حولك في الغرفة». كان بإمكان الجميع أن يعتمدوا على جوليوس كلية لطرح هذا السؤال. فليس من المعروف أنه يدع عبارة كهذه تمرّ من دون التركيز عليها وطلب أسماء.

«حسن، أظن أن ريبيكا تريدني أن أتوقّف».

«ماااذا؟ لماذا سا...».

«توقفي دقيقة يا ريبيكا»، كان جوليوس مباشراً اليوم على غير عادته، «بوني، ماذا رأيت بالتحديد؟ ما هي الإشارات التي التقطتها؟».

«عن ريبيكا؟ حسناً، كانت صامتة. لم تنبس بكلمة».

«لا أستطيع أن أربح. بذلت كلّ ما بوسعي لأظل صامتة لكي لا تتهمني بأنني أحوّل الاهتمام عنك. ألا تستطيعين تمييز الهدية؟».

كانت بوني على وشك أن تردّ عندما طلب منها جوليوس أن تتابع كلامها لتحدّد من الذي يشعر بالملل.

«حسناً، لا أستطيع أن أحدّد بوضوح. لكنّك تستطيع أن تعرف متى يشعر الناس بالملل. أنا أُضجر نفسي. لم يكن فيليب ينظر إليّ، لكنه لا ينظر إلى أحد. أعرف أن الجميع ينتظرون سماع ما سيقوله فيليب. فما قاله عن الشعبية أهم بكثير من تأففي بالنسبة للمجموعة».

فأجاب توني، «لم أضجر منك، ولم أر أحداً آخر ضجر منك أيضاً. وما كان فيليب سيقوله لم يكن أكثر أهمية. فهو لا يزال يظن أن تعليقاته لا تثير اهتمامي، بل حتى إنني لا أتذكّرها».

فقال ستيوارت: «أتذكّرها»، ثم أضاف، «توني، بعد أن علّقت كيف أنه يوجد دائماً في مركز الاهتمام مع أنه لا يقول إلّا النزر اليسير، فقد قال إن بوني وريبيكا تعانيان من نفس المشكلة. فهما تهتمان كثيراً بآراء الآخرين: ريبيكا تزهو بنفسها كثيراً وبوني تنكمش على نفسها كثيراً ـ قال شيئاً من هذا القبيل».

«ها بدأت تصبح مشرفاً ثانية»، قال توني، مقلداً حركات كأنه يحمل كاميرا ويلتقط صوراً.

«صحيح. لأكن صادقاً. أعرف، أعرف، ملاحظات أقل، مشاعر أكثر. أنا أوافق على أن فيليب شخص مركزي ولا يحتاج إلى أن يقول الكثير. ويبدو أن مواجهة فيليب في أيّ شيء كأنه كسر للقواعد».

«هذه ملاحظة ورأي يا ستيوارت»، قال جوليوس، «هل يمكنك أن تنتقل إلى المشاعر؟».

«أظن أنّني أشعر بشيء من الحسد لأن ريبيكا تبدي اهتماماً كبيراً بفيليب. من الغريب أن أحداً لم يسأل فيليب عن هذا الأمر ـ لكن هذا ليس مجرد شعور، أليس كذلك؟».

«اقترب أكثر»، قال جوليوس، «ابن عم الشعور. هيا تابع كلامك».

«أشعر بأنني مهدد من فيليب. فهو وسيم وذكي جداً، وأشعر أيضاً بأنه يتجاهلني، وأنا لا أحبّ أن يتجاهلني أحد».

فقال جوليوس: «ممتاز، يا ستيوارت، بدأت تقترب من صلب الموضوع»، ثم أضاف، «هل تريد أن تسأل فيليب شيئاً؟» حاول جوليوس أن يبقي نبرة صوته هادئة ورقيقة، لأن مهمته تتمثّل في مساعدة جميع أعضاء المجموعة، لا أن يهدّد ويقصي فيليب بالإصرار على أنه يتصرف بأسلوب غير محتمل. لذلك توجّه إلى ستيوارت لا إلى توني الأكثر مجابهة».

«بالتأكيد، لكن يصعب طرح أسئلة على فيليب».

«إنه هنا يا ستيوارت»، قاعدة أخرى من قواعد جوليوس الأساسية: عدم السماح بأن يتكلّم أعضاء المجموعة عن أحدهم الآخر بصيغة الشخص الثالث.

«هنا تكمن المسألة. من الصعب التكلّم معه...» والتفت ستيوارت إلى فيليب وقال: «أقصد فيليب، من الصعب التكلّم معك لأنك لا تنظر إليّ أبداً كما تفعل الآن. لماذا تفعل ذلك؟».

«أفضّل أن أحتفظ برأيي»، قال فيليب، وهو لا يزال يحدّق نحو السقف.

كان جوليوس مستعداً للتدخل في المناقشة إذا دعت الضرورة، لكن ستيوارت ظل صبوراً.

«لم أفهم».

«إذا طلبت مني شيئاً، فإني أريد أن أبحث داخل نفسي، وأركّز لأعطيك أفضل جواب ممكن».

«لكن عدم نظرك إليّ يجعلني أشعر بأنّنا لسنا على تواصل».

«لكن يجب أن تخبرك كلماتي بعكس ذلك».

«وماذا عن المشي وعلك علكة؟» تدخل توني.

«عفواً؟» قال فيليب مرتبكاً، وأدار رأسه لكن ليس عينيه نحو توني.

«مثل، ماذا عن القيام بهذين العملين في الوقت نفسه، أن تنظر إليه وتجيبه جواباً جيداً؟».

«أفضّل أن أفتّش في عقلي. إن التقاء عيني بعينيّ الآخرين يشتت انتباهي في البحث عن الجواب الذي قد يرغب الآخر بسماعه».

ساد صمت بينما تمعّن توني والآخرون في ردّ فيليب. ثم طرح ستيوارت سؤالاً آخر: «دعني أسألك يا فيليب، كلّ هذه المناقشة حول تبرجّ ريبيكا وتجمّلها من أجلك، كيف جعلك ذلك تشعر؟».

«أتعرف»، أظهرت عينا ريبيكا اتقاداً، «بدأت *حقاً* أكره ذلك يا ستيوارت... كما لو أن مُخَيّلة بوني قد انتقلت الآن إلى الكتب وأصبحت مثل إنجيل».

رفض ستيوارت تحويل سير المناقشة وقال: «حسناً، حسناً. *احذف* هذا السؤال. فيليب سأسألك هذا السؤال: ما هو شعورك بالمناقشة التي دارت عنك في الجلسة الأخيرة؟».

«كانت المناقشة مهمة جداً، وكنت شديد الانتباه». نظر فيليب إلى ستيوارت وواصل كلامه، «لكن لا توجد لديّ ردود عاطفية إذا كان هذا سؤالك».

«لا؟ لا يبدو هذا ممكناً»، أجاب ستيوارت.

«قبل أن نبدأ جلسات المجموعة قرأتُ كتاب جوليوس عن العلاج الجماعي وكنت مستعداً لما سيحدث في هذه الجلسات بشكل جيد. كنت أتوقع أن تحدث بعض الأشياء، مثل أن أكون شخصاً يثير الفضول، وأن البعض سيرحبون بي ولن يرحبّ البعض الآخر بي، وأن تراتبية السلطة التي ترسخّت لدى أعضاء في المجموعة ستتزعزع عند دخولي، وأن تنظر النساء إليّ باستحسان وألّا ينظرن بنفس الطريقة إلى باقي الرجال، وأن يشعر الأعضاء الأساسيون بالاستياء بسبب حضوري

في حين سيقوم الأشخاص الأقل تأثيراً بحمايتي. إن توقّع هذه الأمور جعلني أنظر إلى الأشياء التي تجري في المجموعة بحيادية».

ذُهل ستيوارت، كما ذُهل توني قبله من ردّ فيليب ولاذ بالصمت بينما راح يهضم كلمات فيليب.

فقال جوليوس: «لدي مشكلة صغيرة...»، انتظر لحظة، ثم أردف قائلاً، «فمن ناحية، أشعر بأهمية متابعة هذه المناقشة مع فيليب، لكني قلق أيضاً بشأن ريبيكا. أين أنت يا ريبيكا؟ تبدين مكتئبة، وأنا أعرف أنك تحاولين أن تشاركي في الحديث».

«أشعر بأنني مكدومة، مُستبعدة، متجاهَلة قليلاً اليوم من قبل بوني وستيوارت».

«تابعي».

«هناك أشياء سلبية كثيرة تعترض طريقي - وهي أنني أركّز دائماً على نفسي، ولست مهتمة بالصديقات، وأنني أتبرج وأتأنق من أجل فيليب. هذا شيء مزعج، وأنا أكره ذلك».

فقال جوليوس: «أعرف ماذا يعني ذلك. فلديّ نفس ردود الأفعال تجاه الانتقاد. لكن دعيني أخبرك بما تعلمت أن أفعله. تكمن الحيلة الحقيقية في أن تعتبري هذه التعليقات هدية، لكن يجب أن تقرّري أولاً هل هي دقيقة. إن الطريقة التي أفعلها هي أن أتفحّص نفسي وأسأل هل تتوافق مع تجربتي حول نفسي. هل يبدو أيّ جزء، أي شيء، حتى خمسة في المائة، حقيقياً؟ أحاول أن أتذكّر هل أبدى لي الناس في الماضي هذا التعليق، وأفكّر في الأشخاص الآخرين الذين يمكنني أن أعرف منهم ذلك. وأتساءل هل يستطيع أحد الاقتراب من إحدى نقاطي غير المرئية، شيء يرونه هم لكنّي لا أراه أنا. هل تستطيعين أن تجربي ذلك؟».

«هذا ليس بالأمر السهل يا جوليوس. أشعر بالضيق إزاء ذلك»، ووضعت ريبيكا يدها على عظم صدرها، وقالت «هنا تماماً».

«أعطي هذا الضيق صوتاً. ماذا يقول؟».

«إنه يقول، «كيف سأبدو؟» يا للعيب. لقد أُكتشف. هذا الشيء عندما يلاحظ الناس أنني أعبث بشعري. يجعلني أشعر بالضعف، يجعلني أريد أن أقول، «لا علاقة لكم بذلك ـ إنه شعري أنا ـ وسأفعل به ما أريد»».

فأجاب جوليوس بصوت الأستاذ، «قبل سنوات كان هناك معالج اسمه فريتز بيرلس أنشأ مدرسة تدعى العلاج الغِشْتالْتِي. إنكم لا تسمعون عنه كثيراً في أيامنا هذه، لكنه ركّز كثيراً على الجسد ـ كما تعرفون، «انظر ماذا تفعل يدك اليسرى الآن» أو «أرى أنك تمسّد لحيتك كثيراً»: وكان يطلب من المرضى أن يبالغوا في الحركة: «شدّ قبضتك بيدك اليسرى»، أو «استمر في تمسيد لحيتك بقوة أكبر وأكبر وابق مدركاً ماذا يمكن أن يستدعي ذلك».

«أشعر دائماً بأن طريقة بيرلس تنطوي على أهمية كبيرة لأنه يتم التعبير عن جزء كبير من عقلنا الباطن من خلال حركات الجسد الكامنة خارج وعينا. لكنّي لم أستفد منها كثيراً في العلاج. السبب؟ تماماً بسبب ما يحدث الآن يا ريبيكا. ففي غالب الأحيان نأخذ موقع الدفاع عندما يكتشف آخرون أننا نفعل أشياء لا ندركها نحن. لذلك فإني أفهم عدم شعورك بالارتياح، لكن مع ذلك، هل يمكنك أن تحتملي ذلك وتحاولي أن تعرفي إن كانت هناك قيمة في هذه التعليقات؟».

«بعبارة أخرى، إنك تقول *كوني ناضجة*، سأحاول». انتصبت ريبيكا في جلستها، وأخذت نَفَساً عميقاً، وبأسلوب حازم قالت: «أولاً، صحيح أنني أحبّ أن أسترعي انتباه الآخرين، وقد جئت للعلاج أصلاً لأنني بدأت أشعر بالقلق لأنني بدأت أتقدّم في العمر ولأن الرجال لم يعودوا يحدّقون بي. لذلك، لعلي أحاول أن ألفت انتباه فيليب، لكن

ذلك لم يكن شعورياً»، ثم عادت ونظرت إلى الآخرين، وأضافت، «أعترف بأنني أحبّ أن يبدي الآخرون إعجابهم بي. أحبّ أن أُحَبّ وأُعشق، أحبّ الحبّ».

فقاطعها فيليب «ذكر أفلاطون أن الحبّ يقبع في المحبّ، لا في المحبوب؟».

«يقبع في المحبّ، لا في *المحبوب*، هذا اقتباس عظيم يا فيليب»، قالت ريبيكا مبدية ابتسامة، «أتعرف، هذا ما أحبّه فيك. تعليقات كهذه. إنها تفتح عينيّ. أجد أنك مثير للاهتمام، وجذّاب أيضاً».

والتفتت ريبيكا إلى الآخرين وقالت: «هل هذا يعني أنني أريد أن أقيم علاقة معه؟ لا! فقد كادت آخر علاقة عاطفية لي أن تدّمر حياتي الزوجية، وأنا لا أبحث عن مشاكل أخرى».

قال توني: «إذاً فيليب، هل لديك مشاعر حول ما قالته ريبيكا للتو؟».

«قلتُ قبل الآن إن هدفي في الحياة يكمن في أنني أريد أقلّ ما يمكن، وأن أعرف أكبر قدر ممكن. الحبّ، العاطفة، الإغراء ـ هذه كلها مشاعر قويّة، جزء من رغبتنا القوية لإدامة نوعنا، وكما أوضحت ريبيكا، فإن هذه المشاعر قد تعمل باللاشعور. لكن، بصورة عامة، فإن هذه النشاطات تبعدني عن مساعيّ العلمية وتتدخّل فيها، ولا أريد أن أفعل ذلك».

فقال توني: «كلما سألتك شيئاً، تجيبني جواباً تصعب مناقشته. لكنك لم تجب قط عن سؤالي».

فقالت ريبيكا: «أظن أنه أجاب عن سؤالك. فقد أوضح بأنه لا يريد أن يتورط في أيّ علاقة عاطفية وأنه يرغب في أن يظلّ حرّاً، خالي البال. أظن أن جوليوس أثار النقطة نفسها ـ لذلك، فهو يمنع إقامة علاقات رومانسية بين أعضاء المجموعة».

«أيّ تحريم؟» قال توني لجوليوس. «لم أسمع أحداً يذكر هذه القاعدة».

«لم أصغها هكذا. القاعدة الأساسية الوحيدة التي سمعتها منّي حول العلاقات التي تقام خارج الجلسات هي ألّا تكون هناك أسرار، وإذا جرت أيّ لقاءات، مهما كانت، خارج جلسات المجموعة، فعلى الأعضاء المعنيين أن يتحدّثوا عنها أمام جميع أعضاء المجموعة. وإذا لم تفعلوا ذلك، وأبقيتم الأمر سرّاً، فإنه دائماً يشوّش عمل المجموعة ويهدم علاجكم. هذه هي قاعدتي الوحيدة عن اللقاءات خارج الجلسات. لكن، ريبيكا، لا تدعينا نفقد خيط ما يجري بينك وبين بوني. دققي في مشاعرك حولها».

«لقد أزلت حملاً ثقيلاً. هل صحيح أنني لا أشعر بالألفة مع النساء؟ أريد أن أقول لا. فهناك أختي ـ وأنا قريبة منها كثيراً ـ وهناك محاميتان تعملان في مكتبي، لكن بوني، لعلك وضعت إصبعك على أمر مهم، فمن المؤكد أنني أشعر بإثارة أكبر، بشحن عاطفي أكبر تجاه الرجال».

فقالت بوني: «أتذكّر الجامعة وكيف أنه لم يكن لديّ الكثير من الأصدقاء أخرج معهم، وكيف كنت أشعر بأنني منبوذة عندما لم تكن صديقة تفكّر بشيء سوى أن تلغي موعدها معي في الدقيقة الأخيرة، إذا تلقت دعوة من شاب».

فقالت ريبيكا: «نعم، قد أكون فعلت ذلك. أنت محقّة ـ كان الرجال والمواعيد وكلّ ما يتعلق بذلك شيئاً مهماً بالنسبة لي آنذاك، أما الآن فلم يعد مهماً».

كان توني لا يزال يدرس فيليب، وتوجّه إليه ثانية، وقال: «فيليب، أتعرف أنك تشبه ريبيكا بشكل ما. إنك تتأنق أيضاً، لكنّك تفعل ذلك بشعارات نزقة».

فقال فيليب وعيناه مغمضتان في تركيز عميق، «أظن أن ما تقصده هو أنني عندما أبدي ملاحظات فإن دافعي لا يكون كما يبدو في الحقيقة: بل يبدو أنه ناجم عن شعور بالأنانية، شكل من التأنق أحاول من خلاله إن كنت قد فهمت قصدك، أن أجذب انتباه وإعجاب ريبيكا وآخريات. صحيح؟».

أحسّ جوليوس بالتوتر. فمهما فعل، يظلّ التركيز يعود إلى فيليب. على الأقل كانت هناك ثلاث رغبات متضاربة تتصارع لجذب انتباهه: الأولى، حماية فيليب من مواجهة مباشرة قوية، والثانية، الحيلولة دون أن تنحرف موضوعية فيليب عن هذا الكلام الودي؛ والثالثة، تشجيع توني على جهوده الرامية إلى توجيه ضربة إلى فيليب. لكنه، بصورة عامة، قرّر ألّا يتدخل في هذه اللحظة لأنهم يعالجون الأمر بأنفسهم. في الحقيقة، لقد حدث شيء مهم للتو: فللمرة الأولى ردّ فيليب بشكل مباشر، حتى شخصياً، لأحدهم.

أومأ توني وقال: «هذا ما قصدته ما عدا أنه قد يكون أكثر من مجرد اهتمام أو إعجاب. محاولة الإغراء».

«نعم، هذا تصحيح جيد. فهو وارد ضمناً في كلمتك *التأنق* لذلك فإنك توحي في كلامك بأن دافعي يوازي دافع ريبيكا، أي أنني أرغب في إغوائها. حسناً، هذه فرضية جوهرية ومنطقية. لنر كيف نختبرها».

ساد صمت. لم يجب أحد، لكن بدا أن فيليب لم يكن ينتظر رداً. وبعد لحظة من التفكير، وعيناه مغمضتان قال: «قد يكون من الأفضل اتباع إجراء الدكتور هيرتزفيلد...».

«ناديني جوليوس».

«آه، نعم. إذاً، بغية اتباع إجراء جوليوس، يجب أن أدقّق أولاً هل أن فرضية توني تتوافق مع تجربتي الداخلية». صمت فيليب قليلاً، وهزّ

رأسه، ثم أردف، «لا أجد دليلاً على هذا. فمنذ سنوات عديدة، حررّت نفسي من الارتباط بالرأي العام. أعتقد جازماً بأنّ أسعد الرجال هم الذين لا يسعون إلى شيء أكثر من العزلة. إني أتحدّث عن المقدس شوبنهاور ونيتشه وكانط. إذ إن فكرتهم وفكرتي تتمثل في أن الإنسان الذي يمتلك ثروة داخلية لا يريد من الخارج سوى الهدية السلبية لفترة راحة هادئة تسمح له بأن يتمتّع بثروته ـ أي ملكاته الفكرية».

«باختصار، إذاً أستنتج بأن مساهماتي لا تنبع من محاولة إغواء أحد أو إعلاء شأني في نظركم. قد تكون بقايا من هذه الرغبة لا تزال موجودة. وأستطيع أن أقول إنني لا أدركها شعورياً. أعرف أنني أتأسف لأنني تعلّمت الأفكار العظيمة فقط، لكني لم أساهم في صنعها».

خلال فترة ممارسته العلاج الجماعي على مدى عقود، مارس جوليوس فترات كثيرة من الصمت، لكن الصمت الذي أعقب ردّ فيليب لم يكن يشبه أيّ صمت آخر. فلم يكن الصمت الذي يصحب عاطفة جياشة أو الصمت الذي يدلّ على الانصياع، أو الحرج، أو التردد. لا، كان هذا الصمت مختلفاً كما لو أن المجموعة قد صادفت نوعاً جديداً، شكلاً من أشكال حياة جديدة، ربما حيوان السمندل الذي له ستّ عيون وأجنحة من ريش، وبأقصى درجات الحذر، أحاط بها ببطء.

ريبيكا أول من ردّت، وقالت: «لكي تكون راضياً تماماً، يجب أن تحتاج إلى القليل جداً من الآخرين ـ وهذا يعني أن تكون وحيداً يا فيليب».

فقال فيليب: «بالعكس، ففي الماضي، عندما كنت أتوق إلى صحبة الآخرين، كنت أسأل عن شيء لم يتمكنوا من تقديمه لي ـ آنذاك عرفت الوحدة. عرفتها جيداً. ألّا تكون بحاجة إلى أحد لا يعني أن تكون وحيداً. إن ما أسعى إليه هو العزلة المباركة».

«ومع ذلك فأنت هنا»، قال ستيوارت، «وخذها مني، إن هذه المجموعة هي العدو اللدود للعزلة. فلماذا تعرّض نفسك لها؟».

«يجب على كلّ مفكّر أن يدعم عاداته. سواء أكانوا محظوظين بما يكفي لأنهم يتقاضون راتباً من الجامعة مثل كانط أو هيغل، أم أن تتوفر لهم سبل عيش مستقلة مثل شوبنهاور أم أن يكون لهم عمل في النهار مثل سبينوزا الذي كان يركّب عدسات على النظارات لإعالة نفسه. لقد اخترت الاستشارة الفلسفية كمهنة يومية لي، وإن تجربة المجموعة هذه جزء من خبرتي للحصول على الشهادة».

فقال ستيوارت: «إذاً هذا يعني أنك تشاركنا في هذه المجموعة، لكن هدفك النهائي هو مساعدة الآخرين لكي لا يحتاجوا إلى مثل هذه المشاركة».

صمت فيليب ثم هزّ رأسه.

قال توني: «دعني أكون متأكّداً من أنني فهمتك جيداً. إذا كانت ريبيكا تحاول التقرّب منك، أن تُظهر لك مفاتنها، وأن تمنحك ابتسامتها القاتلة الرائعة، ألم يكن لكل هذا تأثير عليك؟ صفر؟».

«لا، لم أقل «لا يوجد أي تأثير». وأنا أتفق مع شوبنهاور عندما كتب أن الجمال هو رسالة توصية مفتوحة تهيّئ القلب لتفضيل الشخص الذي يعرضه. إني أرى أن الشخص الرائع الجمال هو بهجة للنظر. لكني أقول أيضاً بأنّ رأي شخص آخر عني، يجب ألّا يغيّر رأيي عن نفسي».

«يبدو هذا ميكانيكياً، وليس إنسانياً تماماً»، أجاب توني.

«إن ما يبدو إنسانياً حقاً هو عندما سمحتُ لتقديري لقيمتي أن تصعد وتهبط مثل فلينة حسب الاعتبار الذي يتدفّق من أشخاص آخرين لا قيمة لهم».

حدّق جوليوس في شفتي فيليب. ما أجملهما. إلى أي حدّ تعكسان

تصرف فيليب الهادئ، كم هما صامدتان، مرتعشتان، عندما تشكّلان كلّ كلمة تخرج بنفس كمال استدارة النبرة والنغمة. ومن السهل التعاطف مع رغبة توني المتزايدة لإزعاج فيليب. لكنه، كان يعرف مدى انفعال توني، قرّر جوليوس أن الأوان قد حان لتحويل المناقشة إلى مستوى أخفّ وطأة. فليس هذا هو الوقت المناسب لمواجهة فيليب، فليست هذه إلّا رابع جلسة يحضرها.

«فيليب، في تعليقاتك السابقة لبوني قلت إن هدفك أن تساعدها. وقد قدمت نصائح إلى أشخاص آخرين هنا؛ جيل وريبيكا. هل يمكنك أن تحدّثنا أكثر لماذا تفعل ذلك! يبدو لي أن هناك شيئاً يكمن في رغبتك في تقديم نصح يتجاوز العمل اليومي. فلا يوجد حافز مالي لقاء مساعدتك الآخرين هنا».

«أحاول دائماً أن أفكّر في أننا جميعنا محكومون بأن نعيش في وجود مليء بالتعاسة المحتومة؛ وجود لا يختاره أحد منّا إذا عرفنا الحقائق سلفاً. وبذلك، فإننا جميعاً، كما قال شوبنهاور، *إخوة في المعاناة*، ونحتاج إلى التسامح والحبّ من جيراننا في الحياة.».

«شوبنهاور مرة أخرى! يا فيليب، إني أسمع الكثير عن شوبنهاور ـ أياً كان ـ وأسمع القليل جداً عنك». تكلّم توني بهدوء، كما لو كان يقلّد نبرة فيليب المتأنية، لكن تنفّسه كان ضحلاً وسريعاً. بصورة عامة، جاءت المواجهة بسهولة إلى توني، مع أنه لم يكد يبدأ العلاج منذ أسبوع من دون أي اشتباك بدني في حانة، أو أثناء المرور، أو في العمل، أو في ملعب كرة السلة. ومع أنه لم يكن رجلاً ضخم الجثة، فقد كان جريئاً في المواجهة، إلّا في حالة واحدة ـ مجموعة من الأفكار يطلقها شخص متنمّر متعلّم، شخص يشبه فيليب تماماً.

لم يبد فيليب أي إشارة إلى أنه ينوي الردّ على توني. فكسر جوليوس

الصمت، وقال: «توني، يبدو أنك مستغرق في التفكير. ما الذي يدور في عقلك؟».

«كنت أفكّر في ما قالته بوني في بداية الاجتماع عن افتقادها لبام. أنا أيضاً أفتقدها اليوم».

لم يفاجأ جوليوس. فقد أصبح توني معتاداً على رعاية بام وحمايتها له. فقد علق كلاهما في علاقة زوجية غريبة ـ أستاذة لغة إنكليزية والبدائي ذو الوشم ـ مستخدماً نهجاً غير مباشر، قال جوليوس: «توني، أتخيّل أنه ليس من السهل عليك أن تقول، *«شوبنهاور، أياً كان»*».

فردّ توني، «إننا هنا لنقول الحقيقة».

«صحيح يا توني»، قالت جيل، «وسأعترف أنا أيضاً: فأنا لا أعرف من هو شوبنهاور».

وقال ستيوارت: «كلّ ما أعرفه هو أنه فيلسوف مشهور. ألماني، متشائم. هل كان يعيش في القرن التاسع عشر؟».

«نعم، مات في عام ١٨٦٠ في فرانكفورت»، قال فيليب، «وأما بالنسبة إلى التشاؤم، فإني أفضّل أن اعتبره واقعياً. وقد يكون توني محقاً بأنني أتحدّث عن شوبنهاور كثيراً، لكن لديّ سبب وجيه في ذلك». بدا توني مصدوماً لأنّ فيليب خاطبه شخصياً. ومع ذلك، لم يكن فيليب يجري أي تواصل بالنظر. فلم يعد يحدّق في السقف، بل أخذ ينظر خارج النافذة، كما لو كان مفتوناً بشيء ما في الحديقة.

وواصل فيليب كلامه، «أولاً، إن معرفة شوبنهاور تعني معرفتي. إننا متلازمان، لنا عقل توأم. وثانياً، فهو معالجي وقد قدّم لي مساعدة ثمينة. لقد تقمصته ـ بالطبع أقصد أفكاره ـ كما فعل العديد منكم مع الدكتور هيرتزفيلد. انتظروا ـ أقصد جوليوس». ابتسم فيليب ابتسامة خفيفة ونظر إلى جوليوس ـ هذه أول دعابة له في المجموعة، «وأخيراً، يحدوني الأمل بأن تفيدكم مشاعر شوبنهاور كما أفادتني».

خرج جوليوس الذي نظر إلى ساعة يده عن الصمت الذي أعقب ملاحظة فيليب، وقال: «كانت جلسة ثرية، من تلك الجلسات التي أكره أن أنهيها، لكن الوقت انتهى اليوم».

«ثرية؟ ماذا أفتقد هنا؟» همس توني، عندما نهض واقفاً وسار نحو الباب.

يعزى جزء من المرح والبهجة في شبابنا
إلى الواقع بأننا نتسلّق هضبة الحياة
ولا نرى الموت القابع عند السفح في الجانب الآخر.

٢٠

نُذر التشاؤم

في وقت مبكّر من تدريبهم، يتعلّم المعالجون النفسانيون التركيز على أن يتحمّل المرضى مسؤولية المعضلات التي تجري في حياتهم. ولا يتقبّل المعالجون ذوو الخبرة أبداً روايات مرضاهم عن سوء معاملتهم بواسطة الآخرين من دون تمحيص لأن المعالجين يدركون أن الأشخاص يساهمون إلى حدّ ما في خلق محيطهم الاجتماعي، وأن العلاقات تكون متبادلة باستمرار. لكن ماذا عن العلاقة بين الشاب آرثر شوبنهاور ووالديه؟ لا بد أن طبيعة تلك العلاقة كان قد حدّدها، بصورة رئيسية، يوهنا وهاينرش اللذان أنجبا آرثر وشكّلا شخصيته، واللذان كانا، بالرغم من كل شيء، شخصين بالغين.

لكن لا يمكن تجاهل مساهمة آرثر نفسه أيضاً: فقد كان هناك شيء رئيسي، متأصل، عنيد في مزاج آرثر الذي كان، حتى عندما كان طفلاً، ينتزع ردوداً معينة من يوهنا ومن الآخرين. ولم تكن الأسئلة التي يسألها آرثر تلهم عادة إجابات تشي بالحب والبهجة، بل كان الجميع تقريباً يجيبونه بأسلوب انتقادي ودفاعي.

لعل هذا المزاج قد ترسّخ خلال فترة حمل يوهنا العاصفة، أو أن صفة وراثية قد أدت الدور الأساسي في نمو آرثر. إذ يعجّ نسب شوبنهاور بدلائل تشير إلى وجود اضطرابات نفسية. فقبل سنوات عدّة من انتحاره، أصيب والد آرثر باكتئاب مزمن، وكان عنيداً، قلقاً، غير قادر على التمتّع بالحياة. وكانت أمّ والده امرأة عنيفة، غير مستقرة، وأُدخلت إلى المصحة في نهاية الأمر. ومن بين إخوة والده الثلاثة، ولد أحدهم ولديه إعاقة شديدة، ومات آخر، بحسب أحد كتّاب السير، وهو في الرابعة والثلاثين من العمر «نصف مجنون بسبب معاقرته الخمرة بإفراط في إحدى الحانات مع حفنة من الأشرار».

واستمرت شخصية آرثر التي تحدّدت في سن مبكّرة، بثبات ملحوظ طوال حياته. وتضم الرسائل التي أرسلها والداه إلى آرثر المراهق فقرات عديدة تشير إلى قلقهما المتزايد لعدم اهتمامه بإقامة علاقات اجتماعية: فقد كتبت أمّه مثلاً، «... مع أنني لا أهتمّ كثيراً بآداب السلوك الصارمة، فإني لا أحبّ أيضاً الطبيعة والسلوك الفظين، والاستمتاع الذاتي... لديك أكثر من ميل طفيف في هذا المنحى»، وكتب والده، «كم كنت أتمنّى أن تكون قد تعلّمت أن تجعل نفسك مقبولاً لدى الناس».

وتكشف مفكرة سفر آرثر الصغيرة عن الرجل الذي سيصير إليه. إذ يُظهر فيها آرثر المراهق قدرة مبكّرة على الابتعاد عن الآخرين والنظر إلى الأشياء من منظور كوني. وفي وصف صورة أدميرال هولندي يقول، «بجانب الصورة توجد رموز أدوات حياته: سيفه، الكأس، سلسال الشرف الذي يضعه حول عنقه، وأخيراً الرصاصة التي جعلت كلّ هذه الأشياء عديمة الفائدة له».

وكفيلسوف ناضج، كان شوبنهاور يفتخر بقدرته على اتخاذ وجهة نظر موضوعية، أو كما قال، «النظر إلى العالم من خلال الجانب

الخاطئ من المنظار». إنّ فتنة رؤية العالم من الأعلى تتخلل تعليقاته المبكّرة حول تسلّق الجبال. وعندما كان في السادسة عشرة من عمره، كتب، «أجد أن المشهد البانورامي من فوق قمة جبل مرتفع يساهم في توسيع المفاهيم كثيراً... إذ تختفي كلّ الأجسام الصغيرة، والأجسام الكبيرة فقط هي التي تحتفظ بشكلها».

ثمة هواجس قوية تنبئ بشخصية شوبنهاور عندما يتقدم في العمر. إذ سيستمرّ في تطوير وجهة النظر الكونية التي أتاحت له كفيلسوف ناضج رؤية العالم كما لو من مسافة بعيدة ـ لا جسدياً وإدراكياً فحسب، وإنما دنيوياً أيضاً. ففي مرحلة مبكّرة من عمره فهم بحدسه وجهة نظر سبينوزا «في شكلها أو طبيعتها الجوهرية»، لرؤية العالم وأحداثه من وجهة نظر الخلود. وخلص آرثر إلى القول، يمكن فهم الشرط الإنساني على أفضل وجه لا من أن تكون جزءاً منه وإنما أن تكون منفصلاً عنه. وعندما كان مراهقاً كتب متنبئاً بعزلته الشامخة في المستقبل.

الفلسفة طريق جبلي مرتفع... طريق منعزل ويزداد قفراً كلما صعدنا أكثر. وعلى من يسير في هذا الطريق ألّا يبدي اي خوف، بل يجب أن يخلّف كلّ شيء وراءه ويشقّ طريقه بثقة في الثلج الشتوي... وسرعان ما سيرى العالم تحته، وستختفي عن بصره شواطئه الرملية ومستنقعاته، وتتحوّل إلى بقعة وعرة، ولا تعود أصواته المزعجة تصل إلى أذنيه. وتكشف استدارته له. وهو نفسه موجود دائماً في الهواء الجبلي البارد النقي وينظر إلى الشمس بينما كلّ شيء تحته لا يزال مُغلّفاً في سواد الليل الميت.

لكن هناك شيئاً أكثر من الاندفاع نحو المرتفعات الذي كان يدفع شوبنهاور؛ فهناك دفعات من الأسفل أيضاً. وهناك سمتان أخيرتان جليتان أيضاً في آرثر الشاب هما: كرهه الشديد للبشر مقترناً بتشاؤم شديد. وإذا

كان هناك شيء يتعلق بالمرتفعات والمشاهد الطبيعية البعيدة والمنظور الكوني الذي كان يغوي آرثر، هناك أيضاً دلائل كثيرة تشير إلى أنه كان ينفر من التقرّب كثيراً من الآخرين. وفي أحد الأيام، بعد أن هبط من قمّة جبل بعد شروق شمس صافية كالبلور وعاد ليدخل إلى عالم البشر في شاليه يقع عند سفح الجبل، كتب: «دخلنا إلى غرفة فيها خدم يشربون بصخب... كان الأمر لا يطاق: لقد أضفى دفئهم الحيواني حرارة متوهجة».

وتملأ الملاحظات الساخرة التي تزدري الآخرين مفكرات سفره. فقد كتب عن صلاة في كنيسة بروتستانتية: «الغناء الصاخب المنبعث من المصلين أصاب أذني بألم شديد، وقد أضحكني شخص له فم يثغي مفتوح على وسعه كثيراً» وكتب يصف صلاة يهودية: «صبيّان صغيران يقفان إلى جانبي أفقداني رزانتي لأنهما كانا ينشدان بفمين مفتوحين على وسعيهما وقد ألقيا برأسيهما إلى الوراء، كأنهما يصرخان في وجهي». وعن مجموعة من الأرستوقراطيين الإنكليز، كتب: «يشبهون فلاحات في زي متنكّر». وكتب عن ملك إنكلترا: «رجل عجوز وسيم أما الملكة فهي قبيحة لا يوجد فيها أي أثر للجمال»؛ وعن إمبراطور وإمبراطورة النمسا، كتب: «يرتديان كلاهما ثياباً شديدة البساطة. وهو رجل نحيف، وجهه الغبي بشكل ملحوظ يجعل المرء يظنّ أنه خيّاط وليس إمبراطوراً». وكتب أحد أصدقاء آرثر المقربين في المدرسة كان يعرف ميول آرثر بكراهية الناس إلى آرثر في إنكلترا: «آسف لأن إقامتك في إنكلترا جعلتك تكره الأمة كلها».

هذا الفتى الشاب الذي لا يحترم الناس ويسخر منهم سيصبح ذلك الرجل الغاضب بمرارة الذي يشير إلى جميع البشر عادة بأنهم «كائنات تسير على قدمين»، ويتفق مع توماس كيمبيس، «كلما خرجت واختلطت بالرجال، عدت وقد أصبحت أقل إنسانية».

هل أعاقت هذه الخصائص هدف آرثر لأن يكون «العين الواضحة للعالم؟» لقد تنبأ آرثر الشاب بالمشكلة وكتب مذكّرة إلى ذاته الكبرى: «تأكدي من أن أحكامك الموضوعية لا تخفي كثيراً أحكامك الشخصية». ومع ذلك، وكما سنرى، وعلى من الرغم من عزيمته، وبالرغم من انضباطه الذاتي، لم يتمكن آرثر في أحيان كثيرة من التقيد بنصيحته الممتازة عندما كان شاباً».

سعيد هو الذي يستطيع أن يتحاشى التعامل
مع كثيرين من بني جنسه، مرة وإلى الأبد.

٢١

في بداية الجلسة التالية، ما إن كانت بوني تسأل جوليوس عمّا إذا كانت بام قد عادت من رحلتها، حتى فتحت بام الباب، وفتحت ذراعيها، وصاحت بصوت عال، «دا دام». وقف الجميع، ما عدا فيليب، ورحّبوا بها. بأسلوبها المحبّ الفريد دارت حول الدائرة، ونظرت في عيني كلّ واحد منهم، وعانقتهم، وقبّلت ريبيكا وبوني، وعبثت بشعر توني، وعندما وصلت إلى جوليوس، ضمته إليها طويلاً وهمست، «شكراً لأنك كنت صادقاً جداً معي على الهاتف. أنا مدمّرة، آسفة جداً جداً، شديدة القلق عليك». نظر جوليوس إلى بام. كان وجهها المبتسم المألوف يشي بالشجاعة ويطلق طاقة متألقة. وقال لها: «أهلاً بك مرة أخرى يا بام. من الجيد أن نراك هنا. لقد اشتقنا إليك. افتقدناك كثيراً».

ثمّ، عندما وقع بصر بام على فيليب، هبط ظلام. فقد تلاشت ابتسامتها وزالت تجاعيد الفرح حول عينيها. ظنّ جوليوس أنها انزعجت من وجود غريب في المجموعة، فأسرع ليعرّفها عليه وقال: «بام، هذا هو العضو الجديد في مجموعتنا، فيليب سلايت».

«أوه، إنه سلايت؟» قالت بام التي لم تنظر إلى فيليب، «ليس فيليب

سليز (السافل)؟ أو سليمبول؟» نظرت نحو الباب وقالت: «جوليوس، لا أعرف إن كنت أستطيع أن أبقى في غرفة واحدة مع هذا الوغد!».

أخذ أعضاء المجموعة المذهولين ينقلون نظراتهم بين بام الغاضبة وفيليب الذي لم ينبس بكلمة واحدة. تدخل جوليوس وقال: «أخبرينا يا بام. أرجو أن تجلسي».

عندما سحب توني كرسياً آخر إلى المجموعة، قالت بام: «لن أجلس بجانبه». (كان الكرسي الشاغر الوحيد بجانب فيليب). وقفت ريبيكا على الفور وأشارت إلى بام لأن تجلس مكانها.

بعد فترة صمت قصيرة، قال توني: «ماذا يجري يا بام؟».

«يا إلهي، لا أستطيع أن أصدّق هذا ـ هل هذه نكتة قبيحة؟ هذا آخر شيء في العالم أريد أن أراه. لم أكن أريد رؤية هذا الحيوان القارض مرة أخرى».

«ماذا يجري؟»، سأل ستيوارت. «ماذا عنك يا فيليب؟ قل شيئاً. ماذا يجري؟».

ظل فيليب صامتاً وهزّ رأسه قليلاً، لكن وجهه، الذي احمرّ الآن، كان ينمّ عن أشياء كثيرة. قال جوليوس لنفسه بأن لدى فيليب جهازاً عصبياً مستقلاً يعمل.

«حاولي أن تتكلمي يا بام»، حثّها توني، «فأنت بين أصدقاء».

«من بين كلّ الرجال الذين عرفتهم، عاملني هذا المخلوق أسوأ معاملة. وأن أعود إلى مجموعة علاجي وأجده يجلس هنا ـ شيء لا يصدّق. أشعر بأنني أريد أن أزعق أو أصرخ، لكنّي لن أصرخ ـ ليس معه هنا». صمتت بام وأطرقت برأسها، وراحت تهزّ رأسها ببطء.

قالت ريبيكا: «جوليوس، بدأت أشعر بالتوتر. لا أجد أن هذا الأمر جيد. هيا قل لنا ماذا يجري هنا؟».

«لا بد أنه كانت هناك حياة سابقة بين بام وفيليب، وأؤكد لك بأن ما يجري فاجأني تماماً».

بعد فترة قصيرة من الصمت، نظرت بام إلى جوليوس وقالت: «إني أفكّر كثيراً في هذه المجموعة. وكم كنت متلهّفة للعودة لرؤيتكم، وكنت أدرّب نفسي على ما سأخبركم به عن رحلتي. لكن، جوليوس، أنا آسفة، لا أظن أنني أستطيع أن أفعل ذلك. لا أريد أن أبقى».

وقفت واستدارت نحو الباب. قفز توني وأمسك بيدها.

«أرجوك يا بام. لا يمكنك أن تغادري. لقد فعلت الكثير من أجلي. هنا، سأجلس بجانبك. أتريدينني أن أُخرجه؟» ابتسمت بام ابتسامة باهتة وتركت توني يعيدها إلى كرسيها. نهض جيل عن الكرسي الذي يجلس عليه ليبادله بالكرسي بجانب توني.

«أنا مع توني. *أريد أن أساعد*»، قال جوليوس، «جميعنا نريد ذلك. لكن يجب أن تدعينا نساعدك يا بام. لا بد أن هناك تاريخاً، تاريخاً سيئاً بينك وبين فيليب. أخبرينا، تحدّثي عنه ـ وإلّا فإن أيدينا ستبقى مغلولة».

هزّت بام رأسها ببطء، وأغمضت عينيها وفغرت فاها، لكن لم تنبعث منه أي كلمة. ثمّ وقفت وسارت نحو النافذة، وأسندت جبهتها إلى لوح الزجاج، ولوّحت بيدها لتثني توني الذي نهض وسار باتجاهها. التفتت، وأخذت نفسين عميقين وبدأت تتكلّم بصوت لا روح فيه: «منذ أكثر من عشرين سنة، أردت أنا وصديقتي مولي أن تكون لدينا تجربة في نيويورك. كانت مولي جارتي منذ الطفولة وكانت أعزّ صديقاتي. كنا قد أنهينا للتو السنة الأولى في جامعة أمهيرست وسجّلنا معاً في الدورة الصيفية في جامعة كولومبيا. كان أحد المنهجين عن الفلاسفة الذين سبقوا سقراط، واحزروا من كان الـ TA؟».

«الـ TA؟» سأل توني.

«الأستاذ المساعد»، تدخل فيليب بصوت منخفض، لكن بشكل

آني، متكلّماً لأول مرة في الجلسة، «الأستاذ المساعد هو طالب متخرج يساعد البروفسور في إدارة مجموعات النقاش الصغيرة، وفي قراءة الأوراق، ووضع درجات للامتحانات».

بدت بام مصدومة من تعليق فيليب غير المتوقّع.

فأجاب توني عن سؤالها الذي لم تسأله، «فيليب هو الرجل الرسمي الذي يقدم إجابات هنا. اسألي أي سؤال ويجيب عنه على الفور. آسف، عندما تبدئين سأصمت. تابعي. أيمكنك أن تنضمي إلينا هنا في الدائرة؟».

هزّت بام رأسها، وعادت إلى كرسيها، وأغمضت عينيها مرة أخرى، ثم تابعت كلامها: «وهكذا، ذهبنا أنا ومولي لحضور الدورة الصيفية في جامعة كولومبيا، وكان هذا الرجل، هذا المخلوق الجالس هنا، الأستاذ المساعد. كانت حالة صديقتي مولي سيئة: فقد انفصلت عن صديقها بعد فترة طويلة من صداقتهما. وعندما بدأت الدروس، بدأ هذا... هذا الذي يُدعى رجلاً»، وأومأت باتجاه فيليب، «يتودد إليها. تذكّروا أننا لم نكن نتجاوز الثمانية عشرة من عمرنا، وكان هو الأستاذ ـ أوه، كان البروفسور الفعلي يأتي لإلقاء محاضرتين فقط في الأسبوع، أما الأستاذ المساعد، فكان هو المسؤول الفعلي عن الفصل، بما في ذلك درجاتنا. كان ذرب اللسان، زلقاً، ماكراً. وكانت مولي ضعيفة، فأُعجبت به، وكانت في غاية السعادة لمدة أسبوع تقريباً. ثمّ، بعد ظهر أحد أيام السبت، اتصل بي بالهاتف وطلب أن ألتقي به لمناقشة بحث للامتحان كنت قد كتبته. كان رقيقاً وعديم الرحمة، وكنتُ غبية بما يكفي حتى تمكّن من التلاعب بعواطفي، والشيء التالي الذي أتذكره هو أنني كنت عارية على الأريكة في مكتبه. كنتُ فتاة عذراء في الثامنة عشرة، وكان فظاً في ممارسة الجنس. وضاجعني مرة أخرى بعد يومين، ثم رماني هذا الخنزير، ولم يعد حتى يتنازل وينظر إليّ، وأصبح يتظاهر بأنه لا يعرفني، والأسوأ من كلّ ذلك، لم يقدّم لي أي تفسير عن سبب تركه لي. وخفت أن أسأله ـ فلديه السلطة ـ لأنه كان هو من يضع درجات الطلاب. هكذا تعرّفت على

عالم الجنس الرائع. كنت محطّمة جداً، غاضبة جداً، خجولة جداً... والأسوأ من كلّ ذلك، فقد اعتراني شعور قوي بالذنب لأنني خنت مولي. واحتقرت نفسي كثيراً».

«أوه، بام»، قالت بوني وهي تهزّ رأسها ببطء، «لا عجب في أنك تشعرين بالصدمة الآن».

«انتظروا، انتظروا. فلم تسمعوا بعد الأسوأ عن هذا الوحش»، قالت بام بسرعة. تطلع جوليوس حوله في الغرفة. كان الجميع ينحنون إلى الأمام، عيونهم مثبّتة على بام، بالطبع باستثناء فيليب الذي كانت عيناه مغمضتين، وبدا أنه في غيبوبة.

«استمرت صداقته مع مولي لمدة أسبوعين آخرين ثم تخلّى عنها، وكان كلّ ما قاله لها هو إنه لم يعد يستمتع معها وإن عليها أن تتركه. هذا ما حدث. شيء فظيع، شيء لا إنساني. هل يمكنكم أن تصدقوا أستاذاً يقول ذلك لطالبة شابة؟ بل حتى رفض أن يقول لها أكثر من ذلك أو حتى أن يساعدها في نقل الأغراض التي تركتها في شقّته. وكبادرة للتخلي عنها أعطاها قائمة بأسماء النساء الثلاث عشرة اللاتي ضاجعهن في ذلك الشهر، العديد منهن من نفس الصفّ. وكان اسمي على رأس القائمة».

«لم يعطها تلك القائمة»، قال فيليب، عيناه لا تزالان مغمضتين، «إنما وجدتها هي عندما كانت تسطو على مكان إقامته».

«أي نوع من المخلوقات اللئيمة يكتب قائمة كهذه؟» ردّت بام.

مرة أخرى، ردّ فيليب بصوت يخلو من أي عاطفة، «إن خطّ كتابة الذكر يوجّه الرجال إلى نشر بذرتهم. فهو ليس الأول ولا الآخر الذي يدوّن سجلاً بالحقول التي حرثها وبذرها».

رفعت بام راحة يدها إلى المجموعة، هزّت رأسها، وتمتمت، «أترون»، كما لو أنها تشير إلى غرابة هذا الشكل المحدد من الحياة.

متجاهلة فيليب، واصلت كلامها: «كان هناك ألم ودمار. لقد عانت مولي كثيراً، ولم تعد تثق برجل آخر إلا بعد فترة طويلة. ولم تعد تثق بي أبداً. وهكذا انتهت صداقتنا. ولم تغفر لي قط خيانتي لها. كانت خسارة فظيعة بالنسبة لي، وبالنسبة إليها أيضاً. حاولنا أن نستعيد صداقتنا ـ حتى الآن فإننا نتبادل أحياناً الإيميلات، وتخبر إحدانا الأخرى عن الأشياء الرئيسية في حياة كلّ منا، لكنّها ترفض رفضاً قاطعاً أن تناقش معي ما حدث في ذلك الصيف».

بعد صمت طويل، ربما كان الأطول في المجموعة، قال جوليوس: «بام، من المؤسف حقاً أن يتحطّم المرء هكذا وهو في الثامنة عشرة من عمره. إن عدم إبلاغي أو إبلاغ أعضاء المجموعة بهذه القصة يؤكّد على شدّة الصدمة. وأن تفقدي صديقة دائمة بهذه الطريقة! إنه شيء سيئ للغاية. لكن دعيني أقول شيئاً آخر. من الجيد أنك بقيت اليوم، ومن الجيد أنك تحدّثت عن هذا الأمر. أعرف أنك لن تحبي أن أقول ذلك، فقد لا يكون وجود فيليب هنا أمراً سيئاً. قد نستطيع أن نفعل شيئاً هنا، يمكن تحقيق بعض الشفاء، لكليكما».

«هذا صحيح يا جوليوس ـ فأنا أكره أن تقول ذلك، والأكثر من ذلك، فإني أكره أن أنظر إلى هذه الحشرة مرة أخرى، وها هو يجلس في المجموعة التي أشعر معها براحة كبيرة. أشعر أنني أصبحت منتهكة».

بدأ رأس جوليوس يدور بسرعة. بدأت تصطخب في رأسه أفكار كثيرة. ما هي قدرة فيليب على التحمل؟ حتى لو وصل إلى حافة الانهيار. إلى أي مدى يمكنه أن يحتمل ذلك قبل أن يغادر الغرفة، ولا يعود أبداً؟، وبينما تخيّل فيليب يغادر الغرفة، أخذ يفكّر في نتائج ذلك على فيليب، وبشكل أساسي على بام: لأنها تهمّه كثيراً. إن بام سيدة لطيفة، ودودة، عظيمة، وقد آلى على نفسه أن يساعدها للخروج من محنتها وإيجاد مستقبل أفضل. هل ستفيدها مغادرة فيليب؟ لعلها تريد أن تنتقم منه ـ لكنه انتصار باهظ الثمن! كم أتمنى أن أجد وسيلة. فكّر

جوليوس بوسيلة تمكّنه من مساعدة بام للوصول إلى مرحلة أن تغفر لفيليب، فهذا سيشفيها ـ وقد يشفي فيليب أيضاً.

كاد جوليوس أن يجفل عندما خطرت له كلمة المغفرة. فمن بين جميع الحركات الأخيرة المختلفة التي تجري في مجال العلاج النفسي، فإن الجلبة المثارة حول «المغفرة» كانت تزعجه كثيراً. وشأن جميع المعالجين المتمرّسين، كان يعمل دائماً مع مرضى لا يستطيعون تمرير الأشياء ولا يغفرون، مرضى تتملكهم مشاعر الحقد، مرضى لا يستطيعون إيجاد أي سلام ـ وكان دائماً يتبع طرائق كثيرة ومتنوعة لمساعدة مرضاه على «تمرير الأشياء» ـ أي أن يتمكّنوا من التخلّي عن الغضب والاستياء اللذين يتملكانهم. في الواقع، توجد لدى كلّ معالج متمرّس ترسانة من أساليب «نسيان ما حدث والمسامحة» التي يستخدمها غالباً في العلاج. لكن صناعة «المغفرة» البسيطة والحذرة تضخمت كثيراً، وارتفع شأنها، وسوّقت هذا الجانب من العلاج إلى كل شيء، وقدّمتها على أنها شيء جديد ومبتكر. وحظيت هذه الذريعة باحترام ضمني ممزوج بمناخ المغفرة الاجتماعي والسياسي الحالي الذي يتناول طائفة من الجرائم كالإبادة الجماعية، والاستعباد، والاستغلال الاستعماري، حتى إن البابا كان قد طالب مؤخراً بالمغفرة لقيام الصليبيين بنهب القسطنطينية وطرد سكانها في القرن الثالث عشر.

وإذا انسحب فيليب، فكيف سيكون شعوره كمعالج المجموعة؟ عزم جوليوس على ألّا يتخلّى عن فيليب، مع أنه يصعب عليه أن يتعاطف معه. قبل أربعين سنة، عندما كان طالباً شاباً، استمع إلى محاضرة ألقاها إريك فروم استشهد فيها بحكمة كتبها تيرينس منذ أكثر من ألفيْ سنة: «أنا إنسان، ولا يوجد شيء إنساني غريب عليّ». وشدّد فروم على ضرورة أن يكون المعالج الجيد مستعداً للولوج إلى عتمة نفسه ويتماهى مع كلّ تخيّلات المريض ودوافعه. لقد جرّب جوليوس ذلك. هكذا إذاً، فقد وضع فيليب قائمة بأسماء النساء اللاتي ضاجعهن؟ ألم يفعل ذلك

هو نفسه عندما كان شاباً؟ من المؤكد أنه فعل ذلك، وكذلك يفعل الكثير من الرجال الذين ناقش معهم هذه المسألة.

وذكّر نفسه بأنّ لديه مسؤولية تجاه فيليب ـ وتجاه مرضى فيليب في المستقبل. لقد دعا فيليب ليصبح مريضاً وطالباً. شئت أم أبيت، فإن فيليب سيعالج العديد من المرضى في المستقبل، والتخلّي عنه الآن هو علاج سيئ، تعليم سيئ، نموذج سيئ ـ وعمل لا أخلاقي حتى النخاع.

بهذه الاعتبارات تجول في رأسه، فكّر جوليوس في ما سيقوله. بدأ بصياغة عبارة تبدأ بعبارته المألوفة، لديّ معضلة حقيقية: *من ناحية... ومن ناحية أخرى*... لكن هذه اللحظة مشحونة بالتوتر ولا تحتمل الإقدام على أي خطوة غير محسوبة. ثم قال أخيراً: «فيليب، عندما كنت تردّ على أسئلة بام اليوم، كنت تشير إلى نفسك بصيغة الشخص الثالث: ولم تستخدم صيغة «أنا» إنما استخدمت صيغة «هو»: فقد قلت لم يعطها تلك القائمة: أتساءل، هل هذا يعني أنك تشير ضمناً إلى أنك شخص مختلف الآن عن الرجل الذي كنت آنذاك؟».

فتح فيليب عينيه ونظر إلى وجه جوليوس. نظرة غريبة. هل يوجد امتنان في هذه النظرة؟

فقال فيليب: «من المعروف منذ زمن بعيد أن خلايا الجسم تشيخ، ثم تموت، وتحلّ محلها خلايا أخرى في فترات منتظمة. وحتى بضع سنوات، كان يُظنّ بأن خلايا الدماغ وحدها هي التي تعيش طوال حياة المرء ـ وبالطبع، عند النساء، البويضات. لكن البحوث أظهرت الآن أن الخلايا العصبية تموت أيضاً، وتتوالد خلايا عصبية جديدة باستمرار، بما في ذلك الخلايا التي تشكّل بنية قشرة دماغي، دماغي أنا. وأظن أن من الإنصاف القول بأنه لا توجد فيّ خلية واحدة الآن، في الرجل الذي كان يحمل اسمي قبل خمس عشرة سنة».

«إذاً أيها القاضي، هذا ليس أنا»، هدر توني، «صدقاً. آه أنا لست مذنباً؛ إنه شخص آخر، خلايا دماغ شخص آخر هي التي فعلت ذلك».

«هيه ليس هذا منصفاً يا توني»، قالت ريبيكا. «كلّنا نريد أن ندعم بام، لكن لا بد أن هناك وسيلة أفضل من أن نشرك فيليب: ماذا تريده أن يفعل؟».

«خراء، كبداية ماذا عن «أنا آسف» بسيطة» قال توني والتفت إلى فيليب، «هل هذا صعب؟ هل يكسر خدّيك إذا قلت ذلك؟».

«عندي شيء أريد أن أقوله لكما»، قال ستيوارت، «أنت أولاً يا فيليب. فأنا أطّلع على آخر المستجدات في أبحاث الدماغ، وأريد أن أقول لك إن الحقائق التي قلتها عن تجدد الخلايا غير صحيحة. إذ تظهر بعض الأبحاث الأخيرة أن الخلايا الجذعية لنخاع العظم التي تُزرع في شخص آخر قد تتحوّل إلى خلايا عصبية في بعض المناطق المنتقاة في الدماغ، مثل خلايا الحُصَين وخلايا بُوزكِينِيي في قشرة المخ، لكن لا يوجد دليل يثبت أن الخلايا العصبية الجديدة تتشكّل في قشرة الدماغ؟».

«أعترف بأنني أخطأت وأعتذر»، قال فيليب، «وأقدّر أن ترسل لي بعض الأدبيات المرجعية التي تثبت ذلك بالإيميل»، وأخرج فيليب بطاقة من محفظته وأعطاها إلى ستيوارت الذي دسّها في جيبه دون أن ينظر إليها.

«توني»، تابع ستيوارت، «أنت تعرف أنني لست ضدّك. فأنا أستمتع بصراحتك واستخفافك والهراء الذي تقوله، لكنّي أتّفق مع ريبيكا؛ أظن أنك فظ جداً وغير واقعي بعض الشيء. عندما انضممتُ إلى المجموعة في البداية كنتَ تمضي فترة حكم صدر بحقك خلال عطلة نهاية أسبوع للعمل مع فرق تنظيف الطريق السريع بسبب اتهامك بارتكاب اعتداء جنسي».

«لا، كانت التهمة هي الضرب. إن تهمة الاعتداء الجنسي هراء، وقد أسقطتها ليزي. وتهمة الضرب كاذبة أيضاً. لكن ما هي الفكرة التي ترمي إليها؟».

«الفكرة التي أهدف إليها هي أنني لم أسمعك قط تقول آسف، ولم

يقتنع أحد هنا بقضيتك. في الواقع رأيتُ العكس ـ رأيت الكثير من الدعم، يا إلهي، بل أكثر من الدعم. كلّ النساء، حتى أنتِ»، التفت ستيوارت نحو بام، «أثرتِ من... من ماذا؟ من الفوضى التي أحدثتها! أتذكّر عندما كانت بام وبوني تجلبان لك صندويتشات عندما كنت أؤدي فترة الحكم بالعمل في شاحنة جمع القمامة على الطريق السريع ١٠١. أتذكّر أنني أنا وجيل كنا نتحدّث عن عدم قدرتنا على التنافس مع... ماذا كانت؟».

«طبيعة الغابة»، قال جيل.

«نعم»، ابتسم توني بتكلّف، «مخلوق الغابة. الرجل البدائي»..

«إذاً ماذا لو منحنا فيليب فرصة. رجل الغابة يناسبك لكنه لا يناسبه. لنسمع رأيه بذلك. إن ما تعرضت له بام يرعبني، لكن لنتمهّل قليلاً، ولا نندفع إلى الحكم تعسفياً. قبل خمس عشرة سنة ـ لقد مضى على ذلك وقت طويل».

«حسنا»، قال توني، «لا يهمني ما حدث قبل خمس عشرة سنة، ما يهمني هو الآن»، ثم التفت إلى فيليب، وأضاف، «كما حدث في الأسبوع الماضي عندما أنت... يا فيليب ـ اللعنة، من الصعب أن يتحدّث المرء إلى شخص ولا يوجد تواصل بصري. هذا يفقدني صوابي! قلتَ إنك لا تبالي إن كانت ريبيكا تظهر اهتماماً بك ـ بأنها... تتودد... لا أستطيع أن أتذكّر تلك الكلمة الملعونة».

«تتجمّل»، قالت بوني.

أمسكت ريبيكا رأسها بيديها، «لا أستطيع أن أصدّق هذا. لا أستطيع أن أصدّق أننا ما زلنا نتحدّث عن هذا الأمر. ألا يوجد قانون تقادم للجريمة الفظيعة المريعة لأنني أفلتُ شعري؟ إلى متى سيستمرّ ذلك؟».

«مهما استمرّ»، ردّ توني الذي التفت نحو فيليب، «لكن ماذا عن سؤالي يا لفيليب؟ لقد صوّرت نفسك على أنك راهب، شخص يتجاوز

كلّ هذه الأشياء، في غاية النقاء إلى حدّ أنك لا تهتم بالنساء، حتى النساء الجذّابات جداً...».

«أترى الآن»، وجّه فيليب كلامه إلى جوليوس، لا إلى توني، «لماذا كنت متردّداً في الانضمام إلى المجموعة؟».

«أكنتَ تتوقّع هذا؟».

«إنها معادلة صحيحة ومجرّبة»، أجاب فيليب، «بأنه كلما قلّ تعاملي مع الناس، ازددت سعادة. وعندما حاولتُ أن أعيش في الحياة، وجدت نفسي أُجرُّ عنوة إلى الاضطراب والغضب. أن أبتعد عن الحياة، ألا أريد شيئاً، وألا أتوقّع شيئاً، أن أُشغل نفسي بالأشياء التأمّلية السامية ـ هذا هو الطريق، طريقي الوحيد، إلى السلام».

«جميل وجيد يا فيليب»، ردّ جوليوس، «لكنك إذا أردت أن تشارك في مجموعة أو تقود مجموعات أو تحاول مساعدة مرضى في علاقاتهم مع الآخرين، فلن تستطيع أن تتجنّب الدخول في علاقات معهم».

لاحظ جوليوس بام تهزّ رأسها ببطء بحيرة، «ماذا يحدث هنا؟ هذا يؤدي إلى الجنون. فيليب هنا؟ ريبيكا تغازله؟ فيليب يقود مجموعات، يرى مرضى؟ ماذا يجري؟».

قال جوليوس: «حسناً. لنُطلع بام على مجريات الأمور».

فقالت بوني: «ستيوارت، هذه مهمتك»،

فقال ستيوارت: «سأبدأ. حسناً، في الشهرين اللذين سافرتِ خلالهما، يا بام...».

فقاطعه جوليوس وقال: «هذه المرة، لماذا لا تبدأ يا ستيوارت. فليس من الإنصاف أن يطلب أحد منك أن تقوم بالعمل كلّه».

«صحيح. لكنّك تعرف أنه ليس عملاً ـ فأنا أحبّ أن أقدّم استعراضاً عمّا جرى». وعندما رأى أن جوليوس سيقاطعه، أضاف بسرعة: «حسناً، سأقول شيئاً واحداً فقط ثم أصمت. عندما غادرت يا بام، أصبتُ

بالاكتئاب. أحسست بأننا خذلناك، بأننا لم نتمكن أو لم نكن واسعي الحيلة لمساعدتك للخروج من أزمتك. لم أكن أرغب في أن تذهبي إلى مكان آخر ـ إلى الهند ـ لتحصلي على المساعدة. التالي».

فقالت بوني بسرعة: «إن المسألة الكبيرة والأساسية هنا هي أن جوليوس أخبرنا عن مرضه. هل تعرفين ذلك يا بام؟».

أومأت بام بجدية وقالت: «نعم، أخبرني جوليوس عندما اتصلت به بالهاتف في نهاية الأسبوع الماضي لأخبره بأنني عدت من الهند».

فقال جيل: «في الواقع، أريد أن أصحح ذلك ـ لا أقصد أي إساءة يا بوني ـ لكن جوليوس لم يخبرنا. إن ما حدث هو أننا خرجنا لاحتساء القهوة بعد أول جلسة حضرها فيليب، وقال لنا بما أن جوليوس أخبره شخصياً فقد انزعج جوليوس كثيراً لأن فيليب أخبرنا قبل أن يخبرنا هو. التالي».

قالت ريبيكا: «حضر معنا فيليب حوالي خمس جلسات. إنه يتدّرب ليصبح معالجاً، وكما فهمت كان جوليوس يعالجه قبل سنوات عدّة».

فقال توني: «إننا نتحدّث عن حالة جوليوس.... الذي اسمه... ذلك الشيء...».

فقال جوليوس: «تقصد السرطان. أعرف أنها كلمة مخيفة، لكن من الأفضل مواجهتها وذكرها بالاسم».

«عن *سرطان* جوليوس. إنك طير عجوز قاس يا جوليوس ـ يجب أن أقولها لك»، تابع توني، «لذلك تحدّثنا عن سرطان جوليوس وكم كان صعباً أن نتحدّث عن أشياء أخرى صغيرة بالمقارنة معه».

تكلّم الجميع ما عدا فيليب الذي قال الآن: «جوليوس سيكون من الجيد لو أخبرت المجموعة عن السبب الذي جعلني آتي لزيارتك أولاً».

«سأساعد فيليب، لكن سيكون من الأفضل عندما تكون مستعداً لأن تصف ذلك بنفسك».

هز فيليب رأسه.

عندما أصبح من الواضح أن فيليب لن يكمل، قال ستيوارت، «حسناً لنعد إليّ ـ جولة ثانية؟».

تطلّع ستيوارت حوله إلى الرؤوس المومئة، وتابع قائلاً، «في إحدى الجلسات عبّرت بوني عن رد فعلها إزاء محاولة ريبيكا التودد إلى فيليب». صمت ستيوارت، ونظر إلى ريبيكا، ثم أضاف، «تودد ريبيكا المزعوم إليه. واشتغلت بوني على مشاعرها بشأن صورتها الذاتية، إحساسها بأنها غير جذابة».

«والحماقات وعدم القدرة على التنافس مع نساء مثلك يا بام وريبيكا»، قالت بوني.

فقالت ريبيكا: «عندما كنتِ مسافرة، أبدى فيليب الكثير من التعليقات البنّاءة».

«لكنه لم يفصح شيئاً عن نفسه»، قال توني.

وقال ستيوارت «شيء أخير: حصلت مشادة قوية بين جيل وزوجته ـ حتى إنه فكّر في أن يترك البيت»،.

فقال جيل: «لا تمنحوني الكثير من الفضل ـ فقد كنت أهذر. لم يدم ذلك القرار أكثر من أربع ساعات؟».

«استعراض جيد»، قال جوليوس، ونظر إلى ساعته، ثم أضاف، «قبل أن نغادر دعيني أسألك يا بام، كيف تعالجين هذا الأمر ـ أتشعرين بارتياح هنا؟».

«لا يزال الأمر غير واقعي. سأحاول أن أواصل، لكنني سعيدة بالتوقف هنا. هذا كلّ ما يمكنني أن أتعامل معه اليوم»، قالت بام، وهي تلملم أغراضها.

«يجب أن أقول شيئاً»، قالت بوني، «أنا خائفة. تعرفون كلكم أنني

أحبّ هذه المجموعة، وأشعر بأنها على وشك أن تنفجر وتتشتت. هل سنعود جميعنا؟ أنت يا بام؟ أنت يا فيليب؟ هل ستعودان؟».

«سؤال مباشر»، ردّ فيليب بسرعة، «سأردّ بنفس الطريقة. لقد دعاني جوليوس لأن آتي إلى المجموعة لمدة ستّة أشهر، وقد وافقت. وهو ملتزم أيضاً بأن يشرف عليّ. إني عازم على أن أقوم بما تعهدنا به وأحترم عقدي معه. لن أترك المجموعة».

«وأنتِ يا بام؟» قالت بوني.

وقفت بام وقالت: «هذا كلّ ما يمكنني أن أتعامل معه اليوم».

عندما غادر الأعضاء، سمع جوليوس بعض التعليقات بأنهم سيذهبون لاحتساء القهوة. هل سينجح ذلك؟ تساءل. هل سيُدعى فيليب؟ كان قد قال لأعضاء المجموعة مرات عديدة إن اللقاءات الجانبية بينهم قد تحدث انقسامات إذا لم تضم الجميع. ثمّ لاحظ فيليب وبام يسيران باتجاه الباب في مسار تصادمي. سيكون هذا الأمر مثيراً للاهتمام، قال لنفسه. لاحظ فيليب ذلك وأدرك أن مدخل الباب صغير ولا يتسع لشخصين، فتوقّف وتمتم بصوت خفيض «تفضلي» وتراجع قليلاً ليسمح لبام بأن تمرّ أولاً. خرجت كما لو أنها لم تره.

لا يتردّد الجنس في التطفّل بنفاياته،
والتدخّل في مفاوضات رجال الدولة وأبحاث المفكرين.
فهو يحطّم كلّ يوم العلاقات القيّمة.
حقاً، إنه يسلب ضمير الذين كانوا مبجلين وشرفاء.

٢٢

النساء، الشهوة، الجنس

بعد أمّه، كان وجود الأنثى الطاغي الآخر في حياة آرثر امرأة مشاكسة، تعمل خيّاطة تدعى كارولين ماركويت. ولا تلقي الروايات القليلة المتعلقة بسيرة حياة شوبنهاور الضوء على لقاء حدث في منتصف النهار في عام ١٨٢٣ جرى على بيت الدرج خافت الأضواء خارج شقّة آرثر في برلين عندما كان في الخامسة والثلاثين من العمر وكانت كارولين في الخامسة والأربعين.

في ذلك اليوم، كانت كارولين ماركويت التي تقيم في الشقّة المجاورة لشقّة آرثر تستضيف ثلاث صديقات. منزعجاً من الأحاديث الصاخبة على بيت الدرج، فتح آرثر باب شقّته بعنف، واتهم النساء الأربع بأنهن ينتهكن خصوصيته لأن المكان الذي يقفن ويتحدثن فيه يشكل جزءاً من شقّته وطلب منهن بفظاظة شديدة أن يغادرن المكان. وعندما رفضت كارولين أن تغادر، استخدم آرثر القوة الجسدية معها،

وراح يركلها ويصرخ بها ودفعها إلى أسفل الدرج. وعندما صعدت مرة أخرى متحدية إياه، طردها ثانية، هذه المرة بعنف أشدّ.

رفعت كارولين دعوى ضده، وادّعت بأنه دفعها إلى أسفل الدرج فأصيبت إصابة شديدة أدت إلى إصابتها بالارتعاش وبشلل جزئي. فشعر آرثر بتهديد كبير من هذه الدعوى، وعرف بأنه لم يعد من المحتمل أن يكسب من عمله كمفكّر، وبدأ يبدي حرصاً شديداً على النقود التي ورثها من أبيه. وعندما تعرضت أمواله للخطر، بحسب كلمات ناشر كتبه، أصبح مثل «كلب مقيّد بسلسلة».

كان متيقناً من أن كارولين ماركويت امرأة انتهازية تتظاهر بالمرض، وحارب الدعوى التي رفعتها ضده بكل ما أوتي من قوة، واستخدم كل طعن قانوني ممكن. واستمرت إجراءات المحكمة المريرة طوال ستّ سنوات ثم أصدرت المحكمة قراراً بأن يدفع لكارولين ماركويت ستّين تالر كلّ سنة إلى أن تتماثل للشفاء. (في بعد ظهر ذلك اليوم، كانت الخادمة المنزلية أو الطاهية تتقاضى عشرين تالر في السنة بالإضافة إلى الطعام والإقامة) وتأكد توقع آرثر بأنها امرأة بالغة الدهاء فظلت ترتعش طالما ظلت تحصل على النقود، وظل يدفع لها ذلك المبلغ إلى أن ماتت بعد ستّ وعشرين سنة. وعندما أُرسلت إليه نسخة من شهادة وفاتها خربش عليها بقلمه: «*Obit anus, abit onus*» (عندما تموت المرأة العجوز، يُرفع عن كاهلك العبء).

هل توجد نساء أخريات في حياة آرثر؟ وبالرغم من أن آرثر لم يتزوّج فإنه لم يكن عفيفاً: ففي النصف الأول من حياته كان نشيطاً جنسياً إلى درجة كبيرة، وربما كان يقوده دافع جنسي قوي. وعندما قام أنثيم، صديق طفولته في لو هافر بزيارة هامبورغ في أثناء فترة تدريب آرثر، أمضى الشابان أمسياتهما في البحث عن مغامرات غرامية، وكان ذلك دائماً مع نساء ينتمين إلى طبقات اجتماعيات أدنى ـ خادمات، ممثلات، فتيات ملاهٍ. وإذا لم ينجحا في بحثهما، كانا ينهيان أمسيتهما بين ذراعي «عاهرة محترفة».

كان آرثر الذي يفتقر إلى الكياسة والجاذبية والتمتع بالحياة، فاشلاً في إغواء النساء، وفي معظم الأحيان كان يحتاج إلى نصائح وإرشادات أنثيم. وفي نهاية الأمر، بدأ يربط الشهوة الجنسية بالمهانة. وكان يكره أن يستحوذ عليه الدافع الجنسي. وفي السنوات اللاحقة، تحدّث كثيراً عن مهانة الانحدار إلى الحياة البهيمية. لم يكن آرثر لا يشتهي النساء. كان واضحاً حول ذلك: «أنا مولع بهن كثيراً ـ فقط لو كنّ يقبلن بي».

وقعت أكثر قصص الحبّ حزناً في سجلات شوبنهاور عندما كان في الثالثة والأربعين، عندما حاول أن يتودّد إلى فلورا ويس، فتاة جميلة في ربيعها السابع عشر. وخلال إحدى الحفلات، اقترب من فلورا وقدّم لها عنقود عنب وقال لها إنها تجذبه كثيراً وأبلغها عن نيته في أن يكلّم والديها لطلب يدها للزواج. وفوجئ والد فلورا من طلب شوبنهاور، وردّ عليه قائلاً: «لكنها لا تزال طفلة». وفي النهاية، وافق على أن يترك القرار لفلورا. وانتهى الأمر عندما قالت فلورا للجميع إنها تكره شوبنهاور.

وبعد عقود عدّة، سألت ابنة أخت فلورا ويس خالتها عن ذلك اللقاء مع الفيلسوف المشهور، وكتبت في مفكرتها ما قالته لها خالتها: «أوه، دعيني بسلام من شوبنهاور العجوز هذا». وعندما ضغطت عليها للحصول على مزيد من المعلومات، وصفت فلورا ويس عنقود العنب الذي قدّمه لها آرثر، وقالت: «لكني لم أكن أريد أن أردّه، كما ترين. لكنني شعرت بالقرف لأن شوبنهاور العجوز لمسه، فألقيته بلطف في الماء خلفي».

لا يوجد دليل على أن آرثر أقام علاقة حبّ مع امرأة يكنّ لها الاحترام. وأجابت أخته أديل بعد أن تلقت رسالة ذكر لها فيها آرثر عن «علاقات حبّ من دون حبّ»، في إحدى المرات القليلة التي تبادلا فيها بضع رسائل تحدّث فيها عن حياته الشخصية، «أرجو ألّا تفقد القدرة أبداً على تقدير امرأة بينما تعاشر النساء المبتذلات والساقطات من جنسنا، وأدعو السماء أن تقودك ذات يوم إلى امرأة تستطيع أن تشعر معها بأحاسيس أعمق من اللاتي يغوينك».

وعندما كان في الثالثة والثلاثين من العمر، دخل آرثر في علاقة متقطّعة لمدة عشر سنوات مع فتاة تعمل في ملهى في برلين تدعى كارولين ريشتر ميدون، كانت تقيم غالباً علاقات مع رجال عدّة في وقت واحد. لكن آرثر لم يبد أي اعتراض على ذلك، وقال: «بالنسبة للمرأة، فإن تقيّدها برجل واحد خلال فترة تبرعمها القصيرة أمر غير طبيعي. إذ يُتوقّع منها أن توفر للرجل ما لا يستطيع أن يوفره وما يشتهيه منها كثيرون آخرون». وكان يعارض أن يتزوج الرجل من امرأة واحدة أيضاً: «فلدى الرجل الشيء الكثير الكثير في فترة من حياته ثم يصبح لديه الشيء القليل القليل... ويمضي الرجال نصف حياتهم في ارتياد بيوت الدعارة، ونصف حياتهم الآخر كديّوثين».

وعندما انتقل آرثر من برلين إلى فرانكفورت، عرض على كارولين أن ترافقه لكن من دون ابنها غير الشرعي الذي أصرّ على أنه ليس ابنه. فرفضت كارولين أن تترك طفلها، وبعد مراسلات قصيرة انتهت علاقتهما إلى الأبد. وبالرغم من ذلك، بعد حوالي ثلاثين سنة، أضاف آرثر عندما بلغ الحادية والسبعين ملحقاً إلى وصيته ترك فيها لكارولين ريشتر ميدون خمسة آلاف تالر.

ومع أنه كان في غالب الأحيان يحتقر النساء ومؤسسة الزواج برمتها، كان آرثر يتأرجح في الرأي حول الزواج. فقد حذّر نفسه بالتفكير، «لم يكن جميع الشعراء العظماء سعيدين في زيجاتهم، ولم يتزوج جميع الفلاسفة العظماء: ديموكريتوس، ديكارت، أفلاطون، سبينوزا، ليبنيز، كانط. وكان الاستثناء الوحيد سقراط ـ وكان عليه أن يدفع ثمن ذلك، لأن زوجته زنتيب كانت شريرة، سليطة اللسان... وتغوي معظم الرجال مظاهر المرأة الخارجية، لأن ذلك يخفي عيوبهم ونقائصهم. ويتزوجون في شبابهم ويدفعون ثمناً باهظاً عندما يتقدّم بهم العمر لأن زوجاتهم يصبن بالهيستريا ويصبحن متوترات وعنيدات».

عندما تقدّم في العمر، بدأ أمله بالزواج يتلاشى شيئاً فشيئاً، ثم تخلّى

عن الفكرة برمتها عندما أصبح في منتصف الأربعينات. وقال إن الزواج في سن متأخّرة أشبه برجل يقطع ثلاثة أرباع الرحلة سيراً على القدمين ثمّ يقرّر أن يشتري تذكرة غالية الثمن للرحلة برمتها.

لقد خضعت جميع قضايا الحياة الأساسية لدراسة شوبنهاور الفلسفية الجريئة، ولم تكن الشهوة الجنسية، الموضوع الذي تفاداه أسلافه الفلاسفة، استثناء لذلك.

فقد أطلق هذه المناقشة في بيان غير معهود عن قوّة الدافع الجنسي وهيمنته على الإنسان.

بالإضافة إلى حبّ الحياة فإنه [الجنس] يتجلّى هنا بانه أقوى وأكثر جميع الدوافع نشاطاً، ويستأثر دائماً بنصف قوى وأفكار الشطر الأكثر شباباً من البشرية. يكاد يكون الهدف المطلق لجميع الجهود الإنسانية، وله تأثير سلبي على أكثر القضايا أهمية، وفي كلّ ساعة، يعطّل أكثر المهن أهمية وجديّة، وفي بعض الأحيان يشوش ويحيّر، لفترة من الزمن، أعظم العقول الإنسانية... إن الجنس حقاً هو الجزء الخفي لكلّ الأعمال والتصرفات، وينبثق في كل مكان بالرغم من جميع الحجب التي تلقى فوقه. إنه سبب الحرب وهدف وغاية السلام، إنه نبع الذكاء الذي لا ينضب، مفتاح كلّ الإيحاءات، ومعنى كلّ التلميحات الغامضة، وجميع العروض غير المنطوقة، وكلّ النظرات المختلسة. إنه تأملّ الشباب وغالباً المتقدمين في السن أيضاً، التفكير في كل ساعة للمتهتكين، بل حتى رغماً عن إرادتهم، والخيال المستمر والمتكرر للمتعففين.

هل هو الهدف المطلق لجميع الجهود البشرية تقريباً؟ الجزء الخفي لكلّ الأعمال والتصرفات؟ سبب الحرب والغاية من السلام؟ لماذا كلّ هذه المبالغة؟ هل يستمّد الكثير من ذلك من هوسه الجنسي الشخصي؟ أم أن غُلُوّه في الأمر ما هو إلّا أداة لتثبيت انتباه القارئ على ما سيتبع ذلك؟

إذا أخذنا ذلك كله في الاعتبار، فإننا ننحو لأن نسأل: لماذا كلّ هذه الجلبة والاهتمام؟ لماذا كلّ هذا الإلحاح والصخب والألم والجهد؟ إنه مجرد سؤال يطرحه كلّ «جاك» في البحث عن جيل خاصته. لماذا يجب أن تلعب هذه اللعبة التافهة هذا الدور المهم، وتُحدث دائماً اضطراباً وتشويشاً في حياة الرجل؟

يستبق جواب آرثر على سؤاله الكثير مما أعقب ذلك خلال ١٥٠ سنة من البحوث الجارية في مجال علم النفس والتحليل النفسي التطوّري. إذ يقول ليست *حاجتنا* هي التي توجّهنا وإنما *حاجة نوعنا*. «إن النهاية الحقيقية لقصّة الحبّ برمتها، مع أن الطرفين المعنيين لا يدركان ذلك، تكمن في إمكانية إنجاب طفل معيّن»، ويضيف، «لذلك فإن ما يوجّه الإنسان هنا هو بالفعل غريزة موجّهة لإنجاب الأفضل في النوع، بينما يتخيّل الإنسان نفسه بأنه لا يسعى إلّا إلى زيادة درجة متعته».

ويناقش بتفصيل شديد المبادئ التي تحكم اختيار الشريك الجنسي («كلّ شخص يحبّ ما يفتقر إليه») لكنه يؤكّد مراراً بأنّ الاختيار يتم في حقيقة الأمر من قبل عبقري النوع. «يصبح الإنسان ملكاً لروح النوع، ويُحكم بواسطتها الآن، ولا يعود يمتلك نفسه... لأنه في نهاية الأمر لا يبحث عن مصلحته هو وإنما يبحث عن مصلحة شخص ثالث لم يأت بعد إلى الوجود».

ويؤكّد مراراً بأنّ قوة الجنس لا تقاوم. «لأنه واقع تحت تأثير دافع قريب من غريزة الحشرات الذي يرغمه على متابعة أهدافه بدون قيد أو شرط، بالرغم من جميع الجدالات التي تدور في عقله... ولا يستطيع أن يتخلّى عنها». وليس للعقل علاقة كبيرة بذلك. وفي أحيان كثيرة، يشتهي المرء شخصاً يطلب منه عقله أن يتجنبه، لكن صوت العقل يكون عاجزاً أمام قوة الشهوة الجنسية. ويستشهد بالكاتب المسرحي اللاتيني تيرنتيوس: «الشيء الذي لم يوهبه العقل قد لا يستطيع أن يحكمه العقل».

ويلاحظ غالباً أن ثلاث ثورات رئيسة في الفكر هدّدت فكرة المركزية الإنسانية وهي: الأولى، بيّن كوبرنيكوس أنّ الأرض ليست المركز الذي تدور حوله جميع الأجرام السماوية. والثانية، أظهر لنا داروين أنّنا لسنا مركزيين في سلسلة الحياة، وإنما مثل جميع المخلوقات الأخرى، فقد تطوّرنا من أشكال أخرى في الحياة. والثالثة، أوضح فرويد أننا لسنا السادة في بيتنا ـ وأن الكثير من تصرفاتنا تحكمها قوى من خارج وعينا. ولا ريب في أن مشارك فرويد الثوري غير المعترف به هو آرثر شوبنهاور الذي قال قبل أن يولد فرويد بفترة طويلة بأننا محكومون بقوى بيولوجية عميقة، ثم نضلّل أنفسنا بالتفكير في أننا نختار نشاطاتنا بوعي منا.

إن لذت بالصمت واحتفظت بسرّي، سيصبح سجيني؛
وإن أفشيت به سأصبح أنا سجينه.
على شجرة الصمت تتدلّى ثمار السلام والسكينة.

٢٣

تبيّن أنه لا يوجد أساس لقلق بوني من أعضاء المجموعة الآخرين، ففي الجلسة التالية لم يحضروا كلّهم فحسب، وإنما جاؤوا قبل موعد الجلسة، إلّا فيليب الذي دخل مسرعاً وجلس في كرسيه في تمام الساعة الرابعة والنصف.

إن فترة الصمت القصيرة في بداية جلسة العلاج الجماعي ليست أمراً مألوفاً، فسرعان ما يتعلّم أعضاء المجموعة بألّا يبدأوا الجلسة اعتباطياً لأن المتكلّم الأول يُمنح عادة الكثير من الوقت والاهتمام. لكن فيليب، السمج كدأبه، لم ينتظر، فبدأ يتحدّث بصوته الخالي من أي عاطفة، متحاشياً أي تواصل بالنظر مع باقي أفراد المجموعة.

«إن الرواية التي قدّمتها الزميلة التي عادت في الأسبوع الماضي...».

فقاطعه توني وقال: «اسمها بام».

هزّ فيليب رأسه من دون أن يرفع بصره، وأضاف، «لم يكن وصف بام لقائمتي كاملاً. فلم تكن سوى قائمة بسيطة دوّنت فيها أسماء النساء اللاتي ضاجعتهن في ذلك الشهر، ولم يكن فيها أسماء فقط، وإنما أرقام هواتف...».

فقاطعته بام: «أوه، وأرقام هواتف! أوه، اسمح لي - فهذا يجعل الأمر كلّه مقبولاً».

غير عابئ بما قالته بام، واصل فيليب كلامه، «وكان في القائمة أيضاً وصف موجز عن أوضاع المضاجعة التي تفضّلها كلّ واحدة منهن».

«أوضاع المضاجعة التي تفضّلها كلّ واحدة منهن؟» سأل توني.

«نعم، ما الذي كانت تفضّله كلّ امرأة منهن أثناء الممارسة الجنسية، مثل هل تحبّها من المؤخّرة... هل تحبّ ممارسة وضعية التسع والستّين... هل تحبّ المداعبة لمدة طويلة قبل الممارسة... هل تحبّ البدء بتدليك الظهر لمدة طويلة... التدليك بالزيت... هل تبلغ الرعشة بالصفع على الردفين... هل تحبّ أن يُلعق ثدياها... هل تحبّ الأصفاد... أم أن تقييدها بأطراف السرير يثيرها كثيراً».

أجفل جوليوس. يا إلهي! إلى أين سيمضي فيليب - هل هو ماض في اتجاه الكشف عما تفضّله بام؟ أمامنا مشكلة كبيرة.

قبل أن يتمكّن جوليوس من إيقاف فيليب، قالت بام، «أنت رجل مقرف حقاً. بغيض»، ثم انحنت إلى الأمام كما لو أنها تهمّ بالنهوض من كرسيها وتغادر الغرفة.

وضعت بوني يدها على ذراع بام لمنعها من ذلك، وقالت لفيليب: «أنا مع بام في هذا الأمر. فيليب، أأنت مجنون؟ لماذا تتبجح بهذه الأشياء؟».

«نعم»، قال جيل، «أنا لا أفهمك. انظر، إنك تتعرض هنا لهجوم فظيع - أقصد أنني أشعر بالنفور من سماع هذا. لا يمكنني أن أتحمّل ما تواجهه. لكن ماذا تفعل؟ هل تصب الوقود على النار وتقول: «احرقني أكثر» لا تعتبرها إهانة يا فيليب، لكن خراء، كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟».

وقال ستيوارت: «نعم، وأنا أرى ذلك أيضاً، ولو كنت في مكانك

لوضعت نفسي في أفضل صورة ممكنة ـ ولن أقدّم مزيداً من الذخيرة لعدوي».

حاول جوليوس أن يهدئ الوضع، وقال، «فيليب، ما هي مشاعرك في الدقائق القليلة الماضية؟».

«لديّ شيء مهم أريد أن أقوله عن تلك القائمة وقد قلته ـ فمن الطبيعي أن أشعر بالرضاء التام عن سير الأمور».

واصل جوليوس، وقال بنبرة أكثر لطافة، «لقد ردّ عليك عدد من الأشخاص هنا يا فيليب. ما هو شعورك إزاء ذلك؟».

«لن أخوض في ذلك يا جوليوس. ففي هذا الطريق يقبع اليأس، لذلك من الأفضل، الأفضل بكثير، أن أحتفظ برأيي لنفسي».

سحب جوليوس أداة أخرى من جعبته ـ تلك الطريقة الموقّرة لكن الموثوقة بصوت شَرْطي وقال: «فيليب، جرّب تجربة فكرية. إن الفلاسفة يفعلون ذلك كلّ يوم. إني أتفهم رغبتك في الاحتفاظ برصانتك، لكن مازحني للحظة وحاول أن تتخيّل بأنه *ستنتابك مشاعر* حول ردود فعل الآخرين اليوم. *ماذا* يمكن *أن تكون*؟».

فكّر فيليب في سؤال جوليوس. ابتسم ابتسامة خفيفة وأومأ رأسه، ربما كتعبير عن الإعجاب بعبقرية ذريعة جوليوس.

«تجربة؟ حسناً. لو انتابتني مشاعر، لشعرت بالخوف من شراسة مقاطعة بام. فأنا أدرك جيداً بأنها تتمنّى أن تسيء إليّ».

حاولت بام أن تتدخّل، لكن جوليوس أشار لها فوراً بأن تصمت وأن تدع فيليب مواصلة كلامه.

«ثمّ سألت بوني عن نقطة تبجحي، ثمّ سأل جيل وستيوارت لماذا أحاول أن أقدّم نفسي كقربان».

«قربا... ماذا؟» سأل توني.

فتحت بام فمها لترد، لكن فيليب قال على الفور، «يقدّم نفسه كقربان ـ تعني أن يضحّي المرء بنفسه حرقاً بالنار».

«لقد وصلتَ تقريباً»، تابع جوليوس، «لقد وصفت بدقّة ما حدث ـ ما قالته بوني وجيل وستيوارت. الآن تابع في التجربة ـ *إن كانت ستنتابك مشاعر حول ردود أفعالهم*».

«صحيح. لقد حدثتُ عن المسار. لا شكّ بأن ستستنتج بأن عقلي الباطن بدأ يظهر».

هز جوليوس رأسه، «تابع يا فيليب».

«سأشعر بأنه أُسيء فهمي بالكامل. سأقول لبام، «لم أكن أحاول أن أجعل ذلك مقبولاً»، وأقول لبوني، إن التبجح هو آخر شيء أفكّر فيه! ولجيل وستيوارت فإني أقول، شكراً لتحذيركما، لكنّي لم أكن أحاول أن أؤذي نفسي».

«الآن عرفنا *ما هو الشيء الذي لم تكن تفعله*. لذلك أخبرنا الآن *ما الذي كنت تفعله*؟ أنا مشوشة»، قالت بوني.

«ببساطة أردت أن أضع الأمور في نصابها، بالاستناد إلى قواعد العقل. لا أقل ولا أكثر».

دخلت المجموعة في تلك الحالة العقلية التي تعقب دائماً أي حوار مع فيليب. فهو عقلاني جداً، يتعالى على نزاعات الحديث اليومي. أطرق الجميع برؤوسهم، مشوشين، محتارين. هزّ توني رأسه.

ثم قال جوليوس: «فهمت كلّ النقاط التي ذكرتها ما عدا النقطة الأخيرة ـ تلك العبارة الأخيرة ـ «لا أقل، ولا أكثر» هذا ما لا أستطيع أن أقبله. لماذا تتطوّع بقول هذا الجانب من الحقيقة بالتحديد *الآن*، اليوم، في هذه اللحظة، في علاقتك معنا؟ كنت متحمساً لعمل ذلك. لم يكن بإمكانك أن تنتظر. أستطيع أن أشعر بالضغط الذي تشعر به لكي تخرجه. وبالرغم من النتائج السلبية الواضحة التي ذكرها أعضاء المجموعة، فقد

كنت مصمّماً على الإدلاء بذلك فوراً اليوم. لنحاول فهم السبب الذي حدا بك إلى عمل ذلك. ما المقابل الذي ستجنيه؟».

فردّ فيليب، «ليس هذا شيئاً صعباً، فأنا أعرف جيداً السبب الذي جعلني أقول ذلك». ساد صمت. كان الجميع ينتظرون.

ثم قال توني: «لقد بدأت تثير حنقي يا فيليب. جعلتنا معلقين. هل تفعل ذلك دائماً. هل يجب أن نتوسل إليك حتى تقول الجملة التالية؟».

«عفواً؟» سأل فيليب، متجهم الوجه بحيرة.

وقالت بوني: «تجعلنا كلّنا ننتظر سماع السبب الذي جعلك تقولها. هل تتعمد أن تكون غامضاً هنا؟».

وأضافت ريبيكا، «ربما تظنّ أننا لا نريد أن نعرف السبب، وأنه لا يوجد لدينا فضول لسماع ما ستقوله».

فقال فيليب: «لا شيء من أيّ من هذا. لا علاقة لكم بذلك. إن كلّ ما في الأمر هو أنّ تركيزي يضعف وأنكفئ إلى داخل نفسي».

«يبدو أن هذا أمراً مهماً»، قال جوليوس، «أظنّ أن هناك سبباً لذلك ـ ويتضمن ردودك على أعضاء المجموعة. إن كنت تعتقد فعلاً بأن سلوكك متقلّب ونزواتي، شيء كالمطر يسقط فجأة، فإنك تتخذ موقفاً عاجزاً. هناك سبب يجعلك تتفادانا بين حين وآخر ثم تنكفئ إلى داخلك: أظن أن ذلك يعود إلى وجود قلق يعتمل في داخلك. في هذه الحالة فإن فقدانك التركيز يتعلق بكيفية افتتاحك الجلسة. هل يمكنك أن تتابع؟».

صمت فيليب، مفكّراً في كلمات جوليوس.

توجد لدى جوليوس طرائقه في تصعيد الضغط عندما يعالج معالجين آخرين: «شيء آخر يا فيليب، إن كنت تنوي معالجة مرضى أو تقود مجموعة علاج في المستقبل ثم تفقد التركيز وتنكفئ إلى داخل نفسك فهذه مشكلة حقيقية في أسلوب عملك».

لقد حقق ذلك الغرض. فقال فيليب على الفور، «لقد تعمّدت أن

أبوح بما بحت به لأحمي نفسي. لأن بام تعرف كلّ شيء عن تلك القائمة، وكنت قلقاً لأنها تستطيع أن تلقي تلك القنبلة في أي وقت، لذلك رأيت أن الكشف عنها بنفسي أهون الشرّين». تردّد فيليب قليلاً، وأخذ نفساً عميقاً، ثمّ تابع، «وهناك أشياء أخرى يجب أن أقولها. فلم أتطرق بعد إلى اتّهام بوني لي بالتبجح. كنت أحتفظ بتلك القائمة لأنني كنت نشيطاً جنسياً إلى درجة كبيرة في تلك السنة. وكانت علاقتي بمولي، صديقة بام، التي دامت ثلاثة أسابيع غير عادية. كنتُ أفضّل إقامة علاقات عابرة، لليلة واحدة، مع أنني كنت أحياناً أفعلها مع نفس المرأة مرة أخرى عندما أشعر بضغط جنسي قوي ولا أستطيع أن أتعرّف على امرأة جديدة. لذلك، عندما كنت أرى نفس المرأة للمرة الثانية، كنت أشعر بأنني بحاجة إلى كتابة ملاحظات لكي أنعش ذاكرتي ولكي تشعر المرأة بأنني أتذكّرها جيداً. فإذا عرفت الحقيقة ـ بأنها مجرد واحدة من بين كثيرات ـ فقد لا أنجح في استمالتها. لا يوجد أي تبجّح على الإطلاق في هذه الملاحظات. لقد كتبتها لاستعمالي الخاص، لكن كان لدى مولي نسخة من مفتاح شقّتي، فاعتدت على خصوصيتي، وفتحت درج طاولة مكتبي المقفل عنوة وسرقت منه القائمة».

«هل تريد أن تقول لنا»، سأل توني، بعينين واسعتين، «بأنك ضاجعت نساء كثيرات فكان عليك أن تدوّن ملاحظاتك لكي لا تخلط بينهن؟ أقصد، عمَّ نتحدّث هنا؟ كم عددهن؟ كيف تمكّنت من عمل ذلك؟».

أطلق جوليوس تنهيدة. فقد تعقدت الأمور أكثر قبل أن يسأل توني سؤاله المشوب بالحسد. كان التوتّر بين بام وفيليب شديداً إلى حد لا يطاق، وكان يجب كسر حدّته، لكن لم يكن جوليوس متيقناً كيف يمكنه أن يفعل ذلك. لكن المساعدة غير المتوقّعة وصلت من ريبيكا التي غيّرت مسار الجلسة برمتها فجأة.

وقالت: «أنا آسفة للمقاطعة، لكنّي أحتاج إلى بعض الوقت في

المجموعة اليوم. كنت أفكّر طوال الأسبوع في أنني أريد أن أفصح عن شيء لم أخبر به أحد قط، حتى أنت يا جوليوس. وهو، كما أظن، أحلك سرّ لديّ». صمتت ريبيكا، ونظرت حولها إلى وجوه أعضاء المجموعة. كانت كلّ العيون مصوبة نحوها، «أتوافقون؟».

التفت جوليوس إلى بام وفيليب وقال: «ما رأيكما؟ هل نترككما وأنتما بهذه المشاعر القوية؟».

فقالت بام: «لا مانع لديّ. أحتاج أحياناً إلى بعض الوقت».

«وأنت يا فيليب؟».

هزّ فيليب رأسه.

فقال جوليوس: «وأنا أكثر من موافق، إلّا إذا أردت أن تذكري أولاً ما السبب الذي جعلك تقرّرين بأن تبوحي بذلك اليوم».

«لا، من الأفضل أن أدخل في الموضوع مباشرة ما دمت ما أزال أمتلك الشجاعة. ها هي القصة: قبل خمس عشرة سنة تقريباً، قبل زفافي بأسبوعين تقريباً، أرسلتني الشركة التي كنت أعمل فيها لحضور معرض للكمبيوترات في لاس فيغاس لأقدّم محاضرة عن منتجها الجديد، مع أنني كنت قد قدمت استقالتي آنذاك، لذلك كانت هذه المحاضرة آخر مهمة لي في تلك الشركة ـ ظننت آنذاك بأنها ربما الأخيرة في حياتي العملية. كنت حاملاً بشهرين، وكنا أنا وجاك قد خطّطنا لقضاء شهر عسل لشهر كامل، ثمّ أهتم بالبيت وبالطفل. كان ذلك قبل أن ألتحق بكلية الحقوق بفترة طويلة ـ لم تكن لدي فكرة عمّا إذا كنت سأعمل مرة أخرى أم لا».

«تملكّني مزاج غريب في لاس فيغاس. ففي مساء أحد الأيام، ولدهشتي، وجدت نفسي في بار فندق سيزر بالاس. طلبت كأساً من الشراب ثم وجدت نفسي قد دخلت في محادثة حميمة مع رجل يرتدي ثياباً أنيقة. سألني إن كنت فتاة عاملة. لم أكن أعرف معنى تلك العبارة

فأومأت بنعم. وقبل أن أتمكّن من أن أحدّثه عن عملي سألني كم أتقاضى من أجر. فابتلعت ريقي، ودققت النظر فيه ـ كان وسيماً ـ ثم قلت: «مائة وخمسون دولاراً». هزّ رأسه وذهبنا إلى غرفته. وفي الليلة التالية، انتقلت إلى فندق تروبيكانا، وفعلت الشيء ذاته مرة أخرى. وأخذت المبلغ نفسه. وفي الليلة الأخيرة لي فعلتها بدون مقابل».

أخذت ريبيكا نفَسَا عميقاً، وزفرت بصوت عال وأضافت، «هذا كل شيء. لم أخبر أحداً بذلك قط. كان يخطر لي أحياناً بأن أخبر جاك بذلك لكني لم أفعل ذلك. ما نفع ذلك؟ فلن يجلب له إلّا الحزن وسيجلب لي شيئاً من الشعور بالتحلل من الخطيئة... و... توني، أيها الوغد.... اللعنة، هذا ليس أمراً مضحكاً».

توني الذي أخرج محفظته من جيبه وراح يعدّ نقوده، توقّف عن ذلك، وبابتسامة خجولة، قال، «أردت أن أخفف من حدة التوتر».

«لا أريد من أحد أن يخفّف من حدة التوتر. إنها تثقل عليّ». افترّت شفتا ريبيكا عن واحدة من ابتساماتها الرائعة التي تستحضرها عندما تريد. «إنها ـ اعترافات حقيقية»، ثم التفتت نحو ستيوارت الذي كان قد ذكر مرات عدّة بأنها «دمية من خزف». «إذاً ماذا تظن؟ فربما ليست ريبيكا الدمية اللطيفة كما تبدو».

فقال ستيوارت: «لم أكن أفكّر في ذلك. تعرفين أنني سرحت بأفكاري عندما كنت تتكلّمين؟ تذكّرتُ فيلماً كنت قد استأجرته منذ ليالٍ عدّة يدعى *الميل الأخضر*. كان فيه مشهد لا يمكن نسيانه عن سجين مدان يتناول وجبة طعامه الأخيرة. يبدو لي أنك تناولت في لاس فيغاس آخر قطعة من الحرية قبل الزواج».

أومأ جوليوس وقال: «أوافق. يبدو لي كأننا تحدّثنا عن ذلك منذ فترة يا ريبيكا»، ثم قال جوليوس موضحاً، «قبل سنوات عدّة عملنا أنا وريبيكا معاً لمدة سنة تقريباً عندما كانت مترددة في اتخاذ قرار بالزواج»؛

ثم التفت إلى ريبيكا وقال، «أذكر أننا أمضينا أسابيع ونحن نتحدّث عن مخاوفك بالتخلّي عن حريتك، وإحساسك بأن إمكانياتك ستنتهي. ومثل ستيوارت، أظن أنّ هذه هي المخاوف التي لعبت دورها في لاس فيغاس».

«شيء واحد لا يزال عالقاً في رأسي من تلك الجلسات معاً يا جوليوس. أذكر أنك حدثتني عن رواية يبحث فيها أحدهم عن رجل حكيم يقول له إن *البدائل تستثني*، وأنّ لكلّ نعم يجب أن تكون هناك لا».

«أعرف ذلك الكتاب ـ *غرندل* لجون غاردنر»، قاطعته بام، «كان غرندل، الشيطان الذي بحث عن الرجل الحكيم».

«توجد تداعيات لا نهاية لها هنا»، قال جوليوس. «كانت بام أول من عرّفني على تلك الرواية عندما أجرينا جلسات علاج لبضعة أشهر في نفس الفترة تقريباً. لذلك، ريبيكا، إذا كان هذا التعليق مساعداً، فإنك تدينين بالشكر لبام».

افترّت شفتا ريبيكا عن ابتسامة شكر كبيرة لبام وقالت: «لقد قدمت لي علاجاً غير مباشر. لقد ألصقتُ قصاصة كتبت فيها هذه العبارة على مرآتي: *البدائل تستثني*. لقد فسّرت العائق الذي كان يعترضني لأقول نعم لجاك مع أنني كنت أعتقد بأنه الرجل المناسب»، ثمّ وجّهت كلامها إلى جوليوس: «أذكر قولك بأنني لكي أكبر في السن بأناقة وسهولة، يجب *أن أقبل تحديد الإمكانيات*».

«قبل غاردنر بفترة طويلة»، قاطع فيليب، «هناك هايدغر»، والتفت إلى توني وأضاف، «فيلسوف ألماني مهم في النصف الأول من القرن الماضي...».

«نازي مهم أيضاً»، تدخّلت بام.

تجاهل فيليب تعليق بام، وتابع يقول: «تحدّث هايدغر عن مواجهة

تحديد الإمكانيات. في الواقع ربطها بالخوف من الموت، وقال إن الموت هو *استحالة إمكانية أخرى*».

«الموت *كاستحالة لإمكانية أخرى*»، كرّر جوليوس، «فكرة قوية. لعلي سألصقها على زجاج مرآتي. شكراً يا فيليب. لدينا أمور كثيرة علينا بحثها، بما في ذلك مشاعرك يا بام، لكن أولاً، تعليق آخر لك يا ريبيكا. لا بد أن ما جرى في لاس فيغاس قد حدث عندما كنتُ أعالجك ولم تذكري لي ذلك. هذا يدلّ على شعورك بالخجل».

أومأت ريبيكا وقالت: «نعم، قرّرت أن أدفن هذه الحادثة برمتها». بعد أن صمتت قليلاً، وفكرت بما ستقوله، أضافت، «وهناك أمور أخرى يا جوليوس. كان ينتابني شعور بالخجل، لكن الأهم من ذلك... فقد كان ينطوي على مجازفة كبيرة... حتى أنني أخجل من نفسي كلما تخيّلتها فيما بعد: كانت نشوة متخيّلة ـ لا نشوة جنسية، لا هذا غير صحيح، لم تكن نشوة جنسية فقط، وإنما شعور بالإثارة بأنني خرجت عن القانون، بأنني كنت بدائية. وأنت تعرف»، التفتت ريبيكا نحو توني، وقالت: «كان هذا دائماً جزءاً من جاذبيتي لك يا توني ـ فترة سجنك، مشاجراتك في البار، عدم تقيدك بالقواعد. أما الآن فقد بلغت القمة. كانت حركتك تلك بإخراج نقودك مسيئة».

قبل أن يتمكّن توني من الردّ، قال ستيوارت: «إنك تمتلكين قدراً كبيراً من الشجاعة يا ريبيكا. إني معجب بك. وقد حرّرتني لأكشف عن شيء لم أتكلّم عنه قط ـ لا مع جوليوس ولا مع أحد آخر». تردّد، نظر في عيني كلّ فرد. «إني أتفحّص عامل السلامة هنا فقط. إنه شيء خطير للغاية. أشعر بالأمان بوجودي معكم ما عداك يا فيليب لأنني لم أتعرف عليك جيداً بعد. أنا متأكّد من أن جوليوس قد حدّثك عن سريّة ما يقال هنا في المجموعة؟».

صمت.

«فيليب إن صمتك يغيظني. سأسألك شيئاً» قال ستيوارت، الذي استدار وواجه فيليب مباشرة، «ماذا يجري؟ لماذا لا تجيب؟».

رفع فيليب عينيه إلى الأعلى وقال: «لم أكن أعرف أن هناك حاجة للردّ».

«قلت إنّني متيقن من أن جوليوس حدّثك عن السريّة هنا، ثم رفعت صوتي في نهاية الجملة، وهذا يدلّ على أنه سؤال؟ وأيضاً ألم يدلّ السياق عن الثقة بأنّني أريد أن أسمع رداً منك؟».

فقال فيليب: «فهمت. نعم أخبرني جوليوس عن السريّة، ونعم، فقد التزمت بجميع القواعد الأساسية للمجموعة، بما في ذلك السريّة».

«جيد،»، قال ستيوارت. «تعرف يا فيليب، لقد بدأت أغيّر رأيي ـ كنت أراك شخصاً متغطرساً، أما الآن فقد بدأت أعتقد أنّك لست شخصاً مُرَوّضاً أو أليفاً. وهذا لا يتطلّب رداً ـ إنه امر اختياري».

«هيه، ستيوارت جيد»، قال توني، بابتسامة متكلّفة، «إنك تحب التشاوف يا رجل. يعجبني ذلك».

أومأ ستيوارت وقال: «لم أقصد ذلك بشكل سلبي يا فيليب، لكن عندي قصّة أريد أن أحكيها ويجب أن أتأكد من أن الأمر آمن تماماً هنا».، أخذ نَفَساً عميقاً، ثم أضاف، «لنتابع. فقبل ثلاثة عشر أو أربعة عشر سنة تقريباً ـ كان ذلك عندما كنت على وشك إنهاء فترة تخصصي والبدء بممارسة الطب ـ ذهبت لحضور مؤتمر لطب الأطفال في جامايكا. كما تعرفون تهدف هذه المؤتمرات إلى عرض آخر ما استجد في مجال الأبحاث الطبية، لكن كما تعرفون، فإن عدداً من الأطباء يذهبون لأسباب أخرى: للبحث عن فرص لممارسة الطب أو للحصول على وظيفة أكاديمية... أو لمجرد قضاء وقت ممتع ومضاجعة الفتيات. لم أكن أسعى إلى أيّ من هذه. ولزيادة الطين بلة فقد تأخرت طائرتي التي ستقلع

إلى ميامي، فلم أتمكن من الذهاب إلى كاليفورنيا، واضطررت إلى قضاء الليلة في فندق المطار. لقد تكدّر مزاجي كثيراً».

وجّه الجميع انتباههم - فهذا جانب جديد من شخصية ستيوارت.

«وصلت إلى الفندق في الحادية عشرة والنصف ليلاً تقريباً، وأخذت المصعد إلى الطابق السابع - من المضحك كم أن التفاصيل واضحة - وفي طريقي إلى غرفتي في الممر الطويل الذي يخيم عليه السكون، فُتح باب إحدى الغرف فجأة وخرجت إلى الممر امرأة في حالة ذهول ترتدي ثوب نوم - كانت جذّابة، رائعة القوام، تكبرني بحوالي عشر أو خمس عشرة سنة. أمسكت بذراعي - كانت تفوح منها رائحة كحول - وسألتني إن كنت قد رأيت أحداً في الممر».

فأجبتها، «لا، لم أر أحداً، لماذا؟» ثمّ حكت لي قصّة طويلة مشتّتة عن رجل توصيل طلبات احتال عليها وسرق منها ستّة آلاف دولار، فاقترحتُ عليها أن تتصل بمكتب الاستقبال أو بالشرطة، لكن للغرابة، لم تبد أي اهتمام بما قلته لها. ثمّ أشارت إليّ بيدها لأن أدخل إلى غرفتها. تحدّثنا، وحاولت أن أهدئ من روعها لأنها كانت تعتقد - من الواضح أنها كانت واهمة في ذلك - بأنها سُرقت. وشيء أدّى إلى شيء آخر، وسرعان ما انتهى بنا الأمر في السرير. سألتها مرات عدّة هل تريدني أن أكون معها، وهل تريد أن أضاجعها. فوافقت، وهكذا مارسنا الحبّ. وبعد ساعة أو ساعتين، بينما كانت تغط في النوم تسللتُ إلى غرفتي، ونمتُ بضع ساعات، ثم سافرتُ في الصباح الباكر. وقبل أن أصعد إلى الطائرة اتصلت بالفندق من دون أن يظهر رقمي وقلت لهم إنه توجد نزيلة لديهم في لغرفة ١٢بالطابق السابع قد تكون بحاجة إلى رعاية طبية».

وبعد لحظات قليلة من الصمت، أضاف ستيوارت، «هذا كلّ شيء».

«أهذا كلّ شيء؟» سأل توني، «امرأة جميلة جذابة تدعوك إلى غرفتها

في الفندق، وتقدّم لها ما تطلبه؟ يا إلهي هذا غير معقول، لا أستطيع أن أصدّق ذلك».

فقال ستيوارت: «لا، الأمر ليس كذلك! المسألة هي أنني طبيب وصادفت في طريقي مريضة، مريضة قد تكون مصابة ببداية هلوسة كحولية، أو في مرحلة متقدّمة منها وانتهى الأمر بأنني ضاجعتها. هذا انتهاك لقسم أبقراط، إنها مخالفة شديدة، ولم أسامح نفسي على عمل ذلك قط. لا يمكنني أن أنسى تلك الليلة ـ إنها محفورة في ذاكرتي».

فقالت بوني: «إنك قاس جداً على نفسك يا ستيوارت. فهي امرأة وحيدة، سكرانة، تخرج إلى الممر، وترى رجلاً أصغر منها، جذّاباً، وتدعوه إلى سريرها. لقد حصلت على ما أرادت، ربما كان ذلك ما كانت تحتاج إليه. وقد تكون قد أسديت لها خدمة كبيرة. لعلها تعتبر تلك ليلة سعدها».

تهيأ الآخرون ـ جيل وريبيكا وبام ـ للتعليق، لكن ستيوارت أوقفهم، وقال: «إني أقدّر ما ستقولونه ـ لا تعرفون كم مرة قلت لنفسي أشياء من هذا القبيل ـ لكني، حقاً، صدقاً، لا أطلب منكم طمأنتي. كلّ ما أردته هو أن أحدّثكم عنها فقط. أردت إخراج هذا التصرف غير النظيف الذي حدث منذ سنوات عدّة من الظلام إلى النور ـ وهذا يكفي».

فردّت بوني، «هذا جيد. من الجيد أنك أخبرتنا يا ستيوارت، لكن هذا يتّفق مع شيء كنا قد تحدّثنا عنه من قبل: عزوفك عن تقبّل أي مساعدة منّا. إنك تجيد تقديم المساعدة لنا، لكنك لا تجيد أن تدعنا نساعدك».

فأجاب ستيوارت، «لعله رد فعل الطبيب، فلم يعطونا في كلية الطب دروساً عن كيف نكون مرضى».

«ألا تتوقف عن العمل أبداً؟» سأل توني، «أظنّ أنك كنت خارج ساعات العمل في تلك الليلة في ذلك الفندق في ميامي. في منتصف الليل مع امرأة متهيجة ثملة ـ هيا يا رجل، ضاجع، استمتع».

هزّ ستيوارت رأسه وقال: «منذ فترة استمعت إلى شريط لدالاي لاما يخاطب معلمين بوذيين. سأله أحدهم عن الإنهاك في العمل وفيما إذا كان ينبغي لهم أن يحصلوا على فترات منتظمة من الراحة. فكان ردّ الدالاي لاما ثميناً: فترة راحة؟ يقول بوذا، «آسف، أنا في فترة راحة!» ويدنو شخص يتألم من السيد المسيح فيجيبه، «آسف أنا في فترة راحتي اليوم!» إن الدالاي لاما يضحك دائماً، لكنّه وجد هذه الفكرة بالذات مضحكة ولم يتمكن من التوقّف عن الضحك».

«لا أقبل ذلك»، قال توني، «أظن أنك تتخذ كونك طبيباً ذريعة لتحاشي الحياة».

«كان ما فعلتهِ في ذلك الفندق خطأً كبيراً، ولا يمكن لأحد أن يقنعني عكس ذلك».

فقال جوليوس: «لقد مرّ على ذلك أربع عشرة سنة ولم تنسها. وماذا عن عواقب تلك الحادثة؟».

فقال ستيوارت: «أتقصد جلد الذات والشعور بالنفور؟».

أومأ جوليوس.

«يمكنني أن أخبرك بأنني كنت طبيباً ممتازاً، وأنّني لم، ولا للحظة واحدة، أنتهك أخلاق مهنتي مرة أخرى».

فقال جوليوس: «ستيوارت، أُقرّ بأنّك سددت دينك. لقد انتهت القضية».

«آمين»، ردّد عدد من الآخرين.

ابتسم ستيوارت ورسم شارة الصليب، وقال: «هذا يعيدني إلى قدّاس يوم الأحد في طفولتي. أشعر بأنني خرجت الآن من مقصورة الاعتراف وقد غُفر لي».

«دعوني أحكي لكم قصّة»، قال جوليوس. «منذ سنوات، عندما كنت في شنغهاي زرت كاتدرائية مهجورة. أنا ملحد، لكنّي أحبّ زيارة

الأماكن الدينية ـ فتصوّروا. حسناً، تجوّلت في أرجاء الكنيسة ثم جلست في مقصورة الاعتراف، في الجانب الذي يجلس فيه الكاهن، ووجدت نفسي أحسد كاهن الاعتراف. ما مقدار القوة التي يمتلكها! حاولت أن أنطق الكلمات، «مغفور لك يا بني، يا ابنتي» تخيّلت الثقة الشديدة التي يتمتّع بها لأنه يعتقد بأن سفينة تحمل المغفرة مباشرة من الكائن الذي يوجد في الأعلى. وكم بدت الأساليب التي أتبعها ضئيلة بالمقارنة مع أساليبه. لكن بعد ذلك، بعد أن غادرت الكنيسة، خرجت منها وأنا أطمئن نفسي بأنني على الأقل أعيش وفق مبادئ العقل ولا أعامل مرضاي كالأطفال بأن أصوّر لهم الأساطير على أنها حقيقة».

بعد فترة صمت قصيرة، قالت بام لجوليوس: «أتعرف يا جوليوس؟ لقد تغيّر شيء. لقد أصبحت مختلفاً عمّا كنت عليه قبل أن أغادر. أصبحتَ تحكي قصصاً عن حياتك، وتُظهر آراءك بالمعتقدات الدينية، في حين كنت تتحاشى ذلك دائماً في الماضي. يخيّل إليّ أن هذا ناجم عن تأثير مرضك، لكن على الرغم من ذلك، فإن ذلك يعجبني. يعجبني أنك أصبحت شخصياً أكثر».

أومأ جوليوس، وقال: «شكراً. لقد منحني هذا الصمت شعوراً بأنني أسأت إلى بعض المشاعر الدينية هنا».

«ليس أنا يا جوليوس، إذا كنت قلقاً بشأني»، قال ستيوارت، «إن استطلاعات الرأي التي تقول إن تسعين في المائة من الأمريكيين يؤمنون بالله تجعلني في حيرة من أمري. فقد هجرتُ الكنيسة منذ أن كنت مراهقاً، ولو لم أهجرها في ذلك الحين لهجرتها الآن بعدما رشح عن ولع القساوسة بالأطفال واعتدائهم عليهم».

«ولا أنا»، قال فيليب، «لديك أنت وشوبنهاور شيء مشترك فيما يتعلق بالدين. فقد كان يؤمن بأن زعماء الكنيسة يستغلون حاجة الإنسان المتأصّلة إلى الغيبيات ويعاملون الناس البسطاء على أنهم أطفال صغار،

ووضعوا أنفسهم في حالة من المكر الدائم برفض الاعتراف بأنهم يتعمدّون التستر على حقائقهم بالحكايات الرمزية».

أثار تعليق فيليب اهتمام جوليوس، لكنه عندما لاحظ أنه لم يبق من الوقت إلّا بضع دقائق، أعاد المجموعة إلى مسارها، وقال: «لقد حدثت أشياء كثيرة اليوم، وأُخذت مجازفات كثيرة. المشاعر؟ كان بعضكم هادئاً جداً ـ بام؟ فيليب؟».

فقال فيليب بسرعة: «لم يفتني أن ما كُشف هنا اليوم، وما سبّبه لي وللآخرين الكثير من العذاب غير الضروري، يتدفّق من سلطة الجنس العليا والشاملة التي علّمني معالجي الآخر، شوبنهاور، بأنها كامنة في داخلنا، أو كما نقول اليوم، متصلة بأسلاك في داخلنا».

«أعرف عبارات كثيرة قالها شوبنهاور عن هذا الأمر لأنني كنت أستشهد بها كثيراً في محاضراتي. دعوني أقتبس بضعة منها هنا: «يشكل [الجنس] أقوى وأكثر الدوافع جميعاً...ويكاد يكون الهدف النهائي لجميع الجهود البشرية. وفي كلّ ساعة... يقطع أكثر الأعمال جديّة، ويربك أحياناً... أعظم العقول البشرية الإنسانية. ولا يتردّد الجنس في التطفّل بنفاياته، والتدخّل في أبحاث المفكرين...».

فقاطعه جوليوس وقال: «فيليب، هذه أمور مهمة، لكن قبل أن نتوقّف اليوم، حاول أن تتحدّث عن مشاعرك أنت لا مشاعر شوبنهاور».

«سأحاول، لكن دعني أواصل ـ جملة واحدة أخيرة فقط: «وفي كلّ يوم يحطّم العلاقات القيّمة. وبالفعل فهو يسلب الضمير من الذين كانوا يتمتعون بالاحترام والاستقامة»، ثم توقّف فيليب وأضاف، «هذا ما أردت أن أقوله. انتهيت».

«لم نسمع مشاعرك يا فيليب»، قال توني، مستغلاً الفرصة لمواجهة فيليب.

هزّ فيليب رأسه وقال: «اجزعوا فقط كم أننا مساكين نحن البشر،

نحن الذين نعاني، ضحايا البيولوجيا الذين نملأ حياتنا بالشعور بالذنب من تصرفات طبيعية كالتي فعلها ستيوارت وريبيكا. ويتمثّل هدفنا جميعاً في أن نخلّص أنفسنا من عبودية الجنس».

بعد بضع لحظات من الصمت المعتاد الذي يعقب ما يقوله فيليب، استدار ستيوارت إلى بام، وقال: «أود أن أسمع منك اليوم. ما هي مشاعرك إزاء ما طرحته على المجموعة؟ تذكرت عندما فكرت في الاعتراف هنا. أظن أنني وضعتك في موقف صعب لأنك، بطريقة ما، لا تستطيعين أن تسامحينني من دون أن تسامحي فيليب أيضاً».

«إني أكنّ لك دائماً احتراماً كبيراً يا ستيوارت. ولا تنس أنني أتحسّس من هذه المسألة. لقد استغلّني طبيب ـ كان إيرل، زوجي السابق، الطبيب النسائي الذي كان يعالجني».

«تماماً»، قال ستيوارت، «هذا يزيد الأمور سوءاً». «كيف يمكنك أن تسامحيني من دون أن تسامحي فيليب وإيرل أيضاً؟».

«هذا غير صحيح يا ستيوارت ـ فأنت شخص أخلاقي. فبعد أن سمعتك اليوم وسمعت أنك نادم، فإني أشعر بذلك وأكثر. وتلك الحادثة التي حدثت في الفندق في ميامي لم تقنعني ـ هل قرأت رواية *الخوف من الطيران*؟».

عندما رأت بام ستيوارت يهزّ رأسه، واصلت كلامها، «ألق نظرة على الكتاب. إريكا يونغ تدعو ما حدث لك «نيكة بسيطة بلا سحاب». إنها عملية متبادلة، لقاء عفوي. كنتَ لطيفاً، ولم يصب أحد بأذى، وتحمّلت مسؤولية ما فعلت للتأكد من أنها على ما يرام بعد ذلك. واستخدمت الحادثة كبوصلة أخلاقية منذ ذلك الحين. أما فيليب؟ ماذا يمكن للمرء أن يقول عن رجل يتخذّ من هايدغر وشوبنهاور مثالاً له؟ من بين جميع الفلاسفة الذين عاشوا، كان هذان الاثنان يشكّلان حالتين من حالات الفشل الذريع كبشر. أما ما فعله فيليب فهو عمل لصوصي لا يغتفر، بدون ندم».

فقاطعتها بوني وقالت: «توقفي يا بام، هل لاحظت أنه عندما حاول جوليوس أن يوقف فيليب، أصرّ بقوة على ذكر جملة واحدة أخرى بأن الجنس يسلب ضمير الشخص ويحطّم العلاقات. أتساءل ألا يشي ذلك بشيء من الندم؟ وألم يكن ذلك موجّهاً لك؟».

«إذا كان يريد أن يقول شيئاً، فليقله لي مباشرة. لا أريد أن أسمعه بعبارات شوبنهاور».

«دعوني أتدّخل هنا»، قالت ريبيكا، «لقد غادرت الجلسة الماضية وأنا حزينة من أجلك ومن أجلنا جميعاً، بما في ذلك فيليب الذي، دعونا نواجه الأمر، أسيئت معاملته. في البيت بدأت أفكّر في عبارة المسيح التي تقول من كان بدون خطيئة فليرم أول حجرة ـ لهذا علاقة كبيرة بما كشفته اليوم».

«علينا أن نتوقّف»، قال جوليوس، «لكن فيليب، هذا تماماً ما كنت أسعى إليه عندما سألتك عن مشاعرك».

هزّ فيليب رأسه مرتبكاً.

«هل فهمت اليوم بأن ريبيكا وستيوارت قدّما لك هدية؟».

استمر فيليب يهزّ رأسه، وقال: «لم أفهم».

«هذا واجبك المنزلي يا فيليب. أريدك أن تفكّر جيداً في الهدايا التي قدمت لك اليوم».

إذا لم تشأ أن تكون أُلْعُوبَة في يد كلّ وغد
ومدعاة سخرية كلّ أحمق،
فالقاعدة الأولى هي أن تكون متحفظاً ومنيعاً.

٢٤

تمشّى فيليب ساعات عدّة بعد انتهاء الجلسة، وسار من أمام قصر الفنون الجميلة، تلك الصالة ذات الأعمدة المتهالكة التي كانت قد شُيّدت من أجل إقامة المعرض الدولي في عام ١٩١٥، ودار حول البحيرة المجاورة مرّتين وهو يراقب البجعات فيها، ثم راح يسير على امتداد مرسى القوارب ودرب كريسي فيلد بجانب خليج سان فرانسيسكو حتى وصل إلى قاعدة جسر غولدن غايت. ما الشيء الذي طلبه جوليوس منه بأن يفكّر فيه؟ تذكّر أن ما طلبه منه هو أن يفكّر في هدية ستيوارت وريبيكا، لكن قبل أن يركّز تفكيره كان قد نسي الوظيفة التي كُلّف بها. ومرة تلو أخرى، أبعد كلّ ما يدور في رأسه من أفكار وحاول أن يركّز على صور تهدئ من أعصابه ـ صحوة البجعات، أمواج المحيط الهادئ المتراقصة تحت غولدن غايت ـ لكنّه كان لا يزال مشتت الذهن على نحو غريب.

سار عبر البريسيديو، القاعدة العسكرية السابقة المطلّة على فم الخليج، حتى شارع كليمنت بأحيائه العشرين التي تحفّها المطاعم الآسيوية المتلاصقة على الجانبين. اختار مطعماً فيتنامياً بسيطاً، وعندما وصل حساء لحم البقر الذي طلبه، جلس بهدوء لبضع دقائق، وراح

يستنشق بخار عشب الليمون المتصاعد من مرق الحساء ويحدّق في كتلة معكرونة الرزّ اللامعة. بعد أن تناول بضع لقيمات طلب أن يوضع ما تبقى من الحساء في علبة من أجل كلبه.

بصورة عامة، لم يكن فيليب يهتم كثيراً بالطعام، وكان يتناول عادة على الفطور قطعة من الخبز المحمّص عليها مربى، مع كوب من القهوة؛ وكان يتناول وجبة طعام رئيسية عند الظهر في كافتيريا الطلاب في الجامعة؛ وفي المساء، كان يتناول وجبة رخيصة صغيرة من الحساء أو السلطة. وكان هو الذي يختار وجبات طعامه. وكان عزاؤه، في الواقع كان يبتسم أحياناً ابتسامة عريضة عندما يفكّر بعادة شوبنهاور الذي كان يدفع ثمن وجبتين في النادي الذي اعتاد أن يتناول فيه طعامه لكي لا يجلس أحد بجانبه.

سار باتجاه البيت إلى كوخه المؤلف من غرفة نوم واحدة، قليلة الأثاث مثل مكتبه، في حديقة منزل كبير يقع في حي باسيفيك هايتس، غير بعيد عن مكتب جوليوس. كانت الأرملة التي تعيش وحيدة في البيت قد أجرّته الكوخ بمبلغ زهيد. فقد كانت بحاجة إلى دخل إضافي، وكانت شديدة التمسك بخصوصيتها، لكنها كانت في الوقت نفسه ترغب بوجود إنساني غير مرئي بالقرب منها. وكان فيليب الرجل المناسب لذلك، فعاشا بالقرب من أحدهما الآخر، لكنهما كانا منعزلين، لسنوات عديدة.

كان فيليب يجد سعادة في التحية الحماسية بالنباح وهزّ الذيل والقفزات البهلوانية في الهواء التي يحيّه بها رغبي، كلبه، لكن ليس في هذا المساء. فلم يعد التريّض مع كلبه مساء كل يوم ولا ممارسة أيّ من النشاطات الروتينية الأخرى تجلب له الهدوء. أشعل غليونه، واستمع إلى سمفونية بيتهوفن الرابعة، وقرأ بدون تركيز من شوبنهاور وأبكتيتوس. ذات مرة لفت انتباهه بالكامل، لبضع لحظات فقط، فقرة محدّدة من أبكتيتوس.

إن كنت ترغب جدياً في دراسة الفلسفة، فاستعدّ منذ البداية لأن

يسخر منك الناس. وتذكّر أنك إذا كنت مواظباً، فإن هؤلاء الأشخاص أنفسهم سيبدون لك الاحترام والإعجاب بعد ذلك... وتذكّر أنك إذا صادف وأن وجّهت اهتمامك إلى الظواهر الخارجية، ولبهجة أي شخص، فتأكد أنك تكون قد دمّرت منهج حياتك.

ومع ذلك، فقد ظلّ شعوره بالقلق ـ قلق لم ينتبه منذ فترة، حالة عقلية جعلته في السنوات الماضية مثل بهيمة مهووسة بالجنس. دخل إلى مطبخه الصغير، وأزال صحون فطوره عن الطاولة، ثم فتح كمبيوتره، واستسلم إلى الرذيلة الوحيدة التي أدمن عليها: فقد دخل إلى نادي الشطرنج على الإنترنت ولعب ألعاب الهجوم الخاطف بصمت لمدة خمس دقائق. وفي الساعات الثلاث التالية لعب من دون أن يصرّح عن اسمه. وكان غالباً ما يفوز. وعندما يخسر، فإن ذلك يكون عادة بسبب إهماله، لكن انزعاجه لم يدم طويلاً: وطبع على الفور «أريد لعبة»، ولمعت عيناه ببهجة طفولية عندما بدأت لعبة جديدة.

عندما بلغت الثلاثين بدأت أشعر بالغثيان والتعب من اعتبار المخلوقات أنداداً لي وهي ليست كذلك.
وعندما تكون القطة صغيرة فهي تلعب بالكرات الورقية لأنها تعتبرها أشياء حيّة تشبهها.
الشيء نفسه ينطبق عليّ مع الكائنات التي تسير على قدمين.

٢٥

حيوانات النّيص،
والعبقرية،
ودليل بغض البشر
إلى العلاقات الإنسانية

تُعدّ قصة النّيص واحدة من أفضل المقتطفات المعروفة بين أعمال شوبنهاور التي تنقل رأيه المتشدّد حول العلاقات الإنسانية.

ذات يوم شتوي بارد تكوّمت حيوانات النّيص حول بعضها كي لا تتجمّد من شدّة البرد ولتستمّد الدفء الذي تنقله إحداها إلى الأخرى. لكنّها سرعان ما بدأت تشعر بتأثير ريش كلّ منها على الأخرى، فابتعدت عن بعضها. لكنها عندما شعرت بالحاجة إلى الدفء ثانية، عادت وتكوّمت حول بعضها، وهكذا تكرر العائق الذي تحدثه ريشاتها، فوقعت بين شرّين إلى أن اكتشفت المسافة المناسبة التي يمكنها احتمال

أحدها الآخر. وهكذا، فإن احتياجات المجتمع الناجمة عن فراغ ورتابة حياة البشر، تدفعهم لأن يتجمعوا حول بعضهم، لكن الكثير من صفاتهم الشنيعة والبغيضة تجعلهم يتعدون عن بعضهم بعضاً مرة أخرى.

بعبارة أخرى، تحمّل الاقتراب من الآخرين كلما استدعت الضرورة من أجل البقاء، وتحاشاه كلما أمكن ذلك. ويوصي معظم الأطباء النفسانيين المعاصرين بلا تردد بعلاج حالات العزلة الاجتماعية الشديدة. وفي الواقع فإن معظم ممارسات علاج التحليل النفسي تتطرق إلى مواقف العلاقات الشخصية الإشكالية - ليس تجنب المجتمع فحسب وإنما السلوك الاجتماعي غير المهايئ في جميع ألوانه وأشكاله المتعددة: التَّوَحُّد، الانطواء، رهاب المجتمع، الشخصية الفصامية، الشخصية المعادية للمجتمع، الشخصية النرجسية؛ عدم القدرة على الحبّ، تفخيم الذّات، ومَحْوُ الذّات.

هل يوافق شوبنهاور؟ هل كان يعتبر مشاعره تجاه الآخرين غير مهيئة؟ هذا أمر غير محتمل. فقد كانت مواقفه قريبة جداً من جوهر شخصيته، متأصلة فيه بعمق إلى حد أنه لم يكن يعتبرها مسؤولية مفروضة عليه. بل على العكس، كان يعتبر بغضه للبشر وعزلته فضيلة. لاحظ مثلاً الفقرة الأخيرة في قصته عن حيوانات النّيص: «من يمتلك قدراً كبيراً من الدفء الداخلي يفضّل أن يبتعد عن المجتمع لكي لا يسبب المشاكل والإزعاج للآخرين ولا يسببوا له ذلك».

ويرى شوبنهاور أن الإنسان الذي يتمتع بقوى أو خصائص داخلية ليس بحاجة إلى أي مساعدة مهما كانت من الآخرين، ويكون مكتفياً بذاته. بالتضافر مع إيمانه الراسخ بعبقريته، بررت له هذه الفرضية طوال حياته تجنّب الاقتراب من الآخرين. وفي أحيان كثيرة، ذكر شوبنهاور بأن مكانته في «أعلى مراتب البشرية» تفرض عليه أولوية ألّا يبدّد ملكاته الفكرية في لقاءات اجتماعية عقيمة، وإنما لأن يحوّلها إلى خدمة البشرية. فقد كتب «إن ذكائي ليس ملكاً لي وإنما ملك للعالم».

تتخلل العديد من كتابات آرثر عبارات صارخة تشير إلى تفوق قدراته العقلية وذكائه إلى درجة أن المرء قد يراه شخصاً متبجحاً، لكن الواقع يثبت أن تقديره لقدراته العقلية صحيح ودقيق. وعندما قرّر آرثر أن يصبح فيلسوفاً، أضحت قدراته العقلية والثقافية الهائلة بادية لجميع من حوله. فقد أعرب المعلّمون الذين كانوا يعدّونه لدخول الجامعة عن دهشتهم للتقدم الذي حققه في سنّ مبكّرة.

وفي النهاية أصبح غوته، ذلك الرجل من القرن التاسع عشر الذي كان آرثر يعتبره نداً له في الذكاء والمعرفة، يحترم عقل آرثر. وكان غوته قد تجاهل آرثر الشاب في صالون يوهنا عندما كان آرثر يستعد لدخول الجامعة. وعندما طلبت يوهنا منه أن يكتب رسالة دعم لطلب آرثر لدخول الجامعة، ظلّ غوته مبهماً بمهارة في الرسالة التي كتبها إلى صديق قديم، أستاذ اللغة اليونانية: «يبدو أن شوبنهاور الشاب قد بدّل دراساته ومهنه مرات عدّة. وستحكم أنت بنفسك على ما أنجزه وفي أي اختصاص، وأرجو أن تمنحه لحظة من وقتك بدافع الصداقة من أجلي».

وبعد سنوات عدّة، قرأ غوته أطروحة الدكتوراه التي قدّمها آرثر وأُعجب كثيراً بالشاب الذي لم يتجاوز السادسة والعشرين من العمر، إلى درجة أنه، في أثناء إقامة آرثر التالية في فايمار، كان يرسل خادمه بانتظام ليأتي به إليه وليتبادلا أحاديث مطولة خاصة. كان غوته يريد شخصاً يبحث معه في عمله الذي بذل فيه جهداً كبيراً حول نظرية الألوان. ومع أن شوبنهاور لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع بالذات، فقد اعتبر غوته أن ذكاءه الفطري النادر سيجعله شخصاً جديراً بالمناقشة. وتبيّن له أنه كان أكثر مما كان يتوقع منه بكثير.

تمتّع شوبنهاور الذي حظي بتكريم عظيم في البداية، بتأكيد غوته وكتب إلى أستاذه في برلين: «صديقك، غوته العظيم، جيد، هادئ، أنيس، كُرّم اسمه إلى الأبد؟» إلّا أن خلافاً نشأ بينهما بعد أسابيع عدّة. فقد اعتقد آرثر أن غوته أبدى بعض الملاحظات المهمة حول الرؤية لكنه

أخطأ في نقاط حيوية عدّة ولم يتمكن من الخروج بنظرية شاملة عن اللون. وتوقف عن كتاباته العلمية. ثم انهمك آرثر في وضع نظريته الخاصة عن الألوان، مختلفاً عن غوته في مجالات حاسمة عدّة، ونشرها في سنة ١٨١٦. لقد وضعت غطرسة شوبنهاور حداً لصداقتهما. وفي يومياته، وصف غوته نهاية علاقته مع آرثر شوبنهاور: «لقد ناقشنا عدداً كبيراً من القضايا التي اتفقنا عليها، لكن، في النهاية، تبيّن أن اختلافاً محدداً لا يمكن تجنبه، مثل صديقين سارا معاً لمسافة بعيدة، يتصافحان، أحدهما يريد أن يتوجه شمالاً والآخر جنوباً، وسرعان ما فقد أحدهما رؤية الآخر».

شعر آرثر بالإساءة والغضب لطرده، لكنه ظل يكنّ الاحترام لغوته لذكائه وظل طوال حياته يكرّم اسم غوته ويستشهد بأعماله.

كانت لدى آرثر أشياء كثيرة يريد أن يقولها عن الفرق بين العباقرة والموهوبين. فبالإضافة إلى تعليقه بأن الموهوبين قد يصيبون هدفاً لا يستطيع الآخرون بلوغه، بينما يستطيع العباقرة أن يصيبوا هدفاً لا يستطع الآخرون رؤيته، وأشار آرثر إلى أن الموهوبين يأتون إلى الوجود بحسب احتياجات العصر ويكون بقدرتهم تلبية هذه الاحتياجات، لكن سرعان ما تبهت أعمالهم وتختفي في الجيل التالي. (هل كان يفكّر في أعمال أمّه؟) «أما العبقري فهو يضيء على عصره مثل مُذَنَّب يشقّ طريقه بين الكواكب... لا يستطيع أن يمضي يداً بيد في مسار الثقافة المنتظم: بل على العكس فهو يلقي بأعماله على مسافة بعيدة جداً أمامه على الطريق».

وهكذا، فإن أحد جوانب قصة النّيص تبرز أن البشر ذوي القيمة الحقيقية، لا سيّما العباقرة، ليسوا بحاجة للحصول على الدفء من الآخرين .إلّا أن هناك جانباً آخر أكثر حلكة في قصة النّيص، وهي أن المخلوقات من نوعنا كريهة وبغيضة، ويجب تجنبها. وسنجد هذا الموقف المبغض للبشر في جميع كتابات شوبنهاور المليئة بالازدراء والتهكّم. انظر إلى مطلع هذه الفقرة من مقالته المهمة *حول مذهب فناء*

طبيعتنا الحقيقية بالموت: «خلال تواصلنا اليومي، إذا سألنا واحد من الكثيرين الذين يريدون أن يعرفوا كلّ شيء لكنهم لن يتعلّموا شيئاً عن استمرار الوجود بعد الموت، فإن الجواب المناسب وأكثرها صحة سيكون: بعد موتك ستكون كما كنت قبل ولادتك».

وتستمرّ المقالة بتحليل ثاقب ورائع عن استحالة نوعين من العدم، وتقدّم في مجملها بصيرة لكلّ إنسان تأمّل في طبيعة الموت. لكنه لماذا يبدأ كلامه بإهانة مجانية ـ «واحد من الكثيرين الذين يريدون أن يعرفوا كلّ شيء لكنهم لن يتعلموا شيئاً عن استمرار الوجود بعد الموت»؟ ـ لماذا يلوّث أفكاراً سامية بإهانة تافهة؟ هذا التراصف المتنافر شائع في كتابات شوبنهاور. كم هي مزعجة ومربكة رؤية مفكّر يتمتع بهذا القدر من الذكاء والموهبة، لكنه منعزل اجتماعياً.

ويتحسر شوبنهاور في كلّ كتاباته على الفترات التي أمضاها في إقامة علاقات اجتماعية وأحاديث مع آخرين، فيقول: «من الأفضل ألّا تتكلّم أبداً على أن تشارك في نقاش عقيم ومملّ مع الكائنات التي تسير على قدمين».

ورثا بأنه كان يبحث طوال حياته عن «إنسان حقيقي» لكنه لم يجد سوى «التعساء البؤساء ذوي الذكاء المحدود والنزعة الحقيرة» (ما عدا غوته الذي يستثنيه دائماً من هذا الهجاء).

وفي ملاحظة وردت في سيرته الذاتية، يقول: «إن أيّ تواصل مع البشر يكاد يكون تلويثاً، تدنيساً. لقد انحدرنا إلى عالم تسكنه مخلوقات تافهة لا ننتمي إليها. يجب أن نقدّر ونكرّم الحفنة القليلة التي هي الأفضل. لقد ولدنا لنعلّم البقية، لا لنرتبط بهم».

إذا أمعنّا النظر في كتاباته، فقد نجد بياناً يدعو إلى بغض البشر: قواعد سلوك البشر التي يجب أن نعيش بموجبها. تخيّل ماذا يمكن أن يفعل آرثر، لو أن هذا البيان قد طُبّق في العلاج الجماعي المعاصر.

- «لا تخبر صديقاً بالأشياء التي يجب ألّا يعرفها عدوك».
- «اعتبر أن كلّ الأمور الشخصية أسرار ويجب أن تظل محجوبة تماماً حتى عن أقرب أصدقائنا... فإذا تغيّرت الظروف فقد تصبح الأشياء التي يعرفونها ضدنا».
- «إن عدم إفساح المجال للحبّ والكراهية أحد نصفي الحكمة الشاملة: إن عدم قول شيء وعدم تصديق أي شيء هو النصف الآخر».
- «سوء الظن أمّ السلامة».
- «إن نسيان الصفات السيئة لشخص في وقت ما مثل إلقاء نقود اكتُسبت بمشقة. يجب أن نحمي أنفسنا من ألفة حمقاء ومن صداقة حمقاء».
- «الوسيلة الوحيدة لإبداء التفوق في التعامل مع الآخرين هي أن تُظهر لهم بأنك في غنى عنهم».
- «تجاهل الآخرين يكسبك الاحترام».
- «إن كنّا نكنّ احتراماً حقيقياً لأحد فيجب علينا أن نظهره له كما لو كنا نخفي جريمة».
- «من الأفضل أن تترك الأشخاص كما هم على أن تعاملهم بما هم ليسوا كذلك».
- «يجب ألّا نبدي الغضب والكراهية إلّا في تصرفاتنا... فالحيوانات ذات الدم البارد هي السامّة فقط».
- «عندما تكون مهذباً، ودوداً، فإنك تستطيع أن تجعل الناس مطيعين ولطيفين: لذلك فإن التهذيب بالنسبة للطبيعة البشرية مثل الدفء بالنسبة للشمع».

هناك بضع طرائق تجعلك واثقاً من جعل الناس في مزاج مرح
أكثر من أن تحدّثهم عن مصيبة حلّت بك مؤخراً،
أو أن تفصح لهم عن بعض مواطن الضعف في شخصيتك.

٢٦

في الجلسة التالية، ألقى جيل بجسده الضخم على الكرسي ليختبر حدود تحمّل الكرسي وانتظر حتى وصل الأعضاء الآخرون جميعاً. ثم افتتح الجلسة، وقال: «إذا لم يكن لدى أحد شيء يريد أن يقوله، فأنا أريد أن أواصل تمرين إفشاء الأسرار».

«دعوني أُقحم ملاحظة تحذيرية هنا»، قال جوليوس، «لا أظن أن القيام بهذا التمرين بالذات فكرة جيدة. أظن أنكم تقومون بعمل رائع في المجموعة عندما تفصحون عن أنفسكم بالكامل، لكن من المهم أن نتحرّك وفق وتيرتنا وألّا نسمح لأيّ طريقة أن تضغط علينا لنعبّر عن أنفسنا».

«إني أسمعك»، أجاب جيل، «لكني لا أشعر بأي ضغط. أريد أن أتكلّم عن هذا الأمر، ولا أريد أيضاً أن أترك ريبيكا وستيوارت معلّقين هناك وحدهما. هل توافقون؟».

بعد أن لاحظ الإيماءات الصادرة عن الأعضاء، واصل جيل كلامه: «وسرّي هذا يعود إلى الفترة عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري. كنت عذراء آنذاك، وعلى أبواب سن البلوغ. كان وجهي مكسواً بحبّ الشباب، وكانت عمّتي فاليري، أصغر أخوات أبي في أواخر العشرينات

أو أوائل الثلاثينات من عمرها... تزورنا وتقيم عندنا بين الحين والآخر ـ كانت تتنقل بين وظائف كثيرة. كانت علاقتنا ممتازة، وغالباً ما كنا نلعب عندما لا يكون والداي في البيت ـ نلعب المصارعة، ويدغدغ أحدنا الآخر، ونلعب الورق. وفي إحدى المرات، عندما غششت في لعبة بوكر التعري وجعلتها تخلع ثيابها، بدأت الأمور تتحوّل إلى ألعاب جنسية حقيقية ـ لا مجرد دغدغة وإنما بدأ أحدنا يتحسس جسد الآخر. لم تكن لديّ خبرة آنذاك، وكانت هرموناتي تغلي ولم أكن أعرف حقيقة ما يجري في داخلي، لكنها عندما قالت لي أدخله، قلت لها نعم يا سيدتي، وفعلت ما طلبته مني. ثم أصبحنا نفعلها كلما أمكننا ذلك، حتى ذلك اليوم، بعد حوالي شهرين، عندما عاد والداي إلى البيت قبل موعدهما ورأيانا ونحن في ذلك ـ ماذا يسمونه ـ بالجرم، بالجرم؟».

نظر جيل نحو فيليب الذي فتح فمه ليجيب لكن بام سبقته، وقالت بسرعة البرق، «بالجرم المشهود».

«يا إلهي، بهذه السرعة. نسيتُ أنه يوجد أستاذان هنا؟» دمدم جيل الذي واصل حكايته: «هذا الأمر لخبط كلّ شيء في أسرتنا. لم يغضب أبي كثيراً لما حدث لكن أمّي غضبت كثيراً، وهكذا غادرت العمّة فال البيت. غضبت أمّي من أبي لأنه ظلّ ودوداً ولطيفاً معها».

توقّف جيل، وتطلّع حوله، ثم أضاف، «يمكنني أن أفهم سبب انزعاج أمّي، لكن، كان ذلك ذنبي بقدر ما كان ذنب عمّتي فال».

«ذنبك وأنت لم تتجاوز الثالثة عشرة من العمر؟ هيا»، قالت بوني. هزّ الآخرون ـ ستيوارت وتوني وريبيكا رؤوسهما موافقين.

قبل أن يتمكّن جيل من الردّ، قالت بام، «عندي ردّ يا جيل. قد لا يكون الردّ الذي تتوقّعه لكنه شيء ترددت كثيراً في أن أقوله منذ فترة، حتى قبل أن أسافر. لا أعرف كيف أقول ذلك بلباقة يا جيل، لذلك لن أحاول ذلك ـ سأقوله بصراحة. باختصار إن قصّتك لا تثير لديّ أية

مشاعر، وفي أشياء كثيرة، أنت نفسك لا تثير فيّ شيء. ومع أنك تقول إنك تريد أن تفصح عن نفسك كما فعلت ريبيكا وستيوارت، فأنا لا أرى قصتك شخصية».

وتابعت بام، «أعرف أنك ملتزم بالمجموعة، وتعمل بهمة ونشاط، وتفعل الكثير لمساعدة الجميع، فإذا كانت لدى أحدهم أي مشكلة، فإنك تسرع إلى مساعدتهم عادة. يخيّل إليك أنك تفصح عن نفسك، لكنك لا تفعل ذلك حقيقة - إنك واهم - بل تظل متوارياً. نعم، هكذا هو أنت - مختبئ، مختفٍ، متوارٍ. وقصّتك عن عمّتك مثال على ما أعنيه. فهي تبدو لك شخصية، لكنها ليست كذلك. إنها خدعة لأنها ليست قصّتك، إنها قصّة عمّتك فال، وبالطبع سيتدّخل الجميع ويقولون، «لكنّك لم تكن سوى طفل. كنت في الثالثة عشرة. كنت الضحيّة»، وهل بإمكانهم أن يقولوا غير ذلك؟ وقصصك عن زواجك تدور دائماً حول روز، لا عنك أبداً. ودائماً تتلقى نفس الردّ منّا، «لماذا تتحمّل هذا الخراء».

«عندما كنت أمارس التأمّل في الهند - اعتراني ملل شديد ولم أكن أعرف ماذا أفعل - كانت تخطر لي كثيراً هذه المجموعة. لا تصدّقون كم كانت تخطر ببالي. كنت أفكّر في كلّ واحد منكم، ما عداك يا جيل. إني أكره أن أقول ذلك، لكنك لم تكن تخطر ببالي. فعندما تتكلّم، لا أعرف إلى من تتكلّم - لعلك تكلّم الجدران، أو الأرضية، لكنّي لم أشعر قط بأنك تكلّمني أنا شخصياً».

ساد صمت. بدا أعضاء المجموعة مرتبكين لا يعرفون كيف يجيبون. ثمّ أطلق توني صافرة، وقال: «أهلاً بك مرة أخرى يا بام».

قالت بام: «لا معنى لوجودي هنا إن لم أكن صادقة».

«ما هو شعورك يا جيل؟» سأله جوليوس.

«أوه، نفس الشعور عندما أتلقى ركلة في بطني - وتندلق منه بضع

قطع من البنكرياس ـ هل هذا شخصي بما يكفي يا بام؟ انتظري، انتظري، آسف؛ لا تجيبي. لم أقصد ذلك. أعرف أنك تقولين كلاماً صريحاً. وأعرف أنك في أعماقك على حقّ».

«قل المزيد عن ذلك يا جيل عن أنها على حقّ»، قال جوليوس.

«إنها على حقّ. يمكنني أن أبوح بالمزيد. أعرف ذلك. عندي أشياء يمكنني أن أقولها لكم هنا».

«لمن مثلاً؟» سألت بوني.

«أنتِ. أنا أحبّك حقاً يا بوني».

«من الجيد سماع جيل، لكنّ ذلك لا يزال شخصياً جداً».

«لقد سررت كثيراً عندما أطلقتِ عليّ اسم عملاق منذ أسبوعين. ولا أقبل أن تقولي عن نفسك إنك قبيحة ولست بقدر جمال ريبيكا ـ لديّ ميل دائماً ـ ربما منذ العمّة فال ـ إلى النساء الأكبر سناً. وسأكون صادقاً، فقد راودتني بعض التخيّلات الجنسية عندما دعوتني للمكوث في بيتك عندما لم أرغب في أن أعود إلى البيت، إلى روز».

«ألهذا السبب لم تقبل عرض بوني؟» سأل توني.

«طرأت أمور أخرى».

عندما اتضّح أن جيل لن يسهب في الحديث، سأله توني، «هل تريد أن تقول شيئاً آخر؟».

جلس جيل للحظة، رأسه الأصلع يلمع بحبات العرق، ثم استجمع عزيمته، وقال، «ماذا أقول لك، دعني أنتقل إلى بقية أعضاء المجموعة وأتحدّث عن مشاعري». بدأ بستيوارت الجالس بجانب بوني، «لا أكنّ لك شيئاً يا ستيوارت سوى الإعجاب. ولو كان لديّ أطفال، لكنت محظوظاً في أن تكون طبيبهم. إن ما ذكرته الأسبوع الماضي لا يغيّر شيئاً من مشاعري».

«وأنتِ يا ريبيكا، أصدقك القول، إنك تخيفينني ـ فأنت امرأة مثالية

جداً، جميلة جداً، ونقية جداً، والشيء الذي حدثتنا عنه في لاس فيغاس لا يغيّر مشاعري تجاهك ـ فأنت لا تزالين نقية جداً بالنسبة لي، وأثق بك كثيراً. ربما يعزى ذلك لأنني مرتبك جداً الآن، حتى إنني لا أتذكّر لماذا أنتِ هنا في العلاج. وتصوير ستيوارت لك بأنك دمية من خزف ـ وهذا يبدو صحيحاً ـ قد تكونين هشّة قليلاً، وقد تكون لديك بعض الحواف الحادّة التي لا أعرفها».

«وأنتِ يا بام، أنتِ مباشرة، صريحة، أذكى شخص التقيت به في حياتي إلى أن جاء فيليب ـ يستطيع أن يتفوق عليك. أعرف أنني لا أريد أن أخطئ بحق أيّ منكما. لكن بام، عندك مشاكل مع الرجال. لقد سببّوا لك صعوبات، لكن، مرة أخرى، فأنت تكرهيننا. كلّنا. يصعب عليك أن تميّزي بين الدجاجة والبيضة».

«وأنت يا فيليب، كأنك تعيش في طبقة أخرى أو في عالم آخر. لكنّي أتساءل عنك. أتساءل هل يوجد لديك صديق ـ لا أستطيع أن أراك بصحبة أصدقاء تحتسي معهم كأساً من البيرة وتتحدّث معهم عن فريق *الجيانتس*. لا أستطيع أن أرى أنك تمضي وقتاً ممتعاً أو أنك تحبّ أحداً. وسأسألك السؤال الحقيقي الذي يشغلني كثيراً: لماذا أنت شخص وحيد؟».

وواصل جيل كلامه وقال: «توني، إنك تسحرني، فأنت تعمل بيديك، أنت حقاً تفعل أشياء، ولا تدفع أرقاماً مثلي. أتمنّى ألّا تخجل من عملك».

«حسناً، لقد تحدثت عن الجميع».

«لا، ليس الجميع»، قالت ريبيكا، ونظرت باتجاه جوليوس.

«آه، جوليوس؟ إنه من المجموعة، لكنه ليس في المجموعة».

«ماذا يعني من المجموعة؟» سألت ريبيكا.

«لا أعرف، مجرد عبارة لطيفة سمعتها وأردت أن استعملها.

جوليوس ـ إنه هنا فقط من أجلي، من أجل الجميع، إنه أعلى منّا. الطريقة التي....».

«هو؟» سأل جوليوس، متظاهراً بأنه يبحث بين أعضاء المجموعة، «أين هو هذا الرجل؟».

«حسناً، أعني أنت يا جوليوس، الطريقة التي تعالج فيها مرضك ـ أقصد أنه أمر مثير للإعجاب ـ لن أنساه».

صمت جيل. ظلّ انتباه الجميع موجهاً إليه، لكنّه زفر زفرة عالية «أوووووه». وبدا كأنه اكتفى بذلك، وعاد واستقر في كرسيه، يبدو مرهقاً، وأخذ منديلاً وجفف وجهه ورأسه.

بعض المشاعر مثل «عمل جيد، وتحمّلت بعض المجازفات» أعربت عنها ريبيكا وستيوارت وتوني وبوني، أما بام وفيليب فقد ظلا صامتين.

«كيف كان ذلك يا جيل؟ هل أنت راض؟» سأله جوليوس.

أومأ جيل وقال: «لقد مهدّت الأرضية لشيء جديد. أرجو ألا أكون قد أسأت إلى أحد».

«ماذا عنكِ يا بام؟ هل أنت راضية؟».

«لقد اعتُبرت اليوم بأنني كلبة المجموعة».

«جيل، دعني أطلب منك أن تفعل شيئاً»، قال جوليوس، «تخيّل مواصلة الإفصاح عن الذات، في مقياس نعتبر فيه الرقم واحد البوح الأكثر أماناً، الشيء الذي يمكن التحدث عنه في حفلة كوكتيل؛ وفي مقياس آخر، سنطلق عليه الرقم عشرة، وهو البوح الأكثر عمقاً وأشدّه مجازفة يمكن أن تتخيّله. فهمت؟».

أومأ جيل.

«الآن فكّر في ما قيل. قل لي يا جيل، ما العلامة التي تعطيها لنفسك؟».

مواصلاً إيماءته، أجاب جيل بسرعة، «ربما أعطي نفسي رقم أربعة أو ربما خمسة».

فأجاب جوليوس الذي أراد التحايل على اسْتِذْهان أو ظهور دفاعات أخرى من ترسانة مقاومة جيل، على الفور، «والآن قل لي يا جيل، ماذا يمكن أن يحدث إذا أردت أن ترفعها ثلمة أو ثلمتين».

فأجاب جيل بدون تردد «إذا كان عليّ أن أرفعها ثلمة أو ثلمتين، فإني سأخبر أعضاء المجموعة بأنني كنت مدمناً على الكحول وأنني كنت أشرب كلّ ليلة حتى أفقد الوعي».

ذُهل الجميع، ولم يكن جوليوس أقل ذهولاً من الآخرين. فقبل أن ينضم جيل إلى مجموعة العلاج الجماعي، كان جوليوس يعالجه فردياً لمدة سنتين، ولم يذكر جيل قط بأنه يعاني من مشكلة إدمان على الكحول. كيف يمكن أن يكون ذلك؟ كان جوليوس يثق بمرضاه بشكل فطري. كان أحد تلك الأرواح المتفائلة التي زعزعتها الازدواجية كثيراً؛ كان متقلّباً ويحتاج إلى صياغة رؤية جديدة عن جيل. وعندما أخذ يفكّر بصمت بسذاجته ورهافة الحقيقة، تجهّم مزاج الجميع وانتقل من الريبة إلى التوتر.

«ماذا، أتمزح».

«لا أستطيع أن أصدّق ذلك. كيف تمكّنت من المجيء إلى هنا أسبوعاً بعد أسبوع وتخفي عنا ذلك؟».

«لم تشرب معي قط، ولا حتى كأس بيرة. ماذا يعني كلّ ذلك؟».

«اللعنة! عندما أفكّر في كلّ المحاولات العقيمة التي خدعتنا بها، طوال هذا الوقت الذي أهدرناه».

«أيّ نوع من الألعاب تلعبها؟ ـ كلّ هذه أكاذيب ـ أقصد ما قلته عن مشاكل روز، حقدها، ورفضها ممارسة الجنس، ورفضها أن تنجب

طفلاً، ولم تقل كلمة واحدة عن المشكلة الحقيقية - إدمانك على الكحول».

عندما استعاد جوليوس توازنه، فهم ما يجب أن يفعله. فقد كانت إحدى البديهيات الأساسية التي يعلّمها لطلابه عن العلاج الجماعي *أنه يجب عدم معاقبة الأعضاء أبداً عندما يرغبون في الكشف عن ذواتهم. بل على العكس، يجب تأييد المجازفة دائماً وتشجيعها.*

آخذاً ذلك في الاعتبار، قال: «إني أتفهم فزعكم لعدم قيام جيل بإخبارنا عن هذه المشكلة قبل الآن، لكن يجب ألّا ننسى أمراً مهماً: *لقد تكلم جيل اليوم*، لقد وثق بنا». وبينما كان يتكلّم، ألقى نظرة، للحظة فقط، على فيليب، راجياً أنّ يتعلّم مما حدث شيئاً عن العلاج الجماعي، ثمّ نظر إلى جيل، وأضاف، «أتساءل ما الذي جعلك تغتنم *هذه الفرصة اليوم*؟».

ركّز جيل الذي اعتراه خجل شديد لمواجهة الآخرين، انتباهه على جوليوس وأجاب بنبرة استنكار، «أظن أن البوح المحفوف بالمخاطر في الجلستين الأخيرتين - الذي بدأت مع بام وفيليب، ثم ريبيكا وستيوارت - أنا متأكّد تماماً بأن ذلك جعلني أستطيع أن أقول...».

«منذ متى؟» قاطعته ريبيكا، «منذ متى وأنت مدمن على الكحول؟».

«المفاجأة هي أنني لست متأكّداً. كنت أحبّ شرب الخمرة دائماً، لكنّي أظن أنّني بدأت أصبح مدمناً قبل نحو خمس سنوات فقط».

«أيّ نوع من مدمني الخمر أنت؟» سأل توني.

«إن السمّ المفضّل لديّ هو الويسكي السكوتش، ونبيذ كابرنييه، وبلاك الروسي. لكنّي لا أرفض أيّ شيء - فودكا، جنّ - كلّ شيء عندي سيّان».

«ما قصدته هو «متى» و«ما مقدار ما تشربه»»، قال توني.

لم يُبد جيل أي محاولة للدفاع عن نفسه، وبدا مستعدّاً للإجابة عن

أيّ سؤال. «في معظم الأحيان بعد ساعات. أبدأ بويسكي السكوتش عندما أصل إلى البيت (أو قبل أن أصل إلى البيت إذا كانت روز تزعجني)، ثم أبدأ بشرب نبيذ جيد خلال ما تبقى من المساء ـ زجاجة على الأقل، وأحياناً زجاجتين، حتى أغيب عن الوعي أمام التلفزيون».

«وأين هي روز في كلّ ذلك؟» سألت بام.

«حسناً، كنّا نشرب النبيذ بشراهة معاً، وقد بنينا قبواً يتسع لألفي قنينة، كنا نشتريها بالمزاد. لكنّها لم تعد تشجّعني على الشراب ـ الآن نادراً ما تشرب كأساً على العشاء ولم تعد ترغب في المشاركة في أيّ نشاطات تتعلق بشرب النبيذ، باستثناء بعض المناسبات التي تقام لتذوّق النبيذ في مناسبات اجتماعية كبيرة».

حاول جوليوس مرة أخرى أن يوقف التيار ويعيد الجميع إلى الحاضر، فقال: «أحاول أن أتخيّل كيف كان شعورك وأنت تأتي لحضور جلسة بعد جلسة هنا ولا تتحدّث عن هذا».

«لم يكن ذلك سهلاً»، اعترف جيل، وهو يهزّ رأسه.

كان جوليوس يعلّم طلابه دائماً الفرق بين *البوح الذاتي العمودي* و*البوح الأفقي*. فقد كانت المجموعة تضغط، كما هو متوقّع، من أجل *البوح العمودي* ـ تفاصيل عن الماضي تشمل استفسارات وأسئلة حول الكمية التي يحتسيها ومنذ متى ـ أما *البوح الأفقي*، أي، *البوح عن البوح*، فقد كان مثمراً أكثر بكثير على الدوام.

كانت هذه الجلسة مادة ممتازة للتعليم، قال جوليوس لنفسه، وقال لنفسه إن عليه أن يتذكّر تسلسل الأحداث لذكرها في المحاضرات التي سيلقيها والمقالات التي سيكتبها في المستقبل. ثم تذكّر، فجأة، أنه لم تعد هناك أهمية للمستقبل. فعلى الرغم من إزالة الثُؤْلُولَة السامّة السوداء من كتفه، كان يعرف أنه لا تزال في مكان ما في جسمه مستعمرات قاتلة من الميلانوما، وخلايا شرهة تشتهي الحياة أكثر من خلاياه المرهقة.

كانت هناك، تنبض، وتبتلع الأوكسجين والمواد المغذّية، فتزداد قوّة. وكانت أفكاره السوداء تقبع دائماً هناك أيضاً، ترشح تحت غشاء الوعي بفضل أسلوبه في تهدئة ما يجيش في داخله؛ الدخول إلى الحياة بأقوى ما يمكنه. إن الحياة المكثفة جداً التي عاشها في هذه المجموعة بمثابة دواء ناجع.

ضغط على جيل وقال: «أخبرنا أكثر عمّا كان يجول في رأسك خلال كلّ تلك الشهور من جلساتنا هذه؟».

ماذا تقصد؟» قال جيل.

«قلتَ إن ذلك لم يكن سهلاً: حدّثنا أكثر عن ذلك، عن تلك الجلسات ولماذا لم يكن ذلك سهلاً».

«لقد جئت إلى هنا وأنا ممتلئ بالحماسة لكنني لم أستطع قط أن أُفرغ ما يعتمل في نفسي. كان هناك دائماً شيء يمنعني».

«أوضح، ما هو الشيء الذي كان يمنعك». نادراً ما كان جوليوس يوجّه أحداً في المجموعة، لكنّه كان متيقناً بأنه يعرف كيف يوجّه المناقشة في اتجاه مفيد قد لا تتخذه المجموعة بنفسها.

فقال جيل: «أنا أحبُ هذه المجموعة. إنهم أكثر الأشخاص أهمية في حياتي. لم أكن عضواً حقيقياً في أيّ شيء قبل هذا قط. كنت أخشى أن أفقد مكانتي، أفقد أيّ مصداقية ـ تماماً كما يحدث الآن. الآن تماماً. فالناس يكرهون الذين يسكرون... ستطردونني...ستطلبون مني أن أذهب إلى المصحة. ستحاكمونني ولن تساعدوني».

كانت تلك الإشارة التي ينتظرها جوليوس. فتحرّك بسرعة.

«جيل، انظر حولك في الغرفة ـ قل لي من هم القضاة هنا؟».

«الجميع قضاة».

«جميعهم متشابهون؟ أشكّ في ذلك. حاول أن تميّز. انظر حولك. من هم القضاة الرئيسيون؟».

ظلت نظرة جيل مثبتة على جوليوس، وقال: «حسناً، يستطيع توني أن يقسو عليك، لكن لا، ليس على هذا ـ إنه يحبّ شرب الخمر أيضاً. أهذا ما تريد؟».

هزّ جوليوس رأسه مشجعاً.

«بوني؟» واصل جيل كلامه مباشرة إلى جوليوس، «لا، إنها ليست قاضية ـ إلّا على نفسها، وأحياناً ـ على ريبيكا ـ إنها لطيفة دائماً معي. ستيوارت، حسناً، إنه أحد القضاة؛ من المؤكد أن لديه نزعة شديدة بالثقة بنفسه أحياناً. وريبيكا، بالتأكيد ـ أسمع الكثير من التوجيهات: كن مثلي، كن متأكداً، كن دقيقاً، البس جيداً، اغسل نفسك جيداً، كن أنيقاً. فشعرت بالارتياح عندما أبدت ريبيكا وستيوارت مواطن ضعف كثيرة لديهما، وهذا ما جعل من الممكن أن أنفتح. أما بام ـ فهي القاضية. قاضي القضاة. لا ريب في ذلك. أعرف أنها تظن أنني ضعيف، أظلم روز، سمّها كما تشاء، كلّ شيء فيّ خطأ. لا يوجد لديّ أمل كبير في إرضائها في الواقع. لا يوجد عندي أيّ أمل في ذلك»، صمت، ثم أضاف، «أظن أن الأمر كذلك»، ماسحاً بعينيه جميع أفراد المجموعة، «آه نعم، فيليب»، ووجّه حديثه إلى فيليب مباشرة، بخلاف الجميع، «لنر... لا تظن أنك تحاكمني، لكني لست متأكداً إن كان ذلك إطراء. الأكثر من ذلك هو أنك لا تقترب مني بما يكفي أو تشاركني بما يكفي معي حتى لتُشغل نفسك بالحكم عليّ».

كان جوليوس مسروراً بذلك. فقد نفس عن شعور جيل غير البنّاء بالخيانة وتوبيخه. إنها مسألة وقت، آجلاً أم عاجلاً، سيحكي تفاصيل إدمانه على الخمر، لكن ليس في هذه اللحظة وبهذه الطريقة.

الأهم من ذلك، فقد أدى تركيز جوليوس على البوح الأفقي إلى حدوث شيء إضافي ـ فقد قدمت جولة جيل لعشر دقائق مصدراً ثميناً من البيانات ـ كافية لإثارة جلستين جيدتين.

ملتفتاً إلى المجموعة، قال جوليوس: «هل لدى أحدكم أي تعليق؟».

كان هناك تردد ـ لا، تخيّل، لا يوجد أشياء قليلة يمكن قولها، وإنما هناك أشياء كثيرة. لقد ناء البرنامج بثقله، يجب أن يكون لديهم جميعاً ردود أفعال حول اعتراف جيل، حول إدمانه على الكحول، وصلابته المفاجئة في الدقائق القليلة الأخيرة. انتظر مترقباً. لا بد أن الأشياء الجيدة آتية.

لاحظ أن فيليب ينظر إليه، وللحظة، التقت نظراتهما، لم يكن ذلك شيئاً عادياً. قد يكون فيليب، قال جوليوس لنفسه، يشير إلى تقديره ببراعة ما فعله في هذه الجلسة. أو لعل فيليب يفكّر في الردّ على ما قاله جيل. قرّر جوليوس أن يستسفر عن ذلك فأومأ نحو فيليب. لم يصدر منه أي ردّ. فقال له: «فيليب، ما هي مشاعرك حتى الآن حول ما جرى في هذه الجلسة؟».

«أتساءل إن كنتَ ستشارك».

«أشارك؟» أجاب جوليوس مندهشاً، «أظن أنني كنتُ نشيطاً جداً اليوم وأعطيت الكثير من التوجيهات».

«أقصد *المشاركة في تبادل الأسرار*»، قال فيليب.

«هل سيأتي الوقت»، قال جوليوس لنفسه، الذي سيقول فيه فيليب شيئاً حتى لو كان متوقّعاً بشكل مبهم؟ «فيليب، إني لا أتهرب من سؤالك، لكن هناك نهايات غير مترابطة مهمة»، والتفت إلى جيل وقال: «ما يقلقني هو أين أنت الآن».

«مشكلتي الوحيدة هي هل ستدعونني أبقى في المجموعة بعد أن عرفتم أنني مدمن على الكحول»، قال جيل الذي التمعت جبهته بحبات العرق.

«يبدو أن هذا أكثر وقت تحتاج فيه إلينا، ومع ذلك فإني أتساءل، هل

إثارتك للموضوع اليوم تشير إلى أنك تعتزم عمل شيء إزاء ذلك، كالذهاب إلى برنامج لمعالجة الإدمان؟».

«نعم. فبعد هذه الجلسة، لا يمكنني أن أستمر في ما أفعله. قد أحتاج إلى أن أطلب منك إجراء جلسات فردية. أتوافق؟».

«طبعاً ـ بقدر ما تحتاج». إن سياسة جوليوس تكمن في أن يوافق على طلبات الجلسات الفردية بشرط أن يناقش الأعضاء تفاصيل تلك الجلسات في جلسة المجموعة التالية.

التفت جوليوس نحو فيليب وقال: «بالعودة إلى سؤالك. هناك حيلة في أساليب المعالجة القديمة تتيح إمكانية التهرب بلطف من الأسئلة المحرجة، وهي بأن تجيب، «أتساءل، لماذا تسأل هذا السؤال؟» حسناً، سأسألك ذلك، لكنني لن أتهرب منك. بل سأقترح عليك اقتراحاً: أعدك بأني سأجيب عن سؤالك بالكامل إذا وافقت أولاً على استكشاف دوافعك لسؤاله. اتفقنا؟».

تردّد فيليب، ثمّ أجاب، «إن دافعي لطرح هذا السؤال ليس معقداً. أريد أن أفهم طريقتك في تقديم الاستشارة، وإذا كان بالإمكان، أن أدمج الأجزاء التي قد تحسّن من أسلوبي في تقديم الاستشارة. إن أسلوبي يختلف كثيراً عن أسلوبك: فأنا لا أقدّم علاقة عاطفية ـ أنا لست هنا لكي أحبّ مريضي، بل أنا مرشد خبير. أقدّم لمرضاي تعليمات حول التفكير بوضوح أكبر والعيش بالتوافق مع العقل. الآن، ربما في مرحلة متأخرة، بدأت أفهم ما هو هدفك ـ طريقة بوبير *أنا ـ أنت*».

«بوبير؟ من؟» سأل توني، «أكره أن تظل تبدو مثل مهرج، لكن عليّ اللّعنة إن بقيت جالساً هنا وأنا لا أعرف ماذا يجري».

فقالت ريبيكا: «صحيح يا توني، فكلما سألت سؤالاً، فإنك تسأله بالنيابة عني أيضاً. وأنا لا أعرف من هو بوبير».

هزّ الآخرون رؤوسهم موافقين. فقال ستيوارت: «لقد سمعت هذا الاسم - شيء عن طريقة بوبير *أنا - أنت* - لكن هذا كلّ ما أعرفه».

فقاطعتهم بام وقالت: «بوبير فيلسوف يهودي ألماني، مات قبل حوالي خمسين سنة، يستكشف عمله اللقاء الحقيقي بين كائنين - لقاء *أنا - أنت* (I - thou) هي علاقة الرعاية الراهنة التامة بعكس لقاء (I - it) الذي يتجاهل «الأنا» الآخر ويستخدمه بدلاً من أن يرتبط به. لقد أثيرت الفكرة هنا كثيراً - إن ما فعله فيليب لي منذ سنوات هو أنه كان يستخدمني كأنني لا شيء».

«شكراً يا بام، فهمت الفكرة»، قال توني، ثم التفت إلى فيليب، وقال: «هل جميعنا متفقون؟».

نظر فيليب إلى توني متسائلاً.

«إنك لا تعرف ماذا يعني *ذلك*؟»، قال توني، «عليّ أن أحضر لك قاموساً بكلام القرن العشرين. ألا تفتح التلفزيون أبداً».

«لا يوجد عندي تلفزيون»، قال فيليب، حتى بنبرة غير دفاعية، «لكنك إن كنت تسأل يا توني، *هل إنني* أوافق على ردّ بام حول بوبير، فالجواب نعم - لا يمكنني أن أقولها بأفضل من ذلك».

دُهش جوليوس: ها هو *فيليب ينطق اسميْ توني وبام*؟ فيليب يثني على بام؟ هل هذه مجرد أحداث عابرة، أم أنها تبشر بتغيير كبير؟ كم كان يحبّ أن يكون حيّاً، قال جوليوس لنفسه - حيّاً في هذه المجموعة.

«لا تزال الكلمة لك يا فيليب. لقد قاطعتك»، قال توني.

فتابع فيليب قائلاً: «إذاً كنت أقول لجوليوس... أقصد، كنتُ أقول لكم» - واستدار نحو جوليوس - «صحيح؟».

«صحيح يا فيليب»، أجاب جوليوس، «أظن أنك ستتعلم بسرعة».

«إذاً»، واصل فيليب، متحدثاً بنبرة متأنية كأنه عالم رياضيات، «الافتراض الأول: ترجو أن تستخدم طريقة *أنا - أنت* مع كلّ مريض.

الافتراض الثاني هو أن طريقة *أنا ـ أنت* يتضمن علاقة متبادلة بالكامل ـ بالتعريف لا يمكن أن تكون علاقة ودية أحادية الجانب. والثالث: في الجلستين الأخيرتين كشف المشاركون هنا عن أنفسهم كثيراً. لذلك فإن سؤالي المبرّر كلياً لك هو: أليس المطلوب منك أن تقابل ذلك بالمثل».

بعد لحظة صمت أضاف فيليب، «إذاً هذا هو اللغز. كنت أنوي فقط ملاحظة كيف يتناول معالج من مدرستك طلب المريض بالمساواة».

«إذاً دافعك يتركّز بشكل رئيسي على اختباري إن كنت منسجماً مع منهجي أم لا».

نعم، ليس اختباراً شخصياً لك، وإنما لمنهجك».

«أقدّر موقفك بأنّ السؤال هو من أجل فهمك الفكري. الآن سأسألك سؤالاً آخر فقط ثم سأردّ على سؤالك. لماذا الآن؟ لماذا تسأل هذا السؤال بالذات في هذا الوقت بالذات؟».

«في المرة الأولى كان ذلك ممكناً. كانت هذه أول ثغرة طفيفة في العملية؟».

«لم أقتنع. أظن أن هناك أشياء أخرى. مرة أخرى، *لماذا الآن؟*» كرّر جوليوس.

هزّ فيليب رأسه مضطرباً. «قد لا يكون هذا ما تسأله، لكنّي أفكّر في نقطة طرحها شوبنهاور مفادها بأنه توجد بضعة أشياء تجعل الأشخاص في حالة مبهجة أكثر من سماع مصائب شخص آخر. ويستشهد شوبنهاور بقصيدة للوكريتيوس» ـ «شاعر روماني من القرن الأول قبل الميلاد». قال فيليب هامساً لتوني ـ «يستمّد المرء متعته من الوقوف على شاطئ البحر ويراقب الآخرين في البحر يصارعون عاصفة فظيعة. فيقول: «إنه أمر ممتع بالنسبة لنا: أن نرى المآسي تصيب الآخرين في حين أنها لم تصبنا نحن: أليست هذه إحدى القوى القوية التي تحدث في جلسات العلاج الجماعي؟».

فقال جوليوس: «هذا شيء مثير للاهتمام يا فيليب، لكنه خارج الموضوع تماماً. لنظل مركّزين الآن على سؤال «لماذا الآن»؟

ظلّ فيليب يبدو مشوّشاً.

«دعني أساعدك، يا فيليب»، حثّ جوليوس، «فأنا أركّز على ذلك لسبب ـ السبب الذي سيبين بوضوح شديد الفرق بين منهجينا. سأقترح أن الجواب على «لماذا الآن؟» يتعلّق بحميمية بقضاياك الشخصية. دعني أوضح: هل يمكنك أن تلخّص تجربتك في الجلستين الأخيرتين؟».

خيّم صمت. بدا فيليب مرتبكاً.

فقال توني: «يبدو لي ذلك واضحاً جداً، يا بروفسور».

نظر فيليب إلى توني بحاجبين مرفوعين، وقال: «واضح؟».

«إذا أردت أن تقولها، فها هي: تنضم إلى هذه المجموعة وتقول أشياء كثيرة تبدو عميقة. تُخرج بعض الأشياء من حقيبة فلسفتك التي نحفر فيها جميعاً. البعض هنا يرون أنك رجل حكيم ـ مثل ريبيكا وبوني، مثلاً، وأنا أيضاً. تقدّم كلّ الأجوبة. فأنت نفسك معالج، ويبدو أنك تتنافس مع جوليوس. موافقون؟».

نظر توني بتساؤل إلى فيليب الذي هزّ رأسه قليلاً، مشيراً إلى أنه يجب أن يواصل كلامه.

«وهنا تعود بام الطيبة، وماذا تفعل؟ تكشف الغطاء عنك! ويتبين أن لديك ماضٍ مضطرب. فوضوي حقيقي. فلم تعد *السّيد نظيف*. في الحقيقة لقد أهنت بام كثيراً. لقد سقطت من مكانتك. والآن يجب أن تكون منزعجاً لكل هذا. وماذا تفعل؟ تأتي إلى هنا اليوم وتقول لجوليوس: ما هي *حياتك السرية*؟ تريد أن تسقطه من مكانته، تمهّد أرض اللعب. صحيح؟».

هزّ فيليب قليلاً.

«هكذا أرى الأمر. يا إلهي، ماذا يمكن أن تكون غير ذلك؟».

ثبّت فيليب عينيه على توني وأجاب، «ملاحظاتك ليست في غير محلها»، والتفت مخاطباً جوليوس: «لعلي أدين لك باعتذار ـ لقد حذّرنا شوبنهاور دائماً من أن ندع تجربتنا الذاتية تلوّث الملاحظة الموضوعية».

«واعتذار لبام؟ وماذا عن بام؟» سألت بوني.

«نعم، أظن ذلك. هذا أيضاً»، ونظر فيليب بسرعة نحوها. بدت بام سارحة الفكر.

عندما اتضح أن بام لن تردّ، قال جوليوس: «سأدع بام تتكلّم عن نفسها براحتها يا فيليب، أما فيما يتعلق بي ـ فالاعتذار غير ضروري. إن سبب وجودك هنا هو لكي تفهم ماذا تقول ولماذا تقوله. وأما بالنسبة لملاحظات توني ـ فإني أظن أنك محقّ تماماً».

«فيليب أريد أن أسألك شيئاً»، قالت بوني، «إنه سؤال طرحه عليّ جوليوس مرات عديدة وهو ما هو شعورك بعد أن غادرت الجلستين الأخيرتين؟».

«ليس شعوراً جيداً. منفعلاً، بل حتى غاضباً».

«هذا ما تخيّلته. يمكنني أن أرى ذلك»، قالت بوني، «هل لديك آراء حول تعليق جوليوس الأخير لك في الأسبوع الماضي ـ عن أن ستيوارت وريبيكا قدما لك هدية؟».

«لم أفكّر في ذلك. حاولت لكني شعرت بالتوتر. أحياناً أخشى أن يكون كلّ الصراع والصخب الذي يجري هنا يصرف الانتباه بشكل مدّمر ويبعدني عن المساعي التي أقيّمها حقاً. كلّ هذا التركيز على الماضي وعلى رغباتنا للتغيير في المستقبل فقط تجعلنا ننسى الحقيقة الأساسية بأنّ الحياة ليست سوى لحظة راهنة تتلاشى إلى الأبد. ما جدوى كلّ هذه الجلبة، إذا كنت تعرف الاتجاه النهائي لكلّ شيء؟».

«أرى ما يقصده توني بأنك لا تحصل على أي متعة. إنه شيء كئيب جداً»، قالت بوني.

«أدعوها الواقعية».

«عد إلى ذلك الجزء بأن الحياة ليست إلّا لحظة راهنة»، أصرّت بوني، «أنا لا أسأل إلّا عن اللحظة الراهنة ـ ردّك الحالي بأنك مُنحت هدية. لديّ سؤال أيضاً عن لقاءات أعضاء المجموعة لاحتساء القهوة بعد الجلسات. لقد انزعجت بسرعة بعد الجلستين الأخيرتين. ظننت أنك لم تُدعَ؟ لا، دعني أقولها بهذا الشكل: ما رأيك الآن بأن نلتقي على القهوة بعد هذه الجلسة؟».

«لا، لست معتاداً على الكلام بهذه الطريقة ـ يجب أن أستجمع نفسي. في نهاية هذه الجلسة، سأكون سعيداً لأنني أنهيت اليوم».

نظر جوليوس إلى ساعته وقال: «يجب أن نتوقّف الآن ـ لقد تداركنا الوقت. فيليب، لن أنسى عقدي معك. لقد أنجزتَ الجزء المتعلق بك، وسأنفذ الجزء المتعلق بي في الجلسة المقبلة».

ينبغي أن نضع حدّاً لأمنياتنا ونكبح شهواتنا ونكظم غضبنا،
وأن نضع نصب أعيننا دائماً الحقيقة بأن الفرد لا يستطيع
أن يحصل إلّا على قدر ضئيل جداً من الأشياء التي يجدر امتلاكها...

٢٧

بعد انتهاء الجلسة، التقى أعضاء المجموعة لمدة خمس وأربعين دقيقة تقريباً في المقهى الذي يلتقون فيه عادة في شارع يونيون ستريت. وبما أن فيليب لم يكن حاضراً، فلم يتحدّثوا عنه، ولم يتابعوا مناقشة المواضيع التي كانت قد أثيرت في الجلسة، بل استمعوا باهتمام إلى وصف بام الممتع عن رحلتها إلى الهند. وفُتنت بوني وريبيكا وبفيجاي، رفيق رحلتها في القطار، الجميل، الغامض الذي تفوح منه رائحة القرفة، وشجعتاها على الردّ على إيميلياته المتكرّرة. وكان جيل مبتهجاً، وشكر الجميع على دعمهم له، وقال إنه سيبدأ العلاج الفردي مع جوليوس، وهو جادّ في الإقلاع عن الشرب، وشكر بام على تصرّفها الجيد معه.

«هيا يا بام»، قال توني، «سيدة الحبّ القاسية تضرب مرة أخرى».

عادت بام إلى شقّتها في بيركيلي هيلز القريبة من الجامعة. ولطالما هنأت نفسها لأنها أحسنت صنعاً باحتفاظها بهذه الشقّة عندما تزوّجت إيرل. ربما كانت تعرف، لا شعورياً، بأنها ستحتاج إليها مرة أخرى. كانت تحبّ الخشب الأشقر الذي يكسو جميع الغرف، والبسط المتناثرة من التيبت، وأشعة الشمس الدافئة التي تتسلل إلى غرفة الجلوس بعد

الظهر. جلست في شرفتها الصغيرة، وراحت ترشف كأساً من نبيذ بروسيكو، تراقب الشمس وهي تغوص وراء سان فرانسيسكو.

جالت في رأسها أفكار عن أعضاء المجموعة. فكّرت في توني الذي خلع ثوب الأحمق، وأظهر لفيليب، بدقة جراحية، كيف أنه لا يجيد التصرف. كان هذا شيئاً لا يقدّر بثمن. تمنّت أن يكون ذلك قد سُجّل في شريط. توني جوهرة غير مصقولة ـ شيئاً فشيئاً، يبرز بريقه الحقيقي، وتعليقه عن التخلص من «الحبّ القاسي»؟ هل يدرك هو أو أي شخص آخر كم أن «القاسي» يفوق وزن «الحبّ» في ردّها لجيل؟ أحست بمتعة كبيرة عندما أفرغت ما يجيش في صدرها على جيل، ومما قلل من سرورها هو أن ذلك كان مفيداً له. لقد سمّاها «قاضي القضاة»... على الأقل كان يمتلك الشجاعة ليقول لها ذلك ـ لكنه حاول بعد ذلك أن يدمّر ذلك بالإطراء عليها بتزلف.

تذكّرت أول مرة رأت فيها جيل ـ كيف أنها انجذبت لوهلة إلى حضوره الجسدي، إلى تلك العضلات البارزة من صدريّته وسترته، وكيف أن ظنها به خاب بسرعة بسبب تشويهاته الجبانة لإرضاء الجميع، وتذمره اللانهائي من روز ـ زوجته روز الباردة جنسياً، الإرادة ذات التسعين رطلاً ـ التي تبيّن لها الآن بأنها تتمتع بإحساس جيد لأنها لم تقبل أن تنجب طفلاً من رجل مدمن على الكحول.

بعد بضع جلسات فقط، احتلّ جيل مكانه في الرتل الطويل من الذكور الخائبين في حياتها، بدءاً بأبيها الذي فرّط بشهادته الجامعية في الحقوق لأنه لم يستطع احتمال حياة المحامي المليئة بالتنافس وفضّل الركون إلى منصب آمن في وظيفة حكومية لتعليم السكرتيرات كتابة الرسائل التجارية، ثم افتقاره إلى العزم لمقاومة ذات الرئة التي قتلته قبل أن يبدأ الحصول على راتبه التقاعدي. ويأتي وراءه في الرتل آرون، صديقها في المدرسة الثانوية، الجبان الذي يكسو وجهه حبّ الشباب، والذي رفض أن يلتحق بالجامعة في سوارثمور وفضّل المكوث في البيت

ثم التحق بجامعة ميريلاند لأنها أكثر قرباً إلى بيته؛ وفلاديمير الذي أراد أن يتزوجها مع أنه لم يتولّ أي منصب مهم وفضّل أن يظل طوال حياته محاضراً متنقلاً يدّرس أساليب التأليف والكتابة باللغة الإنكليزية؛ وإيرل الذي سرعان ما أصبح طليقها، ذلك الرجل الذي كان زائفاً في كل شيء، بدءاً من صبغ شعره بصبغة غريسيان إلى إتقان الأعمال الكلاسيكية التي كان يستمدها من سلسلة *كليف نوتس* المختصرة للطلاب، والذي كان إسطبل النساء المريضات، بمن فيهن هي نفسها، يوّفر له اختيارات سهلة؛ وجون الجبان الذي حتى لم يجرؤ على أن يهجر زواجاً ميتاً ويأتي ليعيش معها. والإضافة الأخيرة، فيجاي؟ حسناً، تستطيع بوني وريبيكا أن تأخذانه! أما هي فلا تستطيع أن تثير حماسة رجل كلّ ما يحتاج إليه هو أن يقبع طوال اليوم في معتكف للتأمل للشفاء من أن يبذل جهداً ليطلب طعام إفطار.

كانت كلّ هذه الأفكار عن هؤلاء الرجال عرضية، أما الشخص الذي لفت انتباهها كثيراً فهو فيليب، هذه النسخة المغرورة عن شوبنهاور لكن بصورة مبالغ فيها، ذلك الأبله الجالس هناك، يطلق سخافات، ويدّعي أنه إنسان.

بعد تناولها العشاء، خطت بام نحو مكتبتها وراحت تبحث في قسم شوبنهاور. فقد درست الفلسفة وكانت تنوي أن تعدّ أطروحة حول تأثير شوبنهاور على بيكيت وجيد. لقد أحبّت نثر شوبنهاور ـ الذي يفوق في أسلوبه أسلوب جميع الفلاسفة الآخرين، باستثناء نيتشه. كانت معجبة بفكره وذكائه وشجاعته لتحدّي جميع المعتقدات الغيبية، لكنّها، كلما ازدادت معرفتها بشوبنهاور الشخص، ازدادت نفوراً منه. التقطت مجلداً قديماً يضم مقالاته الكاملة من رف مكتبتها وراحت تقرأ بصوت مرتفع بعض المقتطفات التي كانت قد وضعت تحتها خطاً في مقالته بعنوان «علاقتنا مع الآخرين».

ـ «الوسيلة الوحيدة لإبداء التفوق في التعامل مع الآخرين هي أن تُظهر لهم أنك في غنى عنهم».

ـ «تجاهل الآخرين يكسبك الاحترام».

ـ «عندما تكون مهذباً، ودوداً، فإنك تستطيع أن تجعل الناس مطيعين ولطيفين: لذلك فإن التهذيب بالنسبة للطبيعة البشرية مثل الدفء بالنسبة للشمع».

تذكّرت الآن لماذا كرهت شوبنهاور. هل فيليب معالج نفسي؟ وشوبنهاور هو النموذج الذي يحتذي به؟ وهل جوليوس يعلّمه؟ لا يمكن للعقل أن يتقبّل كلّ ذلك.

أعادت قراءة الحكمة الأخيرة: *«التهذيب بالنسبة للطبيعة البشرية مثل الدفء بالنسبة للشمع»*. هممم، إذاً يظنّ أن بإمكانه أن يعاملني مثل الشمع. أن يلغي كلّ ما فعله في حياتي لمجرد إطراء مجاني على التعليقات التي أبديتها حول بوبير، أو أن يدعني أعبر من الباب قبله. عليه اللعنة.

ثم حاولت أن تجد السكينة والاسترخاء في حوض الجاكوزي وأن تنصت إلى شريط لأغاني كونكا الذي غالباً ما يهدّئ أعصابها بألحانه الهادئة المنوّمة، بتوقّفاته وانطلاقاته المفاجئة، وقدرته على تغيير طبقة الإيقاع وجِرس صوته. حتى إنها حاولت أن تمارس رياضة تأمل فيباسانا لبضع دقائق، لكنّها لم تتمكن من استعادة الهدوء الذي كان يوفرها لها من قبل. خرجت من الحوض، وراحت تدقق في جسدها في المرآة. حبست أنفاسها وقلّصت بطنها، ورفعت ثدييها بيديها، وتأملت جانب وجهها، وربتت على شعر عانتها، وشبكت ساقيها في وضعية مغرية. جسد رائع بالنسبة لامرأة في الأربعين.

تسللت إلى عقلها صورة فيليب عندما رأته لأول مرة منذ خمس عشرة سنة. جالساً إلى طاولة مكتبه، يوزّع البرنامج الدراسي على كل طالب يدخل الغرفة، ملقياً ابتسامة عريضة نحوها. كان جريئاً آنذاك، ذكياً، رائعاً، دائم التركيز. ما الذي حدث لذلك الرجل! وذلك الجنس،

تلك القوة، يفعل ما يريد، ينزع عني ملابسي الداخلية، يخنقني بجسده. لا تضحكي على نفسك يا بام ـ كنت تحبين ذلك. أستاذ يتقن التاريخ الثقافي الغربي، وأستاذ عظيم أيضاً، ربما كان أفضل أستاذ صادفته طوال حياتها، وهذا ما شجعها على أن تتخصص في الفلسفة في البداية. لكنه لم يكن يعرف ذلك.

بعد أن انتهت من كلّ هذه الأفكار الغاضبة المقلقة والمشتتة للانتباه، تحوّل تفكيرها إلى عالم أكثر حزناً ورقة: موت جوليوس. يا له من رجل محبوب. ومع أنه يحتضر فإنه يواصل عمله كالمعتاد. كيف يمكنه أن يفعل ذلك؟ كيف يمكنه أن يحافظ على تركيزه؟ كيف يستطيع جوليوس أن يواصل اهتمامه بالآخرين؟ وفيليب، ذلك الأير الذي يتحدّاه لكي يفصح عن نفسه. وصبر جوليوس له، ومحاولاته لتعليم فيليب. ألا يرى جوليوس أنّه وعاء فارغ؟

تخيّلت أنها تقوم برعاية جوليوس عندما تدهورت صحته. رأت نفسها تحضر له وجبات طعامه، تغسله بمنشفة دافئة، تنثر عليه مسحوق البودرة، تبدّل شراشفه، وتزحف إلى فراشه وتضمّه إليها طوال الليل. ثمة شيء سريالي في جميع أعضاء المجموعة الآن ـ كلّ هذه المسرحيات الصغيرة التي تُؤدّى في خلفية الأفق المظلم لنهاية جوليوس. أليس من غير المنصف أنه هو الذي سيموت. اجتاحتها نوبة من الغضب ـ لكن إلى من يمكنها أن توجّه نوبة الغضب هذه؟

عندما أطفأت بام ضوء القراءة بجانب سريرها، وانتظرت حتى يسري مفعول حبة المنومّ التي تناولتها، سجّلت ملاحظة حول ميزة واحدة في اضطرابها الجديد في حياتها: هوسها بجون الذي تلاشى من عقلها أثناء ممارسة يوغا فيباسانا عاد بعد مغادرتها الهند مباشرة. لقد تلاشى ثانية ـ ربما إلى الأبد.

ليس هناك وردة لا توجد فيها شوكة.

لكن هناك أشواكاً كثيرة لا توجد فيها وردة.

٢٨

التشاؤم كأسلوب في الحياة

كتب شوبنهاور كتابه الرئيسي *«العالم كإرادة وتصوّر»*، وهو في العشرينات من عمره، ونُشر في عام ١٨١٨، ثم نشر ملحق ثانٍ في عام ١٨٤٤. إنه عمل يتسم بعمق واتساع مدهشين، يقدّم فيه ملاحظات ثاقبة عن المنطق وعلم الأخلاق، ونظرية المعرفة؛ والإدراك، والعلم، والرياضيات، والجمال؛ والفنّ، والشعر؛ والموسيقى والحاجة إلى علم ما وراء الطبيعة، وعلاقة الإنسان مع الآخرين ومع نفسه. وتُعرض الحالة الإنسانية في أحلك جوانبها ومظاهرها: الموت، والعزلة، وخلو المعنى من الحياة، والمعاناة المتأصّلة في الوجود. ويعتقد الكثير من الباحثين بأن هناك أفكاراً جيدة في عمل شوبنهاور أكثر مما توجد لدى أيّ فيلسوف آخر، ما عدا أفلاطون.

وفي أحيان كثيرة، أعرب شوبنهاور عن أمنيته وتوقّعه بأنّه سيُذكر على الدوام من أجل هذا العمل العظيم. وفي أواخر حياته نشر عمله المهمّ الآخر، مجموعة من المقالات والحكم الفلسفية في مجلدين، بعنوان، *Parerga and Paralipomena*، ويعني (بالترجمة من اللغة اليونانية) «الأعمال المكمّلة والفضلات».

لم يكن العلاج بالتحليل النفسي قد نشأ خلال حياة آرثر، لكن هناك أشياء كثيرة في كتاباته لها علاقة وثيقة بالعلاج النفسي. لقد بدأ كتابه الرئيسي بتعقيب على كانط الذي أحدث ثورة في الفلسفة بفكرته الثاقبة بأننا نحن الذين نشكّل الحقيقة لكننا لا ندركها. فقد أدرك كانط أن جهازنا العصبي ينقّي ويصفّي جميع المعلومات والبيانات التي تصل إلى وعينا التي تتجمع فيه مرة أخرى لتقدم لنا صورة نسميها الواقع، لكن في حقيقة الأمر فإن ذلك ما هو إلّا وهم، خيال ينبثق من المفاهيم التي تشكّل عقلنا. في الواقع، حتى إن العِلّة والمعْلُول، والتعاقب، والكمية، والمكان، والزمان، ما هي إلّا تصوّرات، تراكيب، وليست كيانات «موجودة» في الطبيعة.

بالإضافة إلى ذلك، فإننا لا نستطيع «أن نرى» وراء نسختنا المصنّعة ماذا يوجد هناك؛ ولا نمتلك وسيلة لمعرفة ماذا يوجد هناك «فعلاً» ـ أي الكيان القائم قبل معالجتنا الإدراكية والذهنية. ذلك الكيان الأساسي، الذي أطلق عليه كانط *Ding an sich* (الشيء في حد ذاته)، سيبقى، ويجب أن يبقى غير معروف لنا إلى الأبد.

وبالرغم من أن شوبنهاور يوافق أننا لا نستطيع أن نعرف أبداً «الشيء في حدّ ذاته»، فإنه يرى أننا نستطيع الاقتراب أكثر مما كان يعتقد كانط. ففي رأيه أن كانط أغفل مصدراً رئيسياً من المعلومات المتاحة عن عالم (الظواهر) المدرك والمحسوس: *أجسادنا*! فالأجساد أشياء مادية، موجودة في الزمان والمكان. وتوجد لدى كلّ واحد منّا معرفة ثرية جداً عن أجسادنا ـ معرفة لا تنبع من جهاز إدراكنا الحسي والمفاهيمي وإنما معرفة مباشرة من الداخل، معرفة تنبع من المشاعر.

من أجسادنا نكتسب المعرفة التي لا يمكننا أن نتصوّرها وننقلها لأننا نجهل الجزء الأعظم من حياتنا الداخلية. فهي مكبوتة ولا يُسمح لها أن تقتحم الوعي، لأن معرفة طبائعنا الأكثر عمقاً (وحشيتنا، خوفنا، شعورنا بالحسد، شبقنا الجنسي، عدوانيتنا، أنانيتنا) ستسبب لنا اضطرابات لا يمكننا احتمالها.

هل يبدو هذا شيئاً مألوفاً؟ إنه يشبه المادة الفرويدية القديمة ـ العملية البدائية غير الواعية، الهوية، الكبت، خداع الذات؟ أليست هذه هي الجراثيم الحيوية، الأصول البدائية لجهود التحليل النفسي؟ وينبغي أن نتذكّر بأن عمل آرثر الرئيسي كان قد نشر قبل ولادة فرويد بأربعين سنة. وعندما كان فرويد (ونيتشه أيضاً) تلاميذ في المدرسة في منتصف القرن التاسع عشر، كان آرثر شوبنهاور أكثر الفلاسفة قراءة في ألمانيا.

كيف نفهم قوى اللا وعي هذه؟ كيف ننقلها إلى الآخرين؟ مع أنه ليس من الممكن تصورها، بل يمكن اختبارها وتمرّسها، ويرى شوبنهاور بأنها تنتقل مباشرة، من دون كلمات، بواسطة الفنون. لذلك كرّس اهتماماً أكبر للفنون، لاسيّما الموسيقى، أكثر من أيّ فيلسوف آخر.

وماذا عن الجنس؟ فهو لم يدع مجالاً للشكّ حول اعتقاده بأن الشهوة والعواطف الجنسية تؤدي دوراً حاسماً في سلوك البشر وتصرفاتهم. وهنا، مرة أخرى، كان رائداً جريئاً: فلم تكن لدى أي فيلسوف قبله الفطنة (أو الشجاعة) للكتابة عن أهمية تأثير الجنس في حياتنا الداخلية.

وماذا عن الدين؟ كان شوبنهاور أول فيلسوف رئيسي يبني أفكاره على أسس إلحادية. فقد أنكر بوضوح وبحماسة شديدتين العالم الغيبي، وجادل بأنّنا نعيش كليّاً في الزمان والمكان وأنّ كلّ الكيانات غير المادّية ليست إلّا مفاهيم زائفة وغير ضرورية. ومع أنه قد تكون لدى العديد من الفلاسفة الآخرين مثل هوبز وفلوم، وحتى كانط، ميول إلحادية، فلم يجرؤ أحد منهم على الإعراب بصراحة ووضوح عن عدم إيمانهم لأنهم كانوا يعتمدون في كسب رزقهم على الحكومات والجامعات التي توظفهم، لذلك، لم يكن بإمكانهم التعبير عن أيّ أفكار أو مشاعر مناهضة للدين. أما آرثر، فلم يكن موظفاً لدى أي جهة، ولم يكن بحاجة إلى ذلك، وكان حرّاً يكتب ما يريد أن يكتبه. ولهذا السبب بالتحديد، رفض سبينوزا، قبل قرن ونصف القرن، عروضاً لشغل مناصب جامعية مرموقة، وظلّ يعمل في صنع العدسات الطبية.

وما هي الاستنتاجات التي توصل إليها شوبنهاور من معرفته الداخلية لجسده؟ بأنه توجد في داخلنا، وفي الطبيعة كلها، قوة حياتية أساسية نهمة أطلق عليها *الإرادة*. فقد كتب، «في كلّ مكان ننظر إليه في الحياة، نرى الكفاح الذي يمثّل الجوهر وهو «بحد ذاته» كلّ شيء». وما هي المعاناة؟ إنها «عائق لهذا الكفاح من خلال عقبة توضع في الطريق بين الإرادة وهدفها». وما هي السعادة، الخير؟ إنها «تحقيق الهدف».

نريد، نريد، نريد نريد. هناك عشرة احتياجات تنتظر في ثنايا العقل الباطن لدى كلّ شخص يبلغ درجة الوعي. إن الإرادة تدفعنا بلا رحمة لأنه، ما إن يتحقق أحد الاحتياجات حتى يحلّ محله بسرعة احتياج آخر ثم آخر وآخر طوال حياتنا.

ويستشهّد شوبنهاور أحياناً بأسطورة إكسيون أو بأسطورة تانتالوس لوصف معضلة الوجود الإنساني. كان إكسيون ملكاً غير مخلص لزيوس فعاقبه بأن قيّده في عجلة نارية تدور في الأبدية. أما تانتالوس الذي تجرأ وتحدّى زيوس، فقد عوقب على غطرسته بأن يُغوى إلى الأبد، لكن رغباته لا تتحقق. وفكّر شوبنهاور في أن الحياة الإنسانية تدور حول محور الحاجة إلى الأبد بعد كلّ إشباع. هل نقتنع بالإشباع؟ للأسف، لفترة وجيزة فقط، وعلى الفور تقريباً يحلّ الملل، ومرة أخرى، نصبح مدفوعين إلى الحركة، هذه المرة للهرب من رعب الملل.

من المؤكد أن العمل والقلق والكدّ والعناء، تكاد تكون قدرنا كلنا طوال حياتنا. أما إذا تحققت كلّ رغبة كلّما برزت، فكيف سيشغل الناس حياتهم ويمضون أوقاتهم؟ تخيّل أن الجنس البشري تحوّل إلى مدينة فاضلة ينمو فيها كلّ شيء بشكل تلقائي وتحول الحمامات والطيور حولنا مشوية جاهزة؛ ويجد فيها كلّ شخص حبيبته على الفور ولا يجد أي صعوبة في الاحتفاظ بها؛ عندها سيموت الناس من الملل أو سيشنقون أنفسهم؛ أو أن أحدهم سيتشاجر مع الآخر، أو يخنقه، أو يقتله، فيسببون لأنفسهم معاناة أكبر مما ألقته عليهم الطبيعة الآن.

وما هو أفظع شيء في الملل؟ لماذا نسرع إلى تبديده؟ لأنه حالة سرعان ما يكشف عن حقائق أساسية غير مستساغة عن الوجود - ضآلتنا، وجودنا الخالي من أي معنى، سبيلنا الذي لا مفر منه نحو التدهور والموت.

لذلك، فإن الحياة الإنسانية ما هي إلّا دورة لا تنتهي من الرغبة والإشباع والملل، ثم الرغبة مرة أخرى؟ هل ينسحب هذا على جميع مظاهر الحياة وأشكالها؟ بل إنها الأسوأ بالنسبة للبشر، يقول شوبنهاور، لأنه كلما ازداد الذكاء، ازدادت حدّة المعاناة.

إذن، هل يوجد أحد سعيد؟ هل يمكن أن يكون هناك أحد يعيش بسعادة؟ لا يرى آرثر ذلك.

في المقام الأول لا يكون الإنسان سعيداً أبداً، لكنه يمضي حياته كلّها في السعي جاهداً لتحقيق شيء يخيّل إليه بأنه سيجعله كذلك؛ ونادراً ما يحقق هدفه، وعندما يحققه، فإنه سرعان ما يشعر بخيبة الأمل: في معظم الأحوال يكون محطماً في النهاية، ويصل إلى الميناء وقد اهترأت حبال الأشرعة والصواري. ثم يصبح الأمر سيّان، سواء أكان سعيداً أم بائساً، لأن حياته لم تكن شيئاً أكثر من لحظة راهنة، تتلاشى دائماً؛ وقد انتهت الآن.

إن الحياة المؤلفة من منحدر مأساوي حتمي ليست قاسية ومتوحشة فحسب، وإنما نزواتية ومتقلّبة تماماً.

إننا مثل حملان تلعب في الحقل، يراقبها الجزّار ثم يختار واحداً منها أولاً، ثمّ آخر؛ لأننا في أيامنا الجيدة لا نعرف ماذا يخبئ لنا القدر البائس في هذه اللحظة بالذات، المرض، الاضطهاد، الفقر، التشويه، فقدان البصر، الجنون، والموت.

هل كانت الاستنتاجات التي توصل إليها آرثر شوبنهاور المتشائمة عن حالة الإنسان لا تحتمل إلى درجة أنه غرق في لجة اليأس؟ أم العكس؟

وهو أن عدم شعوره بالسعادة هو الذي جعله يخلص إلى أن الحياة الإنسانية مسألة بائسة وكان من الأفضل ألّا تظهر في المقام الأول؟ مدركاً هذا اللغز، يذكّرنا آرثر غالباً (و أنه يذكّر نفسه) بأن العاطفة تمتلك قوة كافية لتحجب المعرفة وتزيّفها؛ ويتخذ العالم برمته مظهراً باسماً عندما يكون لدينا سبب للابتهاج، وجانب مظلم وكئيب عندما يتملكّنا الحزن.

أنا لا أكتب للعامة... وإنما أكتب للأذكياء
الذين سيثبت الزمن أنهم حالات استثنائية نادرة.
فهم سيشعرون كما شعرتُ،
أو كما يشعر بحّار غرقت سفينته
ولجأ إلى جزيرة معزولة يمنحه فيها أثر شخص مُعذّب
كان فيها عزاء أكبر مما تمنحه
جميع الببغاوات والقرود الجاثمة على الأشجار.

٢٩

«أودّ أن أواصل من حيث توقفنا»، قال جوليوس، مفتتحاً الجلسة التالية. كان يتكلم بتشنج، كما لو كان يقرأ من نصّ معدّ مسبقاً، وواصل بسرعة، «مثل معظم المعالجين الذين أعرفهم، فأنا منفتح جداً للأصدقاء المقرّبين. وليس من السهل أن أبوح عن نفسي بنفس الصراحة التي أفصح فيها بعضكم عن نفسه مؤخراً. لكن هناك حادثة أبحت بها مرة واحدة فقط في حياتي ـ وكان ذلك منذ سنوات إلى صديق عزيز عليّ».

فقاطعته بام الجالسة إلى جانب جوليوس. وضعت يدها على ذراعه وقالت: «هيا، هيا، يا جوليوس. *ليس عليك أن تفعل ذلك*. لقد دفعك فيليب إلى هذا، والآن، بعد أن كشف توني عن دوافعه التافهة، حتى فيليب اعتذر لأنه طلب ذلك. وأنا شخصياً، لا أريد أن تضع نفسك في كلّ هذا».

وافق الآخرون، وأشاروا إلى أن جوليوس كان يعرب عن مشاعره دائماً في المجموعة وأن عقد فيليب «أنا ـ أنت» ما هو إلّا فخ.

وأضاف جيل، «بدأت الأمور تصبح ضبابية وغير واضحة. فكلّنا نريد المساعدة هنا. فحياتي في اضطراب وفوضى ـ رأيتم ذلك في الأسبوع الماضي. لكن على حدّ علمي لا توجد لديك يا جوليوس إلّا مشاعر مليئة بالمودة. فما هي المشكلة إذاً؟».

«في الأسبوع الماضي»، قالت ريبيكا، بكلامها الدقيق المشذّب، «قلت إنني أفصح عن نفسي لإعطاء فيليب هدية. كان ذلك صحيحاً إلى حد ما ـ لكنها ليست الحقيقة كلها: وأدرك الآن أنني أردت أن أحميه أيضاً من غضب بام، لكن بعد أن قلت ذلك، فإن فكرتي... ما هي فكرتي؟ الفكرة هي أنّ اعترافي بما فعلته في لاس فيغاس كان علاجاً جيداً بالنسبة لي ـ وأشعر بالارتياح لأنني أفصحت عنه. أما أنت فأنت هنا لتساعدني، ولن يساعدني البتة إذا كشفت عن نفسك».

فوجئ جوليوس، كان هذا الإجماع القوي غريباً في هذه المجموعة. لكنّ خيّل إليه أنه عرف ماذا يجري. «أشعر بقلق كبير حول مرضي ـ إنكم تحيطونني بقدر كبير من العناية. ولا تريدون أن أشعر بالتوتر. صحيح؟».

قالت بام: «ربما، لكن هناك شيئاً أكثر من ذلك بالنسبة لي ـ ثمة شيء في داخلي لا يريد أن تفصح عن شيء من ماضيك».

لاحظ جوليوس الآخرين يبدون موافقتهم، وقال، غير موجّه كلامه إلى أحد معين: «يا لها من مفارقة. منذ أن بدأت العمل في هذا المجال وأنا أسمع شكاوى من بعض المرضى بأن المعالجين بعيدون جداً عنهم ولا يتقاسمون معهم إلّا النزر اليسير عن حياتهم الشخصية. وعندما أهمّ بعمل ذلك، أُقابل بهتاف جبهة موحدة تقول، لا نريد أن نسمع. لا تفعل ذلك. إذاً ماذا يجري هنا؟».

صمت.

«أتريدون أن تروا صفحتي نقية؟» سأل جوليوس.

لم يجب أحد، وأضاف «سأكون عنيداً اليوم وسأواصل وسنرى ما سيحدث. جرت قصّتي قبل عشر سنوات عندما ماتت زوجتي. كنت قد تزوّجت ميريام التي أحببتها عندما كانت في المدرسة الثانوية، وكنت آنذاك أدرس الطب، وقضت في حادث سيارة في المكسيك قبل عشر سنوات. كنت منهاراً، وصدقاً، لا أعرف إن كنت قد شفيت من هول ذلك الحادث حتى اليوم. لكن لدهشتي، اتخذ حزني منعطفاً غريباً: فقد غمرتني طاقة جنسية قوية. في ذلك الوقت، لم أكن أعرف بأن ازدياد الشهوة الجنسية استجابة شائعة عند مواجهة الموت. ومنذ ذلك الحين، رأيت عدداً كبيراً من الأشخاص الحزينين تتملكهم طاقة جنسية قوية. تحدّثت مع عدد من الرجال الذين أصيبوا بتصلب الشرايين التاجية وقالوا لي إنهم كانوا يلمسون الممرضات اللاتي كن يرافقنهم إلى المستشفى في سيارة الإسعاف. وعندما كنت حزيناً، أصبحت مهووساً بالجنس، أصبحت أحتاج إليه ـ إلى الكثير منه ـ وعندما كانت صديقاتنا المتزوّجات والعازبات، يأتين لزيارتي، كنت أستغلّ حالتي وأغتنم الفرصة للتقرّب جنسياً من بعضهن، وكانت إحداهن إحدى قريبات ميريام».

خيّم الصمت على الجميع. لم يشعروا بالارتياح، وتحاشى أحدهم النظر مباشرة إلى الآخر. وراح بعضهم ينصت إلى صوت عصفور الدوري الجاثم على شجرة القيقب اليابانية القرمزية خارج النافذة. كان جوليوس يرغب أحياناً خلال السنوات العديدة التي كان يقود خلالها جلسات العلاج النفسي الجماعي، في أن يكون عنده معالج مشارك، وهذه واحدة من تلك المرات».

أخيراً، أجبر توني نفسه على قول بضع كلمات: «إذاً ماذا حدث لتلك الصديقات؟».

«ذهبن. تبخّرن رويداً رويداً. رأيت بعضهن بعد سنوات بالمصادفة،

لكننا لم نتحدّث قط عمّا جرى بيننا. كان هناك الكثير من الإحراج، والكثير من الخجل».

«أنا آسفة يا جوليوس»، قالت بام، «وآسفة لوفاة زوجتك ـ لم أعرف ذلك قط ـ وبالطبع عن... عن تلك... العلاقات».

«لا أعرف ماذا أقول لك يا جوليوس»، قالت بوني، «يبدو الأمر محرجاً جداً».

«تحدّثي أكثر عن الإحراج يا بوني»، قال جوليوس، شاعراً بالإرهاق لكونه معالج نفسه في المجموعة.

«حسناً، هذا شيء جديد تماماً. هذه أول مرة تضع فيها نفسك في موقف كهذا في المجموعة».

«استمري. ماذا عن المشاعر؟».

«أشعر بتوتر شديد. أظن لأنه شيء شديد الغموض. إن كان أحد منّا»، ولوّحت بذراعها حول أعضاء المجموعة، «قد أثار شيئاً مؤلماً في المجموعة، فإننا نعرف ماذا يجب أن نفعل ـ أقصد نبدأ بالعمل فوراً مع أننا قد لا نعرف كيف نفعل ذلك تماماً. أما معك، فأنا لا أعرف».

«صحيح، الأمر غير الواضح هو أنك لماذا تخبرنا»، قال توني، منحنياً إلى الأمام، محدقاً بعينيه تحت حاجبيه الكثيفين، «دعني أسأل شيئا تعلّمته منك. أثير في الأسبوع الماضي في الحقيقة. *لماذا الآن*؟ هل لأنك عقدت صفقة مع فيليب؟ معظمنا هنا نقول ليس من أجل هذا السبب ـ بأنه لا معنى لهذه الصفقة. أم أنك تريد مساعدة بشأن المشاعر المتبقية من تلك الحادثة؟ أعني، أن الأسباب التي جعلتك تفصح عن نفسك غير واضحة. إذا أردت أن تعرف ما هو موقفي الشخصي، فلا توجد لديّ أي مشكلة بما فعلته. سأقول لك بلا تردد بأن المشاعر نفسها تنتابني حول ستيوارت وجيل وريبيكا ـ فأنا شخصياً لا أرى مشكلة كبيرة في ما فعلته. يمكنني أن أرى نفسي أفعل ذلك. فأنت تعيش وحدك،

وكنت مثاراً جنسياً، وطلبت منك بعض النساء أن يرحنك، وقد تركتهن يفعلن ذلك، وأمضى الجميع وقتاً ممتعاً. لعلهن هن من طلب ذلك أيضاً. أقصد، إننا نتحدّث عن السيدات كما لو أنهن يُستخدمهن أو يستغللن فقط. إني أشعر بالغيظ من ذلك، أشعر بالغيظ حقاً من هذه الصورة بأن الرجال هم الذين يستجدون ممارسة قليل من الجنس، وقد تقرر النساء، الجالسات على عروشهن، أو لا يقرّرن بأن يتفضّلن به. كأنهن لا يستمتعن به أيضاً».

أدار توني رأسه على صوت بام وهي تلطم رأسها وغطّت وجهها بيديها، ولاحظ أن ريبيكا أيضاً قد وضعت يديها على رأسها. «حسناً، حسناً، قد أتخلّى عن تلك البطاقات الأخيرة وأتمسك بالبطاقات التي تقول، *لماذا الآن؟*».

«سؤال وجيه يا توني. إني أقدّر لك أنك جعلتني أبدأ. قبل بضع دقائق، كنت أتمنّى أن يكون لديّ معالج مشارك هنا لمساعدتي، وها قد جئت لتقوم بهذه المهمة. إنك جيّد في ذلك. قد يكون العلاج النفسي مهنة جيدة لك. لنر. *لماذا الآن*؟ لقد طرحت هذا السؤال مرات عدّة، وبالرغم من ذلك، فقد تكون هذه هي أول مرة يطرحه أحد عليّ. أولاً، أظن أنكم جميعاً محقّون عندما تقولون إن ليس لهذا علاقة بالصفقة التي أبرمتها مع فيليب، مع أنني لا أستطيع أن أنفي ذلك كليّاً لأن هناك شيئاً يتعلق بالنقطة التي أثارها عن لقاء «أنا ـ وأنت» إذا اقتبسنا عبارة فيليب، «فإن الفكرة ليست غير صحيحة تماماً». ابتسم جوليوس لفيليب، لكنه لم يتلق ابتسامة بالمقابل.

وتابع جوليوس كلامه، «ما أقصده هو أن هناك مشكلة في عدم التبادل في علاقة العلاج الحقيقية ـ إنها مسألة معقّدة. لذلك فإن التطرّق إلى تلك المشكلة يشكّل جزءاً من السبب الذي جعلني أقبل تحدي فيليب».

أراد جوليوس إجابة. أحسّ بأنه استغرق وقتاً طويلاً في الكلام. التفت إلى فيليب، وقال: «ما هي مشاعرك إزاء ما قلته حتى الآن؟».

أجفل فيليب من سؤال جوليوس وراح يهزّ رأسه. بعد تفكير للحظة، قال، «يبدو أن هناك اتفاقاً عاماً هنا بأنني واحد من الذين اختاروا الإفصاح عن أمور كثيرة. هذا شيء غير دقيق. فقد كشفت إحداهن في المجموعة عن تجربتها معي، وأفصحت عمّا فعلته فقط من أجل الدقة التاريخية».

«أتريد أن تقول لي ما علاقة ذلك بأيّ شيء؟» سأل توني.

«تماماً»، قال ستيوارت، «تحدّث عن الدقة يا فيليب! أولاً، أنا لست مقتنعاً بأنك أفصحت عن نفسك، لكن ما أريد أن أقوله بشكل رئيسي هو أن جوابك بعيد كلّ البعد عن الهدف المطلوب. لا علاقة له بسؤال جوليوس عن مشاعرك».

بدا أن فيليب لم يشعر بالإهانة. «صحيح. حسناً، بالعودة إلى سؤال جوليوس ـ أظن أنني مندهش من سؤاله لأنه لا توجد عندي مشاعر. لا يوجد شيء في ما قاله يتطلب ردّاً عاطفياً».

«هذا له علاقة على الأقل»، قال ستيوارت، «لقد جاء ردّك السابق من الجانب الأيسر».

«لقد سئمت من لعبتك في الخرف الكاذب هنا!» قالت بام بحدّة، موجهة كلماتها إلى فيليب، وضربت بيدها على فخذها بغضب، «وسئمت من إصرارك على رفض أن تناديني باسمي! إن الإشارة إليّ «بإحداهن في المجموعة» شيء مهين وغبي».

«أتقصدين *بالخرف الكاذب* بأنني أدّعي الجهل؟» قال فيليب، متفادياً نظرة بام.

«سبحانه»، قالت بوني رافعة ذراعيها، «لأول مرة يقرّ أحدكما بالآخر، وتتكلّمان معاً فعلاً».

تجاهلت بام ملاحظة بوني وواصلت كلامها مع فيليب، وقالت: «إن الادّعاء بالخرف إطراء بالمقارنة مع العبارة البديلة لها. أنت تقول إنك لا

تستطيع أن تجد شيئاً في ملاحظة جوليوس تستحق الردّ. كيف يمكن أن لا يكون لدى أحد أي ردّ لجوليوس؟».

التمعت عينا بام بحدّة.

«ومثال على ذلك؟» سأل فيليب، «لا بد أن في بالك شيئاً أشعر به».

«لنحاول *الشعور بالامتنان* حتى نأخذك أنت وسؤالك المستهتر والمتبلّد بجدية. لنحاول *احترام* أن تفي بالوعد الذي قطعه لك حول علاقة *أنا ـ أنت*؛ أو ماذا عن الحزن الذي عاناه في الماضي، أو *الافتتان* أو حتى *تفهم مشاعره* الجنسية المنفلتة؛ أو *الإعجاب* لأنه قبل أن يعمل معك، ومعنا كلّنا، بالرغم من إصابته بالسرطان. وهذا غيض من فيض»، ثم رفعت بام صوتها: «كيف لا يمكن أن تكون لديك مشاعر؟»، ثم أبعدت بام نظرتها عن فيليب، وقطعت اتصالهما.

لم يجب فيليب. بل جلس صامتاً مثل بوذا، منحنياً إلى الأمام في كرسيه، يحدّق في الأرض.

في الصمت العميق الذي أعقب غضب بام، تساءل جوليوس ما هي أفضل طريقة لمواصلة الجلسة. في معظم الأحيان، من الأفضل الانتظار ـ إذ أن إحدى البديهيات المفضّلة في علاجه هي «*اضرب الحديد وهو بارد*».

إن اعتبار العلاج، كما يفعل غالباً، سلسلة من تنشيط الانفعال يعقبه الاندماج والتكامل، فكّر جوليوس في فيض الانفعالات التي تم التعبير عنها اليوم. ربما أعرب عن الكثير. لقد آن الأوان للانتقال إلى الفهم والتكامل. اختار طريقاً غير مباشر، التفت إلى بوني، وقال: «وماذا عن «*سبحانه*»؟».

«أتقرأ أفكاري مرة أخرى يا جوليوس؟ كيف تفعل ذلك؟ كنت أفكّر للتو بذلك الصدع وأسفت على ذلك. أخشى أن تكون قد خرجت بطريقة خاطئة وبدت بمثابة سخرية. أليس كذلك؟» نظرت إلى بام ثم إلى فيليب.

«لم أفكّر في ذلك آنذاك»، قالت بام، «لكن، نعم، إذا نظرت إلى الوراء، فهناك مسحة سخرية».

«آسفة»، قالت بوني، «لكن هذا القِدر الذي يغلي هنا، مشاحناتك وتلاسنك مع فيليب، وإلقاء كلّ هذه الكرات، شعرت بالارتياح للصراحة. وأنت؟» التفتت إلى فيليب، «هل أنت مستاء من تعليقي؟».

«آسف» ظل فيليب مطرقاً برأسه، «لم أفهم ما قالته. لم أر إلّا الوهج في عينيها».

«عيناها؟» قال توني.

«في عينيْ بام». واستدار إلى بام، ارتعش صوته للحظة، «في عينيك يا بام».

«حسناً يا رجل»، قال توني، «بدأت الأمور تتحسن الآن».

«هل كنت خائفاً يا فيليب؟» سأله جيل، «فليس من السهل أن تكون في الجانب المتلقي، أليس كذلك؟».

«لا، كنت مشغولاً كليّا في بحثي عن وسيلة لكي لا تؤثر نظرتها المحدقة، وكلماتها، ورأيها، فيّ. أقصد، بام، كلماتك، رأيك».

«يبدو أن هناك قاسماً مشتركاً بيني وبينك يا فيليب»، قال جيل، «فأنت مثلي ـ لدينا مشاكلنا مع بام».

نظر فيليب إلى جيل وأومأ، ربما إيماءة تشي بالامتنان، قال جوليوس لنفسه. وعندما بدا واضحاً أن فيليب لن يضيف إلى ما قاله شيئاً، نظر جوليوس حوله إلى أعضاء المجموعة يحثهم على المشاركة. فلم يكن يضيع الفرصة لتوسيع شبكة التفاعل؛ فهو يؤمن بأنه كلما شارك الجميع في المناقشة، أصبحت المجموعة فعالة أكثر. أراد أن يُشرك بام في المناقشة؛ فلا يزال صدى انفجارها تجاه فيليب يتردد في الهواء. ولتحقيق هذا الهدف، وجّه كلامه إلى جيل، وقال: «جيل، تقول إنه ليس من السهل أن تكون في الجانب المتلقي لتعليقات بام... وفي الأسبوع الماضي وصفت بام بأنها قاضي القضاة ـ هل يمكنك أن تسهب في الكلام عن ذلك؟».

«أوه، هذا ما قلته فقط، أعرف، لست متأكّداً وأنا لست قاضياً جيداً في هذا الأمر، لكن...».

فقاطعه جوليوس، «توقّف! لنجمّد العمل هنا. في هذه اللحظة»، والتفت إلى بام وقال: «انظري إلى ما قاله جيل للتو. هل له علاقة بقولك إنك لا تستمعين إليه أو أنك لا تستطيعين الاستماع إليه؟».

فقالت بام: «تماماً، جيل المثالي. انظر يا جيل، هذا ما قلته أنت بالتحديد «لا تعيري ما سأقوله أيّ اهتمام ـ *فهو غير مهم ـ أنا لست مهماً ـ بل ما سأقوله فقط. لا أريد الإساءة. لا تنصتي إلى ما أقوله*» لا تقلل من شأنك، إنه شيء مملّ. مضجر إلى أبعد الحدود. بحق المسيح يا جيل! هل لديك شيء تقوله؟ فقط انهض وقله».

«إذاً جيل»، سأله جوليوس، «إذاً كنت تريد أن تقولها بلا تردد وبدون مقدمات، فما الذي تريد أن تقوله؟» مستخدماً حيلة الصوت الشرطي القديمة الفعالة.

«سأقول لها ـ لكِ، يا بام ـ أنتِ القاضي الذي أخاف منه هنا. إنك تجلسين هنا لمحاكمتي. إني لا أشعر بالراحة، لا، أشعر بالخوف في وجودك».

«هذا مباشر، جيل أنا أستمع الآن»، قالت بام.

فقال جوليوس: «إذاً يا بام، يوجد هنا رجلان ـ فيليب وجيل ـ يقولان إنهما يخشيان منك. هل لديك ردّ على ذلك؟».

«نعم ـ لديّ ردّ كبير: *هذه مشكلتهما*».

فقالت ريبيكا: «ألا توجد إمكانية بأنها قد تكون مشكلتك أنت أيضاً؟ لعل الشعور نفسه كان ينتاب الرجال الآخرين في حياتك أيضاً».

«سأفكّر في الأمر».

«هل لدى أحد منكم إضافة حول هذه المناقشة الأخيرة؟» سأل جوليوس.

«أظن أن بام مراوغة قليلاً»، قال ستيوارت.

«أوافق. ينتابني شعور بأنك لن تفكري بجدية في الأمر يا بام»، قالت بوني.

«نعم، أنت محقّة تماماً. أظن أنني ما أزال أشعر بالألم من ريبيكا عندما قالت إنها تريد أن تحمي فيليب من غضبي».

«إنها معضلة، أليس كذلك يا بام؟» قال جوليوس، «كما قلت للتو لجيل، فإنك لا تبدين اعتباراً لأي هراء. ومع ذلك فعندما تسمعينها، آخ، كم تؤلم؟».

«هذا صحيح؛ إذاً فأنا لست قوية كما أبدو. وريبيكا، هذا يؤلم».

فقالت ريبيكا: «أنا آسفة يا بام، لم أكن أقصد ذلك. إن تأييدي لفيليب لا يعني أنني أهاجمك».

انتظر جوليوس وتساءل كيف يمكنه أن يوجّه المجموعة. هناك احتمالات عدّة. فهناك غضب بام وإبداء الأحكام على الطاولة. وماذا عن الرجلين الآخرين، توني وستيوارت؟ أين هما؟ ولا تزال المنافسة بين بام وريبيكا قائمة. أم هل على المجموعة أن تتعامل مع المسألة التي لم تنته بعد مع بوني وعباراتها الساخرة؟ أم يركّز أكثر على انفجار بام تجاه فيليب؟ كان يعرف أن من الأفضل أن يتحلّى بالصبر ومن الخطأ أن يدفع الأمور بسرعة كبيرة. فبعد بضع جلسات فقط، تم إحراز تقدّم مؤكّد نحو الانفراج. قد يكون ما فعلوه اليوم كافياً. مع أنه يصعب قياس ذلك. انسحب فيليب قليلاً. لكن بعد ذلك، ولمفاجأة جوليوس، أخذت المجموعة مساراً غير متوقّع تماماً.

«جوليوس»، قال توني، «إني أتساءل هل أنت راضٍ عن الردّ على ما أفصحت عنه».

«لم نبتعد كثيراً. دعني أفكّر في ما حدث. لقد أخبرتني كيف كان شعورك وكذلك بام، ثم، دخلت هي وفيليب في جدال بأنه لا توجد

لديه مشاعر حول ما أفصحت عنه. وتوني، لم أجب عن سؤالك أبداً عن *لماذا الآن*: دعني أعود إلى ذلك». استغرق جوليوس وقتاً ليستجمع أفكاره، مدركاً بأنّ بوحه الذاتي، أو بوح أيّ معالج، ينطوي دائماً على نتائج مزدوجة: أولاً، الشيء الذي يجنيه من ذلك لنفسه، وثانياً، النموذج الذي يقدّمه ذلك للمجموعة».

«يمكنني أن أقول لك إنّني لم أكن سأُردع مما كشفته عن نفسي. أقصد، حاول الجميع هنا تقريباً منعي من القيام بذلك، لكنّي أشعر بالعناد، وأنا مصمّم على مواصلة ذلك. هذا ليس من عادتي ولست متأكّداً من أنني أفهم ذلك حق الفهم، إلا أن هناك أمراً مهماً. فقد سألت يا توني هل أطلب مساعدة للقيام بذلك - أو لعلي أطلب المغفرة. لا، ليس الأمر كذلك. فمنذ فترة طويلة غفرت لنفسي بعد أن أمضيت سنوات وأنا أعمل على هذا الأمر مع أصدقائي ومع معالج نفسي. ثمة شيء مؤكد يمكنني أن أقوله لكم، في الماضي، أقصد قبل إصابتي بالميلانوما، لم أكن سأبوح بذلك، ولا بعد ألف سنة، بما بحته لكم اليوم».

وتابع جوليوس قائلاً: «قبل إصابتي بالميلانوما - هذا هو المفتاح. لدينا كلنا حكم بالإعدام - أعرف أنكم كلكم تدفعون لي جيداً لقاء هذا التصريحات المبهجة - لكن تجربة التأكيد عليها، وختمها، بل وحتى تحديد تاريخها قد استرعى انتباهي. إن إصابتي بالميلانوما تمنحني إحساساً غريباً بالراحة لها علاقة كبيرة بالإفصاح عن نفسي اليوم. ربما لهذا السبب أتمنى أن يكون لديّ معالج مشارك؛ شخص موضوعي يستطيع أن يؤكد أنني ما أزال أعمل لتحقيق أفضل مصالحكم».

صمت جوليوس، ثمّ أضاف، «لاحظت أنّ لا أحد منكم ردّ سابقاً عندما علّقت حول كيفية تقديمكم الرعاية لي اليوم».

بعد بضع لحظات أخرى من الصمت، أضاف جوليوس، «ولا تزالون لم تفعلوا ذلك. كما ترون، لهذا السبب فإني أفتقد وجود معالج

مشارك هنا. كنت أعتقد دائماً بأنه لو كان هناك شيء كبير لم يتم الحديث عنه، فلن يكون هناك شيء آخر مهم يمكن العمل عليه أيضاً. إن عملي هو أن أزيل العقبات، وآخر شيء أريده هو أن أكون عقبة. الآن، يصعب عليّ أن أخرج من نفسي، لكنني أشعر بأنكم تتحاشونني، أو دعوني أصيغها بهذا الشكل، تتفادون مرضي *القاتل*».

فقالت بوني: «*أريد* أن أناقش ما يحدث لك، لكنّي لا أريد أن أسبب لك ألماً».

وافق الآخرون.

«نعم، لقد وضعت الآن إصبعك على جوهر المشكلة. الآن اسمعوا جيداً إلى ما سأقوله: هناك طريقة وحيدة يمكنكم أن تجرحوني فيها ـ وهي *أن تنقطعوا عني*. يصعب التحدث مع شخص مريض بمرض يهدد حياته ـ أعرف ذلك. يميل الناس لأن يطؤوا بلطف. إنهم لا يعرفون كيف يقولون العبارات المناسبة».

«هذا صحيح بالنسبة لي»، قال توني، «فأنا لا أعرف ماذا أقول. لكني سأحاول أن أبقى معك.

«أشعر بذلك يا توني».

«أليس كذلك»، قال فيليب، «يخشى الناس التواصل مع المرضى لأنهم لا يريدون أن يواجهوا الموت الذي ينتظر كل واحد منهم؟».

هزّ جوليوس رأسه وقال: «يبدو هذا مهماً يا فيليب. دعنا نناقشه هنا». لو قال أحد آخر غير فيليب ذلك، لسأل جوليوس إن كانوا يعبّرون عن مشاعرهم الحقيقية. لكن في هذه المرحلة، أراد فقط أن يؤيد صواب فيليب. مسح بعينيه أعضاء المجموعة، منتظراً ردّاً.

«ربما»، قالت بوني، «هناك شيء من الصحة في ما قاله فيليب لأنني رأيت مؤخراً كابوسين عن شيء يحاول أن يقتلني، ثم كان ذلك الكابوس

الذي وصفته ـ أحاول اللحاق بذلك القطار الذي كان يتهاوى ويتفكّك إلى قطع متناثرة».

«أعرف أنني أصبحت أخاف في سريرتي أكثر من المعتاد»، قال ستيوارت، «فأحد أصدقائي في لعب التنس هو طبيب جلدية، وطلبت منه مرّتين الشهر الماضي أن يفحص إحدى البقع في جلدي. أصبحت مهووساً بالميلانوما».

«جوليوس»، قالت بام، «إنك لا تفارق تفكيري منذ أن أخبرتني عن إصابتك بالميلانوما. هناك شيء من الصحة عما قيل بأنني قاسية تجاه الرجال ـ ما عداك ـ فأنت أعزّ رجل عرفته في حياتي. ونعم، فأنا أشعر بأنني أحميك. أحسست بذلك عندما وضعك فيليب في موقف حرج. قلت لنفسي ـ وما أزال أرى أنه شيء قاس وعديم الإحساس منه. والسؤال عمّا إذا كنت أعي موتي أكثر ـ فقد يكون ذلك، لكني لست مدركة له. يمكنني أن أقول لك بأنني أترصد أشياء مواسية، يمكنني أن أقول لك. في الليلة الماضية قرأت شيئاً مهماً، مقتطفاً من مذكرات نابوكوف، *تكلّمي أيتها الذاكرة*، وصف فيه الحياة مثل شرارة بين بركتين متماثلتين من الظلام، الظلام قبل أن نولد والظلام بعد أن نموت. وكم هو غريب بأننا نقلق كثيراً بشأن الظلام الأخير ولا نقلق كثيراً بشأن الظلام الأول. لقد وجدت ذلك بشكل ما شيئاً مطمئناً ودوّنته لأعطيك إياه».

«هذه هدية يا بام. شكراً لك. إنها فكرة رائعة. إنها فكرة مطمئنة، مع أنني لا أعرف لماذا. فأنا أشعر براحة أكبر مع البركة الأولى تلك، قبل الولادة ـ فهي تبدو أكثر وديّة ـ قد أشبعها بالوعد، بإمكانية الأشياء التي ستأتي».

فقال فيليب: «كانت هذه الفكرة مطمئنة لشوبنهاور أيضاً ولا شك في أن نابوكوف قد أخذها منه بالمصادفة. فقد قال شوبنهاور إننا سنكون بعد الموت ما كنّا عليه قبل أن نولد ثم مضى ليثبت استحالة وجود أكثر من نوع واحد من العدم».

لم يُمنح جوليوس قط الفرصة ليجيب. حدّقت بام بفيليب وردّت بصوت مرتفع: «هنا بالتحديد يوجد لدينا مثال ساطع عن رغبتك في أن تصبح معالجاً. إنها مزحة بشعة. فنحن في غمرة مشاعر ودّية، لكن أكثر ما يهمك، الشيء الوحيد الذي يهمك، هو دقة التنسيب. تفكّر في أن شوبنهاور قال في أحد الأيام شيئاً مشابهاً على نحو غامض. يا له من شيء عظيم».

أغمض فيليب عينيه وقال: «يجد الإنسان نفسه، لدهشته العظيمة، موجوداً فجأة بعد آلاف وآلاف السنين من عدم الوجود؛ يعيش لفترة قصيرة، ثم، مرة أخرى، تأتي فترة طويلة موازية عندما يجد أن عليه أن يتوقف عن الوجود: إني أحفظ الكثير من أقوال شوبنهاور: الفقرة الثالثة من مقالته «*ملاحظات إضافية حول مذهب زهو الوجود*» هل هذه الفكرة غامضة عليك؟».

«يا أولاد، يا أولاد، توقفا عن ذلك»، قالت بوني، بنبرة عالية.

«تمهلي يا بوني. إني أحبّ ذلك»، قال توني.

«هل لدى أحد منكم أي مشاعر أخرى يريد أن يعبّر عنها؟» سأل جوليوس.

«لا أريد أن أعلق في النيران المتبادلة هنا. لقد استُخدمت مدافع ثقيلة»، قال جيل.

«نعم»، قال ستيوارت، «لا يستطيع أحد منهما أن يفوّت الفرصة ليطعن الآخر. فقد علّق فيليب بأن أحداً آخر استخدم عبارة شوبنهاور، لكن بام لا يمكنها أن تفوّت الفرصة بأن تصف فيليب بأنه مزحة بشعة».

«لم أقل إنه مزحة بشعة، بل قلت...».

«هيا يا بام. إنك تتصيّدين الأخطاء. تعرفين قصدي»، ظل ستيوارت ثابتاً، ثم تابع، «وفي جميع الأحوال فإن ثورة الغضب حول نابوكوف ـ كانت خارج السياق يا بام. تشتمين بطله، ثم تمتدحين شخصاً آخر

استعار كلمات شوبنهاور. ما الخطأ الذي ارتكبه فيليب؟ ما هي الجريمة الكبيرة عندما أشار إلى أولوية شوبنهاور؟».

«عليّ أن أقول شيئاً»، قال توني، «كالعادة، فأنا لا أعرف من هم هؤلاء الرجال ـ على الأقل ليس نابو...نوبو؟».

«نابوكوف»، قالت بام، بصوتها الناعم الذي تستخدمه عندما تخاطب توني، «إنه كاتب روسي عظيم. لعلك سمعت بروايته *لوليتا*».

«نعم، رأيت ذلك. حسناً، في هذا النوع من الكلام فإني أدخل في حلقة مفرغة ـ عدم المعرفة يجعلني أبدو غبياً، ثم أسكت، فأبدو أكثر غباء. عليّ أن أحاول باستمرار أن أكسر هذا النمط من الحديث»، والتفت إلى جوليوس وقال، «إذاً للإجابة عن سؤالك عن المشاعر، فهذه إحدى مشاعري ـ غبي. وشعور آخر للحظة عندما قال، «هل هذا غامض عليك؟» لقد لمحت أسنان فيليب ـ وهي أسنان حادّة، حادّة فعلاً. ولديّ مشاعر أخرى تجاه بام»، واستدار توني لمواجهتها، «بام، أنت فتاتي ـ وأنا أتحامل عليك كثيراً، لكنّي سأقول لك شيئاً: *يقيناً لا أريد أن أتطرّق إلى جانبك السيئ*».

«أسمعك»، قالت بام.

وأردف توني، «و، و... لقد نسيت أهم شيء كنت سأقوله ـ بأن كلّ هذا الجدال جعلنا نخرج عن مسار موضوعنا ـ كنّا نتحدّث عن كيف يمكننا أن نحميك أو نتفاداك، يا جوليوس. ثمّ مع بام وفيليب خرجنا عن الموضوع بسرعة. إذاً ألا نتفاداك مرة أخرى؟».

«لا أرى ذلك الآن. عندما نعمل بحميمية كما نفعل الآن، فإننا لا نظل على مسار واحد أبداً. إذ يستمر جدول الأفكار يتدفق إلى قنوات جديدة، وبالمصادفة»، التفت جوليوس إلى فيليب، وقال: «لقد تعمّدت أن أستخدم هذا التعبير ـ بحميمية. أظن أن غضبك، الذي نراه يتفجّر هنا لأول مرة، هو حقاً إشارة إلى وجود حميمية. أظن أن اهتمامك ببام يجعلك غاضباً منها».

عرف جوليوس أن فيليب لن يجيب، فلكزه وقال: «فيليب؟».

فأجاب فيليب وهو يهزّ رأسه، «لا أعرف كيف أقيّم فرضيتك. لكن هناك شيئاً آخر أريد أن أقوله. أعترف بأنني، مثل بام، أبحث أيضاً عن أشياء مريحة أو على الأقل أشياء مهمة لأقولها لك. لقد اتبعت ممارسة شوبنهاور بأن أنهي نهاري كلّ يوم بقراءة شيء من أعمال إبيكتيتوس أو من الأوبنشاد». نظر فيليب نحو توني، «كان إبيكتيتوس فيلسوفاً رومانياً من القرن الثاني والأوبنشاد نصّ هندوسي مقدّس قديم. في الليلة الماضية قرأتُ مقتطفاً من إبيكتيتوس أعتقد أنه ذو قيمة، وقد صورت بعض النسخ منه، وترجمته ترجمة عامة من اللغة اللاتينية إلى اللغة الدارجة الحالية»، ومدّ فيليب يده إلى حقيبته، وأخرج منها نسخاً ووزعها على الجميع، ثم، بعينين مغمضتين، راح يردد المقتطف من ذاكرته.

عندما تكون في رحلة بحرية، وترسو السفينة، فإنك تخرج لتجلب ماء وتجمع بعض الجذور والقواقع من جانب الطريق. لكن عليك دائماً أن تبقي عقلك مركزاً على السفينة، وأن تتطلع حولك باستمرار، لأن قبطان السفينة سينادي في أي لحظة لكي يصعد الركاب إلى السفينة، وعليك أن تستجيب إلى تلك الدعوة على الفور وتترك كلّ ما تفعله، لكي لا تُعامل مثل الخراف التي تُقيّد ويُلقى بها في الحظيرة.

وينطبق هذا على حياة البشر أيضاً. فإذا كانت هناك زوجة وأطفال بدلاً من القواقع وجذور الأعشاب، يجب ألّا يعيقنا شيء منها. أما إذا نادى القبطان، فاهرع إلى السفينة، واترك كلّ ما تفعله، من دون أن تنظر إلى الوراء. وإذا كنت عجوزاً، فلا تبتعد عن السفينة في أي لحظة، لكي تكون مستعداً عندما ينادي القبطان.

انتهى فيليب ومدّ ذراعيه كما لو كان يريد أن يقول، «هذه هي».

قرأ الجميع الفقرة بإمعان. ارتبكوا. كسر ستيوارت الصمت، وقال: «أحاول، لكن فيليب، لم أفهمها. ما قيمة هذه بالنسبة لجوليوس؟ أو لنا؟».

أشار جوليوس إلى ساعته، وقال: «آسف لأن أقول إن الوقت قد انتهى. لكن دعوني أتخذ موقع أستاذ وأقول شيئاً. غالباً ما أنظر إلى عبارة أو تصرّف من وجهتيْ نظر مختلفتين ـ من *محتواها* ومن *منهجها* ـ وأقصد *بالمنهج* ماذا تخبرنا عن *طبيعة العلاقة بين الأطراف المعنية*. وأنا مثلك يا ستيوارت لم أفهم *مضمون* رسالة فيليب فوراً، يجب أن أدرسها، وقد يكون *المضمون* موضوعاً تطرحه في جلسة أخرى. لكنّي أعرف شيئاً عن *المنهج*. إن ما أعرفه يا فيليب هو أنك، مثل بام، تفكّر بي، وأردت أن تقدّم لي هدية، وبذلت جهداً لتفعل ذلك، فقد حفظت هذه الفقرة عن ظهر قلب وعملت منها بعض النسخ. ما معنى ذلك؟ إن ذلك يعكس اهتمامك بي. وما هو شعوري إزاء ذلك؟ لقد تأثرتُ كثيراً، وأنا أقدّر لك ذلك، وأتطلّع إلى الوقت الذي تستطيع أن تعبّر فيه عن اهتمامك بكلماتك أنت».

تمكن مقارنة الحياة بقطعة قماش مطرّزة،
يأتي كلّ شخص في النصف الأول من حياته
ليرى الجزء العلوي منها، ويرى في النصف الثاني الطرف المقابل.
لكن النصف الآخر لا يكون جميلاً جداً، وإنما تنويري أكثر
لأنه يمكّن المرء من رؤية كيف ترتبط الخيوط أحدها بالآخر.

٣٠

عندما غادر أعضاء المجموعة الغرفة، راح جوليوس يراقبهم وهم يهبطون الدرج إلى الشارع. وبدلاً من أن يتجهوا إلى سياراتهم المركونة، واصلوا السير معاً. لا ريب في أنهم سيذهبون إلى المقهى. كم كان يوّد أن يرتدي معطفه الثقيل ويهبط الدرج بسرعة ويلحق بهم. لكن قد يحدث ذلك في يوم آخر، في حياة أخرى، بساقين أخريين، قال لنفسه، وعاد إلى جهاز الكمبيوتر على طاولة مكتبه ليدوّن ملاحظاته عن الجلسة. وبغتة، غيّر رأيه، فعاد إلى الغرفة التي تعقد فيها الجلسات، وأشعل غليونه وراح يستمتع برائحة التبغ التركي الفاخر. لم يكن لديه هدف معيّن سوى أن يَتَشَمَّسَ لبضع دقائق أخرى في جمر جلسة المجموعة.

كانت هذه الجلسة، مثل الجلسات الثلاث أو الأربع الأخيرة، جذابة. وانجرفت أفكاره لتعود إلى مجموعات المريضات بسرطان الثدي التي قادها منذ فترة. كم مرة وصفت تلك المريضات الفترة الذهبية عندما تغلّبن على رعب إدراكهن بأنّهن سيمتن. وقالت بعضهن إن العيش مع السرطان جعلهن أكثر حكمة وأكثر إدراكاً لذاتهن، بينما أعادت أخريات

ترتيب أولوياتهن في الحياة، وازددن قوة، وتعلّمن أن يقلن «لا» للنشاطات التي لم يعدن يعتبرنها ذات قيمة ويقلن «نعم» للأشياء المهمة حقاً ـ مثل حبّ أفراد العائلة والأصدقاء ـ وبدأن يلاحظن الجمال من حولهن، ويستمتعن بتغيّر الفصول. لكن للأسف، فقد تحسّر عدد منهن لأنهن لم يتعلّمن كيف يعشن إلّا بعد أن سكن السرطان في أجسادهن.

كانت هذه التغييرات مؤثرة للغاية ـ في الحقيقة، قالت إحدى المريضات، «إن السرطان يعالج العصاب النفسي» ـ في مناسبتين فقط، شرح جوليوس لأحد صفوف الطلاب التغييرات النفسية، ثم طلب منهم أن يخمّنوا ما نوع العلاج الذي يجب إجراؤه. وأصيب الطلاب بالصدمة عندما علموا أن ما يُحدث الفرق ليس العلاج أو الدواء وإنما مواجهة الموت. إنه يدين بالشيء الكثير لتلك المريضات. فقد كنّ نموذجاً يحتذي به في وقت حاجته. للأسف لم يستطع أن يقول لهن ذلك. عش جيداً، ذكّر نفسه، وآمن بأن الأشياء الجيدة ستتدفق منك حتى لو لم تتعلّم منها قط.

وماذا عن سرطانك؟ سأل نفسه. إني أعرف الكثير عن مرحلة الرعب التي، شكراً لله، أخرج منها الآن بالرغم من أنه لا يزال يستيقظ عند الساعة الثالثة صباحاً ويمسك الذعر بقبضته رعباً لا اسم له لا يفضي إلى أي تفكير أو كلام منطقي، لا يفضي إلّا إلى أقراص الفاليوم، أو إلى بزوغ الفجر، أو الاسترخاء في حوض ماء حارّ مهدّئ.

لكن هل تغيّرتُ أو ازددت حكمة؟ تساءل. هل حانت فترتي الذهبية؟ قد أكون قد اقتربت أكثر من مشاعري؛ قد يكون هذا هو النمو. أظن، لا، *أعرف* أنني أصبحت معالجاً أفضل؛ ازدادت أذناي حساسية. نعم، بالتأكيد، فقد صرت الآن معالجاً مختلفاً. قبل أن أصاب بالميلانوما لم أقل قط إنني أحبّ أعضاء مجموعة العلاج. لم أكن أحلم بأن أبوح بتلك التفاصيل العميقة عن حياتي، وفاة ميريام، انتهازيتي الجنسية. والدافع القهري الذي لا يقاوم للاعتراف أمام أعضاء المجموعة اليوم، هزّ جوليوس رأسه بدهشة ـ إنه أمر يدعو للتساؤل، قال لنفسه. أشعر بشيء يدفعني بعكس ما تدربت عليه، بعكس ما تعلّمته.

ثمة شيء واحد أنا متيقن منه، وهو أنهم لم يرغبوا في الاستماع إليّ. تحدّث عن المقاومة! لم يريدوا أن يسمعوا شيئاً عن عيوبي، أو عن الجزء الداكن في داخلي. لكن ما إن أخرجتها حتى ظهرت أشياء مثيرة للاهتمام. كان توني شيئاً آخر! لقد تصرّف مثل معالج ماهر، وسألني عمّا إذا كنت مقتنعاً بردود أفعال المجموعة، وحاول أن يجعل سلوكي طبيعياً، وراح يضغط لمعرفة «*لماذا الآن*». شيء رائع. أكاد أتخيّله وهو يقود المجموعة بعد ذهابي ـ سيكون ذلك شيئاً ـ معالج ترك الجامعة قبل أن يتخرج منها، وفي ماضيه يوجد حكم بالسجن لفترة زمنية. وآخرون ـ جيل، ستيوارت، بام ـ أحاطوني برعايتهم، وحافظوا على تركيز المجموعة. كان كارل يونغ يفكّر في أمور أخرى عندما قال إن المعالج المجروح هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يشفي حقاً، لكن صقل مهارات المرضى العلاجية قد يكون تبريراً كافياً لكي يكشف المعالجون عن جروحهم.

ذرع جوليوس القاعة، ثم دخل إلى مكتبه ولم يبارح تفكيره ما جرى في الجلسة. وجيل، هل جاء اليوم! كان وصفه لبام بأنها «قاضي القضاة» رائعاً ودقيقاً. عليّ أن أساعد بام في فهم هذا الوصف. في هذه الحالة، كانت رؤية جيل أحدّ من نظرتي. لقد أحببت بام كثيراً منذ فترة طويلة إلى حدّ أنني أهملت مرضها، ربما لهذا السبب لم أتمكن من مساعدتها في الشفاء من هوسها بجون.

شغّل جوليوس كمبيوتره وفتح ملفاً بعنوان، «حبكات قصص قصيرة»؛ ملفّ يضم المشروع العظيم غير المنجز في حياته: أن يكون كاتباً حقيقياً. كان كاتباً مساهماً محترفاً جيداً (فقد نشر كتابين ومائة مقالة في أدبيات العلاج النفسي)، لكن جوليوس كان يتوق إلى كتابة الأدب، وعلى مدى عقود جمع حبكات لقصص قصيرة من مخيلته ومن ممارسته. ومع أنه كان قد بدأ بكتابة العديد منها، لكنه لم يجد الوقت ولا الشجاعة الكافيين لإنهاء قصّة وإرسالها للنشر.

مستعرضاً قوائم الحبكات، نقر على مقالة بعنوان «ضحايا يواجهون أعداءهم» وقرأ فكرتين كان قد دوّنهما. فقد حدثت المواجهة الأولى على متن سفينة على متنها أثرياء أبحرت من الساحل التركي. طبيب نفساني يدخل إلى كازينو السفينة ويرى عبر الدخان الذي يغشى الغرفة أحد مرضاه السابقين، رجل مخادع كان قد سلبه خمسة وسبعين ألف دولار. أما حبكة القصة الثانية فهي عن محامية كُلّفت بالدفاع عن متّهم مغتصب. وفي أول مقابلة لها معه في السجن، تساورهما الشكوك في أنه الرجل الذي اغتصبها قبل عشر سنوات.

كتب عنواناً جديداً: «في جلسة علاج جماعي، تصادف امرأة رجلاً كان أستاذها منذ سنوات عدّة، واستغلّها جنسياً». ليست سيئة. احتمال عظيم للأدب، قال جوليوس لنفسه، مع أنه يعرف أنها لن تُكتب أبداً. هناك مسائل أخلاقية؛ فهو يحتاج إلى إذن من بام وفيليب، وسيحتاج أيضاً إلى مضي عشر سنوات، وهو لا يملك ذلك. لكنها محتملة أيضاً للعلاج الجيد، فكّر جوليوس. كان متأكّداً من أن شيئاً إيجابياً قد يسفر عنها، لو كان باستطاعته أن يبقيهما كلاهما في المجموعة ويستطيع احتمال ألم نكء جروح قديمة.

تناول جوليوس ترجمة فيليب لحكاية المسافرين على السفينة. أعاد قراءتها مرات ومرات، محاولاً أن يفهم مغزاها أو أهميتها. لكنه هزّ رأسه أخيراً. لقد قدّمها له فيليب على أنها شيء يريحه. لكن أين هي تلك الراحة؟

حتى عندما لا يكون هناك استفزاز محدد،
فإني أشعر دائماً بقلق يجعلني أرى وأسعى
إلى أخطار غير موجودة أصلاً؛
وهي تضخّم أي إزعاج مهما كان ضئيلاً
وتزيد الارتباط بالآخرين صعوبة.

٣١

كيف عاش آرثر

بعد حصوله على درجة الدكتوراه، عاش آرثر في برلين، وعاش لفترة قصيرة في درسدن وميونخ ومانهايم، ثم هرب من وباء الكوليرا، واستقرّ في الثلاثين سنة الأخيرة من حياته في فرانكفورت التي لم يغادرها قط إلّا لنزهة ليوم واحد. ولم يرتبط بعمل لقاء أجر، وعاش في غرف مستأجرة، ولم يمتلك بيتاً، أو موقداً، أو زوجة، أو أسرة، أو صداقات حميمية قط. لم تكن لديه دائرة اجتماعية، ولا أصدقاء مقربين، ولا إحساس بالمجتمع من حوله، وفي الواقع، كان يتعرض كثيراً للسخرية المحليّة. وحتى السنوات القليلة الأخيرة من حياته لم يكن لديه جمهور أو قرّاء أو دخل يكسبه من كتاباته. وبما أن علاقاته كانت قليلة جداً، فقد كانت مراسلاته الضئيلة تتناول أعماله بثورة رئيسية.

وبالرغم من عدم وجود أصدقاء له، فإننا نعرف عن حياته الشخصية أكثر مما نعرفه عن حياة معظم الفلاسفة لأنه كان في كتاباته الفلسفية

شخصياً إلى درجة كبيرة. فعلى سبيل المثال، في الفقرات الافتتاحية من مقدمة عمله الرئيسي، *العالم كإرادة وتصوّر*، يسجّل ملاحظة شخصية غير عادية لأطروحة فلسفية. ويوضح نثره السلس والواضح على الفور بأنه يرغب في التواصل شخصياً مع القارئ. فهو أولاً، يعلّم القارئ كيف يمكنه قراءة كتابه، بادئاً برجاء أن يقرأ الكتاب مرّتين، والقيام بذلك بقدر كبير من الصبر. ثم يحثّ القارئ على قراءة كتابه السابق أولاً، *حول الأصول الأربعة لمبدأ السبب الكافي*، الذي يُعتبر مقدمة لهذا الكتاب ويؤكد للقارئ بأنه سيبدي له امتناناً كبيراً لنصيحته هذه. ثمّ يقول إن القارئ سيستفيد أكثر بكثير إذا كان مطلعاً على أعمال كانط وأفلاطون العظيمين. ويذكر أنه اكتشف أخطاء جسيمة في كانط، يناقشها في ملحق (يجب أن يُقرأ أولاً أيضاً)، ويذكر أخيراً بأنّ القرّاء المطلعين بشكل جيد على الأوبانيشاد، سيكونون مهيئين بشكل أفضل لفهم كتابه. وأخيراً، يقول (وهو محقّ في ذلك تماماً) بأن على القارئ أن يغضب وأن ينفد صبره من طلباته الدعيّة الكثيرة وصلفه اللذين يستغرقان وقتاً. من الغريب أن يعيش هؤلاء الكتّاب الشخصيون جداً حياة شخصية موضوعية.

وبالإضافة إلى الإشارات الشخصية الواردة في عمله، يكشف شوبنهاور كثيراً عن نفسه في وثيقة دوّن فيها سيرته الذاتية بعنوان كُتب باللغة اليونانية، (عن نفسي)، مخطوطة يغلّفها الغموض ومثيرة للجدل تسير قصّتها الغريبة على النحو التالي:

في أواخر حياته، تحلّقت حول آرثر دائرة صغيرة جداً من المتحمّسين أو «التلاميذ» الذين كان يحتملهم لكنه لم يكن يحترمهم ولم يكن يحبّهم. وقد سمعه هؤلاء الأصدقاء كثيراً وهو يتحدث «عن نفسي»، وهي يوميات عن سيرته الذاتية دوّن فيها ملاحظات عن نفسه خلال الثلاثين سنة الماضية. لكن شيئاً غريباً حدث بعد موته؛ فلم يُعثر على مذكراته «عن نفسي» في أي مكان. وبعد البحث بلا جدوى، واجه أتباع شوبنهاور ويلهيلم غوينير، منفّذ وصية شوبنهاور عن الوثيقة المفقودة.

فأخبرهم غوينير بأن الكتاب «عن نفسي» لم يعد موجوداً، لأن شوبنهاور طلب منه أن يحرقه بعد موته مباشرة.

لكن بعد فترة قصيرة، كتب ويلهيلم غوينير نفسه أول سيرة ذاتية عن آرثر شوبنهاور، وأصرّ تلاميذ شوبنهاور بأنهم لاحظوا ورود فقرات من وثيقة «عن نفسي» إمّا في اقتباسات مباشرة أو في عبارات أعيدت صياغتها. هل نسخ غوينير المخطوطة قبل أن يحرقها؟ أم أنه لم يحرقها مطلقاً وسرقها واستخدمها في سيرته الذاتية هو؟ واستمر الجدال عقوداً طويلة، وفي النهاية أعاد أحد دارسي شوبنهاور تركيب الوثيقة من كتاب غوينير ومن كتابات شوبنهاور الأخرى ونشر في النهاية مخطوطة «عن نفسي» في سبع وأربعين صفحة في نهاية المجلد الرابع من *Nachiass* (بقايا مخطوطة). وتشكّل «عن نفسي» تجربة قراءة غريبة لأنه يلي كلّ فقرة وصف عن مصدرها البيزنطي، وتكون غالباً أطول من النصّ نفسه.

لماذا لم يكن لدى آرثر شوبنهاور عمل؟ إنّ قصّة استماتة آرثر لتبوء منصب في الجامعة هي حكاية أخرى من تلك الحكايات الملتوية التي ترد في جميع روايات السيرة الذاتية لحياة شوبنهاور. ففي عام ١٨٢٠، عندما كان في الثانية والثلاثين من العمر، عُرض عليه أول منصب للتدريس، منصب مؤقت، بمرتّب متدنٍ (*Privatdozent*) ليدرّس الفلسفة في جامعة برلين. وماذا فعل غير أنه تعمّد أن يحدّد، وعلى الفور، موعد محاضرته (التي عنوانها جوهر *العالم*) في نفس الموعد الذي يلقي فيه جورج ويلهيلم هيغل الذي كان رئيس القسم وأشهر فيلسوف آنذاك، محاضرته؟

احتشد مئتا طالب في القاعة التي سيلقي فيها هيغل محاضرته بينما لم يحضر محاضرة شوبنهاور سوى خمسة طلاب، ووصف نفسه بأنه جاء ليحرّر فلسفة ما بعد كانط من التناقضات الفارغة ومن لغة الفلسفة المعاصرة المفسدة والغامضة. ولم يكن سرّاً بأن شوبنهاور كان يعني في ذلك هيغل وسلف هيغل، فيشته (تذكّر، الفيلسوف الذي بدأ حياته راعي

أوز واجتاز أوروبا كلها سيراً على القدمين من أجل لقاء كانط). من الواضح أن كلّ ذلك لم يقرّب شوبنهاور الشاب من هيغل أو من أعضاء الهيئة التدريسية. وعندما لم يُسجّل أي طالب في المحاضرات التي يلقيها شوبنهاور في الفصل الدراسي التالي، انتهت مهنته الأكاديمية القصيرة والطائشة، ولم يلقِ أي محاضرة عامة بعد ذلك.

وخلال السنوات الثلاثين التي أمضاها في فرانكفورت حتى وفاته في عام في ١٨٦٠، التزم شوبنهاور بجدول يومي منتظم، يكاد يشبه بدقة روتين كانط اليومي. فقد كان يومه يبدأ بالكتابة لمدة ثلاث ساعات تليها ساعة، وأحياناً ساعتان، في العزف على آلة الفلوت. وكان يمارس السباحة كلّ يوم في نهر ماين البارد، ولم يكن يمرّ يوم لا يسبح فيه حتى في منتصف الشتاء. وكان يتناول طعام الغداء دائماً في نفس النادي، إنغليشير هوف، مرتدياً سترة ذات ذيل وربطة عنق بيضاء، بدلة كانت دارجة في شبابه، لكنها أصبحت قديمة الطراز في فرانكفورت في منتصف القرن التاسع عشر. وكان أيّ شخص فضولي يريد أن يلتقي بالفيلسوف الغريب والمشاكس يتوجه إلى ذلك النادي.

وتدور حكايات كثيرة حول شوبنهاور في مطعم إنغليشير هوف؛ شهيته الهائلة، وغالباً ما كان يتناول وجبة طعام لشخصين (وعندما كان أحدهم يبدي ملاحظة حول ذلك، كان يجيب بأنه يفكّر أيضاً عن شخصين)، وكان يسدد ثمن وجبتي غداء لكي لا يجلس أحد إلى جانبه، وحديثه الفظ لكن الثاقب، ومزاجه الغاضب غالباً، وقائمته السوداء بالأشخاص الذين يرفض أن يحدّثهم عن ميوله لمناقشة مواضيع صادمة غير ملائمة، مثل امتداح الاكتشاف العلمي الجديد الذي مكّنه من تفادي الإصابة بأمراض تناسلية وذلك بغمر قضيبه بعد الجماع مباشرة في محلول مخفّف من مسحوق التبييض.

ومع أنه كان يستمتع بالأحاديث الجدّية، فلم يكن يجد رفاقاً جديرين بوقته يشاركهم طعام العشاء إلّا نادراً. وكان يضع بانتظام قطعة ذهبية على

الطاولة عندما يجلس ويحملها عندما يغادر. وفي إحدى المرات، سأله ضابط في الجيش اعتاد تناول وجبة غدائه إلى نفس الطاولة عن الهدف من عمله ذلك، فأجاب شوبنهاور بأنّه سيتبرّع بهذه القطعة الذهبية للفقراء عندما يسمع الضباط يتحدّثون أحاديث جدّية لا تدور كلّها حول خيولهم، أو كلابهم، أو نسائهم. وعندما كان يتناول طعامه كان يخاطب كلبه أتمان بعبارة «أنت يا سيد»، أما إذا أساء أتمان التصرف، فإنه يخاطبه بقوله: «أنت يا إنسان».

وتُحكى حكايات كثيرة عن حدّة ذكائه. ففي إحدى المرات، سأله أحد رواد المطعم سؤالاً فردّ ببساطة، «لا أعرف»، فعلّق الشاب قائلاً، «حسناً، حسناً، ظننتك حكيماً عظيماً، تعرف كلّ شيء»، فأجابه شوبنهاور، «لا، فالمعرفة محدودة، أما الغباء فقط فغير محدود». وكانت الأسئلة التي تُطرح على شوبنهاور من النساء أو عنهن أو عن الزواج تلقى ردوداً لاذعة. وفي إحدى المرات، اضطر إلى تحمّل رفقة امرأة ثرثارة راحت تصف له بتفصيل شديد تعاسة زواجها. فأنصت إليها بنفاد صبر، وعندما سألته عمّا إذا كان قد فهمها، أجابها، «لا، لكنّي بدأت أفهم زوجك».

وفي حديث آخر سُئل هل سيتزوج.

«لا أنوي الزواج لأنه لن يسبب لي إلّا القلق».

«ولماذا سيكون الأمر كذلك؟».

«سأكون غيوراً، لأن زوجتي ستخونني؟».

«لماذا أنت متأكد بأن ذلك سيحدث؟».

«لأنني سأستحقّ ذلك».

«لماذا؟».

«لأنني تزوجت».

وكانت لديه أيضاً عبارات لاذعة عن الأطباء، ففي إحدى المرات قال

إن الأطباء يكتبون بخطين مختلفين: خط لا يكاد يُقرأ للوصفات الطبية، وخط واضح لكتابة فواتيرهم.

ووصفه كاتب رأى شوبنهاور عندما بلغ الثامنة والخمسين من العمر بينما كان يتناول طعام الغداء في عام ١٨٤٦ على النحو التالي:

متين البنية... أنيق دائماً لكنه يرتدي ثياباً قديمة الطراز... متوسط الطول له شعر فضي قصير... وعينان زرقاوان منقّطتان بهيجتان تشعّان ذكاء... يبدو انطوائياً، وعندما يتكلّم بأسلوب باروكي تقريباً، كان يقدّم مادة دسمة يومياً من الهجاء الرخيص... عن رفيقه الجالس إلى طاولته. وبسبب هذه السخرية لكن غير المؤذية، يصبح رفيق الطاولة هدفاً لنكات رجال تافهين دائماً ـ ويسخرون منه.

بعد أن يتناول الغداء، يسير شوبنهاور عادة مسافة طويلة، يواصل خلالها غالباً مناجاة مسموعة أو حديثاً مع كلبه فيجلب عبارات ساخرة من الأطفال. وكان يمضي الأمسيات في القراءة وحيداً في غرفته، لا يستقبل زوّاراً قط. ولا يوجد أي دليل على وجود أي علاقة رومانسية في السنوات التي أمضاها في فرانكفورت. وفي عام ١٨٣١، عندما كان في الثالثة والأربعين، كتب في كتابه عن نفسي، «إن خطر العيش بدون عمل على مبلغ زهيد لا يمكن العيش به إلّا حياة عزوبة».

وبعد القطيعة بينهما لم ير أمّه منذ أن كان في الحادية والثلاثين إلا بعد اثني عشرة عاماً، في عام ١٨٣١. فقد كانا قد بدآ يتبادلان بضع رسائل عن العمل حتى وفاتها في عام ١٨٣٥. وفي إحدى المرات، عندما كان مريضاً، كتبت أمّه تعليقاً شخصياً نادراً: «شهران في غرفتك دون أن ترى شخصاً واحداً، هذا ليس بالأمر الجيد، يا بني، وهو شيء يحزنني كثيراً. لا يستطيع رجل أن يعزل نفسه هكذا، ويجب ألّا يفعل ذلك».

ومن حين لآخر، كان يتبادل رسائل مع أخته أديل التي كانت تحاول

التقرّب من أخيها، ودأبت في رسائلها ألّا تطلب منه شيئاً. وكان يتراجع باستمرار. وعاشت أديل التي لم تتزوّج قط حياة يائسة للغاية. وعندما أخبرها بأنه سينتقل من برلين هرباً من الكوليرا، ردّت بأنّها تتمنى أن تصاب بالكوليرا لتضع حدّاً لتعاستها. لكن آرثر ابتعد عنها أكثر، ورفض رفضاً قاطعاً أن ينجذب إلى حياتها وإلى كآبتها. وبعد أن غادر آرثر البيت، لم ير أحدهما الآخر إلّا مرة واحدة، وكان ذلك في عام ١٨٤٠، في لقاء قصير وغير مرض، وماتت أديل بعد ذلك بتسع سنوات.

كانت النقود مصدراً مستمراً للقلق طوال حياة شوبنهاور. فقد تركت أمّه بيتها الصغير لأديل، وماتت أديل ولم يبق من البيت شيء. وحاول آرثر عبثاً أن يحصل على عمل كمترجم. وحتى السنوات الأخيرة من حياته، لم تكن كتبه تباع ولم تجر الصحافة أي مراجعة عن كتبه.

باختصار، عاش آرثر من دون أن تتاح له التسهيلات أو الجوائز التي كان يستحقها لسعة ثقافته لكي يعيش متوازناً، أو حتى ليعيش حياة كريمة. كيف فعل ذلك؟ ما الثمن الذي دفعه؟ هذه هي، كما سنرى، الأسرار التي أودعها في كتابه «عن نفسي».

الأفكار التي تخلّفها كائنات مثلي
هي أعظم متعة لي في الحياة.
فلولا الكتب لعشت يائساً منذ أمد بعيد.

٣٢

في الأسبوع التالي، دخل جوليوس إلى غرفة العلاج الجماعي ورأى مشهداً غريباً. فقد كان الأعضاء الذين أخذوا أماكنهم يقرأون بإمعان القصة التي وزعها عليهم فيليب في الجلسة الماضية. كان ستيوارت منهمكاً في قراءة الورقة ويضع تحتها خطوطاً، وكان توني يقرأ من فوق كتف بام.

افتتحت ريبيكا الجلسة، وقالت بنبرة غاضبة في صوتها: «قرأتها باهتمام شديد»، ورفعت الورقة ثمّ طوتها ودسّتها في محفظتها، وأضافت، «لقد منحتها وقتاً كافياً يا فيليب. في الواقع أمضيت عليها وقتاً أكثر من اللازم، والآن أريد أن تبيّن لنا ما علاقة هذا النص بي أو بالمجموعة أو بجوليوس».

«أظن أنه سيكون من المفيد أكثر لو ناقشها الصفّ أولاً»، ردّ فيليب.

«الصفّ؟ هل هذا ما يبدو لك وظيفة مدرسية. أبهذه الطريقة تدير جلساتك يا فيليب؟» سألته، وأغلقت محفظتها، «مثل معلّم في صفّ مدرسة؟ لم آتِ إلى هنا من أجل هذا. لقد جئت للمعالجة، لا إلى صفّ لتعليم البالغين».

لم يعر فيليب أي اهتمام لاحتجاج ريبيكا، وقال: «في أفضل

الأحوال، يوجد حدّ غامض فقط بين التعليم والعلاج. ويعتقد اليونانيون ـ سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، والرواقيون، والأبيقوريون ـ جميعاً أن التعليم والعقل هما الأداتان اللازمتان لمواجهة المعاناة الإنسانية. ويرى معظم المعالجين الفلسفيين أن التعليم هو أساس العلاج. ويكاد يُنسب كلّ ذلك إلى شعار ليبنيز، *Caritas sapientis* ومعناه «الحكمة والرعاية». ثم التفت فيليب نحو توني، وأردف، «ليبنيز فيلسوف ألماني عاش في القرن السابع عشر».

فقالت بام: «أجد هذا شيئاً مضجراً وفيه غطرسة. لقد بدأت بذريعة أنك تساعد جوليوس، هيه أنت» ـ رفعت صوتها قليلاً ـ فيليب، «إني أكلّمك أنت...». فيليب الذي كان يحدّق إلى الأعلى باسترخاء، اهتزّ وانتصب في جلسته، والتفت نحو بام، «أولاً، توزع علينا هذه الورقة وتحاول الآن أن تتحكم في المجموعة وتحجم بحياء عن تقديم تفسيرك لهذا المقتطف».

فقال جيل: «ها أنت تحاولين مرة أخرى إخصاء فيليب. بحق الله يا بام. إنه فيلسوف ومعالج. ليس من الضروري أن تكوني عالمة صواريخ لكي تفهمي بأنه يحاول الإسهام في المجموعة بالاعتماد على خبرته. لماذا تحسدينه على كلّ شيء؟».

فتحت بام فمها لتتكلم لكنها أغلقته، وبدا أنها كانت تبحث عن الكلمات المناسبة. حدّقت في جيل الذي أضاف: «طلبتِ تعليقاً مباشراً يا بام، وحصلت عليه. ولا، أنا لم أعد أشرب، إن كنتِ تظنين ذلك. أنا في يومي الرابع عشر من الشفاء ـ أصبح جوليوس يراني مرّتين في الأسبوع ـ لقد شغّل الحرارة وشدّ البراغي، وجعلني أذهب إلى مركز العلاج كلّ يوم، سبعة أيام في الأسبوع، أربع عشرة جلسة على مدى أربعة عشر يوماً. لم أذكر ذلك لكم الأسبوع الماضي لأنني لم أكن متأكداً من أنه سيكون باستطاعتي أن ألتزم بها».

تفاعل جميع الأعضاء، ما عدا فيليب، بقوة بإيماءات وتقديم التهاني.

قالت له بوني إنها فخورة به. حتى بام تمكنت من قول «هذا جيد لك». وقال توني، «ربما يتعين عليّ أن أنضم إليك»، وأشار إلى الكدمة على خدّه وأضاف «السكر يؤدي إلى الكدمات».

«فيليب، وماذا عنك؟ هل لديك ردّ لجيل؟» سأله جوليوس.

هزّ فيليب رأسه وقال: «لقد حصل على دعم جيد من الآخرين. إنه صاح، يتكلم جيداً، يزداد قوّة. في بعض الأحيان يكون المزيد من الدعم أقل تأثيراً».

تدخّل جوليوس قائلاً: «لقد أعجبني شعار ليبنيز ذاك الذي استشهدت به *Caritas sapientis*، *الحكمة والرعاية*، لكني أحثّك على ألّا تنسى الجزء الأول، *الحكمة*. فإذا كان جيل يستحقّ الدعم، فلماذا تكون دائماً آخر شخص يقدم الدعم؟ والأهم من ذلك، لديك معلومات فريدة؛ ومن غيرك يستطيع أن يعبّر عن مشاعرك بالدفاع عنك ومواجهة بام بالنيابة عنك؟».

«أحسنت القول»، أجاب فيليب، «تنتابني مشاعر متباينة. لقد أحببت دعم جيل، وفي الوقت نفسه فأنا أتحفظ على ذلك. إذا اعتمدت على الآخرين في القتال عنك، فإن جهازك العضلي سيضمر».

«حسنا، سأكشف المزيد عن جهلي»، قال توني، مشيراً إلى الورقة، «إن قصّة السفينة هذه يا فيليب ـ لم أفهمها جيداً ـ قلت لنا في الأسبوع الماضي إنك ستقدّم لجوليوس شيئاً لكي تريحه، لكن هذه القصّة عن السفينة والمسافرين، أقصد، بصراحة، لا أعرف ماذا تعنيه».

«لا تعتذر»، قالت بوني، «قلت لك يا توني إنك تكاد تتكلّم بالنيابة عني دائماً؛ فأنا مشوشة مثلك حول موضوع هذه السفينة وجمع القواقع».

«وأنا أيضاً»، قال ستيوارت، «لم أفهمها».

«دعوني أساعدكم»، قالت بام، «فكما تعرفون فإني أكسب رزقي من تفسير الأدب. الخطوة الأولى هي الانتقال من المحسوس ـ أي السفينة،

القواقع، الأغنام، وما إلى ذلك ـ إلى المجرد. بعبارة أخرى، اسأل نفسك: ماذا تمثل هذه السفينة أو الرحلة أو الميناء؟».

«أظن أن السفينة تمثّل الموت ـ أو الرحلة نحو الموت»، قال ستيوارت وهو ينظر في الورقة.

فقالت بام «حسناً. إذاً إلى أين تنطلق من هذه النقطة؟».

فأجاب ستيوارت، «يبدو لي أن النقطة الرئيسية هنا هي أنه يجب ألّا تعير اهتماماً كبيراً إلى التفاصيل الموجودة على الشاطئ لكي لا تفوّت السفينة التي ستبحر».

فقال توني: «إذاً، إذا انشغلت كثيراً في أمورك على الشاطئ ـ حتى لو كانت لديك زوجة وأطفال ـ فقد تبحر السفينة بدونك، بعبارة أخرى، قد تفوّت موتك. هل هذا أمر عظيم ـ هل هذه كارثة كبيرة؟».

«نعم، نعم، أنت على حقّ يا توني»، قالت ريبيكا، «وأنا فهمت أيضاً أن السفينة تعني الموت، لكن عندما تصوغها هكذا، فإني أرى أنها تنطوي على أي معنى».

فقال جيل: «وأنا لم أفهمها أيضاً، لكنها لا تقول إنك ستفوّت الموت، بل تقول إنك ستذهب إليها وتتكدّس فيها كالأغنام».

فقالت ريبيكا: «مهما كان الأمر فهذا لا يبدو علاجاً»، والتفتت نحو جوليوس وأضافت، «من المفترض أن هذه القصة هي من أجلك. هل تجد فيها أيّ راحة؟».

«سأكرّر ما قلته لك الأسبوع الماضي يا فيليب. إن ما أفهمه هو أنك تريد أن تقدّم لي شيئاً لتخفف من محنتي، وأيضاً تخجل من القيام بذلك مباشرة. وبدلاً من ذلك، فإنك تختار أسلوباً شخصياً أقل. تضع برنامجاً للمستقبل، كما أظنّ لتبدي اهتمامك بشكل شخصي أكثر.

«أما بالنسبة إلى المحتوى»، تابع جوليوس، «فأنا مشوّش أيضاً، لكنّي فهمته هكذا؛ بما أن السفينة قد تبحر في أي وقت، أي، بما أن

الموت قد ينادينا في أي لحظة، فينبغي لنا أن نتحاشى الارتباط بقوة بالأشياء في العالم. لعلها تحذّرنا بأن الارتباطات العميقة تجعل الموت مؤلماً أكثر. هل هذه هي رسالة العزاء التي تحاول أن تقدّمها لي يا فيليب؟».

فتدّخلت بام قبل أن يجيب فيليب وقالت: «أظن أنها تصبح مفهومة أكثر إذا لم تكن السفينة والرحلة تمثّلان الموت بل ما يمكن أن نطلق عليها الحياة الأصيلة. بعبارة أخرى، إننا نعيش بأصالة أكثر لو ركّزنا على الحقيقة الأساسية للكينونة فقط، معجزة الوجود نفسه؛ لو ركّزنا على 'كينونتنا' ولا ننشغل كثيراً في لهو الحياة، أي الأشياء المادية الموجودة في الجزيرة، عندها سنفقد رؤية الوجود نفسه».

ساد صمت لفترة قصيرة. التفتت الرؤوس نحو فيليب.

فردّ فيليب بشيء من الحماسة في نبرة صوته، «تماماً. هذا ما أراه تماماً. تتمثّل الفكرة في أنه يجب على المرء أن يحذر من أن يفقد نفسه في لهو الحياة. وقد أطلق عليها هايدغر الوقوع أو الانغماس في الحياة اليومية. الآن، أعرف أنك لا تستطيعين احتمال هايدغر يا بام، لكنّي أعتقد بأنه يجب عدم السماح لسياسته المضللة أن تحرمنا من أفكاره الفلسفية الثاقبة. لذلك، لإعادة صياغة هايدغر، فإن السقوط والانهماك في مشاغل الحياة اليومية يؤديان إلى أن يخسر المرء حريته ـ مثل الأغنام.

«ومثل بام»، تابع فيليب، «أعتقد أن هذه القصة الرمزية تحذّرنا من الارتباط وتحثّنا على البقاء في تناغم مع معجزة الوجود، لا لأن نقلق *إزاء طريقة* سير الأمور بل أن نكون في حالة اندهاش لأن الأشياء موجودة، لأن الأشياء كائنة في جميع الأحوال».

«الآن، أظن أنني بدأت أفهم ما تقصده»، قالت بوني، «لكنها باردة، مجردة. أي راحة فيها؟ سواء بالنسبة لجوليوس أو لأي واحد منا؟».

«أشعر براحة كبيرة من فكرة أن موتي يحدد حياتي»، قال فيليب

بحماسة غير معهودة وتابع كلامه، «ثمة راحة في الفكرة بألّا أسمح للترهات أو النجاحات التافهة أو لفشل أو ما أملكه، أو القلق حول شعبيتي، ومن يحبّني، ومن لا يحبّني. أجد راحة في البقاء حراً بغية تقدير معجزة الوجود».

«يبدو أن النشاط دبّ في صوتك»، قال ستيوارت، «لكني أظن أيضاً أنه يبدو مصمماً وتعوزه الحيوية. إنها تعزية باردة. تجعلني أرتعش».

ارتبك الآخرون. شعروا أنّ لدى فيليب شيئاً قيّماً سيقوله، لكنهم، كالمعتاد، كانوا مشوّشين من أسلوبه الغريب.

بعد فترة صمت قصيرة، سأل توني جوليوس، «أأنت مقتنع بذلك؟ أقصد حول ما قدّمه لك. هل يساعدك بطريقة ما؟».

«لا يقنعني يا توني. ومع ذلك، كما قلت»، والتفت نحو فيليب، «إنك تريد أن تقدّم لي شيئاً يقنعك أنت. وأدرك أيضاً، هذه ثاني مرة تقدم لي فيها شيئاً لم أستطع الاستفادة منه، وهذا أمر محبط بالنسبة لك».

هزّ فيليب رأسه وظل صامتاً.

«مرة ثانية! لا أتذكّر مرة أخرى»، قالت بام، «هل حدث ذلك في أثناء غيابي؟».

اهتزّت رؤوس عدّة بأن لا. لم يتذكّر أحد مرّة أولى. وسأل بام جوليوس، «هل توجد فراغات يجب ملؤها هنا؟».

«يوجد تاريخ قديم بيني وبين فيليب»، قال جوليوس، «ويمكن إزالة الكثير من التشويش الذي حصل اليوم برواية هذا التاريخ. لكنّي أشعر بأن الأمر يخصك يا فيليب. عندما تكون مستعداً».

«أنا مستعد لمناقشة كل شيء»، قال فيليب، «لديك تفويض مطلق».

«لا، إن ما أقصده هو أنني لستُ أنا من سيفعل ذلك. لإعادة صياغة

كلماتك، سيكون *تمريناً أكثر ثراء لو ناقشت ذلك بنفسك*. أظن أنه طلبك ومسؤوليتك».

أمال فيليب رأسه إلى الأعلى، وأغمض عينيه، وقال مستخدماً نفس الأسلوب والنبرة عندما كان يردد مقطعاً يحفظه عن ظهر قلب: «منذ خمس وعشرين سنة، ذهبتُ لاستشارة جوليوس لمعالجة ما يوصف اليوم *الإدمان الجنسي*. كنت مفترساً، تدفعني شهوتي، نهماً. لم أكن أفكّر إلّا في هذا الأمر. كان كلّ كياني موجّهاً للبحث عن نساء، نساء جديدات، دائماً نساء جديدات، لأنني سرعان ما كنت أفقد اهتمامي بالمرأة بمجرد أن أضاجعها. وكان مركز وجودي ينحصر في اللحظة التي أقذف فيها داخل المرأة. وما إن يتم ذلك حتى أشعر براحة لمدة قصيرة من وسواسي القهري، لكني بعد قليل ـ أحياناً بعد بضع ساعات فقط ـ تتملكني الرغبة لمعاودة ذلك. أحياناً أضاجع امرأتين أو ثلاث نساء في اليوم. كنت يائساً. أردت بكل جوارحي أن أتخلص من التفكير في ذلك، وأن أفكّر في أشياء أخرى. كنت أريد أن أتعرّف على بعض العقول العظيمة التي عاشت في الماضي. فبدأت دراسة الكيمياء، لكنّي كنت أتوق إلى معرفة الحكمة الحقيقية. فطلبت المساعدة، أفضلها وأغلاها ثمناً، وبدأت أرى جوليوس لمعالجتي، كلّ أسبوع، أحياناً مرتين في الأسبوع طوال ثلاث سنوات، لكن بلا جدوى».

صمت فيليب. تململت المجموعة. فسأله جوليوس، «كيف ترى ذلك يا فيليب؟ هل يمكنك أن تواصل، أم أن هذا يكفي ليوم واحد؟».

«أنا على ما يرام»، أجاب فيليب.

«بعينيك المغمضتين يصعب قراءتك»، قالت بوني، «أتساءل إن كنت تغمضهما لأنك تخشى عدم الموافقة».

«لا، أنا أغمض عيني لأنظر إلى داخلي وأستجمع أفكاري. وبالتأكيد، أوضحت بأن موافقتي فقط هي التي تهمني».

مرة أخرى، ترسخ لدى المجموعة ذلك الإحساس الغريب الأُخْرَوِيّ بعدم المساس بفيليب. حاول توني تبديده عندما همس بصوت عال، «محاولة جيدة يا بوني».

من دون أن يفتح عينيه، واصل فيليب، «بعد فترة ليست بالطويلة من توقفي عن العلاج مع جوليوس، ورثت مبلغاً جيداً من المال نتيجة استحقاق سداد حساب ائتمان أبي الذي كان قد وضعه باسمي. مكّنتني النقود من ترك مهنتي كخبير كيميائي وكرّست نفسي لقراءة كلّ كتب الفلسفة الغربية؛ جزئياً بسبب اهتمامي الدائم بهذا المجال من المعرفة، لكن بشكل رئيسي لأنني كنت أعتقد بأنني في مكان ما في خضم الحكمة الجماعية لعظماء مفكّري العالم سأجد علاجاً لحالتي. شعرت بالراحة في الفلسفة وسرعان ما أدركت بأنّني وجدت ضالتي. تسجلت في برنامج الدكتوراه في الفلسفة في جامعة كولومبيا، وتم قبولي. في ذلك الحين، كان من سوء حظ بام أنها عبرت طريقي».

توقف فيليب الذي كانت عيناه لا تزالان مغمضتين وأخذ نَفَساً عميقاً. كانت كلّ العيون منصبّة عليه باستثناء بعض النظرات المتوجهة خلسة باتجاه بام التي راحت تحدّق في الأرض.

«مع مرور الوقت، ارتأيت أن أركّز انتباهي على ثلاثي عظماء الفلاسفة الحقيقيين: أفلاطون وكانط وشوبنهاور. لكن، في نهاية المطاف، كان شوبنهاور الوحيد الذي قدّم لي المساعدة. فلم تكن كلماته بمثابة الذهب الصافي بالنسبة لي فقط، لكنّي أحسست بوجود صلة قوية مع شخصه. وككائن عقلاني لا يمكنني قبول فكرة التناسخ بمعناها المبتذل، لكني لو عشتُ قبل الآن لعشت مثل آرثر شوبنهاور. إن مجرد معرفة وجوده خففت من ألم عزلتي.

«بعد قراءة أعماله وإعادة قراءتها لسنوات عدّة، وجدت أنني تغلّبت على مشاكلي الجنسية. وعندما حصلت على درجة الدكتوراه، كان إرث أبي قد استُنزف وتعيّن عليّ أن أعمل لكسب رزقي. فدرّست في أماكن

عدّة في أنحاء مختلفة من البلاد، وقبل بضع سنوات عدت إلى سان فرانسيسكو لشغل منصب في جامعة كوستال. وفي النهاية، فقدتُ الاهتمام بالتدريس لأنني لم أجد طلاباً يستحقّونني أو يستحقّون الموضوع الذي أدرّسه، ومنذ ثلاث سنوات تقريباً، قلت لنفسي بما أن الفلسفة هي التي أشفتني، فمن الممكن أن أستخدم الفلسفة لشفاء الآخرين. فسجلت في منهاج للعلاج النفسي، ثم فتحت عيادة سريرية صغيرة. وهذا ما يجلبني إلى الحاضر».

«لم يفدك جوليوس بشيء»، قالت بام، «ومع ذلك اتصلت به مرة أخرى. لماذا؟».

«لم أتصل به. هو الذي اتصل بي».

فتمتمت بام، «أوه، نعم، هكذا فجأة اتصل جوليوس بك؟».

«لا، لا، يا بام»، قالت بوني، «هذا الجزء صحيح. لقد أكد جوليوس ذلك عندما كنتِ مسافرة. ولا أستطيع أن أحدّثك عن ذلك لأنني لم أفهمه أنا نفسي».

«صحيح، دعوني أصل إلى هنا»، قال جوليوس، «سأعيد صياغتها بأفضل ما يمكنني. فبعد أن تلقيت الخبر السيئ من طبيبي ببضعة أيام صُعقت وحاولتُ أن أجد طريقة لتقبّل إصابتي بالسرطان القاتل. وفي مساء أحد الأيام، غمرني مزاج كئيب جداً عندما بدأت أفكّر في معنى حياتي. ورحت أفكّر في أنه كُتب عليّ أن أنزلق إلى العدم والبقاء فيه إلى الأبد. وعندما يكون الأمر كذلك، فما الجدوى من أي عمل يقوم به؟

«لا أستطيع أن أتذكّر السلسلة الكاملة من تفكيري السقيم، لكني كنت أعرف أنه لا بدّ أن أتمسك بنوع من المعنى وإلّا غرقت على اليابسة، في ذلك الزمان والمكان. وعندما استعرضت حياتي، أدركت أنني اكتشفت معنى، وهو أنني كنت أخرج من نفسي دائماً، وأساعد الآخرين ليعيشوا بسعادة. وبشكل أوضح من أي وقت مضى، أدركت

أهمية عملي معالجاً نفسياً ثم فكّرت لساعات في الذين كنت قد ساعدتهم، ومرّ ببالي جميع المرضى الذين عالجتهم، القدامى والجدد.

«أعرف أنني ساعدت الكثيرين لكن هل كان لعلاجي تأثير دائم على حياتهم؟ كان هذا هو السؤال الذي يؤرقني. أظن أنني أخبرت الأعضاء الآخرين قبل عودة بام بأنه كان يجب أن أعرف الجواب عن هذا السؤال فقرّرت أن أتصل ببعض مرضاي القدامى لأعرف إن كانت معالجتي ناجعة. يبدو أن ذلك كان أشبه بالجنون، أعرف ذلك.

«وعندما استعرضت سجلات مرضاي الذين عالجتهم منذ فترة طويلة، رحت أفكّر أيضاً في الذين أخفقت في معالجتهم، وماذا حلّ بهم؟ تساءلت. هل بإمكاني أن أفعل لهم المزيد؟ ثم خطرت ببالي الفكرة، الفكرة المبتغاة، وهي أن بعض حالات إخفاقي تتركز في الذين قد يستفيدون من العلاج في مرحلة متأخرة. ووقعت عيناي على ملفّ فيليب، وأذكر أنني قلت لنفسي، «إذا أردت الفشل، فالفشل موجود ـ ها هنا شخص لم تفده حقاً ـ حتى إنك لم تنجح في معالجة مشاكله». ومنذ تلك اللحظة، اجتاحتني رغبة لا تقاوم في أن أتصل بفيليب وأعرف ما جرى له، وأرى إن كنت قد أفدته بطريقة ما».

«إذاً هذا هو السبب الذي دفعك إلى الاتصال به»، قالت بام، «لكن كيف انضم إلى مجموعتنا؟».

«هل تريد أن تبدأ من هنا يا فيليب؟» قال جوليوس.

«أظن أنها ستكون تجربة ثرية أكثر لو تابعتَ أنت»، قال فيليب وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة.

بسرعة بدأ جوليوس يحكي عن الأحداث اللاحقة؛ تقييم فيليب بأن علاجه لم يجد نفعاً وأن شوبنهاور هو معالجه الحقيقي، وإرسال رسالة بالإيميل له ودعوته لحضور المحاضرة، وطلب فيليب للإشراف عليه...

فقاطعه توني، «لم أفهم يا فيليب. إن لم تكن قد استفدت شيئاً من جوليوس في علاجه لك، فلماذا طلبت منه أن يشرف عليك؟».

فقال فيليب: «لقد طرح جوليوس ذات السؤال مرات عدّة، وردّي هو أنه بالرغم من أنه لم يتمكّن من مساعدتي، فأنا ما أزال أقدّر مهاراته وخبرته العالية. ربما كنت مريضاً عنيداً، مقاوماً، أو ربما كانت حالتي بالتحديد عصية على العلاج بالطريقة التي اتبعها معي».

فقال توني: «فهمت. آسف لأني قاطعتك يا جوليوس».

«قاربت على الانتهاء. لقد وافقت على الإشراف عليه بشرط واحد، وهو أن يحضر جلسات العلاجي الجماعي التي أديرها خلال الأشهر الستّة الأولى».

فقالت ريبيكا: «لا أظن أنك أوضحت لماذا فرضت عليه هذا الشرط».

«لاحظت كيف يتعامل معي ومع طلابه، وقلت له إن أسلوبه السلبي وغير المكترث سيكون له أثر سلبي ولا يمكنه أن يصبح معالجاً جيداً. صحيح يا فيليب؟».

«كانت كلماتك لي بدقة هي: «كيف يمكنك أن تكون معالجاً وأنت لا تعرف ماذا يجري بينك وبين الآخرين؟».

«واو»، قالت بام.

«هكذا هو جوليوس»، قالت بوني.

«هكذا هو جوليوس عندما يدفعه أحد إلى الحافة»، قال ستيوارت، «هل دفعته إلى الحافة؟».

فأجاب فيليب، «لم أتعمّد ذلك».

«لا يزال الأمر غير واضح بالنسبة لي يا جوليوس» - قالت ريبيكا، «فهمت لماذا اتصلت بفيليب، ولماذا نصحته بالانضمام إلى العلاج الجماعي. لكن لماذا وضعته في مجموعتك أو وافقت على الإشراف عليه؟ فلديك أعمال كثيرة الآن. لماذا تقبل هذه المهمّة الإضافية؟».

«إنكم قساة اليوم. هذا هو السؤال الكبير ولست متأكداً من أنني

أستطيع الإجابة عنه، لكنّ لهذا علاقة بإيفاء الدين ووضع الأمور في نصابها».

«أعرف أن معظم هذه المناقشة تهدف إلى إطلاعي على الأمر وأنا أقدّر ذلك»، قالت بام، «ولديّ الآن سؤال واحد آخر. قلتَ إن فيليب قدّم لك الراحة مرّتين، أو أنه حاول ذلك. لكنني لم أسمع عن المرة الأولى».

«صحيح، لقد بدأنا ذلك لكننا سنصل إليه»، ردّ جوليوس، «فقد حضرت محاضرة ألقاها فيليب، وشيئاً فشيئاً فهمت أنه أعدّها ليقدّم لي مساعدة. فقد ناقش بإسهاب مقتطفاً من رواية حصل فيها رجل يحتضر على الكثير من العزاء عندما قرأ فقرة من رواية عن شوبنهاور».

«أيّ رواية؟» سألت بام.

«بودنبروك»، أجاب جوليوس.

«وألم تساعدك؟ لمَ لا؟» سألت بوني.

«لأسباب عدّة. أولاً، لم تكن طريقة فيليب في تقديم الراحة لي مباشرة جداً، تماماً كما قدّم الفقرة من كتاب إبكتيتوس...».

فقال توني: «جوليوس، أنا لست حماراً ذكياً، لكن أليس من الأفضل أن تتحدّث مباشرة إلى فيليب، واحزر ممن تعلّمتُ هذا؟».

«شكراً يا توني، أنت محقّ مائة بالمائة»، قال جوليوس والتفت إلى فيليب، «كان أسلوبك في مشورتك لي خلال المحاضرة منفراً، وغير مباشر وشديد العمومية، وغير متوقّع لأننا أمضينا ساعة واحدة فقط معاً تحدّثنا فيها وجهاً لوجه، وقد بدوت خلالها غير عابئ بالشرط الذي وضعته، هذا شيء، والشيء الآخر كان المحتوى الفعلي. لا يمكنني تكرار الفقرة هنا، فأنا لا أمتلك ذاكرتك الفوتوغرافية، لكنها تصف أساساً أباً على فراش الموت ظهر له إلهام فجأة فتلاشت الحدود بينه وبين الآخرين. ونتيجة لذلك، فقد أراحته وحدة الحياة كلها، والفكرة

بأنه سيعود بعد الموت إلى قوة الحياة التي جاء منها وبذلك سيظل على تواصل مع جميع الأشياء الحيّة. صحيح؟» نظر جوليوس إلى فيليب الذي هزّ رأسه.

«حسناً، كما أردت أن أقول لك من قبل يا فيليب، لم تمنحني تلك الفكرة أي راحة ـ صفر. عندما يكون عقلي الواعي مطفأً، فلن أهتم كثيراً إذا كانت طاقة حياتي أو جزيئاتي الجسدية أو الحامض النووي لديّ سيستمر في التغلغل في أعماق الفضاء. وإذا كان التواصل هو المطلوب، فإني أفضّل أن أفعل ذلك شخصياً، باللحم والدم. لذلك» ـ التفت ومسح بعينيه المجموعة ثم واجه بام ـ «كانت تلك التعزية الأولى التي قدّمها لي فيليب، والقصة الرمزية التي بين أيديكم هي الثانية».

بعد فترة صمت قصيرة، أردف جوليوس، «أشعر بأنني تكلمت كثيراً اليوم. ما هي ردود أفعالكم على ما حدث حتى الآن؟».

«أنا مهتمّة»، قالت ريبيكا.

«نعم»، قالت بوني.

«ما جرى شيء رفيع المستوى»، قال توني، «لكني سأظل أتابع الموضوع».

وقال ستيوارت، «أدرك أن توتّراً ما يجري هنا».

«توتّر بين...؟» سأل توني.

«بين بام وفيليب، طبعاً».

«وبين جوليوس وفيليب»، أضاف جيل، متبنياً مرة أخرى مسألة فيليب، «إني أتساءل يا فيليب، هل تشعر بأنه يُستمع إليك؟ هل تشعر بأن ما تقوله يحظى بالاعتبار الذي يستحقه؟».

«يبدو لي أن...أن... حسناً...» كان فيليب متردداً على نحو غير معتاد، لكنه سرعان ما استعاد طلاقته المتميّزة، «أليس من التهور رفضها بهذه السرعة...».

«أنت تكلّم من؟» سأل توني.

فأجاب فيليب، «صحيح. جوليوس، أليس من التهور رفض مفهوم يقدّم تعزية لمعظم البشر منذ آلاف السنين بهذه السرعة؟ إن فكرة إبكتيتوس، وفكرة شوبنهاور أيضاً، بأن الارتباط المفرط بالأشياء المادية أو بأفراد آخرين، أو حتى الارتباط بمفهوم «الأنا» هو المصدر الرئيسي لمعاناة البشر. وألا يتبع ذلك بأنه يمكن التقليل من هذه المعاناة إذا تحاشينا الارتباط؟ في الحقيقة، إن هذه الأفكار تكمن في صميم تعاليم بوذا أيضاً».

«هذه نقطة جيدة يا فيليب، وسأقبلها من صميم قلبي. إنك تقول لي أشياء جيدة لكني لا أقبلها، وهذا يُشعرك بأنك لم تُمنح التقدير والتقييم المناسبين. صحيح؟».

«لم أذكر شيئاً عن الشعور بعدم التقدير».

«لم تقلها بصوت مسموع. أحدس بأنه ـ سيكون الردّ البشري. لديّ هاجس إذا نظرت في داخله فستجده هناك».

«بام، أرى أن عينيك تزوغان»، قالت ريبيكا، «هل الحديث عن الارتباط هذا يذكّرك بمعتكف التأمل في الهند؟ جوليوس وفيليب، لم تأتيا معنا لاحتساء القهوة بعد الجلسة عندما وصفت بام الفترة التي أمضتها في أشرم».

«نعم، صحيح»، قالت بام، «لقد أُتخمت من الحديث عن التخلي عن جميع الارتباطات بما في ذلك الفكرة الفارغة بأننا نستطيع أن نقطع ارتباطنا بذاتنا الشخصية. وأصبحت أشعر بقوة بأن الأمر كلّه يتعلق بإنكار الحياة. وتلك القصة الرمزية التي وزعها فيليب علينا ـ ما هي الرسالة التي تدعو إليها؟ أقصد، ما نوع تلك الرحلة، ما نوع الحياة لو أنك ركّزت كثيراً على مغادرتها إن لم يكن باستطاعتك أن تتمتّع بالبيئة المحيطة بك وإذا لم يكن بإمكانك أن تستمتع بالناس الآخرين من حولك؟ وهذا ما

أراه فيك يا فيليب»، والتفتت بام لمخاطبته مباشرة، «إن الحلّ الذي تقدمه لمشاكلك حلّ زائف؛ إنه ليس حلاً على الإطلاق ـ إنه شيء آخر ـ إنّه تخل عن الحياة. إنك لست في الحياة. وفي الحقيقة فإنك لا تستمع إلى الآخرين، وعندما أستمع إليك وأنت تتكلم فإني لا أشعر بأنني أستمع إلى شخص حيّ يتنفّس».

«بام»، قال جيل مقاطعاً دفاعاً عن فيليب، «إنك تتحدّثين عن الاستماع ـ لست متأكّداً إن كنت تستمعين كثيراً. هل سمعت أنه كان شخصاً يائساً منذ سنوات عدّة؟ وأنه كان يعاني من مشاكل كثيرة ومن دافع قوي؟ وأنه لم يشعر بالتحسن عندما عالجه جوليوس طيلة ثلاث سنوات؟ وأنه فعل ما فعلتيه تماماً في الشهر الماضي ـ وما سيفعله أيّ واحد منّا ـ يبحث عن وسيلة أخرى؟ وبأنه حصل أخيراً على مساعدة بأسلوب مختلف ـ أسلوب لم يكن حلاً زائفاً فظيعاً من العصر الجديد؟ وبأنه يحاول الآن أن يقدم شيئاً لجوليوس بالأسلوب الذي ساعده؟».

صمت الجميع من انفجار جيل. وبعد بضع لحظات، قال توني، «جيل، أنت شيء آخر اليوم! لم يعجبني أن تلصق ذلك ببام، لكن يا رجل، من المؤكد أنني أحببت الطريقة التي تتحدّث فيها هنا، أرجو أن تساعدك في حياتك في البيت مع روز».

قالت ريبيكا: «أريد أن أعتذر لأنني رفضت القصة منذ قليل، وأريد أن أقول إنني بدأت أغيّر رأيي حول هذه القصّة التي كتبها.... التي كتبها... إيبهيتوس...».

«إيبكتيتوس»، قال فيليب بنبرة ألطف.

«إيبكتيتوس، شكراً»، تابعت ريبيكا، «كلما فكّرت فيها أكثر، فإن الشيء المتعلق بالارتباط يلقي ضوءاً على بعض ما قلته. يخيّل إلي أنني أعاني من ارتباط مفرط، لا بالأشياء أو الممتلكات، وإنما بمظهري. فطوال حياتي كنت أسمع ثناء على جمال وجهي، كنت أحصل على

اهتمام كبير من الناس، ملكة جمال حفلات التخرج، ملكة جمال العودة إلى الوطن، ملكة مسابقات الجمال، والآن بدأ كلّ ذلك يخبو...».

«يخبو؟» قالت بوني، «أعطني ما تبقى من جمالك الذي بدأ يخبو».

وقالت بام: «وأنا كذلك، مستعدة لأن أبادلك جمالك في أي وقت وألقي كلّ مجوهراتي... وأطفالي لو كان لديّ واحد».

«أقدّر لكما ذلك. هذا فعلاً ما أشعر به. لكن كلّ شيء نسبي»، تابعت ريبيكا، «*أنا* شديدة الارتباط. فأنا وجهي الذي بدأ يصبح الآن أقل، أشعر بأنني أصبحت *أقل*. أشعر بصعوبة شديدة لأن الآخرين لم يعودوا يبدون إعجابهم بي كما من قبل».

«إن إحدى أفكار شوبنهاور التي ساعدتني»، قال فيليب، «هي الفكرة بأن السعادة النسبية تنبع من ثلاثة مصادر هي: ماهية الشخص، ماذا يملك، وماذا يمثّل في نظر الآخرين. ويحثّنا على التركيز على الأولى فقط، وألّا نعتمد على الثانية والثالثة ـ أي عن *الامتلاك* وعن *سمعتنا* ـ لأننا لا نستطيع التحكم بهذين الشيئين؛ ويمكن أن يسلبا منّا، وهذا سيحدث فعلاً، تماماً كما أن شيخوختك ستسلب جمالك حتماً. وفي الحقيقة. فإن 'للامتلاك' عاملاً عكسياً، وقال ـ إن ما نملكه يبدأ يمتلكنا في غالب الأحيان».

«هذا كلام مثير للاهتمام يا فيليب. فجميع الأجزاء الثلاثة ـ من أنت، وماذا لديك، وما الذي تمثّله في نظر الآخرين ـ تؤثّر فيّ. فقد عشت معظم حياتي من أجل ذلك الجزء الأخير ـ ماذا سيفكّر بي الآخرون. ودعوني أعترف بسرّ آخر: عطري السحري. لم أحدّث أحداً قط عن هذا الأمر، لكن منذ ما تسعفني به ذاكرتي، كنت أستغرق في أحلام يقظة عن تصنيع عطر يُسمّى ريبيكا، مكوّن من عطري وينتشر في كل مكان ويجعل كلّ من يشمّه يفكّر في جمالي».

«ريبيكا، بدأتِ الآن تجازفين كثيراً. إني أحبّ ذلك فيك»، قالت بام.

«وأنا أيضاً»، قال ستيوارت، «لكن دعوني أخبركم بشيء لم أذكره من قبل. فأنا أحبّ أن أنظر إليك، لكني بدأت أدرك الآن بأنّ جمالك عائق أمام رؤيتك أو معرفتك، بل ربما كان عائقاً كما هو الحال عند المرأة القبيحة أو السيئة الحظ».

«يا إلهي، هذا شيء صادم. شكراً لك يا ستيوارت».

«ريبيكا، أريدك أن تعرفي»، قال جوليوس، «بأنني أنا أيضاً معجب بثقتك بنا التي دفعتك إلى أن تحكي لنا حلم اليقظة الذي يراودك عن العطر. هذا يدل على الحلقة المفرغة التي وضعتها لنفسك. إنك تمزجين جمالك بجوهرك. وماذا يحدث بعد ذلك، كما يشير ستيوارت، هو أن الآخرين لا يتعلّقون بجوهرك وإنما بجمالك».

«حلقة مفرغة تجعلني أشكّ إن كان هناك أيّ شيء. وأنا ما أزال معجبة بعبارتك، في الأسبوع الماضي يا جوليوس، 'المرأة الفارغة الجميلة' وهي أنا».

«ما عدا أن الحلقة المفرغة قد تنكسر»، قال جيل، «أعرف أنني رأيت أشياء أخرى مهمة فيك، أي شيء أعمق، في الأسابيع القليلة الماضية، مما رأيته السنة الماضية كلّها».

«نعم، وأنا أيضاً»، قال توني موافقاً، «وأنا جدّي الآن، أريد أن أقول إنني آسف حقاً بشأن عدّ النقود عندما أخبرتنا ما جرى في لاس فيغاس - كان سلوكي سلوك معتوه حقيقي».

«اعتذارك مقبول»، قالت ريبيكا.

ثم قال جوليوس: «لقد سمعتِ تعليقات كثيرة اليوم يا ريبيكا. ما هي مشاعرك إزاءها؟».

«أشعر بالسعادة، إنه شيء جيد. أشعر بأن الناس يعاملونني معاملة مختلفة».

«ليس نحن»، قال توني، «إنه أنت. إذا وضعت شيئاً حقيقياً ـ تحصلين على شيء حقيقي».

«*إذا وضعت شيئاً حقيقياً ـ تحصلين على شيء حقيقي*. أعجبتني هذه العبارة يا توني»، قالت ريبيكا، «هيه، إنك تحرز تقدماً في هذا العلاج، ربما يجب أن أبدأ بعدّ النقود. كم تتقاضين».

ابتسم توني ابتسامة عريضة وقال: «بما أنني أنا المعنيّ هنا، دعني أذكر لك تخميني يا جوليوس عن السبب الذي جعلك تحيد عن طريقك لتعمل مع فيليب مرة أخرى. عندما رأيت فيليب لأول مرة منذ سنوات، ربما كنتَ أقرب إلى تلك الحالة العقلية التي حدّثتنا عنها الأسبوع الماضي ـ كما تعرف، الإحساس بشهوة جنسية قوية تجاه النساء الأخريات».

هزّ جوليوس رأسه، وقال: «هيا استمر».

«حسناً، هذا ما أتساءل عنه، لو كانت لديك مشاكل تشبه مشاكل فيليب ـ لا نفسها وإنما تشبهها ـ هل كان من الممكن أن يقف ذلك عائقاً في طريق علاجك له؟».

انتصب جوليوس في جلسته، وانتصب فيليب في جلسته أيضاً. وردّ جوليوس، «من المؤكد أنك بدأت تحظى باهتمامي يا توني. الآن بدأت أتذكّر لماذا يتردد المعالجون في الكشف عن أنفسهم ـ أقصد أنه لا يبتعد عن تفكيرك ـ فما تفصح عنه يلازمك مرات عديدة».

«آسف يا جوليوس، من المؤكد أنني لم أقصد أن أحرجك».

«لا، لا، لا بأس. إني أعني ذلك فعلاً. إنني لا أشتكي بل ربّما أماطل. ملاحظتك جيدة ـ ربما جيدة أكثر من اللازم، وأنا أقاوم بعض الشيء». صمت جوليوس وفكّر برهة، ثم أضاف، «حسناً، هذا ما يخطر ببالي، أتذكّر أنني فوجئت وانزعجت لأنني لم أتمكن من مساعدة فيليب. كان يتعين عليّ أن أساعده. فعندما بدأنا، أخذت على عاتقي أن أساعده. خيّل إليّ بأنه توجد في داخلي وسيلة لمساعدته. كنت متيقناً من أن تجربتي الشخصية ستمكّنني من إحراز تقدم في العلاج النفسي».

«ربما»، قال توني، «قد يكون هذا هو السبب الذي جعلك تدعو فيليب للانضمام إلى هذه المجموعة ـ أن تحاول مرة أخرى، فرصة أخرى. صحيح؟».

فقال جوليوس: «لقد انتزعت الكلمات من فمي. كنت على وشك أن أقول ذلك. قد يكون هذا هو السبب الذي جعلني أتساءل قبل بضعة أشهر عن الذين ساعدتهم والذين لم أساعدهم، وهذا ما جعل تفكيري يركز على فيليب. في الحقيقة، عندما خطر لي فيليب لم أعد أهتم بالاتصال بمرضى آخرين».

«هيه، انظروا إلى الوقت. أكره أن أنهي هذه الجلسة، لكن يجب أن نتوقّف الآن. جلسة جيدة ـ أعرف أن لديّ أشياء كثيرة للتفكير فيها ـ توني، لقد أثرت بعض الأشياء. شكراً لك».

«إذاً»، قال توني بابتسامة عريضة، «هل أنا مُعفى من الدفع اليوم؟».

«مبارك هو الذي يعطي»، قال جوليوس، «لكن من يعرف؟ ـ ابق هكذا وقد يأتي ذلك اليوم».

بعد أن غادر الجميع الغرفة، راحوا يدردشون خارج بيت جوليوس، ثم ذهب كلّ منهم في سبيله. ولم يذهب إلى المقهى سوى توني وبام.

تركّز تفكير بام على فيليب. لم يساعد قول فيليب بأن من سوء حظها أنها عبرت طريقه في ذلك الوقت في تخفيف حدّة مشاعرها. بالإضافة إلى ذلك، لم يرق لها إطراؤه لها لتفسيرها تلك القصة، بل إنها كرهت نفسها أكثر لأنها سُرّت لأنه قال لها ذلك. خشيت أن تميل كفة المجموعة نحو فيليب وتبتعد عنها وعن جوليوس.

غمر توني شعور بالبهجة ـ فقد اعتبر *نفسه أكثر اللاعبين قيمة* في الجلسة، وقد يتغيّب عن مشهد الحانة الليلة ـ ويحاول أن يقرأ أحد الكتب التي أعطتها له بام.

راقب جيل بام وتوني وهما يمشيان في الشارع معاً. كان هو (وفيليب

بالطبع) الوحيدين اللذين لم تعانقهما بام في نهاية الجلسة. هل أزعجها كثيراً؟ حوّل جيل انتباهه إلى حفلة تذوّق النبيذ يوم غد ـ إحدى ليالي روز المهمة. فقد اعتادت مجموعة من أصدقاء روز على اللقاء دائماً في هذا الوقت من السنة لتذوّق عينات من أجود أنواع النبيذ لهذه السنة. ماذا يفعل؟ سيتناول جرعة صغيرة من النبيذ ثم يبصقها؟ يصعب عليه ألا يحضر مناسبة كهذه. أم يقول الحقيقة؟ فكّر بالمشرف في مركز المعالجة، إنه يعرف كيف سيدور الحديث بينهما:

المشرف: أين هي أولوياتك؟ لا تذهب إلى الحفلة، اذهب إلى اجتماع.

جيل: لكن تذوق النبيذ هو السبب الذي يجعل هؤلاء الأصدقاء يلتقون.

المشرف: صحيح؟ اقترح نشاطاً آخر.

جيل: لا ينفع ذلك. لن يقبلوا.

المشرف: إذاً ابحث عن أصدقاء آخرين.

جيل: روز لن تحبّ ذلك.

المشرف: إذن ما العمل؟

قالت ريبيكا لنفسها: «*إذا وضعت شيئاً حقيقياً، تحصلين على شيء حقيقي*». يجب أن أتذكّر ذلك. ابتسمت عندما تذكرت توني وهو يعدّ نقوده عندما كانت تتكلم عن فكرة الدعارة التي راودتها. في سريرتها أحست بركلة بسبب تصرفها هذا. هل كان عليها أن تقبل اعتذاراً منه؟

وكعادتها، لم تكن بوني تحب أن تنتهي الجلسة. فقد كانت تشعر بأنها على قيد الحياة خلال الدقائق التسعين تلك، أما بقية أيام حياتها فتبدو فاترة جداً. لماذا؟ لماذا يجب أن يعيش أمناء المكتبات حياة مملّة. ثمّ فكّرت بعبارات فيليب الثلاث: ماذا أنت، وماذا تملك، وماذا تمثّل للآخرين. إنها مثيرة للاهتمام.

استمتع ستيوارت بالجلسة. كان يدخل بكامل طاقته إلى المجموعة. كرّر لنفسه الكلمات التي كان قد قالها لريبيكا كيف أن قسماتها تشكل عائقاً يحول دون التعرف عليها وأنه رأى مؤخراً شيئاً أعمق في جلدها. هذا جيد. هذا جيد. وقولها لفيليب إن تعزيته الباردة جعلته يرتجف. كان ذلك أكثر من كونه آلة تصوير. ثم الطريقة التي أشار فيها إلى التوتّر بين بام وفيليب. لا، لا، إن هذا شيء له علاقة بآلة تصوير.

في طريقه إلى البيت، حاول فيليب جاهداً أن يتفادى التفكير في الجلسة، لكن الأحداث كانت متدفقة لم يستطع إبعادها عن تفكيره. بعد بضع دقائق، انكفأ على نفسه وترك أفكاره تجوب في رأسه بحرية. لقد جلب إبيكتيتوس العجوز انتباههم. إنه يفعل ذلك دائماً. ثمّ تخيّل أيادي تمتد إليه ووجوه تلتفت نحوه. لقد أصبح جيل بطله ـ لكن يجب ألّا يأخذه بجدية. إن جيل لا يدعمه وإنما يفعل ذلك لأنه ضدّ بام، ويحاول أن يتعلّم كيف يدافع عن نفسه منها، ومن روز، ومن جميع النساء الأخريات. لقد أعجبت ريبيكا بما قاله. طاف وجهها الجميل بسرعة في مخيلته. ثم فكّر في توني؛ الأوشام، الخدّ المكدوم. لم ير أحداً مثله في حياته؛ رجل بدائي حقيقي، لكنه رجل بدائي بدأ يستوعب العالم القابع وراء الحياة اليومية. وجوليوس، هل بدأ يفقد حدّة ذكائه؟ كيف يمكنه أن يدافع عن الارتباط وهو يقرّ بمشاكله المتعلقة بالإفراط في الاستثمار بفيليب كمريض؟

شعر فيليب بالتوتر، بالانزعاج في داخل جلده. شعر بأنه أصبح معرضاً لخطر أن يكشف عن نفسه. لماذا قال لبام إنه من سوء حظها أنها عبرت طريقه؟ ألهذا السبب رددت اسمه كثيراً في الجلسة، وطلبت منه أن ينظر إليها؟ كانت نفسه الوضيعة السابقة تحوم فوقه مثل شبح. أحسّ بوجودها، متعطشة للحياة. هدّأ فيليب عقله ودخل في مرحلة تأمل وهو يسير.

إلى المفكرين والفلاسفة في أوروبا:
إن كنتم ترون أن شخصاً متبجحاً مثل فيشته يعادل كانط،
أعظم مفكّر في كلّ زمان؛
وإن كنتم ترون أن شخصاً تافهاً، وقحاً، دجالاً مثل هيغل
مفكّر عميق، فأنا لا أكتب لكم.

٣٣

المعاناة، الغضب، المثابرة

لو كان آرثر شوبنهاور يعيش في يومنا هذا، فهل سيكون مرشّحاً للعلاج بالتحليل النفسي؟ بالتأكيد! إن الأعراض بادية عليه بوضوح شديد. وفي كتابه «*عن نفسي*» يقول متحسراً إن الطبيعة منحته «مزاجاً قلقاً، وشعوراً بالريبة والشكّ، وحساسية شديدة، وحدّة في المزاج، وإحساساً بالفخر إلى درجة لا تكاد ترقى إلى رصانة فيلسوف».

ويصف أعراضه بلغة شديدة الوضوح:

لقد ورثت من أبي القلق الذي ألعنه أنا نفسي وأحاربه بكلّ ما أوتيت من قوة إرادتي... وعندما كنت شاباً، كانت تعذّبني الأمراض الوهمية... وعندما كنت أدرس في برلين خيّل إليّ أنني مصاب بالسلّ... وكنت مسكوناً بالخوف من أن أُجبر على أداء الخدمة العسكرية... ومن نابولي هربت خوفاً من الإصابة بالجدري، ومن برلين هربت خوفاً من الإصابة بالكوليرا... وفي فيرونا تملكتني فكرة بأنني تنشقتُ سمّاً... وفي مانهايم

غمرني شعور لا يمكن وصفه بالخوف بدون أيّ سبب خارجي ظاهر... ولسنوات عديدة هيمن عليّ خوف أن أُقدَّم إلى محاكمة جنائية... وإذا سمعت ضوضاء في الليل قفزت من السرير وأمسكت بالسيف والمسدّس المحشو والجاهز للإطلاق دائماً... وكان ينتابني دائماً قلق يجعلني أبحث عن أخطار لا وجود لها، فهو يضخم أدنى شعور بالانزعاج ويجعلني أرتبط بأكثر الأشخاص صعوبة بالنسبة لي.

وبغية كبت إحساسه بالريبة وخوفه المزمن، استخدم آرثر طائفة من الممارسات والطقوس الوقائية؛ فقد كان يخبئ قطع العملة الذهبية وقسائم الفائدة الثمينة داخل مغلفات رسائل قديمة ويضعها في أماكن سرية لكي يستخدمها في حالات الطوارئ، وكان يصنّف ملاحظاته الشخصية تحت عناوين زائفة لتضليل المتلصّصين والمتطفلين، وكان شديد النظافة والترتيب، وكان يطلب أن يقوم بخدمته موظفو المصرف أنفسهم باستمرار، ولم يكن يسمح لأحد أن يلمس تمثال بوذا الذي يحتفظ به.

وكان دافعه الجنسي قوياً يصعب إرضاؤه. وحتى عندما كان شاباً، كان يستهجن كثيراً أنه واقع تحت سيطرة شهواته الحيوانية. وعندما بلغ السادسة والثلاثين، حبس نفسه في غرفته لمدة سنة كاملة عندما أصيب بمرض غامض. وأوحى طبيب ومؤرخ طبي في عام ١٩٠٦ بأنه كان مصاباً بالزهري، واستند في تشخيصه إلى طبيعة الدواء الذي كان يتناوله فقط، وربط ذلك بتاريخ نشاط شوبنهاور الجنسي.

وكان آرثر يتوق لأن يتحرر من قبضة الجنس. وكان يستمتع بلحظات الصفاء التي يحصل عليها عندما يكون بوسعه مراقبة العالم بهدوء وصفاء على الرغم من الشهوة التي تعذّب ذاته الجسدية. وكان يقارن الشهوة الجنسية بضوء النهار الذي يحجب النجوم. وعندما تقدّم في العمر، رحّب كثيراً بانحسار اتقاد الشهوة الجنسية، والشعور بالطمأنينة الذي رافق ذلك.

وبما أن شغفه الشديد يكمن في عمله، فقد كان أكثر ما يخشاه دائماً أن يفقد الموارد التي تمكّنه من العيش حياة فيلسوف. وحتى عندما تقدّم به العمر، بارك ذكرى والده الذي أتاح له أن يعيش حياة كهذه، وأمضى وقتاً وجهداً كبيرين في حراسة نقوده والتفكير في استثمارها. لذلك كان دائم القلق من وقوع أيّ اضطرابات أو مشاكل قد تهدّد استثماراته، وأصبح محافظاً متطرفاً في سياساته. وأثارت ثورة عام ١٨٤٨ التي اجتاحت ألمانيا وبقاع أوروبا الأخرى فزعه. وعندما دخل بعض الجنود إلى المبنى الذي يقيم فيه ليتخذوه موقعاً ممتازاً لإطلاق النار على المتمردين في الشارع، قدّم لهم منظار الأوبرا الذي يملكه لتحسين الدقة في إطلاق النار من بنادقهم. وبعد اثنتي عشرة سنة، ترك في وصيته كامل عقاره تقريباً لصندوق أُسّس لمصلحة الجنود البروسيين الذين أصيبوا بإعاقات خلال محاربة المتمردين.

كانت رسائله المدفوعة بالقلق حول مسائل العمل مغلفة غالباً بالغضب والتهديدات. فعندما أصيب الخبير المالي الذي يدير أموال أسرة شوبنهاور بنكسة مالية شديدة، وبغية تحاشي الإفلاس، قدّم لجميع المستثمرين لديه جزءاً ضئيلاً جداً من أموالهم التي يستثمرها لهم، هدّده شوبنهاور بعواقب قانونية شديدة، فاضطر الخبير المالي إلى إعادة سبعين في المائة من نقوده، بينما دفع للمستثمرين الآخرين (بمن فيهم أمّ شوبنهاور وشقيقته) مبلغاً أقلّ من المبلغ المقترح أصلاً. وأدت رسائله المسيئة إلى ناشره إلى قطع العلاقة بينهما بشكل دائم. وقد كتب الناشر: «لن أقبل منك أيّ رسالة توحي بوقاحتها وسوقيتها بأنني أتعامل مع حوذي لا مع فيلسوف... وأرجو ألّا تتحقق مخاوفي عندما أقوم بطباعة عملك، بأنني أطبع ورق نفايات فقط».

كان غضب شوبنهاور أسطورياً؛ الغضب من الخبير المالي الذي كان يدير استثماراته، والغضب من الناشرين الذين لم يتمكّنوا من بيع كتبه، والغضب من الحمقى الذين كانوا يحاولون الدخول معه في أحاديث،

والغضب من الأشخاص الذين يسيرون على ساقين ويعتبرون أنفسهم أنداداً له، والغضب من الذين يسعلون في أثناء الحفلات الموسيقية، والغضب من الصحافة لتجاهلها إياه. لكن الغضب الحقيقي، الغضب الشديد الذي لا تزال حدّته تصعقنا وتثير دهشتنا والذي جعل شوبنهاور منبوذاً في دائرته الثقافية، هو غضبه من المفكّرين والفلاسفة المعاصرين، خاصة المفكّرين البارزين في فلسفة القرن التاسع عشر: فيشته وهيغل.

ففي كتاب نُشر بعد عشرين سنة من موت هيغل بالكوليرا في أثناء الوباء الذي اجتاح برلين، أشار إلى هيغل بأنه «دجال مبتذل، تافه، مقيت، بغيض، وجاهل، جمع بوقاحة غير مسبوقة، مجموعة من الهراء المجنون التي هللّ لها أتباعه المأجورون في الخارج على أنها حكمة خالدة».

لقد كلفته ثورات غضبه العنيفة تلك حول الفلاسفة الآخرين الكثير. ففي عام ١٨٣٧، مُنح أول جائزة على مقالة حول حرية الإرادة في مسابقة رعتها الجمعية النرويجية الملكية للتعلّم. وأظهر شوبنهاور بهجة طفولية عندما فاز بالجائزة (كانت أول تكريم له) وأثار حنق القنصل النرويجي كثيراً في فرانكفورت بسبب إلحاحه على الحصول على وسام الشرف. وفي السنة التالية مباشرة، قُدمت مقالته *على أساس المبادئ الأخلاقية* إلى المسابقة التي أقامتها الجمعية الدانماركية الملكية للتعلّم، لكنها لاقت مصيراً مختلفاً. ومع أن الحجج التي ساقها في مقالته كانت رائعة، ومع أنها كانت المقالة الوحيدة المقدّمة إلى المسابقة، رفضت لجنة التحكيم منحه الجائزة بسبب ملاحظاته المتوترة وغير اللائقة حول هيغل. وعلّقت لجنة التحكيم بقولها، «لا نستطيع أن نصمت عن حقيقة أن يتعرّض عدد من الفلاسفة البارزين في العصر الحديث لإهانة شنيعة».

وعلى مرّ السنين، اتفق الكثيرون مع رأي شوبنهاور بأن لغة هيغل مشوشة ومضطربة بشكل غير ضروري. وفي حقيقة الأمر، كان يصعب قراءة أسلوبه في الكتابة إلى حدّ أن نكتة شاعت في أقسام الفلسفة تقول

إن السؤال الفلسفي المهم ليس «هل للحياة معنى؟» أو «ما هو الوعي؟» وإنما السؤال هو «من الذي سيعلّم هيغل هذه السنة؟» وعلى الرغم من ذلك، فقد أدت حدّة غضب شوبنهاور إلى عزله وإبعاده عن النقّاد الآخرين.

وكلما تم تجاهل أعماله، كان يزداد عنفاً وغضباً، الأمر الذي كان يؤدي إلى مزيد من التجاهل والإهمال، ويجعله موضع سخرية الكثيرين. وبالرغم من قلقه ووحدته، فقد عاش شوبنهاور، وظل يبدي مظاهر الاكتفاء الذاتي الشخصي. وظل مثابراً في عمله، وظل فيلسوفاً منتجاً حتى نهاية حياته، ولم يفقد ثقته بنفسه قط. وشبّه نفسه بشجرة بلوط صغيرة تبدو عادية وغير هامة بالنسبة للنباتات الأخرى. «لكن اتركه وحده، فلن يموت. سيأتي الزمن الذي يجلب معه الذين يعرفون قيمته بحقّ». وتنبأ بأنه سيكون لعبقريته، في نهاية المطاف، تأثير عظيم على الأجيال المقبلة من المفكّرين. وكان محقّاً في ذلك تماماً؛ فقد حدث كلّ ما تنبأ به.

من منظور الشباب، الحياة مستقبل طويل لا نهاية له؛
ومن منظور الشيخوخة، فإن الحياة أشبه بماض قصير جداً.
فعندما نبحر ونصبح في عرض البحر،
تزداد الأشياء على الشاطئ صغراً
وتصعب رؤيتها وتمييزها؛
وهكذا هو الحال بالنسبة لسنواتنا الماضية
بكلّ أحداثها ونشاطاتها.

٣٤

عندما بدأ سباق الزمن، بدأ جوليوس يترقّب على نحو متزايد موعد الجلسة الأسبوعية. قد تكون تجربته في هذه المجموعة الأكثر تأثيراً وحدّة لأن أسابيع «سنته الجيدة» قد بدأت تنفد وتتسرب منه .إلّا أن ما جرى في هذه المجموعة، وكلّ ما جرى في حياته، كبيراً كان أم صغيراً، بدأ يبدو له أكثر رقة وحيوية. وبالطبع، كانت أسابيعه دائماً معدودة، لكن الأرقام بدت ضخمة جداً، ممتدّة كثيراً إلى مستقبل أبدي، إلى حدّ أنه لم يواجه نهاية الأسابيع.

النهايات المرئية تجعلنا دائماً نتوقّف. يقرأ القارئ الألف صفحة في رواية *الإخوة كارامازوف* حتى آخر عشر صفحات، ثم يبطئ فجأة، ويبدأ يتذوّق بتلذذ شديد كلّ فقرة، يمتصّ الرحيق من كلّ عبارة، من كلّ كلمة. إن ندرة الأيام جعلت جوليوس يرى قيمة الوقت؛ وبدأ يغوص أكثر فأكثر في تأمل مشدوه من التدفق الرائع للأحداث اليومية.

قرأ مؤخراً مقالة بقلم عالم حشرات سبر أغور الكون الموجود في قطعة صغيرة من الأرض العشبية بمساحة إنشين بإنشين وسيجها. وعندما حفر فيها حفرة عميقة، وصف فزعه من العالم البيولوجي المفعم بالحشرات المفترسة والديدان الخيطية، وأمهات أربعة وأربعين، والقافزات ذات الذنب، والخنافس ذات الدروع، والعناكب الصغيرة. وإذا كان المشهد متناغماً، والفكر سارحاً، والمعرفة رحبة، عندها يدخل المرء إلى الأحداث اليومية وهو في حالة دهشة دائمة.

وهكذا كان الأمر بالنسبة لجوليوس في المجموعة. فقد انحسرت مخاوفه حول عودة سرطان الجلد، وخفّ رعبه. قد يكون قد استمّد جلّ راحته من تقدير طبيبه بأن أمامه «سنة جيدة» بحرفية شديدة، تكاد تكون ضماناً. لكن، على الأرجح، فإن نمط حياته يشبه مستحضراً مطرّياً للبشرة فعالاً. وباتباعه نهج زرادشت، فقد تقاسم نضجه، وتفوق على نفسه بمساعدة الآخرين، وعاش حياته مستعداً لتكرارها دائماً إلى الأبد.

وظل يتساءل حول المسار الذي ستتخذه مجموعة العلاج في جلسة الأسبوع المقبل. الآن، مع بدء سنته الجيدة الأخيرة بالتقلص، بدأت جميع المشاعر لديه تتكثف؛ فقد تطوّر فضوله إلى حماسة طفولية بانتظار موعد الجلسة المقبلة. وتذكّر كيف أن الطلاب، قبل سنوات عدّة، عندما كان يدرّسهم العلاج الجماعي، بدأوا، في البداية، يشتكون من الملل وهم يراقبون رؤوساً تتحدّث طوال تسعين دقيقة. ثمّ، عندما تعلّموا كيف يستمعون إلى مأساة حياة كلّ مريض وتقدير التفاعل المعقّد الرائع بين الأعضاء، تلاشى الملل وأصبح كلّ طالب ينتظر الجلسات المقبلة.

عندما شارفت جلسات المجموعة على نهايتها، بدأ الأعضاء يتحدّثون عن قضاياهم الرئيسية بحماسة متزايدة. وكانت النهاية المرئية للعلاج تسفر دائماً عن هذه النتيجة، لذلك كان الممارسون الروّاد مثل أوتو رانك وكارل روجرز يحدّدون تاريخاً لموعد انتهاء العلاج منذ الجلسة الأولى.

قام ستيوارت بعمل في تلك الأشهر أكثر مما فعله في السنوات الثلاث السابقة من العلاج. لعل فيليب هو الذي حفزّ ستيوارت على أن يعمل كمرآة له، وكان يرى أجزاء من نفسه في كراهية فيليب للناس، وأدرك أن جميع الأعضاء في المجموعة، ما عداهما، يجدون متعة بالجلسات ويعتبرون المجموعة ملاذاً، مكاناً يستمدون منه الدعم والاهتمام. أما هو وفيليب، فكانا يحضران رغماً عنهما؛ فيليب بسبب إشراف جوليوس، وستيورات بسبب تحذير زوجته له.

وفي إحدى الجلسات، علّقت بام بأنّ المجموعة لم تشكّل قط دائرة حقيقية لأن ستيوارت كان دائماً يدفع كرسيه إلى الوراء قليلاً، أحياناً مسافة إنشين، لكن إنشين كبيرين. وكان الآخرون جميعاً يلاحظون عدم اتساق الكراسي، لكن أحدهم لم يربط ذلك قط بمحاولة ستيوارت تفادي الاقتراب كثيراً من الآخرين.

وفي جلسة أخرى بدأ ستيوارت شكواه المعتادة عندما راح يصف ارتباط زوجته بأبيها، الطبيب الذي رُقي من منصب رئيس قسم الجراحة، إلى عميد كليّة الطب، ثم إلى رئيس الجامعة. وعندما تابع ستيوارت، كما كان يفعل في الجلسات السابقة، ليناقش استحالة أن يحظى باحترام زوجته لأنها تقارنه دائماً بأبيها، قاطعه جوليوس وسأله إن كان يدرك بأنه حكى هذه القصّة مرات عدّة من قبل.

بعد أن أجاب ستيوارت، «لكن بالتأكيد ينبغي لنا أن نثير قضايا لا تزال مزعجة، أليس كذلك؟» ثمّ سأل جوليوس سؤالاً قوياً: «كيف ترى ما هو شعورنا إزاء تكرارك؟».

«أتخيّل أنكم ستجدونه مضجراً أو مملّاً».

«فكّر في ذلك يا ستيوارت. ما الذي يدفعك لأن تكون مضجراً أو مملاً؟ ثم فكّر لماذا لم تحصل على تعاطف مستمعيك».

فكّر ستيوارت في ذلك كثيراً في الأسبوع التالي وقال إنه دُهش عندما

أدرك أن هذا السؤال لم يخطر بباله قط. «أعرف أن زوجتي تراني مضجراً في معظم الأحيان، وتعبيرها المفضّل لي هو أنني *غائب*، وأظن أن أعضاء المجموعة يقولون لي ذلك أيضاً. كما تعرفون، أعتقد أنني وضعت مشاعري بالتعاطف مع الآخرين في ثلاجة باردة».

بعد قليل، أثار ستيوارت مشكلة محورية؛ غضبه المستمر الذي لا يمكن تفسيره من ابنه البالغ اثنتي عشر سنة. فقد فتح توني *صندوق باندورا* عندما سأل، «كيف كنتَ عندما كنتَ في عمر ابنك؟».

فقال ستيوارت إنه نشأ في أسرة فقيرة، ومات أبوه وهو في الثامنة، ولم يكن يرى أمّه التي كانت تعمل في عملين عندما يعود إلى البيت من المدرسة. فلم يحظ برعاية جيدة في المنزل، وكان يعدّ عشاءه بنفسه، وكان يرتدي نفس الثياب غير النظيفة إلى المدرسة يوماً بعد يوم. وتمكّن من حجب ذاكرته حول طفولته، لكن وجود ابنه كان يدفعه إلى تذكّر ماضٍ نسيه منذ زمن بعيد.

وقال: «أن ألوم ابني ضرب من الجنون، لكني ما أزال أشعر بالحسد والاستياء عندما أرى حياته الموسرة». كان توني الذي ساعد على كسر حدة غضب ستيوارت عندما أعاد صياغة السؤال بفعالية وقال: «ولماذا لا تشعر بالفخر لأنك وفرّت لابنك حياة أفضل؟».

أحرز جميع الأعضاء تقريباً تقدّماً. كان جوليوس يرى حدوث ذلك من قبل. فعندما تصل المجموعة إلى درجة النضج، يبدو أن جميع الأعضاء يصبحون في حال أفضل. وبذلت بوني جهدها لأن تتقبّل مفارقة مركزية: غضبها من زوجها السابق لأنه هجرها وشعورها بالارتياح لأنها لم تعد على علاقة مع رجل لا تحبه.

كان جيل يحضر يومياً جلسات التخلّص من الإدمان ـ سبعون جلسة في سبعين يوماً ـ لكن مشاكله الزوجية ازدادت، بدلاً من أن تتناقص، عندما لم يعد يسكر. ولم يكن ذلك بالطبع لغزاً بالنسبة لجوليوس؛

فعندما يتحسّن أحد الزوجين في العلاج، فإن الاستقرار الداخلي في العلاقة الزوجية يختلّ، وإذا كان على الزواج أن يستمر، فعلى الزوج الآخر أن يتغيّر أيضاً. وكان جيل وروز قد بدآ علاجاً كزوجين، لكن جيل لم يكن مقتنعاً بأن روز يمكن أن تتغيّر. وفي جميع الأحوال، لم يعد يخشى من فكرة إنهاء الزواج؛ ولأول مرة فهم تماماً ما تعنيه عبارة جوليوس المفضّلة: «*إن الطريقة الوحيدة التي تستطيع فيها أن تنقذ زواجك هي أن تكون مستعداً (وقادراً) على تركه*».

تحسّن توني بسرعة مدهشة، كما لو أن قوّة جوليوس المتآكلة تسرّبت إليه مباشرة. وبتشجيع من بام، بدعم قوي من أعضاء المجموعة الآخرين، قرّر توني أن يكفّ عن الشكوى بأنه رجل جاهل، وأن يفعل شيئاً حيال ذلك ـ تعلّم ـ فالتحق في ثلاث دورات ليلية في المعهد الحكومي المحلي.

وبالرغم من شعوره بالرضى والسعادة لهذه التغييرات الكبيرة، فقد ظل انتباه جوليوس الأساسي مركّزاً على فيليب وبام. لم يكن واضحاً لماذا أخذت علاقتهما هذه الأهمية بالنسبة له، مع أن جوليوس كان متيقناً من أن الأسباب تتجاوزهما. وعندما يفكّر في فيليب وبام أحياناً، كانت تراوده العبارة الواردة في التلمود «إن إنقاذ شخص واحد يعني إنقاذ العالم كله» وسرعان ما لاحت له أهمية إنقاذ علاقتهما. في الواقع أصبحت علة وجوده، كان كما لو أنه يستطيع أن ينقذ حياته بإنقاذ شيء إنساني من حطام ذاك اللقاء الشنيع الذي حدث منذ سنوات. وفيما كان يمعن التفكير في معنى هذه العبارة التلمودية، تذكّر كارلوس الشاب الذي عمل معه منذ بضع سنوات. لا، لا بد أن ذلك كان قبل فترة أطول بكثير، على الأقل عشر سنوات، عندما تذكّر أنه تكلّم مع ميريام عن كارلوس. فقد كان كارلوس رجلاً مكروهاً كثيراً، بليداً، أنانياً، ضحلاً، يدفعه الحافز الجنسي، طلب مساعدته عندما أصيب بورم الغدد اللمفاوية القاتل. وتمكّن جوليوس من مساعدة كارلوس الذي طرأت على حياته

بضع تغييرات ملحوظة، لا سيّما في عالم التواصل مع الآخرين، ومكّنته تلك التغييرات من أن يغمر حياته كلها بالمعنى. وقبل وفاته بساعات قليلة، قال لجوليوس: «أشكرك لأنك أنقذت حياتي». كان كارلوس يخطر على بال جوليوس كثيراً، أما الآن، في هذه اللحظة بالذات، فقد حملت قصّته معنى جديداً وشديد الأهمية، لا لفيليب وبام فحسب، وإنما لإنقاذ حياته هو أيضاً.

ففي مجالات عديدة، أصبح فيليب أقل غطرسة، وأصبح بالإمكان التحدّث إليه والتواصل معه أكثر، حتى إنه بدأ يتواصل بالنظر مع معظم الأعضاء، باستثناء بام. ومضت الأشهر الستّة من دون أن يثير فيليب مسألة الانقطاع عن الجلسات لأنه أنجز عقده المحدد بمدة ستّة أشهر. وعندما أثار جوليوس هذه المسألة، ردّ فيليب، «لدهشتي، فإن العلاج الجماعي ظاهرة معقدة أكثر بكثير مما كنت أظن أصلاً. وأفضّل أن تشرف على عملي مع المرضى خلال حضوري جلسات المجموعة أيضاً، لكنك رفضت تلك الفكرة بسبب مشاكل «ازدواجية العلاقات»، لقد قررت أن أبقى في المجموعة طوال السنة وأطلب الإشراف بعد ذلك».

فقال جوليوس: «أوافق على هذه الخطة، لكن هذا يتوقف بالطبع على حالتي الصحية. ولا تزال هناك أربعة أشهر حتى ينتهي عمل المجموعة، ثم سنرى ما يمكننا أن نفعله. إن ضمان صحتي هو لسنة واحدة فقط».

لم يكن تغيير رأي فيليب حول مشاركته في المجموعة شيئاً غير عادي. إذ يشارك الأعضاء في المجموعة غالباً وفي رأسهم هدف محدد، منها على سبيل المثال، النوم بشكل أفضل، التوقّف عن رؤية كوابيس، التغلّب على خوف من شيء معين. ثمّ، بعد بضعة أشهر، يضعون غالباً أهدافاً مختلفة بعيدة المنال، مثل أن يتعلّموا كيف يحبّون، وكيف يستردون زخم حبّ الحياة، وكيف يتغلبون على الوحدة، وكيف يطوّرون إحساسهم بقيمة الذات.

وبين الحين والآخر، كانت المجموعة تضغط على فيليب ليشرح لهم بدقة أكبر كيف تمكن شوبنهاور من مساعدته في حين أخفق علاج جوليوس بالتحليل النفسي تماماً. وبما أنه كان يجد صعوبة في الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بشوبنهاور من دون أن يشرح الخلفية الفلسفية الضرورية، استأذن من أعضاء المجموعة لإلقاء محاضرة حول الموضوع لمدة ثلاثين دقيقة. فأبدوا تذمراً، وحثّه جوليوس على أن يقدّم المعلومات ذات الصلة باختصار مفيد أكثر وبشكل مناقشة.

وفي الجلسة التالية بدأ فيليب محاضرة قصيرة تجيب، كما وعد، باختصار مفيد عن السؤال كيف ساعده شوبنهاور على الشفاء.

ومع أنه كان يحمل بيده ورقة دوّن فيها بعض الملاحظات، فقد راح يتحدّث من دون الرجوع إليها. محدّقاً في السقف، بدأ يقول: «لا يمكن مناقشة شوبنهاور بدون البدء بالتحدّث عن كانط، الفيلسوف الذي بالإضافة إلى أفلاطون، يحظى باحترام أكثر مما حظي به جميع الفلاسفة الآخرين. فقد أحدث كانط الذي مات في عام ١٨٠٤، عندما كان شوبنهاور في السادسة عشرة من عمره، ثورة في الفلسفة بفكرته الثاقبة بأنه لا يمكننا أن نعيش الواقع بأيّ معنى حقيقي لأن جميع تصوّراتنا، وبياناتنا، وأحاسيسنا، تُنقى بواسطة جهازنا العصبي التشريحي. ويتم تصوّر كلّ البيانات من خلال تركيبات اعتباطية من قبيل المكان والزمان».

«هيا يا فيليب، أُدخل في الموضوع»، قاطعه توني، «كيف ساعدك هذا الرجل؟».

«انتظر، سأصل إلى ذلك. لم أتحدّث أكثر من ثلاث دقائق. هذه ليست نشرة أخبار في التلفزيون؛ لا يمكنني أن أشرح ما توصل إليه أحد أعظم المفكّرين في العالم بتعليق مقتضب».

«هيه، هيه، أنت على حقّ يا فيليب. أعجبني هذا الردّ»، قالت ريبيكا.

ابتسم توني وتراجع.

«لذلك كان اكتشاف كانط بأنه بدلاً من اختبار العالم كما هو في الحقيقة، فإننا نختبر نسختنا الشخصية التي نصنعها نحن بما هو موجود. إن خصائص من قبيل المكان، والزمان، والكم، والسببيّة، تقبع فينا، لا في الخارج، إننا نفرضها على الواقع. لكن، إذاً، ما هو الواقع النقي، الخام، الذي لم يُعالج؟ ماذا يوجد هناك حقاً، ذلك الكيان الخام قبل أن نعالجه؟ سيظل شيئاً مجهولاً بالنسبة لنا باستمرار، كما قال كانط».

«شوبنهاور، كيف ساعدك! تذكّر؟ هل هذه مقدمة للتحمية؟» سأل توني.

«سأتحدّث عن ذلك خلال تسعين ثانية. في أعماله التالية حوّل كانط وآخرون جلّ انتباههم إلى السبل التي نعالج فيها الحقيقة الأساسية».

«أما شوبنهاور ـ وانظر، ها قد وصلنا! فقد سلك طريقاً مختلفاً. فقد قال إن كانط أهمل نمطاً أساسياً وفورياً من المعطيات حول أنفسنا: أجسادنا ومشاعرنا. وأصرّ على أننا نستطيع أن نعرف أنفسنا من *الداخل*. لدينا معرفة فورية ومباشرة، لا تعتمد على تصوراتنا. لذلك، كان أول فيلسوف ينظر إلى الدوافع والمشاعر من *الداخل*، وطوال فترة عمله كتب باستفاضة عن المخاوف والشواغل الإنسانية الداخلية: الجنس، الحبّ، الموت، الأحلام، المعاناة، الدين، الانتحار، العلاقات مع الآخرين، الزهو؛ تقدير الذات. وتطرق أكثر من أي فيلسوف آخر إلى تلك الدوافع المظلمة في داخلنا إلى حدّ أننا لا نستطيع تحمّل أن نعرفها، لذلك، يتعين علينا كبتها».

«يبدو أشبه بفرويدي صغير»، قالت بوني.

«بالعكس تماماً. من الأفضل القول إن فرويد هو شوبنهاوري. فالكثير من علم النفس الفرويدي موجود عند شوبنهاور. ومع أن فرويد نادراً ما اعترف بهذا التأثير، فلا شكّ في أنه كان مطلعاً على كتابات شوبنهاور،

ففي فيينا، عندما كان فرويد لا يزال تلميذاً في المدرسة في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، كان اسم شوبنهاور يتردد على لسان الجميع. ويخيّل إليّ أنه لو لا شوبنهاور لما كان هناك فرويد ـ ولذلك، لما كان هناك نيتشه كما نعرفه. في الواقع، كان تأثير شوبنهاور على فرويد ـ لا سيّما نظرية الأحلام، والعقل الباطن، وآلية الكبت ـ موضوع أطروحتي لنيل الدكتوراه».

«إن شوبنهاور»، تابع فيليب، وهو ينظر إلى توني، بسرعة لكي لا يقاطعه أحد، «جعل شهوتي الجنسية طبيعية. جعلني أرى كيف أن الجنس مطلق الوجود، وكيف أنه، في أعمق المستويات، يشكل النقطة المركزية لجميع أنواع السلوك، يتغلغل في كلّ تصرفات البشر، بل حتى إنه يؤثّر على جميع شؤوننا في الحياة. أعتقد أنني كنت قد قرأت بعض عباراته حول هذا الموضوع منذ بضعة أشهر».

فقال توني: «لتأييد الفكرة التي تقولها فقط، قرأت منذ أيام في الصحيفة بأن صناعة البورنوغرافي تدر أموالاً أكثر مما تدرّه الموسيقى وصناعة السينما مجتمعتين. إنها مبالغ ضخمة».

«فيليب»، قالت ريبيكا، «أستطيع تخمين ذلك، لكنّي ما أزال لم أسمعك حتى الآن تقول كيف ساعدك شوبنهاور بالتحديد على الشفاء من دافعك الجنسي القهري أو... آه... إدمانك. هل يمكنني أن أستخدم هذه الكلمة؟».

«يجب أن أفكّر في ذلك. فأنا لست مقتنعاً بأنها دقيقة تماماً»، قال فيليب.

فسألته ريبيكا، «لماذا؟ إن ما وصفته الآن يبدو لي كالإدمان».

«حسناً، متابعة لما قاله توني، هل رأيت أرقام الذكور الذين يشاهدون أفلام البورنو على الإنترنت؟».

«هل تشاهد أفلام بورنو على الإنترنت؟» سألت ريبيكا.

«لا، لكن كان من الممكن أن أفعل ذلك في الماضي ـ مثل معظم الرجال».

فتدخل توني وقال: «حول هذا الموضوع، فأنا أعترف بأني أشاهدها مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. صدقاً، لا أعرف أحداً لا يفعل ذلك».

«وأنا أيضاً»، قال جيل، «أحد الأشياء الأخرى التي تثير حفيظة روز».

اتجهت الرؤوس نحو ستيوارت. «نعم، نعم، أعترف، كنت منغمساً فيها بعض الشيء».

فقال فيليب: «هذا ما قصدته. إذن هل هذا يعني أن الجميع مدمنون؟».

فقالت ريبيكا: «حسناً. أستطيع أن أفهم ما تقصده. لا البورنو فقط، وإنما أيضاً وباء دعاوى التحرش. فقد دافعت عن الكثير من القضايا المتعلقة بذلك في مكتبي. وقد قرأت منذ أيام عدة مقالة عن عميد في إحدى كليات الحقوق المعروفة استقال من منصبه بسبب تهمة التحرش، وطبعاً هناك قضية كلينتون والطريقة التي كُبت فيها صوته القوي. ثم انظر إلى عدد المحامين الذين دافعوا عن كلينتون وكانوا يتصرّفون بنفس الأسلوب».

«لكلّ شخص حياة جنسية مظلمة»، قال توني، «بعضها مثل، من هو سيئ الحظ؟ لعل الذكور هم مجرد ذكور. انظروا إليّ، انظروا إلى فترة سجني لأنني كنت ألحّ على ليزي أن تمارس معي الجنس الفموي. أعرف مائة رجل يفعلون أسوأ من ذلك ـ ولم تكن هناك عواقب ـ انظروا إلى شوارزنيغر».

«توني، إنك لا تحبّب نفسك بالنساء هنا. أو على الأقل لهذه

الأنثى»، قالت ريبيكا، «لكني لا أريد أن أفقد التركيز. فيليب، تابع، لم تزل لم توضح ما تريد أن تقوله».

«قبل كلّ شيء»، واصل فيليب دون أن يقاطعه أحد، «بدلاً من استنكار كلّ هذا السلوك الذكوري الفظيع المنحرف، فهم شوبنهاور منذ قرنين الحقيقة الأساسية: القوّة المذهلة المطلقة للدافع الجنسي. إنها أعظم قوة أساسية فينا ـ الإرادة للعيش، للإنجاب ـ ولا يمكن إسكاتها. لا يمكن التخلص منها بالمنطق. لقد تحدّثت للتو كيف أنه يصف أن الجنس يتغلغل في كلّ شيء. انظروا إلى فضيحة الكاهن الكاثوليكي، انظروا إلى كلّ محطة من محطات الجهد الإنساني، جميع المهن، جميع الثقافات، جميع الفئات العمرية. كانت هذه الفكرة شديدة الأهمية بالنسبة لي عندما وقع عمل شوبنهاور تحت يدي أول مرة، ها هو أحد العقول العظيمة في التاريخ، وللمرة الأولى في حياتي، شعرت بأنني أصبحت مفهوماً تماماً».

«و؟» سألت بام التي ظلت صامتة طوال هذه المناقشة.

«وماذا؟» قال فيليب، بالتوتر المعتاد عندما توجّه له بام الكلام.

«وماذا أيضاً؟ هل هذا كلّ شيء؟ هل انتهى الأمر؟ هل تحسّنت لأن شوبنهاور جعلك تصبح مفهوماً؟».

بدا أن فيليب لم يعبأ بسخرية بام وردّ بنبرة متزنة وبأسلوب صادق، «كانت هناك أمور أكثر بكثير. فقد جعلني شوبنهاور أدرك بأنه كُتب علينا أن ندير عجلة قيادة الإرادة إلى ما لا نهاية، إذ نشتهي شيئاً، نحصل عليه، نتمتّع بلحظة قصيرة من الإشباع التي سرعان ما تخبو وتتحوّل إلى ملل، ثم تعقبها بعد ذلك، بكل تأكيد، 'أنا أريد' التالية. لا يوجد منفذ للتسكين من غلواء الشهوة، على المرء أن يقفز من وراء عجلة القيادة بالكامل. وهذا ما فعله شوبنهاور، وهذا ما فعلته أنا».

«القفز من وراء عجلة القيادة؟ وماذا يعني هذا؟» سألته بام.

«يعني الهرب من الرغبة بالكامل. يعني القبول التام بأن الجزء الأعمق في طبيعتنا هو كفاح لا يمكن إرضاؤه وإشباعه، وأن هذه المعاناة مبرمجة في داخلنا منذ البداية، وبأنّنا محكومون بطبيعتنا نفسها. ويعني أن علينا أن نفهم أولاً العدم الجوهري لعالم الوهم هذا ثم ننطلق لنجد وسيلة لإنكار الإرادة. يجب أن نضع هدفاً نصب أعيننا كما يفعل كلّ الفنانين العظماء، وأن نسكن في عالم الأفكار الأفلاطونية البحتة. ويفعل البعض ذلك من خلال الفن، والبعض الآخر يفعلون ذلك من خلال الزهد الديني. أما شوبنهاور فقد فعل ذلك من خلال تجنب عالم الشهوة بالمشاركة مع عقول التاريخ العظيمة وبالتأمل الجمالي، فقد كان يعزف على آلة الفلوت ساعة أو ساعتين في يوم. ويعني أن على المرء أن يكون أن مراقباً فضلاً عن كونه فاعلاً. على المرء أن يدرك قوة الحياة الكامنة في الطبيعة كلها، التي تتجلّى من خلال وجود شخصية كلّ فرد، وفي النهاية، سيستعيد كلّ تلك القوة عندما لا يعود الفرد موجوداً ككيان جسدي».

«وقد اقتفيت نموذجه بدقة؛ علاقاتي الأولى مع المفكّرين العظام الذين بدأت أقرأ أعمالهم كلّ يوم. وبدأت أجنّب عقلي صخب الحياة اليومية، وبدأت أمارس التأمّل يومياً من خلال لعب الشطرنج أو الاستماع إلى الموسيقى ـ وبخلاف شوبنهاور، لم يكن باستطاعتي أن أعزف على آلة موسيقية».

افتُتن جوليوس بهذا الحوار. ألم يدرك فيليب حقد بام؟ أم أنه كان خائفاً من غضبها؟ وماذا عن حلّ فيليب لإدمانه؟ في بعض الأحيان، أُعجب جوليوس بها بصمت، وفي أغلب الأحيان كان يسخر منها. وبدا تعليق فيليب عندما قال إنه عندما قرأ شوبنهاور أحسّ بأنه أصبح مفهوماً تماماً *لأول مرة*، كأنه صفعة على الوجه. *ماذا أنا*، قال جوليوس لنفسه، *كبد مقطّع؟ لقد بذلت كلّ ما بوسعي طوال ثلاث سنوات لأفهمه وأتعاطف معه*. لكن جوليوس ظل صامتاً. بدأ فيليب يتغيّر رويداً رويداً.

في بعض الأحيان، من الأفضل تخزين الأشياء ثم العودة إليها في الوقت المناسب في المستقبل.

بعد أسبوعين، أثار أعضاء المجموعة هذه المسائل في الجلسة التي بدأت عندما أخبرت ريبيكا وبوني بام بأنها قد تغيّرت ـ للأسوأ ـ منذ أن بدأ فيليب بحضور الجلسات. فقد تلاشت كلّ الصفات الجميلة فيها، ومع أن غضبها لم يكن شديداً كما كان في مواجهتها الأولى له، قالت بوني، إنه كان دائماً موجوداً وقد تجمّد وتحوّل إلى شيء متصلّب ومعاند.

«أرى أنه طرأ تغيّر كبير على فيليب في الأشهر القليلة الماضية»، قالت ريبيكا، «أما أنتِ فظللتِ تراوحين في مكانك. بقيتِ كما أنت؛ تماماً كما كنتِ مع جون وإيرل. هل تريدين أن تتشبثي بغضبك إلى الأبد؟».

وأشار آخرون إلى أنّ فيليب كان مهذباً، وأنّه كان يردّ على جميع استفسارات بام، حتى تلك المغلّفة بنبرة تهكّم.

«كن مهذباً»، قالت بام، «عندها ستتمكن من التلاعب بالآخرين. تماماً عندما لا تستطيع التعامل مع الشمع إلّا بعد تسخينه».

«ماذا؟» سأل ستيوارت. بدت نظرات التساؤل على وجوه الآخرين.

«إني أقتبس مما قاله معلّم فيليب. هذه إحدى نصائح شوبنهاور الرائعة ـ وهكذا أفكّر في تهذيب فيليب ورقته. لم أذكر ذلك قط هنا، لكني فكّرت بالعمل على شوبنهاور في الجامعة. لكن بعد أسابيع قليلة من دراسة أعماله وحياته، بدأت أحتقر هذا الرجل احتقاراً شديداً وتخلّيت عن الفكرة».

«إذاً فأنت تماهين فيليب بشوبنهاور؟» قالت بوني.

«*تماهي*؟ إن فيليب هو شوبنهاور ـ إن عقلهما توأم. إنه التجسيد الحيّ لذلك الرجل التعيس. يمكنني أن أحدّثكم أشياء عن فلسفته وحياته تخثّر

دمكم. ونعم، فأنا أرى أن فيليب يتلاعب بنا وهو غير صادق فيما يقول - وسأقول لكم هذا: إني أرتعش عندما يخطر لي إنه يلقّن الآخرين مذهب حياة شوبنهاور المفعم بالكراهية».

«ألن تري فيليب كما هو الآن؟» قال ستيوارت، «فلم يعد نفس الشخص الذي كنتِ تعرفينه قبل خمس عشرة سنة. إن تلك الحادثة تشوّه كلّ شيء وتجعلك لا تستطيعين تجاوزها، وأن تغفري له؟».

«تلك 'الحادثة'؟ تجعلها تبدو كأنها أمر بسيط. إنها أكثر من حادثة. أما بالنسبة للمغفرة، أفلا تعتقد أن هناك أشياء لا تُغتفر».

«لأنك لا تغفرين لا يعني أن هناك أشياء لا يمكن أن تُغتفر» قال فيليب بصوت مشحون بالعاطفة على نحو غير معهود، ثم أضاف، «قبل سنوات عدّة، أبرمنا أنا وأنتِ عقداً اجتماعياً قصير الأمد. لقد منح أحدنا الآخر إثارة جنسية وأفرغنا شحناتنا. لقد أنجزتُ الجزء المتعلق بي. كنتِ راضية جنسياً تماماً، ولم أشعر بأنه كان لديّ التزام آخر تجاهك. في الواقع لقد حصلتُ على شيء، وحصلتِ أنتِ على شيء. حصلتُ على متعة جنسية، وكذلك أنتِ. لذلك فأنا لا أدين لك بشيء. لقد أوضحت في حديثنا بعد ما جرى بأنني حصلتُ على ليلة ممتعة ولذيذة لكني لم أرغب في مواصلة علاقتنا. كيف يمكنني أن أكون واضحاً أكثر من ذلك؟».

فردّت بام، «أنا لا أتكلّم عن الوضوح. إني أتحدّث عن المحبة، عن الحبّ، عن حبّ البشر، عن مشاعر القلق تجاه الآخرين».

«إنك تصرّين على أن أشاركك وجهة نظرك بأن تجربتي في الحياة يجب أن تكون نفس تجربتك».

«أتمنّى أنّ تشاركني الألم كما عانيته فقط».

«في هذه الحالة، أريد أن أزفّ إليك خبراً جيداً. ستشعرين بالسعادة عندما تعرفين أنه بعد ما حدث، كتبت صديقتك مولي رسالة إدانة إلى

جميع أعضاء الهيئة التدريسية في قسمي بالإضافة إلى رئيس الجامعة، ورئيس مجلس الجامعة، ومجلس الكليّة. وعلى الرغم من أنني حصلت على درجة الدكتوراه بامتياز، وبالرغم من التقييمات الممتازة التي أرسلها الطلاب التي كانت إحداها، بالمصادفة، منك، فلم يكن أيّ عضو من أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة مستعداً لأن يكتب لي رسالة تأييد أو حتى يساعدني في العثور على وظيفة. فلم أتمكّن قط من الحصول على منصب تعليمي مرموق وكافحت طوال السنوات الماضية كمحاضر متشرّد في سلسلة من المعاهد من الدرجة الثالثة التي لا قيمة لها».

فأجاب ستيوارت الذي بذل كل ما بوسعه لتطوير إحساسه بالتعاطف، «إذاً لا بد أنك شعرت بأنك أمضيت فترة عقوبتك وأن المجتمع انتزع منك ثمناً باهظاً».

فوجئ فيليب، ورفع عينيه لينظر إلى ستيوارت. أومأ وقال: «ليس باهظاً كالثمن الذي فرضته على نفسي».

ارتمى فيليب مرهقاً في كرسيه. وبعد لحظات، اتجهت العيون إلى بام التي لم تهدأ، ووجهت كلامها إلى الجميع، «لا يظنّ أحدكم أنني أتكلّم عن عمل إجرامي واحد في الماضي. إني أتحدّث عن منهج مستمر في الوجود في العالم. ألم تنتبكم قشعريرة الآن عندما وصف فيليب سلوكه في ممارستنا الحبّ بأنها التزاماته تجاه عقدنا الاجتماعي؟ وماذا عن تعليقاته بأنه، بالرغم من السنوات الثلاث التي أمضاها في العلاج مع جوليوس، لم يشعر بأنه أصبح مفهوماً لأول مرة إلّا بعد أن قرأ شوبنهاور. كلكم يعرف جوليوس. هل تعتقدون أنه بعد ثلاث سنوات لم يفهمه جوليوس».

لاذ الجميع بالصمت. بعد لحظات التفتت بام نحو فيليب وقالت: «أتريد أن تعرف لماذا شعرت بأنك أصبحت مفهوماً من خلال شوبنهاور وليس بواسطة جوليوس؟ سأقول لك لماذا: لأن شوبنهاور ميت، ميت منذ أكثر من مائة وأربعين سنة، وجوليوس حيّ يرزق. وأنت لا تعرف كيف ترتبط بالأحياء».

بدا أن فيليب لن يجيب، فتدخلت ريبيكا وقالت: «بام، أنتِ شريرة. ما الذي يمكن أن يجعلك ترضين».

«فيليب ليس شريّراً يا بام»، قالت بوني، «إنه محطّم. ألا تستطيعين رؤية ذلك؟ ألا يمكنك أن تميّزي».

هزّت بام رأسها، وقالت: «لم أعد أستطيع أن أقول أكثر من ذلك اليوم».

بعد صمت غير مريح، تدّخل توني الذي حافظ على هدوئه على نحو غير معهود، وقال: «فيليب، أنا لا أسعى لإنقاذك هنا، لكني أتساءل عن شيء. هل انتابتك مشاعر لاحقة عندما أخبرنا جوليوس منذ بضعة أشهر عن شعوره الجنسي بعد وفاة زوجته؟».

بدا فيليب ممتناً لتحوّل دفة الحديث، وقال: «ما هي المشاعر التي ينبغي أن تنتابني؟».

«لا أعرف عن 'ينبغي'. إني أسأل فقط ماذا شعرت به. هذا هو تساؤلي، عندما رأيته لكي يعالجك آنذاك هل كنت ستشعر بأن جوليوس سيفهمك أكثر لو أفصح لك بأن لديه هو أيضاً تجربة شخصية تتعلق بالضغط الجنسي؟».

أومأ فيليب وقال: «هذا سؤال مهم. والجواب ربما نعم. قد يكون ذلك مساعداً. لا يوجد لديّ إثبات، لكن كتابات شوبنهاور توحي بأن مشاعر جنسية كانت تنتابه تشبه مشاعري من حيث الحدّة والعناد. لهذا السبب أظن أنني شعرت بأنني أصبحت مفهوماً جداً عن طريقه».

«لكن هناك شيئاً لم أذكره عندما تحدّثت عن عملي مع جوليوس، وأوّد أن أضع الأمور في نصابها. فعندما أخبرته بأنني لم أستفد من علاجه أبداً، سألني نفس السؤال الذي أثاره الجميع هنا منذ مدة، لماذا أريد أن يكون المعالج الذي لم يستطع مساعدتي أن يشرف عليّ؟ سؤاله

هذا ساعدني على أن أتذكّر أمرين أثناء علاجنا رسخا في عقلي، وكانا في الحقيقة مفيدين».

«مثل ماذا؟» سأل توني.

«عندما وصفت أمسياتي الروتينية النموذجية من الإغواء الجنسي ـ التودد، التعارف، العشاء، الممارسة الجنسية ـ وسألته هل أصبت بالصدمة أو بالاشمئزاز، فأجاب إنها تبدو أمسيات مملّة جداً. صدمني ذلك الردّ. جعلني أدرك كيف أن أنماطي التكرارية ارتبطت بشكل اعتباطي بالإثارة الجنسية».

«وما الشي الآخر الذي رسخ في عقلك؟» سأل توني.

«في إحدى المرات سألني جوليوس ما هي عبارة الرثاء التي يمكن أن أطلب أن تُكتب على شاهدة قبري. وعندما لم يخطر ببالي شيء، اقتراح عبارة 'إنه ينيك كثيراً'، ثم أضاف أنه يمكنني أن أضع هذه المرثية أيضاً على قبر كلبي أيضاً».

أطلق بعض الأعضاء صافرة دهشة، أو أنهم ابتسموا. ثم قالت بوني، «هذا شيء دنيء يا جوليوس».

فقال فيليب، «لم يقل ذلك بطريقة دنيئة، إنما كان يهدف إلى صدمي، إلى إيقاظي. وقد *علق* ذلك في رأسي، وأظن أنها لعبت دوراً في قراري لتغيير مسار حياتي. لكنّي أظن أنّني أردت أن أنسى هذه الأحداث. من الواضح، أنني لا أحبّ أن أعترف بأنه ساعدني».

«هل تعرف لماذا؟» سأله توني.

«كنت أفكّر في الأمر. لعلي كنت أشعر بالمنافسة معه. فإذا ربح، خسرتُ. لعلي لم أكن أرغب في أن أعترف بأنّ منهجه في العلاج الذي يختلف اختلافاً جذرياً عن منهجي، كان مفيداً. ربما لا أريد أن أكون قريباً منه كثيراً. لعلها»، وأمأ فيليب نحو بام، «محقّة؛ لا يمكنني الارتباط بشخص حيّ».

«على الأقل ليس بسهولة»، قال جوليوس، «الكنك بدأت تقترب أكثر».

وهكذا استمر الأعضاء عملهم في الأسابيع القليلة؛ حضور كامل، عمل مثمر صعب، وبالإضافة إلى أسئلة قلقة متكررة عن صحة جوليوس والتوتّر الذي لم يتوقف بين بام وفيليب، كان الجميع يشعرون بالثقة، والمودة، والتفاؤل، بل حتى بالهدوء. لم يكن أحد مستعداً للقنبلة التي توشك أن تهبط عليهم.

عندما يولد شخص مثلي يظلّ شيء واحد فقط
يُشتهى من الخارج ـ وهو أن يظلّ هو نفسه طوال حياته
بقدر ما يستطيع، وأن يعيش من أجل ملكاته الفكرية.

٣٥

العلاج الذاتي

أكثر من أي شيء آخر، تشكّل السيرة الذاتية «عن نفسي» خلاصة رائعة لأساليب العلاج الذاتي التي ساعدت شوبنهاور على البقاء متداولاً من الناحية النفسية. ومع أن بعض هذه الأساليب كانت تُبتدع في أثناء نوبات القلق العاصفة في الساعة الثالثة صباحاً، وتختفي بسرعة عند الفجر، كانت عابرة وغير فعالة، فقد أثبتت أساليب أخرى بأنها تشكل متاريس قوية للدعم. ومن بين تلك الأساليب الفعالة، إيمانه المطلق والثابت طوال حياته بعبقريته:

حتى في شبابي لاحظتُ في نفسي أنني، بينما كان الآخرون يسعون جاهدين للحصول على الحاجات الخارجية، لم أشعر بأنه يتعين عليّ أن ألتفت إلى هذه الأشياء لأنني أحمل في داخلي كنزاً أثمن بكثير من كلّ الممتلكات الخارجية؛ وكان الشيء الأساسي هو أن أعزز هذا الكنز الذي تتمثل شروطه الأساسية في تطوير عقلي واستقلاليتي التامة... وبعكس طبيعة وحقوق الإنسان، يتعين عليّ أن أستمد قواي من تقدّم

صحتي وسعادتي لأكرّسها في خدمة البشرية. إن فكري ليس ملكاً لي وإنما ملك للعالم أجمع.

وقال إن عبء عبقريته جعله أكثر قلقاً واضطراباً عمّا كان من قبل بسبب تكوينه الوراثي. وأحد الأسباب هو أن حساسية العباقرة تجعلهم يعانون المزيد من الألم والقلق. في الواقع يقنع شوبنهاور نفسه بأن ثمة علاقة مباشرة تربط بين القلق والذكاء. لذلك، لا يوجد لدى العباقرة التزام باستخدام موهبتهم من أجل البشرية فحسب، وإنما لأنه يتعين عليهم أن يكرسوا أنفسهم بالكامل لتحقيق رسالتهم، وهم مرغمون على التخلّي عن العديد من الأشياء التي تشبع الرغبات (الأسرة، الأصدقاء، البيت، تكديس الثروة) المتاحة للبشر الآخرين.

والمرّة تلو المرّة، كان يهدّئ نفسه بقراءة فقرات من المانترا استناداً إلى عبقريته: «إن حياتي حياة بطولية ويجب ألا تقاس بمعايير الأشخاص المتخلفين من أصحاب المحلات أو الرجال العاديين... لذلك يجب ألّا أصاب بالاكتئاب عندما أرى كم أنني أفتقر إلى تلك الأشياء التي تشكل جزءاً من مسيرة حياة فرد عادية... لذلك لا يمكن أن تفاجئني إذا بدت حياتي الشخصية غير متناغمة ومن دون أيّ خطة». وقد ساعد إيمان شوبنهاور بعبقريته أيضاً في تزويده بإحساس قوي بمعنى الحياة: فقد اعتبر نفسه طوال حياته مبشّراً حقيقياً للجنس البشري.

كانت الوحدة هي الشيطان الذي ابتُلي به شوبنهاور أكثر من أي شيء آخر، وقد ازداد براعة في بناء الدفاعات لصدّها. وأكثر تلك الأشياء أهمية وقيمة اقتناعه التام بأنه السيد الذي يتحكّم بمصيره، بأنه اختار تلك الوحدة، وأن الوحدة لم تختره. وعندما كان أصغر سناً، ذكر أنه كان ينحو لأن يكون اجتماعياً، لكن بعد ذلك: «رويداً رويداً اكتسبتُ عيناً لاختيار الوحدة، وأصبحتُ غير اجتماعي بانتظام، وعزمتُ على أن أكرّس نفسي لنفسي بالكامل خلال السنوات المتبقية من هذه الحياة العابرة». وما فتئ يذكّر نفسه، «أنا لستُ في موطني الطبيعي ولستُ بين كائنات مساوية لي».

لذلك كانت الدفاعات في وجه العزلة قويّة وعميقة؛ لقد اختار العزلة طوعاً، ولم تكن الكائنات الأخرى جديرة بصحبته، وفرضت رسالته المستندة إلى عبقريته العزلة في الحياة، إذ يجب أن تكون حياة العباقرة مونودراما، ويجب أن تحقق حياة العبقري الشخصية هدفاً واحداً وهو؛ تيسير الحياة الثقافية (ومنه، «كلما صغرت الحياة الشخصية، ازدادت أماناً، وتصبح بذلك أفضل»).

كان شوبنهاور أحياناً يئنّ من عبء عزلته. «طوال حياتي، كنت أشعر بوحدة فظيعة وكنت أتنهّد دائماً من أعماق قلبي، ’الآن أعطني إنساناً’ لكن، واحسرتاه، عبثاً. لقد بقيت في وحدتي لكنني أستطيع أن أقول بأمانة وصدق أن ذلك لم يكن ذنبي، لأنني لم أتجنّب ولم أبتعد عن أي شخص كان إنساناً».

بالإضافة إلى ذلك، قال إنه لم يكن وحيداً حقاً لأنه ـ وها هي وسيلة أخرى فعالة في العلاج الذاتي ـ كانت توجد لديه دائرة أصدقاء خاصة به: المفكّرون العظماء في العالم.

واحد من هؤلاء العظماء فقط كان معاصراً له وهو غوته، أما معظم المفكرين الآخرين فكانوا من العصور القديمة، لاسيّما الرواقيين الذين اقتبس منهم كثيراً، فلا تكاد كلّ صفحة من صفحات سيرته «عن نفسي» لا تحتوي على حكمة أو قول مأثور تفتّق عنه عقل عظيم يدعم قناعاته. ومن الأمثلة النموذجية على ذلك:

إن أفضل مساعدة للعقل هي التي تحطّم مرة وإلى الأبد الروابط المعذّبة التي توقع القلب في شباكها.

أوفيد

ينبغي لمن يسعى إلى السلام والهدوء أن يتحاشى النساء، المصدر الدائم للمشاكل والمشاحنات.

بترارك

لا يمكن لأي شخص أن يكون سعيداً تماماً إن لم يعتمد اعتماداً تاماً على نفسه ولم يكن يمتلك في ذاته كلّ ما يدّعي أنه له.

شيشرون

إن إحدى الطرائق التي يتبعها بعض قادة العلاج النفسي الجماعي أو التطوير الشخصي هي طريقة «من أنا؟» إذ يدوّن كل مشارك سبع إجابات عن سؤال «من أنا؟» على بطاقة مختلفة، ثم تُرتّب البطاقات بحسب الأهمية. ثم يُطلب إلى كلّ مشارك أن يقلب البطاقة كلّ مرة، بدءاً بالإجابات الثانوية وأن يفكّر كيف سيبدو عندما يترك (أي ألّا يتماهى)) مع كلّ سؤال، حتى يصل إلى خصائص نفسه الجوهرية.

وعلى نحو مماثل، فقد نبذ شوبنهاور خصائص ذاتية مختلفة حتى وصل إلى ما اعتبره جوهر ذاته:

عندما كان يتملكني الحزن في بعض الأحيان، كان ذلك يحدث لأنني أعتبر نفسي غير ما أنا، ثم أرثي لتعاسة ذلك الشخص الآخر وبؤسه. فعلى سبيل المثال كنت أعتبر نفسي محاضراً لا يستمع أحد إلى محاضراته، أو شخصاً يتحدّث عنه هذا المتخلّف كلاماً سيئاً أو يروّج آخر إشاعات عنه، أو أعتبر نفسي ذلك الحبيب الذي لا تنصت إليه الفتاة التي افتُتن بها، أو مريضاً يقعده مرضه في البيت، أو يعتبر نفسه شخصاً آخر أصيب بتعاسات مماثلة. لم أكن أياً من هؤلاء. كلّ ذلك هو قطعة القماش التي صُنع منها المعطف الذي أرتديه لفترة قصيرة ثم أخلعه لارتداء معطف آخر.

إذاً، من أنا؟ أنا الرجل الذي كتب ***العالم كإرادة وتصوّر*** *والذي قدّم حلاً لمشكلة الوجود العظيمة التي ربما ستلغي كلّ الحلول السابقة ... أنا هو ذاك الرجل، وما الذي يمكن أن يزعجه في السنوات القليلة التي ستمكّنه أن يتنفس خلالها.*

وهناك طريقة مهدّئة مهمة أخرى تمثّلت في قناعته بأن أعماله

ستحظى، إن آجلاً أم عاجلاً، ربما بعد موته، بالشهرة وستغيّر كثيراً مسيرة البحث الفلسفي. وقد بدأ يعبّر عن هذا الرأي في فترة مبكرة من حياته، ولم يخفت إيمانه بأنه سيحقق النجاح النهائي. وفي ذلك، كان يشبه نيتشه وكيركغارد، المفكّرين المستقلين الآخرين اللذين لم يحظيا بالتقدير الملائم وكانا على يقين تام (وبحقّ) بأنهما سيحظيان بالشهرة بعد موتهما.

كان يتحاشى أيّ عزاء غيبي، وكان يعتنق العزاء الذي يقوم على أساس نظرة عالمية طبيعية. فعلى سبيل المثال، كان يرى أنّ الألم ينبع من خطأ الافتراض بأن الكثير من احتياجات الحياة عرضية، لذلك يمكن التخلّي عنها. والأفضل بكثير إدراك الحقيقة وهي أن الألم والمعاناة حتميان وجوهريان في الحياة، «ما هو إلّا الشكل الذي تتجلّى فيه والذي يعتمد على الحظ، وأنّ معاناتنا الحالية تملأ مكاناً، بدونه، ستحلّ محله معاناة أخرى. وإذا أصبح هذا التفكير قناعة حيّة، فقد يفضي إلى بلوغ درجة كبيرة من الرصانة الرواقية».

إنه يحثّنا على أن نعيش الحياة الآن بدلاً من أن نعيش من أجل «أمل» مستقبل جيد. وبعد جيلين يتبنّى نيتشه دعوته هذه. فقد اعتبر الأمل أعظم بليّة وسخر من أفلاطون وسقراط والمسيحية لأنهم يبعدون انتباهنا عن الحياة الوحيدة التي نعيشها نحو عالم وهمي في المستقبل.

هل هناك أزواج يقترنون بزوجة واحدة فعلاً؟

إننا نعيش كلّنا لفترة محدودة من الزمن،
ويقترن معظمنا دائماً بزوجات عدّة.
وبما أن كلّ رجل يحتاج إلى نساء عدّة،
فلا يوجد شيء أكثر إنصافاً
من أن يتكفّل بإعالة نساء عدّة.
لأن هذا سيضع المرأة في موقعها الحقيقي والطبيعي ككائن خاضع.

٣٦

افتتحت بام الجلسة التالية، وقالت: «لديّ شيء أريد أن أعلن عنه اليوم».

استدارت نحوها جميع الرؤوس.

«اليوم وقت الاعتراف. هيا يا توني».

انتصب توني في جلسته، حدّق في بام للحظة طويلة ثمّ أسند ظهره إلى كرسيه، وشبك ذراعيه، وأغمض عينيه. لو كان يعتمر قبعة فيدورا، لدفعها إلى الأسفل ليغطي وجهه.

عندما رأت بام أن توني لا ينوي أن يعلّق، تابعت بصوتها الجريء الواضح، «أنا وتوني كنا على علاقة جنسية منذ فترة، وأجد صعوبة في أن أظل آتي إلى هنا ولا أتكلّم عن هذا الأمر».

بعد فترة قصيرة من الصمت المشحون، سُمعت أسئلة متلعثمة؛

«لماذا؟» «كيف بدأ ذلك؟» «منذ متى؟» «كيف يمكنكما أن تفعلا ذلك؟» «إلى أين سيؤدي ذلك؟».

فردّت بام بسرعة، وببرود، «حدث ذلك منذ أسابيع عدّة. لا أعرف ماذا سيحدث في المستقبل، ولا أعرف كيف بدأ. لم يكن أمراً متعمّداً، لكنه حدث في مساء أحد الأيام بعد انتهاء الجلسة».

«هل ستشاركنا اليوم يا توني؟» سألته ريبيكا بلطف.

فتح توني عينيه ببطء وقال: «إنه مجرد خبر بالنسبة لي».

«خبر؟ هل تقول إن هذا غير صحيح؟».

«لا. أقصد يوم الاعتراف. هذه 'هيا يا توني' ـ إنه خبر مفاجئ بالنسبة لي».

«يبدو أنك لست سعيداً بذلك»، قال ستيوارت.

التفت توني مخاطباً بام: «أقصد كنتُ في بيتك الليلة الماضية. وكما تعرفين كنتُ عاطفياً معك. الحميمية ـ كم مرّة سمعت أن النساء يتمتعن بالرهافة والحساسية ويرغبن في عواطف تتجاوز العواطف الجنسية العادية المألوفة؟ لذلك، لماذا لم تكوني ودودة بما يكفي لتقولي لي إنك ستبدئين 'يوم الاعتراف هذا' بي أولاً؟».

«آسفة»، قالت بام لكن من دون أن تبدو آسفة، «لم تكن الأمور على ما يرام بالنسبة لي. فبعد أن غادرت، أمضيتُ معظم الليلة مكتئبة ورحت أفكّر في المجموعة، وأدركت أن الوقت أصبح قصيراً جداً ـ فلم يبق أمامنا إلّا ستّ جلسات أخرى. هل حسابي صحيح يا جوليوس؟».

«صحيح. ستّ جلسات أخرى».

«فجأة خطر ببالي أنني أخونك يا جوليوس، وأخون عقدي معك ومع جميع الآخرين، وأخون نفسي أيضاً».

قالت بوني: «لم أستطع أن أربط كلّ الأشياء معاً، لكنني كنت أشعر بأن شيئاً على غير ما يرام في الجلسات القليلة الماضية. لقد تغيّرت كثيراً

يا بام. أذكر أن ريبيكا أحست بذلك أكثر من مرة. فنادراً ما كنت تتحدّثين عن أمورك الشخصية ـ لا أعرف ماذا يجري بينك وبين جون، أو هل أن زوجك السابق في الصورة أم لا، فمعظم ما كنت تفعلينه هنا هو أن تتهجمي على فيليب».

«وتوني، أنت أيضاً»، أضاف جيل، «الآن بدأت أتذكر، كنت مختلفاً تماماً. كنت متوارياً. أصبحت أفتقد توني القديم الحر».

فقال جوليوس: «عندي بعض الأفكار التي أريد أن أقولها هنا. أولاً، أثارت بام شيئاً مهماً عندما استخدمت كلمة *عقد*. أعرف أن هذا تكرار، لكنّه يحمل تكراراً لأيّ منكم قد يشارك في مجموعة في المستقبل»، وهنا نظر جوليوس إلى فيليب، ثم أضاف، «أو حتى يقود مجموعة. إن العقد *الوحيد* لدى كلّ واحد منّا هو أن نبذل كلّ ما بوسعنا لاستكشاف علاقتنا مع جميع الأشخاص في المجموعة. إن خطر إقامة أي علاقة خارج إطار المجموعة هو أنه *يقوّض مسيرة العلاج*. كيف يتم ذلك؟ لأن *الأشخاص الذين يكونون على علاقة وثيقة سيقيّمون غالباً تلك العلاقة أكثر مما يقيّمون العلاج نفسه*. انظروا، هذا ما حدث هنا؛ فلم تخف بام وتوني علاقتهما الخاصة ـ هذا أمر مفهوم ـ لكن بسبب علاقتهما الشخصية فقد تراجعا عن إنجاح علاجهما هنا».

«حتى اليوم»، قالت بام.

«بالتأكيد، حتى اليوم ـ وأنا أثني على ما فعلته، وأثني على قرارك لإثارته هنا في المجموعة. إنكما تعرفان ماذا سيكون سؤالي لكما، أنت وتوني، وهو: *لماذا الآن*؟ فأنتما تعرفان بعضكما في المجموعة منذ سنتين ونصف السنة تقريباً. وبالرغم من ذلك، فقد تغيّرت الأشياء *الآن*. لماذا؟ ما الذي حدث منذ بضعة أسابيع فجعلكما تتخذان القرار بأن تقيما علاقة جنسية؟»

التفتت بام إلى توني. رفعت حاجبيها تشجّعه على أن يجيب، فامتثل

لها وقال: «الرجال أولاً؟ دوري مرة أخرى؟ لا توجد مشكلة. أعرف تماماً ما الذي تغيّر: لقد ثنت بام إصبعها لي وأشارت نحوي بأنها موافقة؛ كنت أشعر بالإثارة نحوها على الدوام منذ أن بدأنا. ولو كانت قد ثنت لي إصبعها قبل ستّة أشهر أو قبل سنتين لهرعت إليها آنذاك أيضاً. يمكنكم أن تطلقوا عليّ اسم *السّيد متاح*».

«هيه، هذا هو توني الذي أعرفه وأحبّه»، قال جيل. «أهلاً بك مرة أخرى».

«ليس من الصعب فهم لماذا تغيّرت يا توني»، قالت ريبيكا، «كنتَ تفعلها مع بام، ولم تكن تريد أن تفعل أيّ شيء قد يدمّر علاقتكما. إنه شيء منطقي. لذلك كنت تخفي الأمر وتحرص على ألّا تظهر أيّاً من جوانبك غير اللطيفة جداً».

«أتقصدين الجزء المتعلق بالغابة؟» قال توني، «ربما نعم وربما لا ـ الأمر ليس بهذه البساطة».

«ماذا تقصد؟» سألت ريبيكا.

«أقصد أن 'الجزء غير اللطيف جداً' يثير بام جنسياً. لكنّي لا أريد أن أخوض في هذا الأمر».

«لم لا؟».

«هيا، ريبيكا، الأمر واضح. لماذا تضعينني في موقف محرج؟ لو واصلت الكلام هكذا، يمكنني أن أقبّل علاقتي مع بام قبلة الوداع».

«أأنت متأكّد؟» أصرّت ريبيكا.

«ماذا تظنين؟ أظن أنها أثارت الموضوع في المجموعة لتقول لقد انتهى كل شيء. لقد اتخذت قرارها. بدأ المكان يزداد حرارة؛ المقاعد الساخنة تزداد سخونة».

كرّر جوليوس سؤاله إلى بام حول توقيت علاقتها مع توني، الذي لم تكن بام قاطعة في إجابتها، «لست متأكدة. كلّ ما أعرفه هو أن الأمر لم

يكن مدّبراً، لم يكن مخططاً له؛ حدث بشكل عفوي. كنّا نحتسي القهوة بعد إحدى الجلسات، نحن الاثنان فقط، لأن كلّ واحد منكم كان قد ذهب في حال سبيله. دعاني إلى تناول العشاء ـ كان قد دعاني مرات عدّة، لكني في هذه المرة اقترحت بأن يأتي إلى بيتي ونتناول الحساء الذي كنت قد أعددته بنفسي. ولبّى الدعوة، وخرجت الأمور عن السيطرة. لماذا ذلك اليوم وليس في يوم قبله؟ لا أعرف. كنّا معاً في السابق؛ كنت أتحدّث مع توني عن الأدب، وقد أعطيته بعض الكتب ليقرأها، وشجّعته على أن يعود ليدرس. وعلّمني أشياء عن النجارة وساعدني في صنع طاولة للتلفزيون، طاولة صغيرة. كلكم تعرفون ذلك. لماذا تحوّل كلّ ذلك إلى علاقة جنسية الآن؟ لا أعرف».

فقال جوليوس: «أتمانعين في محاولة معرفة لماذا؟ أعرف أنه ليس من السّهل التحدّث عن أشياء حميمية في حضور الحبيب».

«جئت إلى هنا وأنا عازمة على أن أفعل ذلك اليوم».

«جيد، ها هو السؤال: اذكري للجميع، ما هي الأشياء المهمة التي جرت عندما بدأ ذلك؟».

«منذ عودتي من الهند، لاح لي شيئان ضخمان. صحتي رقم واحد. فقد قرأت مقالة غريبة تقول إن الناس يتزاوجون بأمل، في عقلهم الباطن، أن ينجب نسلهم زعيماً جديداً، لكن هذا شيء بعيد المنال. جوليوس، لا أعرف إن كان مرضك هو الذي دفعني إلى إقامة علاقة مع توني. قد يكون الخوف من اقتراب انتهاء موعد الجلسات هو الذي دفعني لإقامة علاقة شخصية دائمة أكثر، ربما جعلني ذلك أفكّر بشكل غير منطقي أن هذا قد يجعل المجموعة تستمرّ بعد السنة. خيّل إليّ ذلك».

فقال جوليوس: «إن المجموعات كالأشخاص لا تريد أن تموت. لعل علاقتك مع توني هي وسيلة غير مباشرة لإبقائها حيّة. جميع

مجموعات العلاج تحاول الاستمرار، أن تلتئم بانتظام، لكنها نادراً ما تفعل ذلك. وكما قلت مرات عديدة هنا، إن المجموعة ليست حياة. إنها بروفة عن الحياة. علينا جميعاً أن نبحث عن طريقة لنحوّل ما نتعلّمه هنا إلى حياتنا في العالم الحقيقي. انتهت المحاضرة».

وتابع جوليوس، «لكن يا بام ذكرتِ أن شيئين ضخمين يلوحان لك؛ أحدهما صحتك وما هو الشيء الآخر...».

«إنه فيليب. إنه يشغل تفكيري دائماً. أكره وجوده هنا. قلت إن وجوده قد يفيدني في نهاية الأمر، وأنا أثق بك، لكنه حتى الآن، لم يكن إلّا بلاء، ربما باستثناء واحد. لقد غرقت في كراهيتي له إلى حد أن تفكيري في إيرل وجون تلاشى، ولا أظن أنه سيعود».

فردّ جوليوس، «إذاً فيليب يلوح لك بقوة. هل من الممكن أن يكون لوجود فيليب دور في توقيت إعلانك عن علاقتك مع توني؟».

«أيّ شيء ممكن».

«أيّة هواجس؟».

هزّت بام رأسها، وقالت: «لا أرى ذلك. إني أصوّت لمصلحة الإثارة الجنسية فقط. فلم ألتق برجل منذ أشهر عدّة. وهذا أمر نادر بالنسبة لي. لا أظن أن هناك شيئاً معقداً أكثر من ذلك».

«هل هناك أي تعليق؟» مسح جوليوس الغرفة بعينيه.

تدخل ستيوارت الذي بدأ عقله المتوقد والمنظّم يعمل، «يوجد أكثر من صراع بين بام وفيليب؛ توجد منافسة شديدة. لعلي أبالغ قليلاً، لكن ها هي نظريتي: تحتل بام على الدوام مكانة محورية في المجموعة - الأستاذة، الواسعة الاطّلاع، التي أخذت توني بيده لتعلّمه. وماذا يحدث؟ تسافر بضعة أسابيع ثم تعود لتجد فيليب يشغل مكانها. أظن أن هذا الأمر أربكها»، والتفت ستيوارت نحو بام وقال: «بالإضافة إلى أن الشكاوى الأخرى ضدّه قبل خمس عشرة سنة قد فاقمت الأمر».

«والعلاقة مع توني؟» سأل جوليوس.

«حسناً، قد تكون هذه إحدى وسائل المنافسة. وإذا أسعفتني ذاكرتي، ففي حوالي ذلك الوقت حاولت بام وفيليب أن يمنحاك هدايا مريحة. فمرّر فيليب تلك القصّة عن السفينة التي توقّفت عند إحدى الجزر، وأذكر أن توني شارك في المناقشة بقوة». ثم استدار نحو بام، وأضاف، «لعلك شعرت بالتهديد من ذلك، لعلك لم ترغبي في أن تفقدي تأثيرك على توني».

فردّت بام، «شكراً يا ستيوارت، إنها بالفعل إضاءة قوية. إنك تقصد أنني لكي أتنافس مع هذا الزومبي عليّ أن أنيك جميع الرجال الموجودين في المجموعة! أهذا هو رأيك بقدرات النساء؟».

«هذا سيشجّعني على إبداء تعليق»، قال جيل، «وهذا الشقّ المتعلق بالزومبي هو خارج السياق. فأنا أفضّل رجاحة عقل فيليب على إطلاق أسماء على آخرين بشكل هستيري في أيّ يوم! بام، أنت سيدة غاضبة. هل يمكنك أن تكوني أي شيء غير أن تكوني مجنونة؟».

«هذه مشاعر قوية يا جيل. ماذا يجري هنا؟» سأل جوليوس.

«أظن أنني أرى أشياء كثيرة من زوجتي في بام الغاضبة الجديدة هذه، وقد عزمت على ألّا أدع أيّ كلام سيئ يمرّ - من أيّ منهما». ثم أضاف جيل، «وهناك شيء آخر. أظن أنني منزعج لأنني غير مرئي بالنسبة لبام»، والتفت إليها وقال: «كنت صريحاً معك على الدوام. أفضيت لك بحقيقة مشاعري عنك. وقلت لك كيف أنني أراك قاضي القضاة، لكن كل ذلك لم يجد نفعاً - فأنا ما أزال غير مهم في نظرك. تركزين فقط على فيليب... وعلى توني. وأظن أنني قدمت لك نصائح مهمة، وها هي نصيحة أخرى: يخيّل إليّ أنني أعرف لماذا ذهب طليقك جون: لا لأنه *كان جباناً؛ وإنما لأنك امرأة غاضبة*».

بام، المستغرقة في التفكير، لاذت بالصمت.

«تخرج مشاعر قويّة كثيرة. دعونا نواصل البحث فيها ونحاول فهمها. هل هناك آراء وأفكار أخرى؟» سأل جوليوس.

فقالت بوني: «إني أحترم صدق بام اليوم، وأستطيع أن أفهم حقيقة مشاعرها. وأقدّر جيل أيضاً لمواجهتها. هذا تغيير مدهش فيك يا جيل، وأنا أثني عليه، لكن أرجو أن تترك فيليب يدافع عن نفسه أحياناً. لا أفهم لماذا لا يفعل ذلك هو بنفسه»، والتفتت إلى فيليب وسألته، «لماذا لا تدافع عن نفسك؟».

هزّ فيليب رأسه ولم ينبس بكلمة.

فقالت بام: «إذا لم يتكلّم، فأنا سأجيب عنه. إنه ينفّذ تعليمات آرثر شوبنهاور». ثم أخرجت ورقة من محفظتها، ألقت عليها نظرة سريعة وراحت تقرأ منها:

* *تكلّم بدون انفعال.*

* *لا تكن تلقائياً.*

* *ابق مستقلاً عن الآخرين.*

* *اعتبر نفسك تعيش في بلدة الساعة الوحيدة التي تحفظ الوقت فيها هي ساعتك، إن هذا سيخدمك كثيراً.*

* *تجاهل الآخرين يكسبك التقدير والاحترام.*

أومأ فيليب بتقدير، وأجاب، «أوافق على كلّ ما قرأته. تبدو نصيحة ممتازة لي».

«ماذا يجري هنا؟» سأل ستيوارت.

«أقرأ بعض أقوال شوبنهاور»، قالت بام، ورفعت الورقة بيدها.

بعد فترة صمت قليلة، كسرت ريبيكا الصمت، وقالت، «توني، أين أنت؟ ماذا جرى لك؟».

فقال توني وهو يهزّ رأسه: «يصعب عليّ أن أتكلم اليوم. أشعر بأنني مقيّد، كأنني أصبحت صلباً مجمّداً».

ولدهشة الجميع، أجاب فيليب، «أظن أنني أفهم تقييدك يا توني، فكما قال جوليوس، لقد علقت بين أمرين متضاربين؛ إذ يُتوقّع منك أن تعمل في المجموعة وتعبّر عن نفسك بحرية، وتحاول في الوقت نفسه أن تحترم ولاءك لبام».

فأجاب توني، «نعم، أرى ذلك، لكن الرؤية لا تكفي، إنها لا تحرّرني. ومع ذلك شكراً لك. وأريد أن أقول لك ما كنت قد قلته قبل دقيقة ـ كما تعرف، تأييداً لفكرة جوليوس ـ حسناً، هذه أول مرة ـ أقصد لم تعارضه ـ إنه تغيير كبير يا رجل».

«تقول إن الفهم غير كاف. ماذا يلزم أيضاً؟» سأل فيليب.

هزّ توني رأسه وقال: «هذا ليس سهلاً اليوم».

«أظن أنني أعرف كيف يمكنني أن أساعد»، قال جوليوس والتفت نحو توني، «أن يتفادى، أنت وبام، أحدكما الآخر، ولا تعبّران عن مشاعركما. لعلكما توفران ذلك لنتحدّث عنه لاحقاً. أعرف أنّه أمر صعب، لكن هل باستطاعتكما عمل ذلك هنا؟ ليحاول أحدكما أن يكلّم الآخر، لا أن توجّها الكلام إلينا».

أخذ توني نفساً عميقاً، والتفت إلى بام وقال: «لا أرتاح لعمل ذلك. أشعر بأن توازني قد اختلّ. إني منزعج من الطريقة التي يجري فيها كلّ ذلك. لا أستطيع أن أفهم لماذا لم تكلميني بالهاتف أولاً بأننا سنناقش الموضوع، لكي أكون مستعداً لليوم؟».

«آسفة. لكن كلانا يعرف أن هذا يجب أن يخرج في وقت ما. لقد تحدّثنا عن ذلك».

«إذاً؟ أهذا كلّ ما عليك قوله؟ وماذا عن هذه الليلة؟ أما زلنا على موعدنا؟».

«سيكون من المحرج جداً أن أراك. القواعد هنا تقول إننا يجب أن نتحدّث عن كلّ العلاقات، وأريد أن أفي بعقدي تجاه المجموعة. لا يمكنني أن أستمر في ذلك، ربما بعد أن تنتهي المجموعة».

«لديك علاقة سهلة وشديدة المرونة مع العقود»، قاطعها فيليب، مبدياً علامات غضب غير معهودة، «تفين بها عندما يناسبك، وعندما أناقش التزامي بعقدي الاجتماعي الماضي معك، فإنك تكيلين الاتهامات إليّ، تهينينني. ومع ذلك فإنك لا تلتزمين بقواعد المجموعة. إنك تلعبين ألعاباً سرية، وتستخدمين توني لإشباع نزواتك».

فردّت بام بصوت عال، «من أنتَ لتتكلم عن العقود؟ وماذا عن العقد بين الأستاذ والطالب؟».

نظر فيليب إلى ساعته. نهض واقفاً، وقال: «الساعة السادسة. لقد أنجزتُ التزاماتي الزمنية». ترك همهمة تسري في الغرفة، وأضاف، «يكفي الخوض في الوحل اليوم».

هذه هي أول مرّة يختتم فيها أحد غير جوليوس الجلسة.

كلّ عاشق سيشعر بخيبة شديدة بعد انتهاء المتعة،
وسيُدهش بأن ما كان مرغوباً كلّ ذلك الشوق
لا يحقق شيئاً أكثر مما يحققه أي إشباع جنسي،
فإنه لا يرى أنه استفاد منه كثيراً.

٣٧

لم تُزل مغادرة الغرفة بهذه الطريقة الوحل من عقل فيليب الذي راح يسير في شارع فيلمور والقلق يتآكله. ما الذي حدث لترسانته من أساليب التهدئة الذاتية؟ فكلّ ما كان يزوّده منذ فترة طويلة الطمأنينة والصفاء بدأ يتكشف ويتفكك؛ انضباطه العقلي، رؤيته الكونية. باذلاً كل ما بوسعه لبلوغ مرحلة الهدوء والرصانة، قال لنفسه آمراً: لا تكافح، لا تقاوم، ليكن عقلك جلياً، لا تفعل شيئاً سوى أن ترى شريط أفكارك. دع الأفكار تنجرف إلى العقل الواعي ثم دعها تنجرف بعيداً.

لقد انجرفت الأشياء إلى الداخل، لكنها لم تنجرف إلى الخارج، بل فتحت الصور حقائبها، وعلّقت ملابسها، وبدأت تقوم بأعمال التدبير المنزلي في عقله. انجرف وجه بام إلى المشهد. ركّز على صورتها التي، لدهشته، طرحت عن نفسها السنوات، فازدادت قسماتها شباباً، وسرعان ما تراءت أمامه بام التي يعرفها منذ سنوات عدّة. أليس غريباً أن يرى الشباب في الشيخوخة. كان يرى عادة المسار العكسي؛ يرى المستقبل في الحاضر، الجمجمة التي تقبع تحت بشرة الشباب النقية.

يا لتألق وجهها! وهذا الصفاء المدهش! من بين جميع تلك النساء،

مئات النساء اللاتي ولج أجسادهن واللاتي بهتت وجوهن منذ زمن بعيد، يمتزجن في قسمات نمطية، كيف من الممكن أن يحافظ وجه بام على هذه التفاصيل الرائعة؟

ثمّ، لدهشته، انسلّت شذرات من الذاكرة بوضوح أشدّ عن بام الشابة ومثلت أمام عينيه: جمالها، اهتياجها المذهل عندما قيّد رسغيها بحزامه، وسيل الرعشات الذي غمرها. ظلت إثارته الجنسية بمثابة ذاكرة جسدية غامضة، أحاسيسها التي كانت تمور في جسدها وهي تدفع ردفيها إلى الأعلى بنشوة كبيرة من دون أن تنبعث من فمها كلمة واحدة. وتذكّر أيضاً كيف أنه تمرّغ لفترة طويلة بين ذراعيها. ولهذا السبب بالتحديد رأى أنها فتاة خطيرة وقرر على الفور أن يتوقف عن رؤيتها. كانت تشكّل تهديداً لحريته. كان كلّ هدفه أن يفرغ شهوته الجنسية بسرعة، كان هذا عهده للسلام والوحدة المباركة. لم يكن يسعى إلى الشهوة الجسدية قط. كان يريد أن يكون حراً. كان يريد أن يتخلص من ربقة عبودية الشهوة الجنسية ليدخل، ولو لفترة قصيرة، إلى منطقة الإرادة الحرة التي يوفرها الفلاسفة الحقيقيون. فلم تكن تراوده الأفكار السامية ويستطيع الانضمام إلى أصدقائه ـ المفكّرين العظماء الذين تشكل كتبهم رسائل شخصية له ـ إلّا بعد أن يشبع شهوته الجنسية.

راوده المزيد من التخيلات والتهويمات؛ غلّفته عاطفته، وبصيحة عظيمة، امتصته من مدرّج الفلاسفة البعيد. كان يشتهي، يرغب، يريد. وأكثر من أيّ شيء آخر، كان يريد أن يأخذ وجه بام بين راحتيه. لقد تفككت الروابط المحكمة المنظّمة بين الأفكار. تخيّل أسد بحر يحيط به حريم من الأبقار، ثمّ هجين يعوي يلقي بنفسه مرات ومرات على سياج فولاذي يفصله عن كلبة تنزو. اعتراه شعور بأنه رجل كهف متوحش يحمل عصى، ينخر محذراً منافسيه. كان يريد أن يمتلكها، أن يلعقها، أن يتشممها. خطر له ساعدا توني المكسوين بالعضلات. تذكّر باباي يبتلع السبانخ ويرمي بالعلبة الفارغة وراءه. تخيّل توني يعتليها؛ ساقاها

متباعدتان، ذراعاها تطوّقانه. ذلك الفرج يجب أن يكون له، له وحده. لا يحقّ لها أن تدنسه بمنحه لتوني. إن ما فعلته مع توني لوّث ذاكرته عنها، أفقر تجربته. أحسّ بالغثيان. إنه كائن يسير على قدمين.

انعطف فيليب وسار على امتداد المارينا، ثمّ اجتاز كريسي فيلد حتى الخليج وعلى طول حافة المحيط الهادئ، حيث هدّأت الأمواج الساكنة والرائحة الخالدة لملح المحيط من حدّة توتره. ارتعش وزرّر سترته. في ضوء النهار الباهت، هبّت ريح المحيط الهادئ الباردة عبر البوابة الذهبية واندفعت من جانبه، مثل ما ستندفع ساعات حياته إلى الأبد بدون دفء أو بهجة. الريح تنذر بحدوث صقيع لأيام قادمة لانهائية، أيام قطبية ينهض فيها في الصباح من دون أمل لأن يكون هناك بيت، حبّ، لمسة، بهجة. لم يكن قصره المشيّد من الفكر الصافي مدفأً. الغريب أنه لم يلاحظ ذلك قط من قبل. ظل يمشي لكن ببريق معرفته بأن بيته، حياته كلّها، قد شيّدت على أسس واهية وزائفة.

يجب أن نتساهل مع كلّ حماقة وإخفاق وزلة يرتكبها البشر
ويجب أن نضع في اعتبارنا أن ما نراه أمامنا
ما هو إلّا حماقاتنا وإخفاقاتنا وزلاتنا.

٣٨

في الجلسة التالية، لم يتحدّث فيليب عن تجاربه المخيفة ولا عن الأسباب التي جعلته يغادر فجأة الجلسة السابقة. وبالرغم من أنه بدأ يشارك الآن بفعالية أكثر في مناقشات المجموعة، فقد كان يفعل ذلك دائماً باختياره هو وعرف أعضاء المجموعة بأنّ الطاقة التي تبذل لدفع فيليب لكي يتكلّم ما هي إلّا طاقة مهدورة. فحوّلوا انتباههم إلى جوليوس وسألوه هل يشعر بأن فيليب انتزع منه سلطته عندما أنهى الجلسة الأسبوع الماضي.

فأجاب، «حلو ومرّ. الجزء المرّ هو أن أحداً قد أخذ مكاني. أن أفقد تأثيري ودوري شيء رمزي لكلّ النهايات والتخلي عن الأشياء الوشيكة. لقد أمضيتُ ليلة مزعجة بعد الجلسة الأخيرة. أصبح كلّ شيء سيئاً عند الثالثة صباحاً. فقد بدأت تعتريني دفقات من الحزن لكلّ النهايات التي تنتظرني؛ انتهاء جلسات المجموعة، وانتهاء علاجي لجميع مرضاي الآخرين، وانتهاء سنتي الجيدة الأخيرة. هذا هو الجانب المرّ. أما الجانب الحلو فهو افتخاري بكم، بمن فيهم أنتَ يا فيليب. افتخاري بأنكم أصبحتم مستقلين. إن المعالجين هم كالآباء، فالأب الجيد هو الذي يمكّن طفله من اكتساب قدر كافٍ من الاستقلال الذاتي حتى

يتمكن من الخروج من البيت ويتصرّف كشخص بالغ بنفس الطريقة التي يهدف إليها المعالج الجيد لتمكين مرضاه من الشفاء».

«لكي لا يكون هناك سوء فهم، أريد أن أوضح أمراً»، قال فيليب، «فلم تكن لديّ نيّة في أن أنتزع منك حق اختتام الجلسة الأسبوع الماضي. كان تصرفي بدافع الحماية الذاتية البحتة؛ لقد أثارت المناقشة أعصابي، وأرغمت نفسي لكي أمكث حتى انتهاء الجلسة، ثمّ كان عليّ أن أغادر».

«أتفهم ذلك يا فيليب، لكن انشغال تفكيري بالنهايات أصبح قوياً جداً الآن إلى حدّ أنني بدأت أرى نذر النهايات والحلول مكاني في حالات حميدة. وأدرك أيضاً أن جزءاً من اتفاقنا هو أن تقدّم لي شيئاً من الرعاية، لهذا السبب فأنا أشكرك».

أحنى فيليب رأسه قليلاً.

وتابع جوليوس قائلاً: «هذا الغضب الذي تصفه يبدو مهماً. هل علينا أن نسبر أغواره؟ لم يبق لدينا إلّا خمس جلسات، لذلك، فإني أحثّك على أن تستفيد من هذه المجموعة ما دام لدينا وقت».

ومع أن فيليب هزّ رأسه بصمت كما لو كان يشير إلى أن عملية الاستكشاف تلك غير ممكنة بعد بالنسبة له، فلم يكن مقدّراً له أن يبقى صامتاً دائماً. وفي الجلسات التالية دُفع فيليب دفعاً إلى تلك المناقشات.

افتتحت بام الجلسة التالية بمخاطبة جيل بصراحة: «حان وقت الاعتذار! فأنا أفكّر بك وأظن أنني مدينة لك باعتذار... لا، *أعرف* أنني مدينة لك باعتذار».

«أوضحي». كان جيل متحفزاً وفضولياً.

«منذ بضعة أشهر، هاجمتك بأنك غير موجود معنا، وأنك شارد وغير موضوعي وبأنني لا أحتمل أن أستمع إليك. ألا تذكر ذلك؟ كان ذلك قاسياً جداً».

«قاسياً، نعم»، قاطعها جيل، «لكنه ضروري. كان دواء ناجعاً. لقد جعلني أسير في طريقي الصحيح؛ هل تدركين أنني لم أشرب كأساً واحداً منذ ذلك اليوم؟».

«شكراً، لكني لا أعتذر الآن عن هذا الأمر، بل أعتذر عمّا حدث منذ ذلك الحين. لقد تغيّرت: أصبحت *حاضراً*؛ *صريحاً ومباشراً* معي أكثر من أي شخص آخر هنا، ومع ذلك فقد كنت منشغلة بذاتي كثيراً فلم ألتفت إليك. لهذا السبب فأنا آسفة».

قبل جيل اعتذارها، وقال: «وماذا عن التعليق الذي قلته لك؟ هل كان مساعداً؟».

«حسناً، لقد هزّني تعبيرك *قاضي القضاة* لأيام عدّة. لقد أصابني في الصميم. جعلني أفكّر. لكن الشيء الذي لم يبرح تفكيري هو عندما قلت إن جون رفض أن يترك زوجته لا لأنه جبان وإنما لأنه لم يشأ أن يواجه غضبي. لقد أثر ذلك فيّ كثيراً. جعلني أفكّر كثيراً. لم أستطع أن أبعد كلماتك من رأسي. وهل تعرف؟ قرّرت أنّك محقّ تماماً وجون محقّ لأنه ابتعد عنّي. لقد فقدته لا بسبب عيوبه إنما بسبب عيوبي أنا، لقد سئم مني ولم يعد يحتملني. منذ بضعة أيام رفعت سماعة الهاتف، واتصلت به، وقلت له ذلك».

«وماذا كان ردّه؟».

«جيد جداً، بعد أن استجمع نفسه، أصبح حديثنا ودياً لطيفاً: تحادثنا عن الأيام الماضية، عن الدروس التي نعطيها معاً، عن طلابنا المشتركين، تحدّثنا عن إمكانية الاشتراك في تدريس بعض الصفوف. كان ذلك شيئاً جيداً. قال لي إنني أبدو مختلفة».

«هذا خبر عظيم يا بام»، قال جوليوس، «إن التخلّي عن الغضب يشكل تقدّماً مهماً. أوافق على أنك ترتبطين بقوة بالأشياء التي تكرهينها. أرجو أن نتمكّن من إلقاء نظرة داخلية على عملية التخلّي عن الغضب هذا ونعود للتحدث عنها في المستقبل، لنر كيف فعلت ذلك».

«لم يكن الأمر كله مخططاً له. أظن أن لشعارك ـ *اضرب الحديد وهو بارد* ـ علاقة بذلك. لقد بردت مشاعري تجاه جون بما يكفي حتى أتراجع وتتاح الفرصة للتفكير العقلاني».

سألت ريبيكا «وماذا عن ارتباطك بكراهيتك لفيليب؟».

«أظن أنك لم تقدّري قط الطبيعة المتوحشة لتصرفاته معي».

«هذا غير صحيح. لقد تعاطفت معك.. لقد *تألمت* من أجلك عندما وصفتها أولاً بأنها ـ تجربة سيئة، بشعة. لكن خمس عشرة سنة؟ الأشياء تبرد عادة بعد خمس عشرة سنة. ما الذي يبقي هذا الحديد أحمر متقداً».

«الليلة الماضية ـ عندما أخذت غفوة خفيفة ـ رحت أفكّر بتاريخي مع فيليب ولاحت لي هذه الصورة بأن أُدخل يدي إلى رأسي وأُمسك بكل هذه المجموعة السيئة من الأفكار فيه وألقي على الأرض. ثمّ رأيت نفسي أنحني، وأتفحّص الأشتات المتناثرة. فرأيت وجهه، شقّته غير النظيفة، شبابي الذي لوّثه، خيبة أملي بالحياة الأكاديمية، ورأيت صديقتي التي فقدتها مولي، وعندما نظرت إلى هذا الركام من الحطام، عرفت أن ما حدث لي لا يمكن... لا يمكن أن يغتفر».

«أتذكّر قول فيليب بأن عدم الغفران والشيء الذي لا يغتفر شيئان مختلفان»، قال ستيوارت، «صحيح يا فيليب؟».

فهز فيليب رأسه.

«لست متأكّداً إن كنت قد فهمت ذلك»، قال توني.

فقال فيليب: «إن الشي الذي لا يغتفر يُبقي المسؤولية خارج المرء، أما عدم الغفران فهو يضع المسؤولية على رفض المرء نفسه أن يغفر».

هزّ توني رأسه وقال: «الفرق بين أن تتحمّل المسؤولية على ما تفعله أو أن تلوم شخصاً آخر بسببها؟».

فقال فيليب: «تماماً. وكما سمعت جوليوس يقول فإن العلاج يبدأ عندما يتوقف اللوم وتظهر المسؤولية».

«الاستشهاد بجوليوس مرة أخرى يا فيليب، يعجبني ذلك»، قال توني.

«إنك تجعل كلماتي تبدو أفضل مما أفعله أنا»، قال جوليوس، «ومرة أخرى أرى أنك تقترب أكثر. يعجبني ذلك».

ابتسم فيليب ابتسامة لا تكاد تكون ملحوظة. عندما اتضح أنه لن يقول المزيد، توجّه جوليوس إلى بام وقال لها: «بام، كيف تشعرين؟».

«صدقاً إن ما يزعجني هو رؤية كيف يسعى كل شخص هنا لرؤية أن تغييراً طرأ على فيليب. إنه يتعالى على الآخرين ويقول الجميع أووه و آه. من المضحك كيف أن ملاحظاته المتغطرسة والتافهة تجلب كلّ هذا الاحترام»، ومقلّدة فيليب، قالت بإيقاع أغنية، «*العلاج يبدأ عندما ينتهي اللوم وتظهر المسؤولية*»، ثمّ، بصوت أعلى أضافت، «وماذا عن مسؤوليتك يا فيليب؟ لم تقل كلمة ملعونة واحدة سوى الهذر الفارغ بأن خلايا دماغك تتغير، لذلك فليس أنت الذي فعل أيّ شيء. لا، *أنت لم تكن هناك*».

بعد صمت محرج، قالت ريبيكا بهدوء، «بام، أريد أن أشير إلى أنك تستطيعين أن تغفري. لقد غفرت أشياء كثيرة. قلتِ إنكِ غفرت لي لأنني مارست الدعارة ذات يوم».

فردّت بام بسرعة، «لا توجد ضحيّة هناك ـ إلّا أنت».

وواصلت ريبيكا وقالت: «ولاحظنا كلّنا كيف غفرتِ لجوليوس فوراً على أعماله الطائشة. لقد غفرت له من دون أن تعرفي أو تسألي إن كان قد لحق أي أذى ببعض أصدقائه من تصرفاته».

خفضت بام صوتها وقالت: «كانت زوجته قد توفيت آنذاك، وكان لا يزال يعيش في الصدمة. تخيّلي أنكِ فقدتِ شخصاً كنت تحبينه منذ المدرسة الثانوية. امنحيه فرصة».

فتدخّلت بوني بسرعة وقالت: «لقد غفرتِ لستيوارت مغامرته

الجنسية مع سيدة مضطربة بل وغفرتِ لجيل لأنه أخفى عنها أنه مدمن منذ فترة طويلة. لقد غفرت كثيراً. لماذا لا تغفرين لفيليب؟».

هزّت بام رأسها وقالت: «أن تغفري لأحد عن إساءة ارتكبها شخص آخر شيء، وعندما تكونين الضحيّة شيء آخر».

استمع الجميع بتعاطف. ثم قالت ريبيكا: «بام أغفر لك لأنك حاولت أن تجعلي جون يترك طفلتين صغيرتين».

وقال جيل: «وأنا أيضاً سأغفر لك لما فعلته لتوني هنا. وماذا عنك أنت؟ هل تغفرين لنفسك لأنك جئت يوم الاعتراف ذاك وشهّرت به أمام الجميع؟ كان ذلك شيئاً مهيناً».

«اعتذرت علناً لأنني لم أشاوره حول الاعتراف. كنت مذنبة آنذاك لأنني كنت عديمة الاكتراث إلى حدّ بعيد».

لكن جيل واصل بإلحاح، «وهناك شيء آخر، هل تغفرين لنفسك لأنك استخدمتِ توني؟».

«استخدمت توني؟»، قالت بام، «أنا استخدمت توني؟ عمَ تتحدّث؟».

«يبدو أن علاقتك كلها كانت شيئاً ـ شيئاً أهم بالنسبة له أكثر مما هو بالنسبة لك. أظن أنك لم تكوني توجهين كلّ ما كنت تقولينه إلى توني، وإنما إلى آخرين، ربما إلى فيليب من خلال توني».

«أوه، فكرة ستيوارت السخيفة ـ لم أفكر في ذلك قط»، قالت بام.

فتدّخل توني وقال: «استُخدمت؟ أتظن أنني استُخدمت؟ لا توجد لديّ شكوى من ذلك، أنا مستعد لأن أستخدم بهذه الطريقة في أي وقت».

«هيا يا توني»، قالت ريبيكا، «كفّ عن هذه الألعاب. كفّ عن التفكير برأسك الصغير».

«رأسي الصغير؟».

«أيرك».

عندما ابتسم توني ابتسامة خليعة واسعة، صرخت ريبيكا، «أيها الوغد، إنك تعرف ماذا أقصد! إنك تريد أن تسمعني أقول كلاماً بذيئاً. كن جدّياً يا توني، لم يبق لدينا وقت كثير هنا. لا يمكنك أن تقول إنك لم تتأثر بما حدث لبام».

توقف توني عن الابتسام، وقال: «حسناً، مع أنني أحسست بأنه أُلقي بي.... تعرفين، نُبذت، لكن لا يزال عندي أمل».

فقالت ريبيكا: «توني، لا يزال لديك أن تفعل الكثير لكي ترتبط بامرأة. توقف عن الاستجداء، إنه شيء مهين. أسمعك تقول إن بإمكانهن أن يستخدمنك بأيّ وسيلة ملعونة يريدونها لأن هناك شيئاً واحداً فقط تريده منهن، المضاجعة. إن هذا يقلّل من قدرك، ومن قدرهن أيضاً».

«لا أظن أنّني استخدمت توني»، قالت بام، «فقد بدا لي كلّ شيء ودياً ومتبادلاً. لكن، صدقاً، لم أفكّر في ذلك كثيراً آنذاك. كنت أتصرّف كما يتصرّف الطيار الآلي».

«كما فعلت أنا، منذ فترة طويلة. الطيار الآلي»، قال فيليب بصوت منخفض.

أجفلت بام. رمقت فيليب بضع لحظات، ثم أطرقت في الأرض.

«لديّ سؤال لك»، قال فيليب.

عندما لم ترفع بام عينيها، أضاف، «سؤال لك يا بام».

رفعت بام رأسها وواجهته. تبادل الآخرون النظرات.

«قلت منذ عشرين دقيقة إنك شعرت بخيبة أمل من الحياة الأكاديمية، ومنذ بضعة أسابيع قلتِ إنك عندما التحقت بالجامعة، فكّرت بجدية في دراسة الفلسفة، بل حتى بدراسة شوبنهاور بشكل خاص. إذا كان الأمر كذلك، فإني أوّد أن أسألك: *هل كان من الممكن أن أكون أنا ذلك الأستاذ الشنيع؟*».

فأجابت بام، «لم أقل إنّك كنت أستاذاً سيئاً، بل كنت واحداً من أفضل المدرسين الذين درّسوني».

مندهشاً، حدّق فيها فيليب بحدّة.

«تكلّم بما تشعر به يا فيليب»، حثّه جوليوس.

عندما رفض فيليب أن يجيب، أردف جوليوس: «إنك تتذكّر كلّ شيء، كلّ كلمة تقولها بام. أظن أنها تهمّك كثيراً».

ظل فيليب صامتاً.

التفت جوليوس نحو بام، وقال: «أفكّر بكلماتك، بأن فيليب كان واحداً من أفضل المدرسين الذين درّسوك. لا بدّ أن هذا فاقم من شعورك بالإحباط والخيانة».

«صحيح. شكراً يا جوليوس، إنك تهبّ لنجدتي دائماً».

كرّر ستيوارت كلماتها، «واحداً من أفضل الأساتذة الذين درّسوك! إني أشعر بالحيرة تماماً. إني مندهش لأنك تقولين شيئاً... سخياً جداً، لفيليب. إنها خطوة هائلة».

«لا تعط الأمر أكثر مما يستحق»، قالت بام، «لقد أصاب جوليوس كبد الحقيقة، لأنه أستاذ جيد وفعل ما فعله، يجعله شخصاً شنيعاً أكثر».

توني الذي أخذ تعليقات جيل عن علاقته ببام بجدّية، افتتح الجلسة التالية ووجّه كلامه مباشرة إلى بام. «إن هذا... يبدو محرجاً، لكن هناك شيئاً لم أفصح عنه. أريد أن أقول إنني شعرت بخيبة أمل بشأننا أكثر مما اعترفت به. فأنا لم أرتكب أي خطأ تجاهك، أنا وأنت... آه، كنا متفقين على ممارسة الجنس، ومع ذلك، أصبحت الآن الشخص غير المقبول».

«الشخص غير المرغوب فيه»، همس فيليب بلطف.

«الشخص غير المرغوب فيه»، واصل توني، «وأشعر بأنني أُعاقب. لم نعد قريبين كثيراً بعضنا من بعض، وأظن أنّني أفتقد ذلك. يبدو أننا كنّا صديقين ذات يوم، ثمّ حبيبين، والآن ... في حالة تجاهل... لا شيء

... إنك تتحاشينني. وكان جيل محقاً عندما قال إن التشهير علناً مهين كالجحيم. والآن لم أعد أحصل على شيء منك ـ لا مضاجعة، ولم نعد صديقين».

«أوه، توني. أنا آسفة جداً جداً. أعرف. لقد أخطأت ـ أنا ـ نحن ـ كان ينبغي ألّا نفعل ذلك. إنه أمر محرج بالنسبة لي أيضاً».

«إذاً ما رأيك لو عدنا كما كنّا من قبل؟».

«نعود إلى ماذا؟».

«أن نعود مجرد صديقين، هذا كلّ ما في الأمر. فقط نتقابل بعد انتهاء الجلسة، كما يفعل الآخرون جميعاً، ما عدا رفيقي، فيليب»، ومدّ توني يده وضغط على كتف فيليب برفق، وأضاف، «كما تعرفين، أن نتحدّث عن المجموعة، تحدّثيني عن الكتب، كلّ هذه الأشياء».

فأجابت بام، «هذا الكلام يشبه كلام أشخاص بالغين، و... ستكون هذه أول مرة بالنسبة لي، فبعد العلاقة تأتي عادة فرصة نظيفة».

تطوّعت بوني وقالت: «أتساءل يا بام إن كنت تحافظين على مسافة بينك وبين توني لأنك تخشين أن يفسّر ذلك بأنه تمهيد لدعوة جنسية أخرى».

«نعم، تماماً، هذا هو الأمر، إنه جزء مهم من ذلك. إن توني وحيد الأفق».

«حسناً»، قال جيل، «هناك علاج واضح، نقّي الأجواء فقط. كوني صريحة معه. الغموض يزيد الأمور سوءاً. منذ أسبوعين سمعتك تتحدثين عن إمكانية أن تلتقيا معاً بعد انتهاء الجلسة، هل هذا صحيح أم أنها وسيلة زائفة للتخفيف من خيبة الأمل؟ إن ذلك يعكّر صفو المياه. يبقي توني معلقاً».

«نعم، هذا صحيح»، قال توني، «إن هذا الكلام منذ أسبوعين عن

إمكانية استمرار علاقتنا في المستقبل كبيرة بالنسبة لي. أحاول أن أُبقي كلّ شيء كما كان لكي أبقى هذه الاحتمالية مفتوحة».

فقال جوليوس، «إذا فعلت ذلك فإنك تضيّع على نفسك فرصة أن تحرز تقدماً وأنت تعرف أنني ما أزال أنا والمجموعة تحت تصرفك».

فقالت ريبيكا: «أتعرف يا توني، إن المضاجعة ليست كلّ شيء، ليست الشيء الوحيد في العالم».

«أعرف، أعرف، لذلك أثرت هذا الموضوع لمناقشته اليوم. أعطني فرصة».

بعد فترة صمت قصيرة، قال جوليوس: «إذاً يا توني، استمرّ بالعمل على هذا».

ثم التفت توني إلى بام، وقال: «لنفعل ما قاله جيل ـ نقّي الأجواء ـ كأشخاص بالغين. ماذا تريدين؟».

«إن ما أريده هو أن نعود كما كنّا. أريدك أن تسامحني لأنني أحرجتك عندما اعترفت بذلك. أنت رجل عزيز عليّ يا توني، وأنا أهتمّ بك. منذ أيام سمعت طلابي في الجامعة يستخدمون هذا التعبير الجديد، *رفاق النيك*، ربما كنّا كذلك، وكان ذلك ممتعاً آنذاك، لكنّها فكرة سيئة الآن أو في المستقبل، الأسبقية للمجموعة. لنركّز على أمورنا».

«موافق. أنا مستعد لذلك».

«إذاً يا توني»، قال جوليوس، «لقد تحرّرت، أصبحت حرّاً الآن لنتحدّث عن جميع الأفكار التي لم تفصح عنها مؤخراً، عنك وعن بام أو عن أعضاء المجموعة».

في الجلسات المتبقية، عاد توني المحرّر إلى دوره الفعّال في المجموعة. وحثّ بام على معالجة مشاعرها المتعلقة بفيليب. وعندما لم يتحقق التقدم المحتمل الذي أعقب مديحها لفيليب كأستاذ ناجح، ضغط

عليها لكي تعمل بجدّية أكبر على السبب الذي جعلها تحافظ على توقّد كراهيتها لفيليب وأن تغفر له كما غفرت للآخرين في المجموعة.

فأجابت بام، «لقد قلت للتو من الأسهل بكثير أن تغفر للآخرين مثل ريبيكا، أو ستيوارت، أو جيل، لأنني لم أكن ضحيّة شخصية لإساءاتهم. فلم تتغير حياتي بسبب ما فعلوه لي. إلا أن هناك شيئاً أكثر من ذلك. يمكنني أن أغفر للآخرين هنا لأنهم أعربوا عن ندمهم، والأهم من كل ذلك، لأنهم تغيّروا».

«لقد تغيّرت. أعتقد الآن أنه يمكن أن تسامح الشخص لا العمل الذي قام به. يخيّل إليّ أنني قد أغفر لفيليب إذا تغيّر. لكنّه لم يتغيّر. تسألني لماذا يمكنني أن أغفر لجوليوس، حسناً، انظر إليه، فهو لا يتوقّف عن العطاء، وبما أنني على يقين بأنكم جميعاً رأيتم بأنّه يقدّم لنا هدية الحبّ الأخيرة، إنه يعلّمنا كيف نموت. أنا أعرف فيليب القديم، ويمكنني أن أشهد بأنه نفس الرجل الذي ترونه جالساً هنا. وإذا تغيّر فيه أيّ شيء، فهو أنه أصبح أكثر برودة وغطرسة».

بعد فترة صمت قصيرة، أضافت، «واعتذار منه لن يؤذي».

«ألم يتغير فيليب؟» قال توني، «أظن أنك ترين ما تريدين أن ترينه. جميع تلك النساء اللاتي كان يطاردهن، *لقد تغيّر*»، واستدار توني نحو فيليب، وقال: «لم تقل ذلك بوضوح، لكنك أصبحت مختلفاً الآن. صحيح؟».

أومأ فيليب، وقال: «لقد تغيّرت حياتي كثيراً، لم أصاحب امرأة منذ اثنتي عشرة سنة».

«ألا تدعين ذلك تغييراً؟» سأل توني بام.

«أو إصلاحاً؟» قال جيل.

قبل أن تتمكن بام من الردّ، قال فيليب مقاطعاً «إصلاح؟ لا، هذا غير دقيق. لم يكن لفكرة الإصلاح أي دور. دعوني أفسّر ذلك؛ أنا لم

أغيّر حياتي، أو كما ذكر هنا، إدماني الجنسي، بفضل قرار أخلاقي. لقد تغيّرت لأن حياتي كانت كلها معاناة، لم تعد محتملة».

«كيف اتخذتَ تلك الخطوة النهائية؟ هل كان ثمة شيء يشبه القشّة الأخيرة؟» سأل جوليوس.

تردّد فيليب عندما فكّر إن كان سيردّ على سؤال جوليوس أم لا. ثمّ أخذ نَفَساً عميقاً وبدأ، متكلّماً بطريقة آلية كما لو كان مربوطاً بمفتاح: «ذات ليلة كنت أقود سيارتي عائداً إلى البيت بعد حفلة ماجنة طويلة مع امرأة في غاية الجمال وقلت لنفسي لقد نلت كلّ ما أريده في حياتي. لقد وصلت إلى حد التخمة. وكانت رائحة العصائر الجنسية تعبق في السيارة بقوة. كان كلّ شيء يفوح برائحة لحم نتن، الهواء، يداي، شعري، ملابسي، وأنفاسي. كنت كما لو أنني تحممّت في حوض من المسك الأنثوي. ثم، كان بإمكاني أن أراها في أفق عقلي، الشهوة تستعر، تتهيأ لتطلّ برأسها ثانية. كانت تلك هي اللحظة. وفجأة جعلتني حياتي أشعر بالغثيان، وبدأت أتقيأ. وعندها»، التفت فيليب نحو جوليوس، «تذكّرت تعليقك حول مرثيتي على شاهدة القبر. عندها أدركت أن شوبنهاور على حقّ: الحياة عذاب أبدي، والشهوة لا يمكن إخمادها. إن عجلة العذاب ستدور إلى الأبد، ولا بد أن أجد وسيلة لمغادرة هذه العجلة، وعندها تعمدّت أن أزخرف حياتي لأجعلها تتوافق مع حياته».

«وهل نجحت في ذلك طوال تلك السنوات؟» سأل جوليوس.

«حتى الآن، إلى أن انضممت إلى المجموعة».

«لكنك أصبحت أفضل بكثير الآن يا فيليب»، قالت بوني، «أصبحت أكثر تواصلاً مع الآخرين بكثير، أكثر قبولاً بكثير. سأقول لك الحقيقة ـ بالطريقة التي كنت تسلك فيها في البداية... أقصد لم أكن أتصوّر أنني أو أي شخص آخر سيأتي لاستشارتك كمعالج».

فردّ فيليب: «لسوء الحظ، أن أكون 'على تواصل' هنا يعني أنني

يجب أن أشارك في حزن كلّ شخص. وهذا يفاقم من تعاستي. أخبرني، كيف يمكن 'أن تكون على تواصل' وأن تكون مفيداً؟ فعندما كنت 'في الحياة' كنت بائساً. في السنوات الاثنتي عشرة الماضية، كنت زائراً على الحياة، مراقباً للمشهد العابر، و»، فرد فيليب أصابعه ورفع يديه وخفضهما للتأكيد ـ «عشت في طمأنينة. والآن، فقد أرغمتني هذه المجموعة على أن أعود ثانية 'إلى الحياة.' أن أعود مرة أخرى إلى الألم. لقد حدّثتك عن الغضب الذي اعتراني بعد الجلسة منذ بضعة أسابيع. لم أستعد رصانتي السابقة بعد».

«أظن أنّ هناك خللاً في طريقة تفكيرك يا فيليب»، قال ستيوارت، «وهذا يتعلق بقولك إنك كنت «في الحياة»».

فقاطعته بوني: «كنت سأقول ذات الشيء. لا أظن أنك كنت في الحياة قط، ليس في الحياة حقاً. لم تتحدّث قط عن أنه كانت لديك علاقة حبّ حقيقية. لم أسمع شيئاً عن أصدقاء ذكور، وأما بالنسبة إلى النساء، فإنك تقول إنك كنت مفترساً».

«هل هذا صحيح يا فيليب؟» سأل جيل، «ألم تكن عندك أيّ علاقات حقيقية؟».

هزّ فيليب رأسه، وقال: «جميع من كانت لي علاقة بهم جعلوني أتألم».

«والداك؟» سأل ستيوارت.

«كان أبي بعيداً، وأظن أنه كان مصاباً باكتئاب مزمن. انتحر وأنا في الثالثة عشرة من عمري. وماتت أمّي منذ بضع سنوات، لكنّي كنت على جفاء معها منذ عشرين سنة، ولم أحضر جنازتها».

«إخوة؟ أخوات؟» سأل توني.

هزّ فيليب رأسه، وقال: «أنا الصبي الوحيد».

«أتعرف ماذا يخطر ببالي؟» تدّخل توني، «عندما كنتُ طفلاً، لم أكن

أتناول معظم الطعام الذي كانت تعدّه أمّي. وعندما كنت أقول لها لا أحبّه كانت تردّ دائماً «كيف تعرف أنّك لا تحبّه إن لم تذقه؟» إن موقفك من الحياة يذكّرني بذلك».

فأجاب فيليب، «يمكن معرفة أشياء كثيرة بفضل العقل والبحث. الهندسة الرياضية كلّها مثلاً، أو أن يتعرّض المرء إلى تجربة مؤلمة ويستنتج كلّ شيء. وقد ينظر المرء حوله، أو يقرأ، أو يراقب الآخرين».

فقال توني: «لكن رفيقك الرئيسي، شوبنهاور، ألم تقل إنّه استمع إلى جسدك كثيراً، بالاعتماد على، ماذا قلت؟ تجربتك الآنية».

«التجربة الفورية».

«حسناً، *التجربة الفورية*. إذاً ألا تقول إنك تتخذ قراراً مهماً من معلومات غير مباشرة، معلومات ثانوية، أقصد المعلومات التي ليست تجربتك الفورية الخاصة؟».

«نقطتك مهمة يا توني، لكن كانت لديّ معلومات من تجربتي المباشرة بعد جلسة «يوم الاعتراف» تلك».

«مرة أخرى تعود إلى تلك الجلسة يا فيليب. يبدو أنها نقطة تحوّل»، قال جوليوس، «ربما آن الأوان لتصف لنا ما حدث لك في ذلك اليوم».

كما في السابق، صمت فيليب، أخذ نفساً عميقاً، ثم مضى يتكلم، بطريقة منهجية، عن تجربته بعد انتهاء تلك الجلسة. وبينما أخذ يتكلّم عن غضبه وعدم قدرته على تنظيم تقنيات تهدئة عقله، بدا أنه ازداد انفعالاً. وعندما وصف كيف أن بقايا عقله الطافية لم تنجرف بعيداً، وإنما قبعت في عقله، التمعت قطرات العرق على جبينه. وعندما تحدّث فيليب عن عودة انبثاق نفسه المتوحشة، الشرسة، ظهرت بركة من البلل عند إبطي قميصه الأحمر الباهت وسالت أنهار من العرق وراحت تقطر من ذقنه وأنفه حتى أسفل رقبته. خيّم هدوء على الغرفة. كان الجميع مدهوشين من تسرب الكلمات والماء من فيليب.

توقّف، أخذ نفساً عميقاً آخر، ثم تابع: «لقد فقدت أفكاري ترابطها. وتدفقت الصور بفوضى شديدة إلى عقلي: ذكريات كنت قد نسيتها منذ أمد بعيد. تذكّرت بعض الأشياء عن لقاءاتي الجنسية مع بام. ورأيت وجهها، لا وجهها الآن، وإنما وجهها قبل خمس عشرة سنة، بحيوية رائعة. كان متألقاً. أردت أن أمسكه و»، كان فيليب مستعداً لأن لا يخفي شيئاً، لا غيرته الفجة، ولا عقلية رجل الكهف لامتلاك بام، ولا حتى صورة توني بساعديه اللذين يشبهان ساعدي باباي، لكن عرقاً غزيراً بلله حتى الجلد. نهض واقفاً وسار وخرج من الغرفة وقال: «لقد غمرني العرق، يجب أن أغادر».

اندفع توني وراءه بسرعة. وعاد الاثنان إلى الغرفة بعد ثلاث أو أربع دقائق، وقد ارتدى فيليب كنزة توني التي كتب عليها «عمالقة سان فرانسيسكو»، وظل توني بقميصه الأسود الضيّق.

لم ينظر فيليب إلى أحد، بل تهاوى على كرسيه. كان من الواضح أنه كان منهكاً.

«أعدهم إلى الحياة»، قال توني.

«لو لم أكن متزوجة»، قالت ريبيكا، «لوقعت في حبّكما كلاكما على ما فعلتماه الآن».

«أنا متاح»، قال توني.

«لا تعليق»، قال فيليب، «هذا كلّ ما لديّ اليوم ـ لقد استُنزفت».

«استُنزفت؟ هذه أول نكتة تقولها هنا يا فيليب. أعجبتني»، قالت ريبيكا.

لا يستطيع البعض فكّ السلاسل التي تقيّدهم،
لكنهم يستطيعون تحرير أصدقائهم.

نيتشه

٣٩

الشهرة، أخيراً

كانت هناك أشياء قليلة ذمّها شوبنهاور أكثر من التوق إلى الشهرة، وبالرغم من ذلك فقد كان يتوق إليها.

تلعب الشهرة دوراً مهما في كتابه الأخير، *Parerga and Paralipomena* (الملاحق والمغفلات)، وهو مجموعة من الملاحظات والمشاهدات العرضية والمقالات والحكم في مجلدين أكملهما في عام ١٨٥١، قبل موته بتسع سنوات. وبإحساس عميق من الإنجاز والارتياح، أنهى الكتاب وقال: «سأجفف قلمي وأقول، «الراحة هي الصمت»».

لكن العثور على ناشر كان تحدياً حقيقياً، فلم يلمسه أي ناشر من ناشريه السابقين بعد أن خسروا مالاً كثيراً من طباعة أعماله الأخرى التي لم تحظ بالقراءة. وحتى أعظم أعماله، *العالم كإرادة وتصوّر*، لم يُبع منه سوى بضع نسخ، ولم ينل إلّا مراجعة واحدة باهتة. وأخيراً، تمكن من إقناع أحد «أنصاره» المخلصين من إقناع صاحب مكتبة في برلين بطباعة ٧٥٠ نسخة من الكتاب في عام ١٨٥٣. وتلقى شوبنهاور عشر نسخ مجانية من الكتاب لكن بدون أي حقوق للمؤلف.

يحتوي المجلد الأول من كتابه *الملاحق والمغفلات* على ثلاثة مقالات مميّزة حول طرق اكتساب الإنسان الإحساس بتقدير الذات. وتصف المقالة الأولى، «*ما هو الإنسان*»، كيف أن التفكير الإبداعي يمنح المرء ثروة داخلية، وأن سلوك درب كهذا يزوّد المرء بتقدير الذات ويمكّنه من التغلّب على الخواء الأساسي والملل من الحياة، الذي يؤدّي إلى السعي الدائم إلى إقامة علاقات جنسية، والسفر، وممارسة ألعاب الحظ.

وتشرح المقالة الثانية، «*ماذا يملك الإنسان*» أحد السبل الرئيسية المستخدمة للتعويض عن الفقر الداخلي؛ تكديس الممتلكات بشكل لا نهائي يؤدّي في نهاية الأمر إلى أن يصبح المرء مهووساً بما يملكه.

أما المقالة الثالثة، «*ماذا يمثل الإنسان*» فهي أكثر المقالات تعبيراً عن آرائه حول الشهرة. إن تقدير الشخص لذاته أو جدارته وإمكاناته الداخلية هي الشيء الجوهري، أما الشهرة فهي أمر ثانوي، مجرّد ظلّ للجدارة. «ليست الشهرة، وإنما الشيء الذي نكتسبه منها من جدارة هي القيمة الحقيقية... إن أعظم سعادة للإنسان لا تكمن في أن الأجيال القادمة ستعرف شيئاً عنه، بل سيطوّر هو نفسه الأفكار الجديرة بالاحترام والتقدير وتُحفظ على مدى قرون». إن تقدير الذات القائم على أساس الجدارة الداخلية يؤدّي إلى الاستقلال الشخصي الذاتي الذي لا يمكن أن يُنتزع منا ـ إنه يقبع في قوّتنا ـ أما الشهرة فلا تقبع في قوّتنا على الإطلاق.

كان يعرف أن التخلص من الرغبة في الشهرة ليس بالأمر السهل، وقد شبّهه «بانتزاع شوكة مؤلمة عنيدة من داخل لحمنا»، ويتفق مع تاسيتس الذي قال «إن التعطش إلى الشهرة هو آخر شيء يمكن أن يضعه الحكماء جانباً». ولم يتمكن هو نفسه قط من تنحية الشهرة جانباً. وتتخلل كتاباته المرارة لعدم تمكنه من تحقيق النجاح. وكان يبحث دائماً في الصحف والمجلات عن أي ذكر، أيّ ذكر عنه أو عن أعماله. وعندما كان يسافر في رحلة، كان يكلّف يوليوس فراوينستدت، أكثر تلاميذه

إخلاصاً، بهذه المهمة. ومع أنه لم يتمكن من كظم غضبه بسبب تجاهله، استسلم في نهاية الأمر إلى الواقع بأنه لن يرى الشهرة في حياته. وفي مقدمات كتبه الأخيرة، خاطب بجلاء الأجيال القادمة التي ستكتشفه.

ثمّ حدث المستحيل. فقد حقق له الشهرة كتاب «*الملاحق والمغفلات*»، الكتاب الذي وصف فيه حماقة السعي إلى الشهرة. ففي هذا العمل الأخير، خفّف من حدّة تشاؤمه، وقلّل من شكاواه، وقدّم تعليمات حكيمة حول سبل العيش. ومع أنه لم يتخل قط عن اعتقاده بأن الحياة ما هي إلّا «شريط متعفّن على سطح الأرض» و«فصل مقلق عديم الفائدة في الراحة الأبدية السعيدة للعدم»، سلك طريقاً واقعياً أكثر في كتاب «*الملاحق والمغفلات*». وقال لا يوجد أمامنا خيار إلّا أن نكون محكومين بالحياة، لذلك علينا أن نحاول أن نعيش بأقل قدر ممكن من الألم (كان شوبنهاور يرى دائماً أن السعادة حالة سلبية ـ غياب المعاناة ـ وكان يثمّن حكمة أرسطو «لا إلى البهجة وإنما إلى عدم الألم يصبو الإنسان العاقل».

وبناء على ذلك، يقدم كتاب *الملاحق والمغفلات* دروساً حول سبل التفكير باستقلالية، وسبل الإبقاء على الشك والعقلانية، وسبل تجنّب المليّنات المهدئة الغيبية، وكيف نحسن الظن بأنفسنا، ونبقي رهاناتنا منخفضة، وأن نتجنّب أن نربط أنفسنا بما يمكن خسارته. وبالرغم من أن «على كلّ شخص أن يمثّل في مسرحيّة عرائس الحياة العظيمة ويشعر بالخيط الذي يحركّنا»، «ثمة راحة في الاحتفاظ بنظرة الفلاسفة السامية التي تقول إن الخلود لا يهم حقاً، وإن كلّ شيء ينقضي».

ويقدّم كتاب *الملاحق والمغفلات* نبرة جديدة. فعلى الرغم من أنه يواصل تأكيد معاناة الوجود المأساوية والمحزنة، فإنه يضيف بُعد التواصل ـ أي، من خلال معاناتنا المشتركة، فإن أحدنا يرتبط بالآخر بقوة. وفي فقرة رائعة يبدي عدو الإنسان العظيم نظرة أكثر لطفاً، وأكثر تساهلاً من التي يبديها بني جلدته الذين يسيرون على قدمين.

إن التخاطب اللائق بين رجل وآخر ينبغي ألّا يكون، بعبارة سيد، أو سير، أو مسيو... وإنما بعبارة أخي المتألم. ومهما بدا ذلك غريباً، فإنه يتوافق مع الوقائع، ويضع الرجل الآخر في منظاره الصحيح، ويذكّرنا بذلك الشيء الضروري جداً، وهو التحمّل والصبر والتسامح، وحبّ الجار الذي يحتاج إليه كلّ شخص، وبذلك فإن أحدنا يدين للآخر.

وبعد بضع جمل يضيف فكرة تصلح لأن تكون فقرة افتتاحية في كتاب مدرسي معاصر للعلاج بالتحليل النفسي:

يجب أن نتعامل بتسامح إزاء كلّ حماقة أو ضعف، أو رذيلة إنسانية، وأن نضع نصب أعيننا أنّ ما يوجد أمامنا هي حماقاتنا وضعفنا ورذائلنا لأنها أوجه ضعف البشرية التي ننتمي إليها أيضاً وبذلك توجد لدينا نفس العيوب والنقائص الكامنة في داخلنا. ينبغي ألّا نكون ساخطين من الآخرين على هذه الرذائل والحماقات فقط لأنها لا تظهر فينا في هذه اللحظة بالذات.

كان كتاب *الملاحق والمغفلات* نجاحاً عظيماً، وقد ولدّ مجموعات مختارة عديدة نُشرت بشكل منفصل تحت عناوين أكثر شعبية (*أقوال مأثورة حول الحكمة العملية والنصائح والحكم*، و*حكمة الحياة*، و*أفكار شوبنهاور الحيّة*، و*فنّ الأدب والدين: حوار*). وسرعان ما أصبحت كلمات شوبنهاور تتردد على لسان جميع المثقفين الألمان. وحتى في الدنمارك المجاورة، كتب كيركيغارد في مذكراته في عام ١٨٥٤ «كلّ الثرثرة الأدبية التي بدأ الصحافيون والكتاب المغمورون يشغلون أنفسهم بها مع ش».

وفي النهاية ظهر المديح في الصحافة. وكانت بريطانيا العظمى التي تكاد تكون مسقط رأس آرثر هي أول من كرّمته بمراجعة رائعة لجميع أعماله (بعنوان «تحطيم الأيقونات في الفلسفة الألمانية») في مجلة ويستمنستر رفيو رفيعة المستوى. وبعد فترة قصيرة تُرجمت هذه المراجعة

وقُرئت على نطاق واسع في ألمانيا. وسرعان ما ظهرت مقالات مماثلة في فرنسا وإيطاليا، وطرأ تغيير كبير على حياة شوبنهاور.

وبدأ الزائرون الفضوليون يتدفقون إلى مطعم إنغليشير هوف لرؤية الفيلسوف وهو يتناول طعام الغداء. وأرسل له ريتشارد واغنر النص الأصلي لأوبرا *حلقة النيبلنغين* مع إهداء. وبدأت الجامعات تدّرس أعماله، وأصدرت جمعيات ثقافية دعوات للعضوية، ووصلت رسائل ثناء إلى البريد، وبدأت كتبه السابقة تظهر في المكتبات، وبدأ سكان المدينة يحيّونه في أثناء نزهاته، وبدأت محلات الحيوانات الأليفة تعرض كلاب البودل التي تشبه كلب شوبنهاور.

ارتسمت نشوة الطرب والبهجة بجلاء على وجه شوبنهاور. وكتب «إذا مُسّدت القطّة فإنها تموء، ومن المحتم أن تظهر نشوة الطرب والبهجة على وجه الإنسان إذا ما امتُدح»، وأعرب عن الأمل «بأن شمس صباح شهرتي ستزيّن بأول إشعاعاتها مساء حياتي وتبدّد ظلمته». وعندما زارت النحّاتة المعروفة إليزابيث ناي مدينة فرانكفورت وأمضت فيها أربعة أسابيع لتصنع له تمثالاً نصفياً، قال آرثر، «إنها تعمل طوال النهار في بيتي. عندما أعود إلى البيت نحتسي القهوة معاً، ونجلس معاً على الأريكة، وأشعر كما لو أنني متزوّج».

منذ أفضل سنوات حياته، السنتان اللتان أمضاهما في طفولته في لو هافر مع عائلة دي بليسمير، لم يتحدّث آرثر بهذه الرقة والرضا عن الحياة المنزلية.

في نهاية حياته، لا يوجد إنسان،
إن كان مخلصاً وبكامل قواه العقلية،
يتمنّى أبداً أن يعيشها مرة أخرى.
وإنما يفضّل أكثر بكثير أن يختار العدم المطلق.

٤٠

دخل الجميع إلى غرفة الاجتماع لحضور الجلسة قبل الأخيرة وقد اعترت كلّ واحد منهم مشاعر متناقضة؛ فقد شعر بعضهم بالحزن بسبب اقتراب انتهاء الجلسات، وفكّر بعضهم الآخر بالعمل الشخصي الذي لم ينجزوه بعد، وتأمل بعضهم الآخر وجه جوليوس كما لو أنهم يريدون أن يطبعوه في مخيلتهم، وكان الجميع في لهفة لمعرفة ردّ بام على ما أفصح عنه فيليب في الجلسة السابقة.

لكن بام لم تكن راضية، واستلّت ورقة من محفظتها، فتحتها ببطء، وقرأت منها بصوت عال:

لا يأتي نجار لعندي ويقول «أنصت إلى حديثي عن فنّ النجارة»، وإنما يبرم عقداً لبناء بيت ويبنيه... افعل الشيء ذاته بنفسك: فكل كرجل، واشرب كرجل... تزوّج، أنجب أطفالاً، شارك في الحياة المدنية، تعلّم كيف تتحمّل الإهانات، وتغفر للآخرين».

ثمّ التفتت إلى فيليب وقالت: «احزر من كتب هذا؟».

هزّ فيليب كتفيه بلا مبالاة.

«صديقك إبكتيتوس. لذلك أحضرتها معي. أعرف أنك تكنّ له

احتراماً كبيراً ـ لقد أحضرتَ لجوليوس إحدى قصصه. لماذا أستشهد به الآن؟ إني أشير إلى الفكرة التي أثارها توني وستيوارت والآخرون الأسبوع الماضي بأنك لم تعش *في الحياة* قط، أظن أنك تختار وتنتقي مقتطفات مختلفة من الفلاسفة لتدعم موقفك و...».

فقاطعها جيل وقال: «بام، هذه هي الجلسة قبل الأخيرة. إن كانت هذه واحدة من شتائمك الأخرى للنيل من فيليب، فأنا شخصياً، لا يوجد لديّ وقت لسماع ذلك. افعلي ما تطلبين أن أفعله. كوني حقيقية وعبّري عن مشاعرك. لا بدّ أن ردة فعلك قوية على ما قاله فيليب عنك في الجلسة الأخيرة».

«لا، لا، اسمعني حتى أنهي كلامي»، قالت بام بسرعة، «لا علاقة لهذا بالرد على فيليب. إن دوافعي مختلفة. بدأ الحديد يبرد. أحاول أن أقول شيئاً يساعد فيليب. أظن أنه أمضى حياته في جمع مقتطفات فلسفية بشكل انتقائي، فهو يأخذ من إبكتيتوس عندما يحتاج إلى ذلك، ويتجاهل إبكتيتوس نفسه عندما لا يروقه ذلك».

فقالت ريبيكا: «إنها نقطة رائعة يا بام. لقد وضعت إصبعك على شيء مهم. أتعرفين، لقد اشتريت نسخة صغيرة ذات غلاف ورقي عنوانها «*حكمة شوبنهاور*» من مكتبة تبيع الكتب المستعملة وتصفحتها في الليلتين الماضيتين. إنها تتحدّث عن كل شيء، بعضها رائع وبعضها الآخر شنيع. هناك فقرة قرأتها البارحة أذهلتني، يقول فيها إننا إذا ذهبنا إلى أي مقبرة، وقرعنا على شواهد القبور فيها، وسألنا الأرواح التي تسكن فيها هل تحبّ أن تعيش ثانية، فمن المؤكد أنها كلّها سترفض». ثم التفتت إلى فيليب وسألته، «هل تصدّق هذا؟» ومن دون أن تنتظر ردّه، تابعت ريبيكا، «حسناً، أنا لا أصدّق هذا الكلام. إنه لا يتحدّث عني. أريد أن أتأكّد من ذلك. هل يمكننا أن نجري تصويتاً هنا؟».

فقال توني: «أنا سأختار أن أعيش حياة ثانية. أعرف أن الحياة حقيرة، لكنّها لذيذة أيضاً». وسمعت عبارة «وأنا أيضاً» تتردد بين أعضاء

المجموعة. ثم قال جوليوس: «أنا أتردّد لسبب واحد وهو أن فكرة العيش ثانية تحمل ألم موت زوجتي؛ لكن بالرغم من ذلك، فأنا أقول نعم. أحبّ أن أعيش». فيليب وحده ظل صامتاً.

ثم قال: «آسف، لكني أتفق مع شوبنهاور. فالحياة معاناة منذ بدايتها حتى نهايتها. من الأفضل لو أن الحياة، الحياة كلها لم تكن موجودة».

«من الأفضل ألا تكون موجودة لمن؟» سألت بام، «أتقصد لشوبنهاور؟ من الواضح ليس للموجودين في هذه الغرفة».

«لا ينادي شوبنهاور وحده بهذا الرأي. انظري إلى ملايين البوذيين. تذكّري أنّ أولى حقائق بوذا النبيلة الأربع تقول إن الحياة معاناة».

«هل هذا ردّ جدّي يا فيليب؟ ماذا جرى لك؟ عندما كنتُ طالبة كنت تلقي محاضرات رائعة عن طرائق الحجّة الفلسفية. أيّ حجّة هذه؟ حقيقة بالتصريح؟ الحقيقة بالاستناد إلى حجة؟ هذا هو أسلوب الدين، لكن من المؤكد أنك تتبع شوبنهاور في إلحاده. وهل خطر لك أن شوبنهاور كان مصاباً باكتئاب مزمن وأن بوذا عاش في مكان وفي زمان كانت المعاناة الإنسانية ـ الأوبئة والمجاعات ـ منتشرة فيهما، وأن الحياة كانت، حقاً، في ذلك الزمان معاناة حقيقية بالنسبة لمعظم البشر؟ هل خطر...».

«أيّ حجّة فلسفية هذه؟» ردّ فيليب، «إن كلّ طالب مبتدئ نصف مثقّف يعرف الفرق بين النشوء والمصداقية».

هنا تدخّل جوليوس وقال: «انتظرا، انتظرا. لنتوقّف دقيقة ونستمع إلى آراء الآخرين». وجال بعينيه وجوه أعضاء المجموعة وقال: «ما هي مشاعركم إزاء ما دار في الدقائق القليلة الماضية؟».

«جيد»، قال توني، «إنهما يتصارعان حقاً لكن بقفازات مبطّنة».

وقال جيل: «صحيح، أفضل من النظرات المحدقة الصامتة والخناجر الخفيّة».

ثم قالت بوني: «نعم، إني أفضل هذا أكثر بكثير، فقد كانت الشرارات تتطاير بين بام وفيليب، لكنها شرارات أكثر برودة».

«وأنا أيضاً»، قال ستيوارت، «حتى الدقيقتين الأخيرتين».

«ستيوارت»، قال جوليوس، «في جلستك الأولى هنا قلت إن زوجتك تتهمك بأنك تتكلم كالبرقيات».

«نعم، أنت مقتصد كثيراً اليوم. بضع كلمات أخرى لن تكلّفك كثيراً»، قالت بوني.

«صحيح. ربما انكفأت على نفسي الآن لأن... كما تعرفون، بما أنها الجلسة قبل الأخيرة. لا يمكنني أن أكون متأكّداً، أشعر بالحزن. كالعادة يجب أن أعبّر عن مشاعري. ها هنا شيء أعرفه يا جوليوس. أحبّ رعايتك لي، أن تطلب مني المشاركة، أن أظل ملتزماً بقضيتي. كيف هذا؟».

«عظيم. وسأظل أفعل ذلك. قلت إنك أحببت أن بام وفيليب يتكلّمان حتى الدقيقتين الأخيرتين، لذلك، ماذا عن تلك الدقائق الأخيرة؟».

«في البداية بدا أن كلامها ينطوي على طبيعة جيدة، أشبه بشجار عائلي، لكن ذلك التعليق الأخير من فيليب، ينطوي على شيء غير جيد. أعني التعليق الذي بدأ بعبارة «كلّ طالب مبتدئ نصف مثقّف» لم أحبّ ذلك منك يا فيليب. إنها عبارة محبطة. لو قلت لي ذلك، لشعرت بالإهانة. وهي عبارة مهدّدة، حتى إنني لست متأكّداً ماذا تعني الحجّة الفلسفية».

وقالت ريبيكا، «إني أتّفق مع ستيوارت. قل لي يا فيليب، ما هو شعورك؟ هل تعمدّت إهانة بام؟».

فردّ فيليب، «أهينها؟ لا، لا أبداً. هذا آخر شيء أريد أن أفعله، أحسست... بالسعادة أو الارتياح ـ لست متأكّداً ما هي الكلمة المناسبة ـ بقولها إن الحديد لم يعد متقداً. دعونا نرى ماذا هناك؟ أعرف أن أحد

الدوافع الذي جعلها تحضر الاقتباس من إبكتيتوس هو لكي توقعني في الفخ وتجعلني أشعر بالإحراج. هذا واضح. لكنّي أتذكّر ما قاله لي جوليوس عندما أحضرت له تلك القصة، بأنّه كان سعيداً للجهد والاهتمام الذي يكمن وراءه».

فقال توني: «إذاً دعني أوجّه كلامي لجوليوس. هذا ما أسمعه. كنت تنوي شيئاً لكن كلماتك فُهمت بمعنى آخر». بدا فيليب متهكماً.

«أقصد»، قال توني، «قلتَ إن إهانة بام هي آخر شيء في العالم تريد أن تفعله. لكن هذا تماماً ما فعلته، أليس كذلك؟».

هزّ فيليب رأسه موافقاً، بتردّد.

«إذاً»، تابع توني، وقد بدا من نبرة صوته مثل محام حقق انتصاراً في عملية استجواب، «يجب أن تظل نواياك وسلوكك بالمستوى نفسه. يجب أن تكون متطابقة، هل ما قلته صحيح؟» نظر توني إلى جوليوس الذي أومأ برأسه، «لذلك أتيت للعلاج. العلاج كله يتركّز حول التوافق».

فقال فيليب: «نقاش جيد. لا أملك حجة معاكسة. أنت محقّ. لذلك فأنا بحاجة إلى علاج».

«ماذا؟» لم يستطع توني أن يصدّق أذنيه. نظر إلى جوليوس الذي أومأ له مشجعاً.

«أمسكني، سيُغمى عليّ»، قالت ريبيكا التي أسندت ظهرها إلى كرسيها.

«وأنا أيضاً»، ردّدت بوني وجيل، وأسندا ظهريهما إلى كرسيهما أيضاً.

نظر فيليب حوله عندما رأى أن نصف المجموعة تتظاهر بالإغماء، وللمرة الأولى منذ انضمامه إلى المجموعة، ابتسم ابتسامة عريضة.

أنهى فيليب عبث المجموعة بالعودة إلى موضوع منهجه الشخصي في العلاج، وقال: «إن مناقشة ريبيكا حول تعليق شاهدة قبر شوبنهاور

تشير ضمناً إلى أنّ منهجي أو أيّ منهج يستند إلى وجهة نظره غير صحيحة. ولكي لا تنسى، فقد عانيت لسنوات طويلة من مأساة حقيقية لم يفلح جوليوس في معالجتها، ولم أشف إلّا بعد أن مشيت على خطى شوبنهاور».

أيّد جوليوس فيليب على الفور، وقال: «لا أنكر أنّك قمت بعمل جيد. فمعظم المعالجين اليوم يقولون إنّه لا يمكنك أن تتخلص من الإدمان على الجنس المزمن وحدك. وتشمل المعالجة المعاصرة جهداً طويل الأجل - أقصد سنوات عدّة - في برنامج إنعاش منظّم يتألف من علاج فردي وجلسات جماعية مرات عدّة في الأسبوع، غالباً باتباع مبادئ الاثنتي عشرة خطوة. لكن لم يكن هناك برنامج إنعاش كهذا في ذلك الحين، وبصراحة، أشكّ إن كنت ستجده مناسباً».

«لذلك»، تابع جوليوس، «أريد أن أقول إن ما حققته حتى الآن إنجاز رائع؛ لقد نجحت الأساليب التي تمكنت فيها من السيطرة على دوافعك المنفلتة، أفضل من أيّ شيء قدمته لك، مع أنني بذلت قصارى جهدي».

فقال فيليب: «لم أفكّر قط في غير ذلك».

«لكن هناك سؤالاً يا فيليب: هل يمكن أن تكون أساليبك قد أصبحت superannuated الآن؟».

فسأل توني على الفور، «رائع... ماذا؟».

«superannuated»، همس فيليب الجالس إلى جانب توني - super (تعني باللغة اللاتينية بعد) وannus (وتعني سنوات) بمعنى، قديمة العهد، عفى عليها الزمن».

أومأ إليه توني شاكراً.

ثم تابع جوليوس وقال: «منذ بضعة أيام، كنت أتساءل كيف يمكنني أن أثير هذا الأمر لك، فخطرت ببالي صورة. تخيّل أن مدينة قديمة

أقامت سوراً عالياً لحمايتها من السيول الجارفة من النهر المجاور. وبعد مضي قرون، وبالرغم من أن النهر قد جفّ منذ أمد بعيد، فلا تزال المدينة تنفق موارد كبيرة للحفاظ على هذا السور».

فقال توني: «أتقصد مواصلة استخدام حلّ حتى بعد اختفاء المشكلة، مثل الاستمرار في وضع ضمادة بعد أن يكون الجرح في الرأس قد شفي منذ فترة طويلة».

فقال جوليوس: «تماماً. قد يكون الضماد استعارة أفضل، للوصول إلى النقطة مباشرة».

فقال فيليب مخاطباً جوليوس وتوني معاً: «لا أوافق على أن جرحي شفي أو أنه لم تعد هناك ضرورة لاحتوائه. والدليل على ذلك، ملاحظة مدى انفعالي هنا».

فقال جوليوس: «هذا ليس أمراً جيداً. كانت لديك تجربة قصيرة في الشعور بالحميمية، بقدرتك على التعبير عن مشاعرك مباشرة، وتلقي التعليقات والإفصاح عن نفسك. هذا شيء جديد بالنسبة لك. فقد كنت منكفئاً تعيش في عزلة لسنوات طويلة، ثم وجدت نفسك في هذه المجموعة المليئة بالطاقة والحيوية. بالطبع، لم يبد ذلك مريحاً لك. لكن ما أشير إليه حقاً هو المشكلة الصارخة، القهر الجنسي، وقد يكون قد تلاشى. فقد تقدّمت في العمر، ومررت بتجارب كثيرة، وربما تكون قد دخلت في مرحلة خمود الغدة التناسلية. مكان جيد، مناخ مشمس جيد. لقد مكثت هناك بارتياح لسنوات عديدة».

«أريد أن أقول»، أضاف توني، «إنّ شوبنهاور قد عالجك، لكن عليك الآن أن تشفى من علاج شوبنهاور».

فتح فيليب فمه ليردّ، لكنه سرعان ما أغلقه وأخذ يفكّر في كلمات توني.

وأضاف جوليوس، «وهناك شيء آخر. فعندما تشعر بالتوتر في

المجموعة، لا تنس الألم الشديد والشعور بالذنب الذي اعتراك هنا بسبب لقاء عابر مع شخص من ماضيك».

فقالت بام: «لم أسمع شيئاً عن الشعور بالذنب من فيليب».

فردّ فيليب على الفور، مخاطباً بام، «لو كنت أعرف في ذلك الوقت ما أعرفه الآن عن سنوات الألم التي عانيتها، لما فعلتُ ما فعلته. وكما قلت من قبل، كان منِ سوء حظك أنك عبرتِ طريقي. فالشخص الذي كنته آنذاك لم يكن يفكّر بالعواقب. طيار آلي ـ كان ذلك الشخص يعمل على جهاز الطيار الآلي».

هزت بام رأسها ورأت نظرته إليها. أبقاها فيليب للحظة ثم أعاد انتباهه إلى جوليوس وقال: «أدرك نقطتك حول حجم التوتر بين أعضاء هذه المجموعة، لكني أصرّ على أن هذا لا يعدو كونه جزءاً من الصورة الكاملة، وهنا تختلف توجهاتنا الأساسية. إني أتفق على وجود توتر في العلاقات مع كائنات أخرى. وربما المكافأة أيضاً، سأمنحك تلك النقطة الأخيرة مع أنني لم أكن أعرفها أنا نفسي، لكني مقتنع بأنه في حال الوجود ذاته توجد المأساة والمعاناة. اسمح لي أن أقتبس من شوبنهاور لدقيقتين فقط».

من دون أن ينتظر ردّاً، بدأ فيليب يقرأ وهو ينظر إلى الأعلى:

في المقام الأول، لا يكون الإنسان سعيداً، لكنه يكافح طوال حياته ليحقق شيئاً يخيّل إليه أنه سيجعله سعيداً، لكنه نادراً ما يبلغ هدفه، وعندما يبلغه يصاب بخيبة الأمل، ففي غالب الأحيان تتحطم سفينته في النهاية، ويصل إلى الميناء بعد أن تكون صواري وحبال سفينته قد اهترأت وبليت. ثم، يصبح الأمر سيّان، سواء أكان سعيداً أم بائساً، لأن حياته لم تكن شيئاً أكثر من لحظة حاضرة، تتلاشى دائماً، وقد انتهت الآن.

بعد فترة صمت طويلة، قال ريبيكا: «هذا يجعل الرعشات تسري في ظهري».

«أعرف ماذا تقصدين»، قالت بوني.

«أعرف أنني أتكلم مثل مدرّسة لغة إنكليزية متشنّجة»، قالت بام موجهة كلامها لجميع أعضاء المجموعة، «لكني أريد أن أحثكم على أن لا يضلّلكم مثل هذا الكلام. فهذا الاقتباس لا يضيف شيئاً إلى ما دأب فيليب على قوله، أما الآن فإنه يقوله بأسلوب مقنع أكثر. فقد كان شوبنهاور يمتاز بأسلوب جميل وكان يكتب بلغة نثرية أفضل مما كتبه أيّ فيلسوف، ما عدا نيتشه بالطبع، فلم يكتب أحد أفضل من نيتشه على الإطلاق».

«فيليب. أريد أن تردّ على تعليقك حول توجهاتنا الأساسية»، قال جوليوس، «لا أعتقد أنّنا بعيدون جداً كما تظن. فأنا لا أختلف مع الكثير مما قلته أنت وشوبنهاور عن مأساة الوضع الإنساني. عندما تذهب شرقاً وأنا أذهب غرباً فذلك عندما نطرح السؤال *ماذا سنفعل حيال ذلك*. كيف سنعيش؟ كيف سنواجه فناءنا؟ كيف سنعيش مع المعرفة بأننا مجرد أشكال حياة، أُلقي بنا في كون غير مبالٍ، بلا هدف مرسوم؟».

وتابع جوليوس، «كما تعرف، بالرغم من اهتمامي بالفلسفة أكثر من اهتمام معظم المعالجين، فأنا لست خبيراً في هذا المجال. لكني أعرف مفكّرين جريئين آخرين لم يجفلوا من هذه الحقائق الأولية عن الحياة وتوصلوا إلى حلول مختلفة اختلافاً تاماً عما توصل إليه شوبنهاور. ويحضرني بشكل خاص كامو وسارتر ونيتشه، الذين يؤيدون جميعاً الارتباط بالحياة بدلاً من استسلام شوبنهاور المتشائم. أكثر فيلسوف أعرفه هو نيتشه، كما تعرف، عندما سمعتُ تشخيصي أول مرة وكنت مضطرباً جداً، فتحت كتاب *هكذا تكلّم زارادشت* فهدأت نفسي وشعرت بالإلهام، خاصة من تعليقه الذي يحتفي بالحياة ويقول إننا يجب أن نعيش الحياة إلى حدّ أننا يجب أن نقول نعم إذا سنحت لنا الفرصة لأن نعيش حياتنا مرات ومرات كما عشناها من قبل».

«كيف خففّ عنك ذلك؟» سأله فيليب.

«نظرتُ إلى حياتي وأحسست بأنّني عشتها بشكل جيد، من دون أسف من الداخل، مع أنني، بالطبع، كنت أكره الأحداث الخارجية التي سلبت زوجتي مني. لقد ساعدني على أن أقرّر كيف ينبغي لي أن أعيش ما تبقى لي من أيام، يجب أن أواصل عمل كلّ ما يمنحني الشعور بالرضى والمعنى».

فقالت بام: «لم أكن أعرف ذلك عنك وعن نيتشه يا جوليوس. إن هذا يجعلني أشعر بأنني أكثر قرباً منك لأن *زارادشت*، مع أنه ميلودرامي، فإنه يظل أحد الكتب الأثيرة لديّ. وسأذكر لك العبارة الأثيرة لديّ فيه، وهي عندما يقول زارادشت، *«هل كانت تلك هي الحياة؟ حسناً، مرة أخرى!»* فأنا أحبّ الأشخاص الذين يحبّون الحياة وأنفر من الذين ينكفئون عنها - أتذكّر فيجاي في الهند. في الإعلان الذي سأنشره في عمودي الشخصي سأضع اقتباس نيتشه واقتباس شاهدة قبر شوبنهاور جنباً إلى جنب وسأطلب من المجيبين الاختيار بينهما. إن هذا سيغربل من يقولون لا.

«وعندي فكرة أخرى أريد أن أشاطرك إياها»، التفتت بام لمواجهة فيليب، «أظن أنني بعد الجلسة الأخيرة تذكّرتك كثيراً. وبما أني أدرّس السيرة الذاتية، فقد صادفتني أثناء قراءتي في الأسبوع الماضي فقرة مدهشة في سيرة مارتن لوثر الذاتية التي كتبها إريك إريكسون تقول شيئاً من هذا القبيل: *«لقد رفع لوثر درجة اضطرابه العصبي إلى مستوى مريض عالمي ثم حاول أن يحلّ مشكلة العالم التي لم يستطع هو أن يحلّها لنفسه»*، أعتقد أن شوبنهاور، مثل لوثر، وقع بقوة في هذا الخطأ وسرت أنت على دربه».

فأجاب فيليب بنبرة تصالحية، «قد يكون الأمر كذلك. إن الاضطراب العصبي تركيب اجتماعي، وقد نكون بحاجة إلى نوع مختلف من العلاج وإلى نوع مختلف من الفلسفة لمختلف الأمزجة، منهج للذين يحبّون أن يكونوا قريبين من الآخرين ومنهج آخر للذين يختارون سلوك حياة العقل.

خذي على سبيل المثال الأعداد الهائلة التي تنجذب إلى معتكفات التأمل البوذية».

فقالت بوني: «هذا يذكّرني بشيء كنت أنوي أن أقوله لك يا فيليب. أظن أن رأيك بالبوذية يفتقر إلى شيء ما. فقد حضرت بنفسي معتكفات بوذية يتوجّه التركيز فيها على الأمور الخارجية ـ على حبّ الرحمة والرفق والتواصل، لا على العزلة. قد يكون البوذي الصالح نشيطاً وفعالاً في العالم، بل يمكن أن يكون نشيطاً سياسياً، ـ وهو يفعل كلّ ذلك في خدمة محبّة الآخرين».

فقال جوليوس: «إذاً بدأ الأمر يزداد وضوحاً، وهو أن خطأ انتقائيتك يشمل العلاقات الإنسانية، ومثال آخر على ذلك هو أنك استشهدت بآراء عن الموت أو العزلة من فلاسفة عدّة، لكنك لم تقل أبداً ماذا قال هؤلاء الفلاسفة أنفسهم ـ وأنا أعني هنا الفلاسفة اليونانيين ـ عن *الألفة*، وعن الصداقة. أذكر أحد المشرفين عليّ كان يستشهد بمقتطف من إبيقور يقول إنّ الصداقة أهم مكوّن في الحياة السعيدة وأن تناول المرء الطعام بدون صديق حميم كأنه يعيش حياة أسد أو ذئب. وتعريف أرسطو عن الصديق؛ شخص يجعل الآخر أفضل وأكثر حكمة، وهذه تقترب كثيراً من فكرتي عن المعالج المثالي».

«فيليب»، سأل جوليوس، «كيف تشعر من كلّ هذا اليوم؟ هل أثقلنا عليك اليوم كثيراً؟».

«أودّ أن أدافع عن نفسي بالإشارة إلى أنه لم يتزوج أيّ من الفلاسفة العظماء، باستثناء مونتين الذي ظلّ غير مهتم بأسرته إلى درجة أنه لم يكن يعرف عدد أطفاله. لكن، وبما أنه لم يبق لدينا سوى جلسة واحدة، فما الجدوى من ذلك؟ فمن الصعب الاستماع بشكل بنّاء عندما يكون منهجي كله، كلّ ما أخطّط للقيام بي كمعالج، يتعرض للهجوم».

«متحدثاً عن نفسي، فإني أقول إن هذا غير صحيح. هناك أشياء كثيرة

يمكنك أن تساهم فيها، وقد ساهمت بأشياء كثيرة للأعضاء هنا. صحيح؟» أجال جوليوس نظره حول المجموعة.

بعد إيماءات كثيرة تشي بالتأكيد لفيليب، واصل جوليوس: «لكن إذا أردت أن تصبح معالجاً، عليك أن تدخل إلى العالم الاجتماعي. أريد أن أذكّرك بأن الكثيرين، وأراهن أن معظم الذين سيأتون لاستشارتك في عيادتك سيكونون بحاجة إلى مساعدة لحلّ مشاكل في علاقاتهم الشخصية، وإذا أردت أن تدعم نفسك كمعالج، فيجب أن تصبح خبيراً في هذه المسائل، لا توجد طريقة أخرى. ألق نظرة حولك هنا فقط، فقد جاء الجميع لأنهم يعانون من علاقات متضاربة. فقد جاءت بام لأنها تعاني من مشاكل مع الرجال في حياتها، وريبيكا لأن شكلها يؤثر على علاقاتها مع الآخرين، وتوني بسبب علاقة مدمّرة مع ليزي وشجاره المتكرّر مع رجال آخرين، وهكذا بالنسبة للجميع».

تردّد جوليوس، ثمّ قرّر أن يُشغل الجميع في الحديث، «وجاء جيل بسبب نزاع مع زوجته. وستيوارت لأن زوجته تهدّده بأن تهجره، وبوني بسبب الوحدة التي تعيشها ومشاكلها مع ابنتها وزوجها السابق. أظن أنك ترى ماذا أقصد، لا يمكن تجاهل العلاقات، ولا تنس أن هذا السبب بالتحديد هو الذي جعلني أصرّ على أن تشارك في المجموعة قبل أن أشرف عليك».

«قد لا يكون هناك أمل بالنسبة لي. فسجل علاقاتي، السابقة والحالية، فارغ. لا مع العائلة، لا مع الأصدقاء، لا مع الأحبّة. فأنا أقدّر عزلتي، لكن مداها، كما أظن، سيصدمك».

فقال توني: «لقد سألتك مرات عدّة بعد انتهاء الجلسات عمّا إذا كنت تريد أن نتناول الطعام معاً، لكنك كنت ترفض دائماً. وكنت أظنّ سبب ذلك لأن لديك مشاغل أخرى».

«لم أشارك أحداً الطعام منذ اثنتي عشرة سنة. قد يقتصر الأمر على

تناول سندويشة بسرعة وبالمصادفة، لكن لا وجبة طعام حقيقية. أنت محقّ يا جوليوس، فقد خيّل إليّ أن إبيقور سيقول إنني أعيش حياة ذئب. منذ بضعة أسابيع، بعد الجلسة التي انزعجت فيها كثيراً، كانت إحدى الأفكار التي راودتني هي أن القصر الذي كنت أفكّر بتشييده لحياتي لم يكن دافئاً. المجموعة دافئة. هذه الغرفة دافئة لكن الأماكن التي أعيش فيها باردة برودة القطب. أما بالنسبة إلى الحبّ، فهو غريب عني تماماً».

«كلّ تلك النساء، المئات منهن، قلت لنا»، قال توني، «لا بدّ أنه كان هناك بعض الحبّ. لا بدّ أنك أحسست به. لا بدّ أن بعضهن أحببنك».

«كان ذلك منذ زمن بعيد. عندما كنت ألاحظ إن لدى إحداهن أيّ حبّ تجاهي، كنت أتفاداها. وحتى لو شعرت إحداهن بالحبّ تجاهي، فلم يكن ذلك حبّاً لي، أنا الحقيقي، وإنما كان حبّاً لما كنت أفعله، أسلوبي».

«وما هو أنت الحقيقي؟» سأل جوليوس.

أصبح صوت فيليب جدّياً إلى درجة كبيرة، «أتذكّر ماذا كنت أفعل عندما التقينا أول مرة؟ كنت أعمل في مكافحة الحشرات، كيميائي ذكي يستنبط سبلاً للقضاء على الحشرات، أو لجعلها عقيمة باستخدام هرموناتها. ألا يدعو هذا إلى السخرية؟ قاتل ببندقية الهرمونات».

«إذاً أنت الحقيقي؟» ألحّ جوليوس.

نظر فيليب إلى عيني جوليوس مباشرة وقال: «وحش. مفترس. وحيد. قاتل حشرات». اغرورقت عيناه بالدموع، «مليئاً بالغضب الأعمى. لا يمكن الاقتراب مني. لم يحبّني أحد ممن كانوا يعرفونني. أبداً. لا يمكن لأحد أن يحبّني».

بغتة، وقفت بام وسارت نحو فيليب. أشارت إلى توني بأن تجلس مكانه، وجلست إلى جانب فيليب. أخذت يده في يدها، وقالت بصوت

ناعم، «كان من الممكن أن أحبّك يا فيليب. كنت أجمل رجل، أروع رجل رأيته في حياتي. لقد اتصلت بك وكتبت لك طوال أسابيع بعد أن رفضت أن تراني مرة أخرى. كان من الممكن أن أحبّك، لكنّك لوّثت...».

«هس» تقدم جوليوس ولمس بام على كتفها لإسكاتها، وقال: «لا يا بام، لا تذهبي إلى هناك. ابق في الجزء الأول، قوليها مرة أخرى».

«كان من الممكن أن أحبّك».

«وكنتَ....» حثها جوليوس.

«وكنتَ أجمل رجل رأيته في حياتي».

«مرة أخرى»، همس جوليوس.

لا تزال تمسك بيد فيليب وترى دموعه تنهمر بغزارة على خديه، كرّرت بام، «كان من المكن أن أحبّك يا فيليب. كنت أجمل رجل...».

عند ذلك، نهض فيليب، ويداه على وجهه، واندفع خارج الغرفة.

اندفع توني فوراً نحو الباب وقال: «تلك هي إشارتي».

نهض جوليوس أيضاً، وأوقف توني، وقال له: «لا يا توني، اترك لي الأمر»، وخرج ورأى فيليب واقفاً في نهاية القاعة أمام الحائط، مسنداً رأسه إلى ساعده، ينشج. وضع ذراعه حول كتف فيليب وقال: «من الجيد أن تنفسّ عن كل ذلك، لكنّ يجب أن نعود».

هزّ فيليب، الذي راح ينشج بصوت أعلى ويلهث محاولاً أن يحبس أنفاسه، رأسه بقوة.

«يجب أن تعود، يا بني. لهذا السبب جئت إلى هنا، هذه اللحظة بالذات، ويجب ألّا تبددها. كان تصرفك جيداً اليوم، تماماً كما يجب أن تفعل عندما تصبح معالجاً. لم يبق سوى دقيقتين حتى انتهاء الجلسة. عد معي واجلس في الغرفة مع الآخرين. سأتدبر الأمر».

مدّ فيليب يده بسرعة، وللحظة وضع يده فوق يد جوليوس، ثمّ انتصب في وقفته وسار إلى جانب جوليوس وعادا إلى الغرفة. عندما جلس فيليب، لمست بام ذراعه لتشعره بالراحة، ووضع جيل، الجالس إلى الجانب الآخر، يده على كتفه.

سألته بوني «كيف حالك يا جوليوس؟ إنك تبدو مرهقاً».

«أشعر بشيء رائع في رأسي، لقد تأثرت كثيراً، لا تعرفون مدى إعجابي بما فعلته هذه المجموعة، إني في غاية السعادة لأن أكون جزءاً من هذا. جسدياً، نعم، يجب أن أعترف فأنا مريض، ومرهق. لكن لا يزال لدي عصير أكثر من كاف لجلستنا الأخيرة الأسبوع المقبل».

«جوليوس»، قالت بوني، «هل تمانع إذا أحضرنا قالب كاتو لنحتفل في جلستنا الأخيرة؟».

«بالتأكيد، أحضري أيّ نوع تشائين من كاتو الجزر».

لكن لم يكن هناك اجتماع رسمي للوداع. ففي اليوم التالي، أصيب جوليوس بنوبة صداع شديدة. وبعد بضع ساعات دخل في غيبوبة ومات بعد ثلاثة أيام. وفي الموعد المعتاد لانعقاد الجلسة بعد ظهر يوم الإثنين، اجتمع أعضاء المجموعة في المقهى وتناولوا قالب كاتو الجزر واحتفلوا بحزن صامت.

يمكنني أن أتحمّل الفكرة بأنه خلال فترة قصيرة
ستلتهم الديدان جسدي
لكن الفكرة بأن أساتذة الفلسفة سينهشون فلسفتي تجعلني أرتجف.

٤١

الموت يأتي إلى آرثر شوبنهاور

واجه شوبنهاور الموت كما واجه كلّ شيء طوال حياته ـ بصفاء شديد. فلم يرمش له جفن عندما كان يحدّق مباشرة في الموت، لم يستسلم قط إلى المسكنات التي يمنحها الإيمان الغيبي، وظل متمسكاً بالعقل حتى آخر لحظة في حياته. فقد كان يقول إننا من خلال العقل نكتشف أولاً موتنا، نلاحظ موت الآخرين، وبالتناظر، فإننا نعرف أن الموت لا بد أنه آتٍ إلينا، وأنه من خلال العقل نتوصل إلى الخاتمة الجلية بأن الموت هو توقف الوعي وفناء النفس بدون رجعة.

وقال هناك طريقان لمواجهة الموت؛ طريق العقل وطريق الوهم والدين الذي يمنح أمل استمرار الوعي والحياة المريحة بعد الموت. لذلك، فإن حقيقة الموت والخوف منه هما سلف الفكر العميق وأمّ كل من الفلسفة والدين.

وطوال حياته، تصارع شوبنهاور مع الموت الكلي الوجود. ففي كتابه الأول الذي كتبه وهو في العشرينات من عمره، يقول: «إن حياة أجسادنا ما هي إلّا لتمنع استمرار الموت، إنها موت مؤجل... فكلّ نَفَس نأخذه

يدرأ عنا الموت الذي يحيق بنا باستمرار، وبهذه الطريقة فإننا نتصارع معه في كل لحظة».

كيف صوّر الموت؟ إن استعارات مواجهة الموت تتخلل أعماله؛ فنحن خراف تسرح في المرعى، والموت جزّار يختار واحداً منّا اعتباطاً، ثمّ يختار آخر ليذبحه. أو أننا مثل أطفال صغار في مسرح متلهفين لبدء العرض، ولحسن الحظ، فإننا لا نعرف ماذا سيحدث لنا. أو أننا بحّارة، نوجّه سفننا بهمة وحذر لنتحاشى الصخور والدوامات، لكننا نتجّه طوال الوقت، ودون أن نكون مخطئين إلى حطام السفينة الهائل النهائي العظيم.

وتصوّر أوصافه لدورة الحياة دائماً رحلة بحرية يائسة بعناد:

ما الفرق بين بدايتنا ونهايتنا! الأولى في سعار رغبة ونشوة المتعة الحسّية؛ والثانية في دمار جميع أعضاء الجسد ورائحة الجثث المتعفّنة. إن الدرب من الولادة حتى الموت يسير دائماً بانحدار في ما يتعلق بسلامتنا وبهجة الحياة، والطفولة الحالمة السعيدة، والشباب الخالي من الهموم، والرجولة المرهقة، والشيخوخة الضعيفة التي غالباً ما تكون مثيرة للرثاء، وألم وعذاب المرض الأخير، وأخيراً ألم الموت. ألا يبدو لنا الوجود سوى زلة تزداد نتائجها وضوحاً شيئاً فشيئاً؟

هل كان يخاف من موته؟ في سنواته الأخيرة أبدى هدوءاً شديداً حول الموت. من أين أتت طمأنينته؟ إذا كان الخوف من الموت سائداً في كلّ مكان، إذا كان يطاردنا طوال حياتنا، وإذا كان الموت مخيفاً إلى حدّ أن الأديان العديدة ظهرت لاحتوائه، فكيف تمكّن شوبنهاور المنعزل والملحد من إطفاء جذوة خوفه منه؟

لقد استندت أساليبه في التحليل الفكري إلى مصادر القلق من الموت. هل نخاف الموت لأنه غريب وغير مألوف؟ إذا كان الأمر كذلك، فهو يصرّ على أننا مخطئون لأن الموت مألوف لدينا أكثر مما

نظن بكثير. أفلا نتذوق طعم الموت كل يوم في نومنا أو عندما نصاب بحالات إغماء ونغيب عن الوعي فحسب، وإنما كنا قد مررنا جميعاً عبر خلود اللا وجود قبل أن نأتي إلى الوجود.

هل نخشى الموت لأنه شرّ؟ (انظر إلى الرمزية المرعبة لتصوير الموت بصورة عامة) هنا أيضاً يصرّ على أننا مخطئون: «من العبث اعتبار عدم الوجود شرّاً، فكلّ شرّ، مثل أي شيء جيد، يقتضي ضمناً وجوداً ووعياً... ومن الواضح أن فقدان ما لا يمكن افتقاده ليس شرّاً». ويُطلب إلينا أن نضع في اعتبارنا أن الحياة معاناة، بأنّها شرّ في حد ذاتها. ولكونها كذلك، فكيف يمكن أن يكون فقدان الشرّ شرّاً؟ ويقول إنه ينبغي اعتبار الموت شيئاً مباركاً، خلاص من الألم المستمر لوجود الكائنات التي تسير على قدمين: «يجب أن نرحب به باعتباره حدثاً مرغوباً به وسعيداً بدلاً من، كما هو الحال، استقباله بالخوف والارتجاف». ينبغي احتقار الحياة لأنها تقطع عدم الوجود الهانئ، وفي هذا السياق، فإنه يقدّم ادعاءه المثير للجدل: «إذا قرعنا على القبور وسألنا الموتى هل يرغبون في القيام من موتهم مرة أخرى، فإنهم سيهزّون رؤوسهم بأن لا». ويستشهد بكلام مماثل لأفلاطون، وسقراط، وفولتير.

بالإضافة إلى حججه العقلانية. يقدم شوبنهاور حجة تقترب من حدود الصوفية. فهو يغازل (لكنه لا يتزوج) شكلاً من أشكال الخلود. إذ يرى أن طبيعتنا الداخلية راسخة لأننا لسنا سوى أحد تجليات قوة الحياة، الإرادة، الشيء في حد ذاته الذي يستمرّ إلى الأبد. لذلك، فإن الموت ليس فناء حقيقياً؛ وعندما تنتهي حياتنا التافهة، سنعود ثانية إلى قوة الحياة الأساسية القابعة خارج الزمن.

ويبدو أن فكرة العودة إلى قوة الحياة بعد الموت منحت شوبنهاور شعوراً بالراحة وللكثير من قرّائه (مثل توماس مان وبطل روايته توماس بدنبرووكس)، لكن بما أن النفس لا تشمل ذاتاً شخصية مستمرة، فهو

يفاجئ كثيرين بأنه يوفر راحة مرعبة فقط. (حتى الراحة التي عاشها توماس بدنبرووكس قصيرة الأجل وتتبخّر بعد بضع صفحات) ويثير حوار ألفه شوبنهاور بين فيلسوفين إغريقيين مسألة مقدار الراحة التي استمّدها شوبنهاور من هذه المعتقدات. في هذه المحادثة، يحاول فيلالثيس إقناع تراسى ماخوس (شكّاك حقيقي) بأنه لا يوجد في الموت أي رعب بسبب الجوهر الراسخ لدى الأفراد. ويجادل كلّ من الفيلسوفين بوضوح شديد وبقوة بأن القارئ لا يمكن أن يكون متأكّداً أين تقبع مشاعر المؤلف. وفي النهاية، لا يقتنع تراسى ماخوس الشكّاك، ويُعطى الكلمات النهائية:

فيلالثيس: «عندما تقول أنا، أنا، أريد أن أكون موجوداً، فلست أنت وحدك من يقول هذا. فكلّ شيء يقوله، من المؤكد أنه يوجد في كلّ شيء أدنى أثر للوعي. إنها ليست صيحة الفرد، وإنما صيحة الوجود نفسه... فقط يدرك تماماً من أنت وما حقيقة وجودك، وهي، الإرادة الشاملة للعيش، وسيبدو السؤال برمته طفولياً وأسخف شيء في الوجود».

تراسى ماخوس: أنت نفسك طفل وسخيف للغاية، مثل جميع الفلاسفة، وإذا سمح رجل في عمري لنفسه أن يدخل في حديث لمدّة ربع ساعة مع هؤلاء الأغبياء فقط لأنه يسلّيني ويزجي وقتي، فلديّ أعمال أهمّ عليّ أن أنفذها، فإلى اللقاء.

كانت لدى شوبنهاور طريقة أخرى لطرد قلق الموت، فالقلق من الموت يكون في أدنى حدوده عندما يبلغ الإدراك الذاتي في أقصى حدّ له. فإذا بدا موقفه القائم على الوحدانية الشاملة الهزيلة بالنسبة للبعض، فإن هناك القليل من الشكّ حول قوة هذا الدفاع الأخير. وقد أبدى الأطباء السريريون الذين يعملون مع مرضى يحتضرون الملاحظة بأن القلق من الموت يكون أعظم لدى الأشخاص الذين يشعرون بأنهم عاشوا حياة لم يحققوا فيها شيئاً. إن الشعور بالإنجاز، عند «إكمال حياة المرء»، كما قال نيتشه، يقلّل من قلق الموت.

وشوبنهاور؟ هل عاش حياة حقيقية وذات مغزى؟ هل أنجز مهمّته؟ لا يوجد لديه أدنى شكّ في ذلك. انظر إلى الفقرة الأخيرة من ملاحظاته حول سيرة الذاتية:

كنت آمل دائماً في أن أموت بسهولة، لأن اي شخص يعيش وحيداً طوال حياته سيكون قاضياً أفضل من الآخرين الذين يعيشون حياة منعزلة. وبدلاً من الخروج إلى وسط التصرفات الصبيانية والتهريج المحسوب للقدرات التافهة للكائنات التي تسير على قدمين، فإني سأنتهي بسعادة مدركاً أنني سأعود إلى المكان الذي انطلقت منه... وبعد أن أكون قد أنجزت مهمّتي.

ونفس الشعور ـ الفخر في المضي في طريقه الإبداعي ـ يظهر في قصيدة قصيرة، قصيدته الأخيرة، السطور الأخيرة في آخر كتاب له:

أقف الآن مرهقاً في نهاية الطريق،
لا يكاد الحاجب المتعب يحمل الغار،
ومع ذلك فإني أرى بسرور ما فعلت،
غير متهيّب لما يقوله الآخرون.

عندما نُشر كتابه الأخير، «*الملاحق والمغفلات*»، قال: «أنا سعيد جداً لأنني أرى ولادة طفلي الأخير. أشعر كأن حملاً ثقيلاً حملته منذ سنواتي الأربع والعشرين قد زال عن كتفي. لا يستطيع أحد أن يتخيّل ماذا يعني ذلك».

وفي صباح الحادي والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ ـ أعدّت مدبرة منزل شوبنهاور طعام إفطاره، ونظفت المطبخ، وفتحت النوافذ، وغادرت لأداء بعض المهام، وتركت شوبنهاور الذي أنهى حمامه بالماء البارد وجلس يقرأ على الأريكة في غرفة الجلوس، وهي

غرفة كبيرة جيدة التهوية بسيطة الأثاث، وعلى الأرض إلى جانب الأريكة مُدّ بساط من فرو دبّ أسود أقعى عليه أتمان، كلبه المحبوب. وعُلّقت لوحة زيتية كبيرة لغوته قبالة الأريكة مباشرة، وصور عدّة لكلاب، وصور لشكسبير وكلوديوس، وصور قديمة له معلّقة في مكان آخر من الغرفة. وعلى الطاولة التي يكتب عليها كان ينتصب تمثال نصفي، وفي إحدى زاويا الغرفة، على منضدة انتصب تمثال نصفي لكريستوف ويلاند، الفيلسوف الذي شجّع شوبنهاور الشاب على دراسة الفلسفة، وفي زاوية أخرى انتصب تمثال بوذا المطلي بالذهب الذي يبجّله كثيراً.

وبعد قليل، دخل إلى الغرفة طبيبه الذي يزوره بانتظام ووجده متكئاً إلى ظهره في زاوية الأريكة. «صِمّةٌ رِئَوِيَّة»، سكتة رئوية انتشلته بدون ألم من هذا العالم. ولم يشوّه وجهه، ولم يظهر عليه أي دليل يشير إلى آلام الاحتضار.

كانت جنازته في يوم ماطر شنيعة أكثر من أي شيء آخر بسبب رائحة اللحم المتعفّن المنبعثة من مستودع صغير مغلق تحفظ فيه جثث الموتى. فقد كان شوبنهاور قد ترك قبل عشر سنوات تعليمات واضحة بألّا يُدفن جثمانه على الفور، وإنما يُترك في مستودع لحفظ الجثث لمدة لا تقل عن خمسة أيام حتى يبدأ يتفسخ، قد تكون تلك بادرة نهائية لبغض البشرية أو بسبب الخوف من أن يكون فاقد الوعي أو من حياة مُعلّقة. وكان المستودع يقع في مكان قريب جداً وكان الهواء كريهاً جداً إلى حدّ أن عدداً من الأشخاص اضطروا لمغادرة الغرفة في أثناء إلقاء قصيدة تأبين منمقة طويلة كان يلقيها منفذّ الوصية، ويلهيلم غوينير الذي بدأ بالكلمات الآتية:

هذا الرجل الذي عاش بين ظهرانينا عمراً كاملاً، والذي بقي بالرغم من ذلك غريباً بيننا، يتمتع بمشاعر نادرة. لا أحد يقف هنا تربطه به رابطة دم. كما عاش منعزلاً، مات.

غُطّي قبر شوبنهاور بلوحة ثقيلة من الصوان البلجيكي. وطلب في وصيته بألّا يظهر على شاهدة قبره إلّا اسمه، آرثر شوبنهاور، «لا شيء آخر، لا تاريخ، لا سنة، لا أي كلمة».

لقد أراد الرجل الراقد تحت شاهدة القبر البسيطة هذه أن يتكلّم عمله عنه.

تعلّمت البشرية منّي
بضعة أشياء لن تنساها أبداً.

٤٢

بعد ثلاث سنوات

تسللت أشعة شمس الأصيل عبر نوافذ مقهى فلوريو المفتوحة الكبيرة. وتدفّقت ألحان موسيقى «حلاق إشبيليا» من الصندوق الموسيقي القديم، تصحبها هسهسة آلة صنع قهوة الإسبرسو والبخار يتصاعد من الحليب للكابوتشينو.

جلست بام وفيليب وتوني إلى نفس المنضدة إلى جانب النافذة التي يجلسون إليها عادة عندما يلتقون لاحتساء قهوتهم الأسبوعية منذ أن مات جوليوس. وقد انضم إليهم الأعضاء الآخرون أثناء لقاءاتهم في السنة الأولى، وفي السنتين الماضيتين، لم يعد يلتقي إلّا ثلاثتهم فقط. أوقف فيليب حديثهم ليُسمعهم لحناً وراحوا يدندنون معه «*Una voce poco fa*» أحد الألحان الأثيرة لديه. وعندما استأنفوا حديثهم أراهم توني الشهادة التي حصل عليها من برنامج كليّة التعليم المتوسط. وقال فيليب إنه يلعب الشطرنج مرتين مساء في الأسبوع في نادي شطرنج سان فرانسيسكو، المرة الأولى التي يلعب فيها مع منافسين وجهاً لوجه منذ وفاة أبيه. وتحدّثت بام عن علاقتها الناضجة والرقيقة مع صديقها الجديد، الأستاذ الباحث المختص بالشاعر ميلتون، وكذلك عن حضورها يوم الأحد الصلوات البوذية في غرين غلتش في مارين.

نظرت إلى ساعتها، وقالت: «والآن، حان موعد العرض لكما»، تفحصتهما ثم قالت: «أنتما رجلان وسيمان. كلاكما يبدو عظيماً، لكن، فيليب، هذه السترة»، وهزّت رأسها، «يجب ألّا تلبسها مرة أخرى، إنها غير مناسبة. لقد انتهى عهد هذا القماش المخملي، لقد مات منذ عشرين سنة، وهذه الرقع أيضاً. سنذهب إلى السوق الأسبوع المقبل». نظرت إلى وجهيهما. «ستكون عظيماً. إذا شعرت بالتوتر يا فيليب فتذكّر الكراسي. تذكّر أن جوليوس كان يحبّكما. وأنا أيضاً». وطبعت قبلة على جبين كلّ منهما، وتركت ورقة من فئة عشرين دولاراً على الطاولة، وقالت: «إنه يوم خاص، مفاجأتي»، وغادرت.

بعد ساعة، دخل سبعة أعضاء إلى مكتب فيليب لحضور أول جلسة علاج جماعي وجلسوا بحذر على كراسي جوليوس. بكى فيليب مرّتين كرجل بالغ؛ مرة في أثناء تلك الجلسة الأخيرة لمجموعة علاج جوليوس، والثانية عندما عرف أن جوليوس ورّثه هذه الكراسي التسعة.

«إذاً»، بدأ فيليب، «أهلاً بكم في مجموعتنا. حاولنا أن نطلعكم على إجراءات المجموعة خلال جلسة الاختيار لكلّ واحد منكم. الآن حان الوقت لنبدأ».

«هذا كل شيء. هكذا؟ لا توجد تعليمات أخرى؟» قال جايسون، رجل متوسط العمر، ذو شعر قصير مجعد يرتدي تي ـ شيرت أسود ضيّقاً رسمت عليه ماركة نايكي.

«أتذكّر كيف كنت خائفاً في جلسة العلاج الجماعي الأولى»، قال توني، الذي انحنى إلى الأمام في مقعده. كان متأنقاً في ثيابه، يرتدي قميصاً أبيض بكمين قصيرين، وبنطلوناً خاكياً، وحذاء بنياً من دون كعب.

«أنا لم أقل شيئاً عن أنني خائف»، أجاب جايسون، «كنت أشير إلى انعدام التوجيه فقط».

«حسناً، ما الذي يساعدك لكي تبدأ؟» سأله توني.

«المعلومات. هي التي تجعل العالم يدور الآن. من المفترض أن تكون مجموعة استشارة فلسفية، هل كلاكما فيلسوف؟».

«أنا فيلسوف»، قال فيليب، «أحمل شهادة دكتوراه من جامعة كولومبيا، وتوني، مساعدي، طالب معالج».

«طالب؟ لا أفهم ذلك. كيف ستعملان أنتما الاثنان هنا؟» ردّ جايسون.

«حسناً»، أجاب توني، «سيطرح فيليب أفكاراً مساعدة من معرفته بالفلسفة، وأنا، حسناً، أنا هنا لأتعلّم وأساهم بقدر ما أستطيع. أنا أكثر من خبير في تيسير الأمور العاطفية. صحيح يا شريكي؟».

هزّ فيليب رأسه.

«تيسير الأمور العاطفية؟ هل لي أن أعرف ماذا يعني ذلك؟» سأل جايسون.

«جايسون»، قاطعه عضو آخر، «اسمي مارشا، وأريد أن أشير إلى أن هذه خامس مرة تعترض في الدقائق الخمس الأولى في جلستنا».

«و؟».

«وأنت من ذلك النوع من الذكر الاستعراضي وعندي مشاكل كثيرة معك».

«وأنت من نوع الآنسة بريسي التي تسبب لي ألماً شديداً في مؤخرتي».

«انتظرا، انتظرا، لنتوقف للحظة»، قال توني، «واحصلا على بعض المعلومات حول الدقائق الخمس الأولى من الأعضاء الآخرين هنا. أولاً، أريد أن أقول لك شيئاً يا جايسون، ولك يا مارشا، شيئاً تعلمته أنا

وفيليب من جوليوس، معلّمنا. الآن، أنا متأكّد من أنكما تشعران بأن هذه بداية عاصفة، بداية قوية جداً، لكن لديّ شعور، شعور قوي جداً، بأنه في نهاية هذه المجموعة، سيثبت كلّ منكما أنه شخص ثمين جداً تجاه الآخر. صحيح يا فيليب؟».

«أنت محقّ يا شريكي».